

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

أعمال يوحنا ومانويل كومينوس

تأليف

يوحنا كينا موس

مع ماوردلدي

أوتو أسقف فريزنغ عن الحروب الصليبية

دمشق

١٩٩٧ / ١٤١٨

الجزء الثامن والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

تبين لي أثناء عملي في المجلدات المتقدمة أنه على الرغم من الأهمية العظمى لمعركة حطين، ان اخفاق الحملة الثالثة، شكل الحدث الفاصل بالنسبة لجميع وقائع الحروب الصليبية، لأن الذي توفر لهذه الحملة لم يتوفر لسواها، لذلك سعيْتُ نحو الحصول على كل ماكتب عنها في الأصول، لاسيما غير العربية، ولم يكن هذا بالأمر الهين، وكان كل الذي توفر لي آنذاك حولها هو ذيل تاريخ وليم الصوري.

وقمت في شتاء العام الماضي برحلة بحث علمي أخذتني إلى عدد من المكتبات العالمية والعربية فحصلتُ من لندن على عدد من الأصول ومن مكتبة الكونغرس على خمسة أصول نادرة كنتُ بأمرس الحاجة إليها، وهكذا توفر لدي ماكنت بحاجة إليه من مصادر غربية وعربية، منها مواد هذا المجلد الذي أقدم له، وتعلق جلّها بالحملة الثانية، ومواد نشرية وشعرية عملاقة تعلقت بالحملة الثالثة، ثم مواد أخرى عن بقية الحملات.

وقمتُ وأنا أتولى إعداد الفهارس للمجلدات التي طبعت وكان عددها خمس وعشرون والتي دعيتها باسم الحلقة الأولى من الموسوعة، بإعداد هذا المجلد، الذي يشكل الجزء الأول من الحلقة الثانية.

وقوام خطتي الآن أن أقدم أولاً الأصول الأوربية حتى نهاية الحملة

السابعة المخفقة، ثم ساعقب ذلك بتقديم أعمال الرحالة الذين جاءوا من أوروبا أثناء الحروب الصليبية، وسيأتي إثر هذا كل من كتابي: «الأسرار» و«استرداد الأراضي المقدسة» اللذان كتبنا بعد تحرير عكا وانتهاء الوجود الفرنجي في بلاد الشام.

وبعد الفراغ من هذا العمل سألتفت نحو المصادر العربية وكلها جديد وهام وغني لاسيما مواد البدر العيني في «عقد الجمان» التي جاءت في عدة آلاف من الصفحات، هذا وسألحق الموسوعة بعدد من الأجزاء حول تاريخ المغول والعلاقات المغولية الصليبية، وفي الحقيقة إن مجلد العلاقات جاهز للطباعة.

ويحوي المجلد الحالي كتاب «أعمال جون ومانويل كومينوس» الذي ألفه يوحنا كيناموس، وتكمل مواد هذا الكتاب مواد كتاب الألكسياد لآناكومينا، ولقد تمّ التعريف بالمؤلف وبعمله في المدخل المقبل، وبالإضافة إلى كتاب كيناموس انتزعت ما أورده أوتو أسقف فريزنغ عن الحروب الصليبية في كتابه: «المدينتان» و«أعمال فردريك بربروسا».

ويعدّ أوتو أسقف فريزنغ أعظم المؤرخين الألمان في العصور الوسطى، ثم إنه يتمتع بمكانة قومية ووطنية لدى الألمان، وقد كان عضواً في واحدة من أعظم الأسر الاقطاعية الحاكمة في ألمانيا، فأسرته هي أسرة بابنبرغ Babenberg ، ووالده هو مارغريف ليولد الثالث صاحب النمسا، وكان واحداً من المرشحين لعرش الامبراطورية الغربية أثناء الانتخابات الملكية لعام ١١٢٥، وأمه هي أغنس ابنة الامبراطور هنري الرابع، وكان زوجها الأول هو فردريك هوهنزتوفن Hohenstaufen دوق سوابيا، وعلى هذا كان أوتو أخاً من جهة الأم لكونراد الثالث وعماً لفردريك بربروسا نفسه، وبذلك كان مؤهلاً ليؤرخ لأيامه وللمرحلة المبكرة من حياة بربروسا.

فلقد ولد أوتو في حوالي سنة ١١١٠، وتوفي عام ١١٥٨، أي قبل سنين طوال من وفاة فردريك بربروسا، وغرقه الأمر الذي مرت أخباره معنا من قبل أثناء التأريخ للحملة الثالثة.

والتحق أوتو منذ سنواته الأولى بالسلك الكهنوتي، وقاده هذا إلى الدراسة في باريس حيث أمضى عدة سنوات هناك، التقى خلالها بكبار علماء عصره ورجال اللاهوت، كما أنه نال بعض الثقافة الفلسفية، ويرجح أنه كان في باريس سنة ١١٢٧ أو ١١٢٨، وقد غادرها سنة ١١٣٣، وتوقف في طريقه في شامبين حيث دخل في سلك كهنة أخوانية دير سيستيرشيان Cistercian، وصار فيما بعد راعياً لهذا الدير، لكن تظل أهم مرحلة في حياته الكهنوتية، حينما أصبح في سنة ١١٣٧ ومن خلال نفوذ أسرته أسقفاً لمدينة فريزنغ، وظلّ يشغل هذا المنصب حتى وفاته التي حدثت سنة ١١٥٨ كما أسلفنا أعلاه.

ونبعت شهرة أوتو في ميدان كتابة التاريخ من خلال كتابه «المدينتان»، وهو كتاب أراد أن يؤرخ به للعالم حتى سنة ١١٤٦، وقد جعله في ثمانية أقسام [كتب] وتأثر بكتابه بمثل القديس أوغسطين وكتابه «مدينة الرب»، ومدينة الرب لدى أوغسطين هي روما التي كانت قبل المسيحية مدينة الشيطان، ثم غدت مدينة الرب يحكمها «نائب الرب على الأرض، بابا الكنيسة الكاثوليكية»، وظهرت في حقبة الحروب الصليبية مدينة أخرى هي مدينة القدس السماوية، يضاف إلى هذا أن روما غدت مدينة الرب من خلال الصراع الأبدي بين الخير والشر، فعلى فكرة الصراع هذه دارت فلسفة أوتو التاريخية في كتابه، وهذا هو الذي منحه شهرته في ميدان الفلسفة التاريخية، ومكانته القيادية في هذا الميدان خلال العصور الوسطى الأوروبية ولأن كتابه عن حياة فردريك وأعماله يدخل في فن السيرة والتراجم فقد انعدمت في ثناياه فلسفة الصراع هذه، وجاء بالتالي كتاباً خلواً من المرارة وروح التراجيديا، وأوتو في كتابه

عن فردريك مؤرخ عادي، وليس فيلسوفاً محلقاً حسبما شهدناه من قبل، فهو على هذا يشكل انتكاسة في حياته الفكرية.

ونظراً لوفاة أوتو قبل فردريك، هو على هذا لم يؤرخ لحياته كلها، ومع أنه جرت محاولات لإكمال عمله والتذييل عليه، الهام بالنسبة لنا من كتابيه ماجاء حول الحروب الصليبية، حيث يبدو أن أوتو كان مع كونراد الثالث أثناء الحملة الثانية وترك اخفاق هذه الحملة في نفسه مرارة قاسية جعلته يقلع عن الحديث عن تفاصيلها لاسيما حصارها لدمشق، ثم عن أسباب هذا الاخفاق.

ويوجد في كتابه «المدينتان» مادة مفيدة عن الحملة الصليبية الأولى تعلقت بتفصيل مذكره وليم رئيس أساقفة صور، عن قدوم وفد أرسلته الخلافة الفاطمية للتفاوض، أو بالحري للتحالف مع الفرنجة أثناء حصارهم لأنطاكية، وكانت أهداف هذا التحالف موجهة ضد السلاجقة، ويضيف أوتو خبراً فيه أن وفداً من الفرنجة ذهب إلى القاهرة، ويومي إلى أن من نتائج المباحثات مع هذا الوفد هناك كان تجهيز حملة فاطمية ضد القدس، احتلت المدينة وطردت منها الأراقة التركمان، ولاشك أن رجالات الوفد الفرنجي عرفوا أثناء رحلتهم في الذهاب والإياب طرق وأوضاع بلاد الشام، ومصر مع صورة وافية لأوضاع القدس ودفاعاتها، علماً بأن هذه المدينة — كما رأينا — ستسقط بعد أمد وجيز للحملة الأولى، التي تولى رجالها ذبح جميع سكانها.

واليوم وأنا أكتب هذه التوطئة أجدد الشكر للقائد العربي الكبير الرئيس حافظ الأسد، الذي رعى هذا المشروع منذ البداية ووجه محموداً بمتابعة العمل فيه ومن ثم طباعته ونشره.

هناك تشابه كبير بين أوضاع الأمة العربية الآن وأيام الحروب الصليبية، فحين تخاذل من تخاذل وكاع من كاع، وقف ساعة المحنة نور الدين في

دمشق، فكان بارقة الأمل التي مهدت السبل لبزوغ شمس التحرير يوم حطين، وفي يومنا هذا يقف الرئيس الأسد وحده متصدياً للهجمة الشرسة للاستعمار الأمريكي الصهيوني، ويسعى بدون كلل وبعقرية عملاقة لجمع شمل العرب والمسلمين.

إن رجال الفكر في الوطن العربي مع موقف الرئيس الأسد، وكذلك الأحرار في جميع العالم، والعرب والمسلمون الواقفون في ظل رايته لا يابهون بمواقف الذين غلبتهم شهوة الحكم وحرفهم شبق السلطة، إنهم يقرأون وهم معه قوله تعالى:

﴿قل يا أيها الكافرون. لأعبد ما تعبدون. ولأنتم عابدون ما أعبد. ولأنا عابد ما عبدتم. ولأنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين﴾.

التحرير مقبل لا محالة وسيزول العدوان الصهيوني كما زال العدوان الصليبي طال الزمن أم قصر، فالله تعالى وعد هذه الأمة ووعد رسالتها بالحفظ بقوله جلّ وعلا:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

من الله أستمّد العون، وأنشد السداد والتوفيق، وله جلّ شأنه الحمد والشكر والصلاة والسلام على سيد البشر النبي المصطفى وعلى آله وصحبه وكل من اتخذه مثلاً أعلى له.

سهيل زكار

دمشق ١٠ / ربيع الثاني ١٤١٨

١٤ / آب ١٩٩٧

مدخل

تمتع تطور تاريخ الامبراطورية البيزنطية، التي كانت بالنسبة لسكانها امبراطورية رومانية مسيحية، بسلسلة من المؤرخين البارزين، ولقي عصر آل كومنين وآل أنجيلوس ١٠٨١-١٢٠٤ اهتمام ثلاثة من المعاصرين تغطي كتاباتهم المدة بطولها، فبعد موت ألكسيوس الأول (١٠٨١-١١١٨) بأمد كتبت ابنته أنا ملحمة حياته، بكتاب حمل عنوان الألكسياد، بنغمة فيها حرارة وعاطفة قوية تجاه أبيها، وصحيح أنها ركزت الأضواء على انجازات أبيها العسكرية، فقد غطت خلال ذلك جوانب هامة من تقاليد وتفكير الامبراطورية البيزنطية وسلوكها، وقام يوحنا كيناموس بمتابعة التأريخ لبيزنطة من حيث توقفت أنا، فقد خطط لكتابة تاريخ عن حكم جون الثاني [١١١٨-١١٤٣] ومانويل الأول [١١٤٣-١١٨٠]، لكن النص الذي وصلنا يتوقف مع أحداث سنة ١١٧٦، وكتاب كيناموس هو أيضاً كتاب اطراء وتمجيد للامبراطورين، لاسيما لمانويل، ومثل كيناموس بدأ نكتياس كونياتس روايته منذ وصول جون الثاني إلى الحكم حتى سنة ١٢٠٤ عندما استولى الفرنجة الغربيون على القسطنطينية، ثم أضاف بعض الأخبار حول بعض ماتلا ذلك من أحداث حيث توقف مع سنة ١٢٠٦، وكتابه كتاب ازدراء متصنع للأباطرة الذين عاش في ظلهم، حيث استهدف تحديد الملامة عن مسؤولية سقوط القسطنطينية وانهيار الامبراطورية سنة ١٢٠٤، وكان بحكم كونه مؤرخاً، وشخصيته رئيسية متأماً لما حدث، ومرعوباً من وقع مأساة أيامه، ولذلك كتب بقلم حاد مقيت يشبه أسلوب توسيدس، وكتابه الطويل، الذي يستحق عناية أفضل متوفر في ترجمة ألمانية (١).

لماذا على هذا نقوم بترجمة كيناموس، الذي هو الأدنى مكانة وأهمية بين الثلاثة؟ لأننا بدوننا ستكون معلوماتنا عن التاريخ البيزنطي وعن العقلية البيزنطية هي الأفقر، فبالنسبة للسنوات من ١١١٨ حتى ١١٧٦ يغطي هو ونكيتاس كونيائس الأرضية نفسها، لكن وفق طريقتين مختلفتين كلياً، وهذا واضح وحقيقي بالنسبة لحكم مانويل، الذي وصفه كيناموس بشكل مطول بينما عرضه نكيتاس باختصار، غير أن نكيتاس كشف في كثير من الأحيان أموراً جرت تغطيتها من قبل كيناموس، لذلك لا يمكن قراءة أحدهما دون الآخر.

زد على ماتقدم كان كل من أنا كومينا ونكيتاس شخصين متميزين بثقافتهما التي تفوقت على ثقافة معظم معاصريهما، وكان بالمقابل كيناموس متعلماً بيزنطياً عادياً، فهو قد قرأ بشكل مفيد الكلاسيكيات، وكان متقبلاً بلا جدال للأشكال العامة للعقائد المسيحية، وكانت عقيدته وديانته هي ديانة الامبراطورية والامبراطور: الامبراطورية كمركبة لتوحيد بني البشر، والامبراطور كقائد مختار لأجل شعبه، وجعلت هذه المفاهيم التي شاركه فيها غالبية الناس من عمله عرضاً رئيسياً للبساطة، والفهم المباشر لطبيعة التاريخ وأهدافه حسبها رعاها وتصورها الكتاب البيزنطيون.

وولد كيناموس حسبما ذكر مراراً بعد وفاة الامبراطور جون الثاني في نيسان ١١٤٣، لكن كما يبدو ليس بعد هذا التاريخ بوقت طويل (٢)، وفي الوقت الذي لانعرف فيه شيئاً عن أسرته، غير:

كان باسيل كيناموس أسقفاً لبافوس في قبرص عام ١١٦٥ وبعد ذلك (٣)، ويبدو أنه تدرب منذ صغره على أساليب البلاغة، مما يعكس تأثير ونفوذ نقفور باسيكلس عليه، وكان هذا من الخطباء المشهورين، وربما كان أستاذه (٤)، ويؤكد عنوان تاريخ كيناموس أنه كان من

العاملين في البلاط الامبراطوري (٥)، وبذلك كان واحداً من مجموعة كبيرة من الكتاب الذين ارتبطوا بالبلاط الامبراطوري وبشخص الامبراطور، واستخدم هؤلاء أحياناً في مهام دبلوماسية أو أرسلوا لمرافقة بعض الجيوش (٦)، ويبدو أن بعض العاملين من هؤلاء، مثل نكيتاس كونيائس، قد ميزوا أنفسهم، وتمكنوا من الارتقاء إلى مراكز عالية في الادارة الاقليمية أو المركزية، لكن يبدو أن كيناموس لم يفعل ذلك، وقد ذكر أنه دخل في خدمة مانويل منذ أن كان صبياً: «حتى قبل أن أصبح يافعاً، رافقت عدداً من حملاته في كل من القارتين» (٧)، ونستخلص من اهتماماته العسكرية ومن القليل الذي نعرفه عن حياته، أنه قضى معظم عمره خلال حقبة حكم مانويل مع الجند (٨)، ومن المحتمل أنه شارك في الحملة الايطالية لعامي ١١٥٥-١١٥٦، فوصفه لها فيه حيوية، وتحديداته الجغرافية دقيقة تماماً، مع أنه كان آنذاك — كما يبدو — لم يتجاوز الاثنتي عشر سنة (٩)، ومثل هذا لدى حكايته أخبار السفارة التي أرسلت إلى روما عام ١١٥٧، فهنا قدم لنا بشكل مفاجيء معلومات لا مثيل لها عن سياسات مدينة روما، وعن ممارسة البابوية لأعمال الحرمان (الذي كان غير معروف في الكنيسة الشرقية) وأيضاً عن سياسة الرسل البيزنطيين، فلو لم يكن حاضراً، لما امتلك مثل هذه المعلومات الهامة، وقد غدا أخيراً قريباً من الامبراطور إلى حد أنه — كما قال — تناقش معه حول قضايا من فلسفة أرسطو (١٠).

وكانت المناسبة الأولى التي ذكر أنه كان شاهد عيان فيها هي في عام ١١٦٥ لدى حصار مانويل لزيغمون (زيمون الحالية) في يوغوسلافيا (١١)، ولدى جمعنا ما بين نصين منقولين عنه نتوصل إلى أن كيناموس كان حاضراً سنة ١١٧٦ معركة ميريوكيفالون - My-iriokphalon المأساوية، فقد حكى النص الأول شكوك كيناموس بشأن اقدام مانويل في المعركة:

«حتى وصلت حقائق الأمر إلى ادراكي، لأنه صدف أن كنت وسط العدو مطوقاً من قبله، أراقب عن قرب مقاومة الامبراطور لفرقة تركية كاملة، لكن التاريخ سيصف هذا في الوقت المناسب» (١٢)، ثم قال فيها بعد: «لأنه بعد كثير من السنين أصبح قلج أرسلان لايعبأ بارتباطاته نحو الامبراطور، وقد جعل هذا الرومان يقاتلون الترك بكامل القوات، وصدف أن وقع الجيش في منطقة صعبة، وفقد كثيراً من الأعيان، واقترب من المعاناة من مأساة عظيمة، لولا أن الامبراطور شوهده هناك أنه تفوق في فن الحرب وتجاوز البراعة البشرية، لكن كما سلف وقلت: هذه الأمور ستتم حكايتها فيما بعد من قبلي» (١٣)، ومما لاشك فيه أن النص الأخير يومي إلى ميريوكيفالون، والإحالة فيه تشير فقط إلى النص المتقدم، الذي ورد قبل عدة صفحات، ويبدو أن كيناموس كان واحداً من حفنة الرجال الذين نجوا من المأساة، والمؤسف أن نص تاريخه كما وصلنا ينقطع عند بداية الحملة قبل تلك المعركة.

وكانت المحطة التالية في حياة كيناموس مرتبطة عن قرب بتصنيف تاريخه، فقد كتب بعد موت مانويل يقول: «لقد هلك مخلصاً الامبراطورية إلى ولد في سن المراهقة» وأشار فيما بعد إلى ولادة هذا الوريث، أعني ألكسيوس الثاني بعبارات مسامية محكمة، ووعد بتقديم وصف شامل له في اللحظة المناسبة (١٤)، وقدم رواية فيها اطراء زائد عن العلاقات بين لويس السابع ومانويل أثناء الحملة الصليبية الثانية، وهي رواية تجاهلت عدداً كبيراً من نقاط الخلاف والصراع بين الحاكمين (١٥)، ومن الممكن فهم هذه المعاملة عندما يقيم المرء التقدير لحقيقة أن لويس كان حمو ألكسيوس الثاني، هذا ولم يول كيناموس أسرة أنجيلوس المدح بشكل منفرد، وفي الحقيقة وصف قسطنطين أنجيلوس جد الأباطرة المقبلين بعدم الكفاءة بسبب فقدانه أسطولاً أمام النورمان (١٦)، وتلقى أندرونيكوس كومينوس معاملة فيها بعض التناقض: فقد تولى وصف

كراهيته الشديدة لمانويل وخيانتته له بالتفصيل، لكن نجاته ببراعة من السجن نال اعجاب كيناموس، فهو لم يمدحه ولم يطريه وكأنه الامبراطور الحالي، ولم يشتمه على أنه طاغية ساقط، بل قدمه بمثابة منافس خطير للأسرة الحاكمة (١٧)، وتشير هذه التفاصيل جميعها إلى الحقبة فيما بين أيلول ١١٨٠ إلى نيسان ١١٨٢، وإلى وصاية ماري - اكسينا مع ألكسيوس كومينوس - البروتوسيباستوس - على الصبي ألكسيوس الثاني، وهي الحقبة التي صنف فيها كيناموس تاريخه، فوقتها كان ألكسيوس الثاني مازال حياً، وقد تلقت أمه تقديراً كبيراً، ثم عدّ أندرونيكوس عدواً خطيراً، ولم يكن نائباً للامبراطور أو امبراطوراً، فأسرة أنجيلوس لم تكن قد اعتلت العرش بعد (١٨).

لكن لماذا اختار كيناموس هذا الوقت للكتابة، هذا ما يمكن استخراجه من بعض التفاصيل في تاريخه، فلقد كان هو شخصياً شديد العداء لللاتين، ونادراً ماترك فرصة دون أن يهاجمهم، وهناك استثناء واحد هو ريموند أوف بواتيه ولويس السابع اللذان كانا الجد ثم الحمو لألكسيوس الثاني، ونال الألمان كونراد الثالث وفردريك بربروسا، والبنادقة والبابوية كل نصيبه من الشتائم، اللهم باستثناء بعض المناسبات عندما كان يصدف عملهم بالتوافق مع ارادة الامبراطور، حسب تعابير كيناموس، وكانت هيئة الوصاية على العرش، من جهة أخرى تؤثر اللاتين إلى أبعد الحدود، وموقف كيناموس العدواني من هؤلاء يومي بأنه أرغم على الانسحاب من الخدمة العامة، وهذا الافتراض يعلل اشارته في مطلع كتابه إلى متعته وراجته لكتابة التاريخ حيث قال:

«الفرصة المناسبة حالياً» (١٩)، ويعلل هذا أيضاً عدم تمكنه من الوصول إلى الوثائق الرسمية (أو على الأقل عدم تمكنه من استخدامها) أثناء كتابته (٢٠)، ثم حين حاول كيناموس اطراء الأسرة الحاكمة، كان

يسعى لاستعادة الخطوة الامبراطورية ونيل مكان في الحكومة.

وأخر مرة نلمح فيها كيناموس تؤكد هذا الرأي فيما يتعلق بتاريخ تصنيف الكتاب، فقد رآه نكيتاس كونيئاتس في ربيع ١١٨٤ يتناقش باللاهوت مع يوثيميوس مالاكس مطران نيا—باتري Neai-Patrai في خيمة الامبراطور في لوباديون، وكان وقتها أندرونيكوس كومينوس هو الامبراطور، وقد هدّد المتجادلين برميها بالنهر إذا لم يتوقفا (٢١)، ويفيد هذا أن كيناموس قد استرجع مكانه في الادارة، وكسب ثقة الامبراطور، ورافقه في حملته ضد الثوار في بيثينيا، وكان يتردد على الخيمة الامبراطورية، ويبدو أن مواقفه العدوانية ضد اللاتين وطرده من قبل الوصاة على العرش قد ساعده ليتم تقبله من قبل مغتصب العرش.

ومعرفتنا عن نهاية مصيره بعض الشيء أكثر وضوحاً، فقد عاش حتى سقوط أندرونيكوس (أيلول ١١٨٥)، وقد ألقى خطاباً—هو مفقود الآن—أمام واحد من أباطرة الأنجيلوسيين (٢٢)، ومع هذا يبدو أن الحاكم أرغمه الآن على التقاعد أو العيش في أحد الأديرة.

ومصادر كيناموس بعيدة عن الوضوح، فهو لم ينقل ولا وثيقة امبراطورية، مع أنه كان يعرف محتوى بعض هذه الوثائق، كما أنه لم يدون أخبار ومناقشات أياً من المجامع اللاهوتية (٢٣)، وذكر نكيتاس، الذي عالج الحقبة نفسها، أنه استعان بروايات شفوية استقاها من بعض الذين كانوا أحياء، وشاركوا في حروب الامبراطور، ولقد أشار كيناموس إلى مصاعب الكتابة حول تلك الحقبة، لذلك عزم أن يقدم عرضاً عاماً فقط «بشكل مختصر وكأنه موجز، لأنني كما ذكرت، لم أكن موجوداً في تلك الأوقات» (٢٤).

وقال في مكان آخر، فيما يتعلق باحتلال جون لكليكية: «لكن أن ندون هذه القضايا بالتفصيل، فأمر يتجاوز—كما أعتقد—مهمتنا

الحالية، فلقد كانت غايتي هي الحديث حول الأحداث التي نحن بصددتها باختصار، لأنني لم أكن شاهد عيان لهم، كما أنني لم أتسلم رواية موثوقة حولهم» (٢٥)، ومن المؤكد أنه استقى مواده الأساسية من مصادر شفوية حصل عليها من بعض الأفراد، لكن يبدو أنه من سنة ١١٥٥ فصاعداً قد اعتمد على ملاحظاته، ثم إنه من الممكن أحياناً تعقب مصدره من ذلك مثلاً: كان جون كومينوس البروتوفستيارويس والبروتوسيپاستوز منذ زمن مصدره فيما يتعلق بمؤامرات أندرونيكوس ضد الامبراطور في بيلاغونيا (حوالي سنة ١١٥٤) (٢٦)، وربما أعطاه جون كانتاكوزينوس روايته حول الصراع مع الصرب والهنغار على درينا وتارا، وكان جون دوقاس مصدره عن الحملة الايطالية (إن لم يكن كيناموس نفسه قد شارك فيها)، ومايكل براناس عن الحملة لاسترداد سيرميون (٢٧).

وذكرت أناكومينا انها استطاعت أن تدوّن أخبارها ببساطة عظيمة وبدون تصنع اعتماداً على واحد كان من عساكر والدها، كان قد تقاعد فيما بعد في أحد الأديرة (٢٨)، ويمكن للمرء أن يغرى بالتفكير بوجود روايات مشابهة أقحمت داخل كتاب كيناموس، وسيكون على رأس الاحتمالات رواية حول هجوم مانويل في ١١٤٦ على قونية، والنتيجة المأساوية والتراجع (٢٩)، فهذه أول رواية طويلة متواصلة حواها كتاب كيناموس، والمعلومات الجغرافية هنا صحيحة بشكل مدهش، تساعد على إعادة بناء تفاصيل معظم الطريق، وما من شخص هنا واضح أنه «البطل» (وربما المطلع) غير الامبراطور، هذا من جانب ومن جانب آخر كان سوء قيادة الجيش البيزنطي أثناء التراجع قاسياً (وهو بالنسبة لكيناموس قريب بشكل فريد) ومجرداً، وتوحي هذه المزايا أن الرواية اعتمدت على واحد من ضباط الجيش المحترفين، ممن كانت رتبته دون رتب الأرستقراطية، وربما جاءت روايته عن الحملة الصليبية الثانية من

المصدر نفسه أو من مصدر مشابه (٣٠).

ومع هذا لقد جمع كيناموس الكتلة العظمى من مادة تاريخه مما رآه ولاحظه ومن روايات شهود عيان.

وكان كيناموس مثل غيره من المثقفين العلمانيين البيزنطيين قد عرف واستفاد من كتابات الكتّاب الكلاسيكيين الاغريق، فقد أشار في مطلع كتابه إلى ما كتبه اكرنفون عن تربية قورش، وأناباسيس، وربما إلى هيرودوت، زد على هذا هناك ايماءات استغلها هذا الكاتب واستفاد منها (٣١)، ففي إحدى النقاط نشعر بوجود أصداء لتوسيدس وذلك في قوله: «لقد انتهت السنة بعدما أحدثت هذا التغيير» (٣٢)، ويبدو أن بروكوبيوس قد زوده بنمطه الأدبي، وعنه نقل رواية حول رومولوس أغطستولوس، وأودوفاكار، وثيرودورك (٣٣)، ومن الممكن أن نتلمس بشيء من الضبابية آثار بعض الكتّاب الآخرين مثل بلوتارخ أو أريان، ولييانوس (٣٤) خلف صفحاته، وعلى كل حال لا يمكن مقارنة كيناموس مع أناكوميثا بالنسبة لسعته الثقافية والقراءة لكتابات الكتّاب القدماء، ولا حتى بنكيتاس، ذلك أن هذا تمثل كتاباتهم واستطاع بعد ذلك صنع أسلوب خاص به.

وبشكل عام ومقارنة له ببقية الكتّاب البيزنطيين الذين كتبوا بالتاريخ نلاحظ أنه بذل جهده لتغليف مواده وتمويهها بثوب قديم، وهكذا كان كلما استطاع يعطي شعوب العصور الوسطى أسماء قديمة، فلقد أطلق على جميع شعوب الدول الإسلامية في المشرق «الفرس»، وعلى القبائل المنتشرة من شمال البحر الأسود اسم «السكيثيين»، أما الهنغار فكانوا إما «بانونيين» (من هيرودوت) أو «هون» (من برسكوس وبروكوبيوس) ومزج بعض الأسماء فدعا الفرنسيين باسم «الجيرمان» والجيرمان باسم «ألمانيو» (٣٥)، وكان البيزنطيون عنده دوماً «رومان» اللهم إلا في بعض

المناسبات النادرة، عند الإشارة إلى سكان العاصمة، ويعكس هذا الاستخدام أصالة الشعور القوي بالهوية الرومانية التي آمن بها الشعب البيزنطي، فهم حتى بالاغريقية الشفوية «رومانيو».

وأخيراً استعار من توسيدس اختراع «الكلام الزائف» و«الرسالة المصطنعة»، فما من واحدة من الرسائل التي نقلها كيناموس يمكن عدّها أكثر من مجرد تركيب صنعه هو، وتختلف الوثائق الأصيلة التي وصلتنا (خاصة المراسلات فيما بين البيزنطيين والحكام الألمان) بمحتواها عما ادعاه كيناموس ورواه (٣٦)، والأفكار التي وردت لدى توسيدس وتصورها بمثابة مقدمات لتأتي في بداية مناقشات بعض الفرقاء قد انحدرت لدى كيناموس وتشوهت إلى عبارات مثل: «بضع كلمات مناسبة» و«تمارين طفل مدرسة ومسرح خطابات»، وأكثر الكلام احكاماً بالصنعة ذلك الذي وضع في فم جون الثاني وهو على فراش الموت، وهو الأكثر زيفاً، علماً بأن كيناموس كان في هذا المقام ضحية مؤامرة استهدفت اخفاء الحقائق المتعلقة بوفاة جون (٣٧)، هذا وينبغي ألا يغيب عنا أن مثل هذه الخطابات والرسائل المصطنعة غالباً ما جرى استخدامها لتغطية عملية انسحاب بيزنطية أو هزيمة (٣٨).

وبعيداً عن الخطابات والرسائل جاء أسلوب كيناموس على العموم أسلوباً واضحاً ومباشراً، وهذا هام بالنسبة لكاتب بيزنطي، ونادراً ما جاءت تراكييه متداخلة، وجمله بالعادة جمل قصيرة، ومفرداته ليست غير اعتيادية خالية من التشويق، وهذه السمات التي تجعله مقبولاً بالنسبة للقارئ المعاصر، قد نظر إليها على أنها علامات تدل على نقص الثقافة من قبل أبناء جلدته من الكتّاب البيزنطيين، فاستخدام الأساليب المحكمة والمعقدة مع القدر الأكبر من الكلمات الكلاسيكية هو السمة التي تميزها الكتّاب الأعلى ثقافة من معاصري كيناموس مثل نكتاس كونيّاتس ويوتاثيوس السالونيكى، ونتيجة لهذا وجدنا أن روايته ما ان

وصلت حكم مانويل حتى تدفقت بسرعة لكن بنعومة غالبة، وكان قادراً على تقديم بعض المشاهد المشرقة والحية، من ذلك مثلاً: التراجع البيزنطي من قونية، والمعركة مع رتشارد أوف أندريا، والساحرة العجوز أثناء حصار زيمون (٣٩)، ولقد وصف براءة أندرونيكوس كومينوس، على أنه كان رجلاً صاحب قدرات عظيمة، وقد دُمّر بطموحه غير المستقر، وكراهيته الموروثة لمانويل، وشروبه الشخصية التي لا يمكن التخلص منها (٤٠).

وبالنسبة للقارئ المعاصر تشوه أسلوبه بمبالغته في مدح مانويل كومينوس ويدلل حديثه عن كل سمة من سمات مانويل مثل: شجاعته واقدامه في الحرب، وعبقريته في تصور وإدراك الأوضاع الاستراتيجية للأعداء، وفروسيته، وبراعته في ميدان الطب، وثقافته العالية، ان هذا كله دفع كيناموس إلى إعجاب هائل به، وحماس منقطع النظير نحوه، وليس لما ادعاه من أنه كان يقوم فقط برواية أشياء رآها بنفسه أو رويت موثوقة له جاذبية، ومع أنه لاشك هناك بعض الحقيقة قائمة وراء رواياته عن انجازات مانويل — شابه الامبراطور الفرسان الغربيين في سعيهم نحو المبارزات الفردية وازهار براعتهم واقدامهم — إن الحقائق التي ليست لصالح مانويل هي الطاغية، لاسيما وأن نتائج مؤامرات البلاط، وأخبار الدسائس والاثامات، لم تتم روايتها قط بطريقة معادية لمانويل، فعلى سبيل المثال وتبعاً لنكيتاس إن التهم حول محاولة اغتصاب العرش التي أثرت ضد ألكسيوس اكسوكوس كانت كلها زائفة (٤١)، وعلى هذا إن تاريخ نكيتاس كونياتس وسيلة ثمينة لتصحيح روايات كيناموس.

ولم يشكل كيناموس، على كل حال، في أعمال اطرائه ومدحيه، حالة استثنائية، فقد كان بكل بساطة يعمل في نطاق تقاليد مقبولة بالنسبة لأدب التاريخ والبلاط، ولا بأس هنا بعرض بعض الأمثلة القليلة من كتابات سلفه المباشرين، فقد ختم ميخائيل بزللوس تاريخه المشهور

بمديح طويل لميخائيل السابع دوقاس، ووجه ميخائيل أتالياثس تاريخه وأهداه إلى نقفور الثالث بوتانياثس، لابل حتى أقحم فيه رواية ناشزة حول الاستيلاء على كريت من قبل بوتانياثس الذي زعم أنه جد لنقفور الثاني فوقاس، ولقد كتب كل من نقفور برينوس وأناكومينا لتمجيد ألكسيوس الأول (٤٢)، فلقد كانت خطابات المعلمين وأعمال الاطراء للحاكم المتسلط، جزءاً من الرسوم الاحتفالية للبلاط البيزنطي، ولقد كان جميع الأشخاص ذوي الثقافة العالية قادرين على كتابتهم، ولم يكن هناك من حاجة لا إلى الاخلاص ولا إلى الصدق في انشاء هذه الخطابات، ونكتياس المعاصر كان في خطابه معاكساً تماماً وبشدة لما ضمنه في تاريخه الذي صنّفه فيما بعد (٤٣)، وبالنسبة لكيناموس لم تكن مقاطع المديح هامة فقط بل أساسية لمقاصد كتابه، وذلك بسبب أمله باستعادة الخطوة ونيل وظيفة، وكانت اعلاناته المتكررة عن ايجابيته هي مجرد كلام للزينة ووسائل رخيصة (٤٤).

وتاريخ كيناموس بعيد عن الكمال، ولقد اتبع بالعادة خطأ زمنياً متتابعاً بشكل معقول، ونجم عن هذا في بعض الحالات تغييرات سريعة في المشاهد الجغرافية، واقحام مواد لاعلاقة لها بالموضوع أو شطائر من التاريخ اللاهوتي، وقادته في بعض الأحيان ضرورة تقديم خلفية، والميل لمتابعة التعايش مع بعض الأفكار، إلى تبدلات وتلونات لانهاية لها، ففي إحدى المرات، وبمناسبة حديثه عن ابرام معاهدة مع هنغاريا (١١٥٣) أشار كيناموس ضمن أربع جمل أو خمس، إلى حرب أثرت (١١٥٤-١١٥٥) بسبب أعمال أندرونيكوس التآمرية، وإلى ارسال أندرونيكوس «في ذلك الحين» (١١٥٢) إلى كليكية لإخماد ثورة طوروس، ثم إلى هرب الأخير من القسطنطينية (حوالي ١١٥٤)، والنشاطات التالية في كليكية، وكان أندرونيكوس — على كل حال — قد اصطحب معه القيصر جون روجر، الذي كان مرشحاً لخطبة كونستانس صاحبة

أنطاكية، وهنا جرى عرض أسباب ترملها (١١٤٩) بأسهاب، وعادت الحكاية بعد عدة صفحات تالية إلى أندرونيكوس في كليكية (١١٥٢)، وكان الرابط هنا بين هذا كله شخصية أندرونيكوس وضرورة تقديم ملخص عن حياته، غير أن كيناموس لم يكن يخشى من التعقيب والتذييل (٤٥).

وكان من الممكن لهذه الفوضى أن تتلطف بعض الشيء، لو أن كيناموس قام بمراجعة عمله، كما يفترض أنه نوى ذلك، وتنقطع المخطوطة الفريدة لهذا الكتاب والتي وصلتنا من العصور الوسطى في نهاية الوجه الخلفي للورقة وسط إحدى الجمل، ويبدأ وجه الورقة التالية بكتاب آخر، ومن غير المعروف فيما إذا كان المؤرخ قد أكمل كتابه، أو أن هناك بعض الأوراق مفقودة من المخطوطة، أو أن الناسخ تعب من عمله فتوقف هنا (٤٦)، والبيئة الرئيسية حول عدم قيام كيناموس بمراجعة عمله، هو توفر عدد من الاحالات مثل قوله:

«كما قلنا في الغالب» أو عبارة مشابهة، وعدم توفر الصفحات المحال عليها أو النصوص المشار إليها، ومن أهم الأمثلة الصارخة على هذا ذكره للزواج الذي تمّ سنة ١١٤٨ بين ثيودورا ابنة أخي الامبراطور وهنري صاحب النمسا، فقد أسقطت هذه الرواية من مكانها الصحيح من قبل كيناموس (٤٧)، ولدى جمع هذه العيوب مع بداية عنوان النص وهو «ملخص للمتواليات.....» الذي يعكس بدوره العنوان اللاتيني الذي أعطاه المحقق وهو «ملخص للأعمال.....» يؤكد أول تلميذ لكيناموس أن النص المتوفر حالياً هو مختصر تولاه أحدهم في وقت تال، ولم يعد هذا الرأي مقبولاً الآن:

ذلك أن المتولي للاختصار كان من المفترض أن يقوم بحذف المواد الخطابية الفائضة، بينما في حال وجود عيب الاحالات،. هذا يمكن

تعليه بأن المصنف أخفق في مراجعة نصه أي لم يقم بذلك، وبرهان آخر على أن كيناموس قد ترك كتابه ناقصاً هو الطبيعة الاختصاصية المتوالية لأجزاء الأخبار المتعلقة بما نويل في عقد سنواته الأخيرة، وتعطي هذه الصفحات الانطباع بوجود ملاحظات كانت تنتظر عناية المؤلف وانتباهه في النهاية (٤٨).

وتأكد لدينا بشكل غير مباشر أن الكتاب لم ينشر من خلال إعلان نكتاس كونيائس في مطلع كتابه أن ما من مؤرخ سواه قام بتغطية هذه الحقبة منذ وفاة ألكسيوس الأول (٤٩)، ومع هذا من المؤكد أن نكتاس استفاد شخصياً من كتاب كيناموس (٥٠) واستقى منه، ولا بد أن نجد تعليل هذا الأمر في حقيقة أن الكتاب لم يختم وبالتالي لم ينشر، ولم يتداول خارج وسط طائفة العاملين في البلاط الملكي، وطبعاً كلاهما انتمى إلى هذه الطائفة نفسها.

وجرى نسخ أصل النص في القرن الثالث عشر، وهكذا بقي لنا ووصلنا، وتفيد الإشارة هنا إلى أن عدداً كبيراً من كتابات مؤرخي تلك الحقبة كادت أن تضيع، فلقد وصلتنا نسخة وحيدة من تاريخ بزللوس، ونسختان (كلاهما من القرن الثاني عشر) فقط من النص الكامل لكتاب الألكسياد هما اللتان عاشتا حتى العصر الحديث (٥١)، ولدى عقد مقارنة بين كتابات المؤلفين الاغريق الكلاسيكيين وكتابات المؤرخين البيزنطيين، نجد أن نتاج البيزنطيين كانت له قيمة قليلة في أعين باعة الكتب والنساخ، وكانت نسخة تاريخ كيناموس العائدة للقرن الثالث عشر موجودة في القسطنطينية عام ١٤٥٣، وقد وصلت بشكل ما إلى مكتبة الفاتيكان، حيث هي الآن، وقد أخذت عنها نسخة في القرن السادس عشر، ثم ثلاث نسخ أخرى في القرن السابع عشر، وقام اسحق فوسيوس بنسخ إحدى هذه الثلاث، وهذه استخدمها كورنيليوس توليوس أساساً لأول طبعة للكتاب في أوترخت عام ١٦٥٢، مع نص

لاتيني مرافق، وقام الاختصاصي العظيم باليزنطيات شارل دي فرزن
Sieur Du Cange بنشر طبعة أخرى في باريس عام ١٦٧٠
مع ترجمة لاتينية جديدة، وحواشي ماتزال هامة، وبالنسبة لطبعة أ.مينك
التي نشرت في بون عام ١٨٣٦، فقد اعتمد على الطبعتين القديمتين مع
نسخة عن مخطوطة الفاتيكان أعدها ثيودور هابس، ويبقى إن هناك
حاجات أساسية لإعادة نشر هذا الكتاب من قبل الاختصاصيين
باليزنطيات (٥٢).

مختصر عن نجاحات الامبراطور الأخير والبروفيروغنتوس المولى يوحنا كومينوس، ووصف لأعمال ابنه الشهير الامبراطور والبرفيروغنتوس المولى مانويل كومينوس. [كتبت من قبل السكرتير الامبراطوري يوحنا كيناموس].

الكتاب الأول من التواريخ

١- لم ينظر إلى كتابة التاريخ انه عمل غير مشرف من قبل القدماء الذين كانوا حكماء، فعدد كبير منهم حصلوا على تقدير كبير لعملهم بالتاريخ، ويذكر انسان في التاريخ أعمال الهيلينيين، ويصف آخر تدريبات قورش منذ طفولته، والأعمال التي أنجزها عندما بلغ مرحلة الرجولة.

وهناك خطر ان ماكشف عنه في وقت ما قد يتعرض للإخفاء ثانية، لكن الرجال الذين دونوا الأشياء في الكتب، كما لوأنها نقشت على أعمدة لن تفنى، منحوها حياة مستمرة، ومن هذا القبيل العمل الحالي.

وإنني أرى أن هذه الأعمال هي ليست مما لا يستحق القيام به أبداً، وهذه الأعمال يتوجب تزويدها بشكل جيد بالمعلومات عن الوقائع الفردية، وكقاعدة عامة ينبغي عزل ذلك عن القضايا الوثيقة الصلة بهذه الحياة، وما من شيء من هذه الأمور، التي أراها ضرورية، يمكن الأخذ بها بالنسبة لنا، ومع هذا، ينبغي لذلك ألا نلتزم بالصمت حيال الوقائع التي حدثت في أيامنا، وبالحري طالما توفرت فرصة مناسبة أمامنا، علينا

أن نلتزم بالعناية حتى لانصدّ الناس عن العودة إلينا ثانية، ويمكن أن ننجح إذا ما نظرنا نظرة عابرة إلى أخبار جميع الأشياء العائدة إلى الحياة العامة للبشرية وقدمنا عرضاً لأعمال امبراطورين، واحد منهما فارق هذه الحياة قبل قدومنا إلى هذا العالم، وازدهر الآخر في أيامنا، ثم هلك تاركاً الامبراطورية إلى ولد في مستقبل العمر، وهذان هما يوحنا ومانويل كومينوس.

ولانحتاج نحن الذين تولينا القيام بهذا العمل أن نحكي ثانية أصولهما ومن أين جاءا (لأن أحدهما عهد إليه بالمنصب الامبراطوري بحكم علاقته بأبيه — ألكسيوس الأول كومينوس — والثاني بحكم أنه حفيده)، ولا كيف أدارا الشؤون الرومانية العامة، لأن ذلك — كما اعتقد — قد أشبع وصفاً من قبل الذين دونوا هذه الأعمال، كما اننا لسنا حتى بحاجة لأن نروي كيف ثار ضدّ نففور [الثالث بوتانيتاس] الذي حكم الامبراطورية آنذاك، وكان رجلاً قد تخطى كثيراً مرحلة الشباب، وكان في مرحلة تقهقر الحياة، وكما قلت: لقد روي هذا بشكل صحيح من قبل أشخاص كتبوا دون أن يحملوا مشاعر عدااء نحوه (١).

وسأتولى عرض أعمال يوحنا باختصار، أو لأقل بايجاز، بسبب أنني — كما قلت — لم أكن موجوداً في أيامه، ولا أعرف هل يمكن لأحد أن يتولى عرض أعمال خليفته مانويل أفضل مني، بسبب أنني رافقته في عدد من حملاته في كلا القارتين قبل أن أكون شاباً، وقصدي طالما أن المناسبة مواتمة أن نعود بروايتنا إلى البداية، ومن هناك نبدأ تاريخنا.

٢- عندما ختم ألكسيوس حياته [١١١٨] خلفه يوحنا في منصب الامبراطورية، الذي سلف ووعد به من قبل والده، وبعدما أوقف نفسه على الشؤون المدنية بقدر ماسمح الوقت له، انطلق نحو آسيا [١١١٩] وعلى مقربة من نهري ليكوس Lykos [شوروكسو—وشي]

وكابروس Kapros [قاضي كوي ديري] الفريجية قامت مدينة لودقيا [قرب دنزلي] ، وكان الترك قد استولوا عليها فيما مضى منذ بعض الوقت، وقد نوى الامبراطور اعادتها إلى الأراضي الرومانية، وقد وجه حملته الملحوظة ضدها، وعندما كان على مقربة من فيلادلفيا [علاشهر] أقام سياجاً وعسكر هناك، وبعث بواحد من المحظيين عنده واسمه يوحنا [أكسوكوس] وكان قريباً من الترك عن طريق أجداده (٢)، بعثه مع قوة كي يحاول الاستيلاء على المدينة، ثم قام بعد قليل —بناء على رغبة جيشه كله— بالاستيلاء عليها بدون مقاومة تقريباً. وكان هناك حشد من البرابرة، ولا يقل عن ثمانمائة من مشاهير رجالهم، وكان بينهم ألب—قرا (٣)، وكان رجلاً واسع التجربة في عدد كبير من المعارك، ثم قام بترك حامية كافية في المدينة وشحنها بما يكفيها من مؤن، ومن ثم انطلق يريد بيزنطة.

وبعدما عسكر لبعض الوقت ضد سوزوبولس Sozopolis (أولوبورلو) (٤) تمكن بسهولة من وضعها تحت السيطرة الرومانية، وأنا سأحكي كيف حدث ذلك، كانت سوزوبولس في الماضي إحدى المدن البازرة في آسيا [الصغرى] متمركزة على منحدر، وذات موقع مسيطر، وكانت صعبة الوصول إليها من كل جانب، باستثناء جانب واحد، الذي وفر ممراً ضيقاً جداً يوصل إليها، وكان من المحال سحب آلات ورفعها إليها، كما لم يكن بإمكان أيّ من مواد الحصار الحربي أن تهيأ ضدها، وكان الوصول إليها من قبل الرجال صعباً مالم يزحفوا ضدها في مجموعات صغيرة. لقد امتلكت المدينة هذه الأحوال.

وفي الحقيقة جلب التفكير بالاستيلاء عليها في البداية اليأس إلى الامبراطور، لكن تهيأ له خطة جعلت من السهل اعطاء المدينة إلى الرومان، وجعلته يحصل على شهرة عظيمة بين الناس جميعاً، وسأوضح ماهية هذه الخطة:

لقد قام باستدعاء اثنين من حملة الرماح لديه، وكان اسم أولهما باكتياريوس Paktiaros واسم الآخر ديكانيوس Dekanos ، وأمرهما مع قوتها بأن يمضيا مباشرة إلى أبواب المدينة، ومن ثم يتوليا رمي الذين كانوا متمركزين فوق الأسوار، وعندما يتقدم هؤلاء، توجب على [البيزنطيين] الفرار دونها خجل، حتى يتمكنوا من استدراج المطاردين لهم إلى أقصى مسافة ممكنة، وتوجب عليهم لدى تركهم للمكان الضيق، وقد امتلكوا التفوق، الانعطاف بشكل مفاجيء والهجوم من هناك، بغية احتلال منطقة الأبواب، وهكذا انطلقوا نحو المدينة، وعندما رأهم البرابرة يقتربون، فتحوا الأبواب واندفعوا مسرعين نحوهم بقدر ما امتلكوا من قوة، وما ان أدار [البيزنطيون] ظهورهم، حتى بدأت عملية المطاردة تأخذ أبعادها، ثم قام أحد الرجال بالانعطاف، فلحق به عدد كبير من الرومان، وعندما وصلوا إلى الأبواب، ترجلوا عن ظهور خيولهم ووقفوا هناك، وإثر ذلك عرف البقية من الجيش الروماني ما حدث، فزحفوا بسرعة كبيرة، ووقع العدو في الوسط، ففر في هذا الاتجاه، وفي ذاك نحو السهل المجاور، وتم الاستيلاء على المدينة.

٣- وانطلق الامبراطور من هناك، فاستولى على حصن هيراكوكوريفايث (٥) Hierakokoryphite وعلى عدد كبير آخر، كان معظمها قائماً في أحواز أطلايا [أنطاليا]، وهكذا عاد إلى بيزنطة، وبعد إقامة قصيرة هناك انطلق يؤم مقدونيا، فقد كان البشناق (٦) قد عبروا الدانوب مع جيش، وتولوا خرق الحدود الرومانية، لكن بحكم أن الشتاء [١١٢١-١١٢٢] فاجأه هناك، فقد أمضى الفصل في مكان حول مدينة برهويا Berrhoia [ستارازغورا] وكان يستهدف من بعض الجوانب الاستعداد للحرب، لكنه أراد بالدرجة الأولى أن يكسب إلى جانبه بعض مقدميهم، ذلك انه عندما كان سيمزقهم بهذه الصورة، كان سيسهل عليه التغلب على الآخرين،

وبعدما تمكن من اقناع كثير منهم بالالتحاق به، وذلك بوساطة الرسل، قام في الربيع بالزحف ضدّ البقية، راغباً في حسم الأمور عن طريق القتال.

وعندما اصطدم الجيشان ببعضهما بعضاً، بقيت المعركة متأرجحة لبعض الوقت، ثم أصيب الامبراطور نفسه بسهم في رجله، إنما بما أن الرومان قاتلوا بشجاعة فقد هزم البشناق هزيمة ساحقة، وقتل بعضهم، ووقع بعضهم الآخر بالأسر، وكان عدد البشناق الذين تراجعوا إلى معسكرهم معتبراً، وقد عدّ هؤلاء الفرار عملاً ليس فيه جدوى، واختاروا تحمل المخاطرة هناك مع زوجاتهم وأولادهم، وقد قاتلوا أمام عرباتهم، التي كانوا قد غطوها بجلود الثيران، وربطوا بعضها مع بعض ووضعوا في هذه العربات زوجاتهم وأولادهم، وهكذا وقعت ثانية معركة حامية، وسقط القتلى من على الجانبين، واستخدم البشناق العربات بمثابة حصن وهكذا ألحقوا أذى عظيماً بالرومان، وعندما أدرك الامبراطور هذا الحال، رغب في أن يترجل عن ظهر حصانه، وأن يتابع القتال على الأقدام مع جنوده، وعندما لم يوافق الرومان على ذلك، أمر حملة الفؤوس من حوله (وكان هؤلاء من الأمة البريطانية، داخلين في خدمة الامبراطور الروماني منذ زمن طويل) أن يقوموا بقطع [العربات] (٧) المواجهة لهم بفؤوسهم، ونظراً لدخولهم المعتك على الفور، غدا الامبراطور بذلك سيداً مسيطراً على معسكر البشناق، وجاء عدد كبير من الذين طلبوا السلامة بالفرار طواعية إلى الامبراطور، راغبين في أن يؤخذوا أسرى، وقد جرى تدريبهم على طرائق الرومان، وبعدما جرى تجنيدهم وتسجيلهم بالسجلات العسكرية، خدموا لزمن طويل.

٤- هكذا كان مرور البشناق في أراضي الرومان، لكن الامبراطور انشغل ثانية بشؤون آسيا، وحيث انه هاجم البرابرة بشكل غير متوقع في الشتاء هناك [١١٢٤؟] أخذهم أسرى تقريباً، وقام بتحويل عدد كبير

منهم إلى الايمان الصحيح، وبذلك زاد من عدد القوات الرومانية، وبما انهم كانوا غير مدربين على الأعمال الزراعية، بل يعتمدون على شرب الحليب وأكل اللحوم، مثلهم في ذلك مثل البشناق، وبما انهم كانوا يعسكرون متفرقين في السهل، كانوا فريسة جاهزة لكل من كان يرغب في قتالهم، فعلى هذه الصورة عاش الأتراك من قبل.

واندلعت حرب بين الرومان والهنغار الذين سكنوا في المنطقة الواقعة فيما وراء الدانوب، وذلك للأسباب التالية: كان لازلو الأول Laszlo ، ملك هنغاريا ولدين هما ألموس وستيفن [اصطفان الثاني] (٩١)، وعندما توفي والدهما تسلم ستيفن —الذي كان هو الأكبر— العرش الملكي، والتجأ الآخر إلى الامبراطور، ذلك ان عادة الهنغار كانت انه عندما يموت حاكمهم خلفاً أولاداً، فإن الذي يتسلم السيادة عليهم مادام بدون ولد ذكر، يتعايش الاخوة مع بعضهم ويتمتعون بعلاقة طيبة أحدهم بالآخر، لكن عندما يلد طفل له، فإنه [أي الملك] لن يمنحهم أية استمرار في البلاد، إلا إذا اقتلعت أعينهم، ولهذا السبب جاء ألموس إلى بلاط الامبراطور، وقد عامله الامبراطور برعاية، واستقبله بلطف، لأن الامبراطور جون كان متزوجاً من [بيروسكا Piroska] ايرين ابنة لازلو، وكانت امرأة فاضلة جداً لم تر العين مثلها أبداً، في درجات السمو الأخلاقي التي امتلكتها، فكل ما كان يزودها به زوجها الامبراطور والامبراطورية، لم تكن تدخره على شكل حصص لأولادها، كما انها لم تنفقه في زيادة زينتها وترفها، بل أمضت حياتها كلها تقدم النفع لمن استجداها شيئاً، أو لمن طلب منها عوناً، وقد أسست ديراً كرّسته على اسم البانتوكراتور Pantokrator [المسيح القادر] (١٠)، وكان من أجل الأديرة وأكبرها حجماً، هكذا كانت هذه الامبراطورة.

وعندما سمع الملك الهنغاري أخبار أخيه، أرسل مبعوثين إلى الامبراطور وطالب بطرد [ألموس] من الأراضي الرومانية، وعندما وجد

[اسطفان الثاني] نفسه غير قادر على فرض مطالبه على الامبراطور، عبر نهر الدانوب، وحاصر بلغراد [بيوغراد] وهي مدينة قائمة إلى جانبه، واستولى عليها [١١٢٨]، واجتثها هدماً حتى الأساسات، ونقل أحجارها بالقوارب، وبهم عمّر زيوغمي Zeugme [أو زيوغمنون وهي زيمون المعاصرة] (١١) وهي مدينة باتجاه سيرميون Surmoin [سرمسكامتروفيكا] وقد عاشت لسنوات طوال، لكنها سويت بالأرض أيام حكم الامبراطور مانويل، وهكذا بتغير [السعد] استخدمت كلها في سبيل بناء أسوار مدينة بلغراد، غير أن هذا سأحكيه فيما بعد، عندما يصل سياق الرواية إلى هذه السنوات.

وعندما سمع الامبراطور بهذا، اندفع عابراً للدانوب مع جيشه كله، أخذاً معه قوة حليفة [أي مرتزقة] من الترك (١٢)، وعسكر هناك إلى جانب ضفة الدانوب واستعد للمعركة، لكن حدث أن ستيفن كان مريضاً في بعض جسده، كما وكان مشغولاً بإعادة الاستيلاء على بعض الأماكن في وسط أراضيه، ومع ذلك لم يرغب بالظهور بعدم المبالاة، لذلك أرسل قواتاً بأقصى سرعة ممكنة، مع أوامر بالحيلولة بين الامبراطور وبين العبور، ونفذ الهنغار المهمة وقاموا بما أمرهم به، وحتى يجعل الامبراطور المواجهة غير فعالة خطط كما يلي: فقد قام بفصل القوات الحليفة، وأمرها بأن تسير صعوداً مجرى النهر إلى منطقة اسمها تمبون Tempon، حيث هناك ربوة مرتفعة من الأرض الهنغارية وممتدة حتى النهر، فمن هناك توجب عليها الجواز، ومكث الامبراطور مع القوة الرومانية الأخرى في مواجهة مخاضه كرامون Kramon [كاما]، وتظاهر أنه سيعبر من هناك فوراً، وعندما تم تنفيذ ذلك، عبر الرومان بدون صعوبة، وكان الهنغار غير قادرين في البداية على مقاومتهم، فلاذوا بالفرار مسرعين، وتمت المطاردة ضاغطة باتجاه النهر حيث اندفع الهنغار في جماعات لعبور جسر قائم فوق مجرى النهر، وسقط الجسر، وجرف النهر

عدداً كبيراً منهم، بعدما فارقوا أرواحهم، غداً أن كثر منهم سقط في أيدي الرومان، وكان من بينهم آكوسر Akus وكليدي Keledi (١٣)، وكانا من أبرز رجالات الهنغار.

وعندما نجح الامبراطور بهذا، استحوذ على حصن كرمون دون مقاومة، ثم قام على الفور بعبور النهر عائداً إلى الأراضي الرومانية، وبعدها قام بتقوية برانيتشيفو Branitshevo [قرب دوبرافكا] بحامية من الجند، تحت إمرة كورتكيوس Kourtikios عاد إلى بيزنطة، وبعد وقت قصير حاصر الهنغار برانيتشيفو واستولوا عليها، وقتلوا بعضاً من الرومان فيها، وأخذوا البقية أسرى، لكن كان هناك بعضاً ممن طلب السلامة بوساطة القتال، وغضب الامبراطور مما حصل، وحكم على كورتكيوس بتهمة الخيانة، وأنزل على ظهره عدداً كبيراً من الضربات، مع انه لم يغادر الأسوار [كما قالوا] حتى اندفع العدو إلى داخل المدينة بكامل القوة، وجعل البيوت طعمة للنيران.

٥- وفي هذه الآونة (١١٢٩-١١٣٠) تآمر الصرب أيضاً — وهم شعب دلماشي — وثاروا وأخضعوا حصن رهسون Rhason [رصنج] ولهذا السبب انتقم الامبراطور من كريتوبلوس Kritoplos ، الذي كان موكلاً إليه أمور الدفاع عن ذلك الحصن، وأمر فطيف به في الأسواق، وقد ارتدى ثياب امرأة، وهو راكب على ظهر أتان، ومضى ثانية إلى برانيتشيفو، وأعاد بناءها بسرعة، وكان الجيش منذ وقت مضى يعاني من برد الشتاء ومن نقص بالضروريات، ولذلك كان في حالة يائسة، وعندما علم الملك الهنغاري بهذا، قرر عبور نهر الدانوب بأقصى سرعة ممكنة ومهاجمة الجيش وهو غير متوقع لذلك، وكان في بلاد الهنغار، سيدة ذات منبت لاتيني، متميزة بثرائها وبأشياء أخرى، فأرسلت إلى الامبراطور تخبره بما كان قد خطط، وحيث انه لم يكن قادراً على الاشتباك معهم بقوات مكافئة، بسبب ما ذكرناه عن معاناة جيشه من المرض ونقص الحاجيات،

قام بتحسين المدينة بالقدر الممكن وانسحب، وفي الحقيقة قام بغية تجنب الاصطدام بالجيش الهنغاري باتخاذ طريق وسط منطقته ذات شعاب وعرة، كانت تدعى محلياً باسم سلّم الشيطان، وانقضّ الجيش الهنغاري هناك بشكل غير متوقع على الوحدات الموكلة إليها حماية الساقة، لكنه لم يلحق الأذى بالرومان، وانسحب الهنغار بعدما جمعوا بعضاً من الأشياء المعلقة التي شكلت الخيمة الامبراطورية، والتي كانت قد تركت لعدم توفر حيوانات الحمولة، ونجا الجيش الروماني دون أن يصاب بأذى.

وبعد وقت قصير، زحف الامبراطور إلى آسيا، وأسرع بغية الاستيلاء على مدينة قسطمون Kastamon [كاستامونو] التي هي مجاورة لمدينة بفلاغونيا Paphlagonia [١١٣٢] (١٤). فقد اعتاد الأتراك الساكنين هناك على الاغارة على المنطقة المجاورة التي كانت خاضعة للامبراطور، وأسأؤوا دوماً معاملة الرومان الذين كانوا هناك، وفاجأ الامبراطور الأعداء بضخامة استعداداته للحرب، وأرغمهم على التخلي عن المدينة وعن أنفسهم لصالح الرومان، وإثر عودته إلى بيزنطة أقام احتفالاً رائعاً بانتصاره، وعندما تمت صناعة عربة من الفضة محلاة بشكل كثيف بالذهب أعد نفسه لدخولها، ومع ذلك لم يركب بها، ولعل سبب ذلك تجنب العجرفة والغرور.

وعوضاً عن ذلك وضع فيها تمثالاً لأم الرب، وسار هو يحمل شارة الصليب وتبعته العربة، وكان منظرًا رائعاً للبيزنطيين أن يروا شيئاً — كما اعتقد لم يروه من قبل — ولم يشهدوه منذ الأيام التي قاد فيها أباطرة أسرة هرقل وأسرة جستنيان المملكة الرومانية.

٦- وكان الشعب الروماني مشغولاً بهذه المسائل، لكن [كمشتكين غازي ابن دانشمند]، الذي كان وقتذاك حاكماً لكبادوكيا، قام بتطويق قسطمون Kastamon وحاصرها بجيش (١٥). وحال الحظ بين

الامبراطور وبين شن الحرب، (لأن قرينته ايرين فارقت الحياة الدنيا، وكان هو نفسه قد أصيب بمرض ثم شرع يتعافى منه في بيزنطة)، وانهمك [كمشتكين غازي] المدينة أولاً بالتجويع، ثم استولى عليها بقوة الحصار [١١٣٣-١١٣٢]، واثرت هذه الفاجعة كثيراً على معنويات الامبراطور، وحدث آنذاك أن توفي [ابن] دانشمند [١١٣٤-١١٣٥] واستحوذ ابنه محمد على السلطة، وكان على عدم وفاق مع صاحب مدينة قونية، الذي قدره الأتراك أكثر من سواه، ودعوه باسم السلطان (١٦)، وأرسل الامبراطور جون رسلاً من قبله إلى قونية، وبعد أن كسبوا صداقة السلطان، أقنعوه أن يقاتل إلى جانب الرومان وضد محمد، وقبل أن يمضي وقت طويل جاء واحد من أعيانه إلى البلاط ومعه جيش ليعطي رهائن ولينخرط بالقتال.

وجاء الامبراطور إلى غانغرا [جنكيري] مع الرجال المذكورين، ونصب خيمته أمام السور، بغية الإعداد لهجوم على التحصينات في الصباح، وتصور محمد نفسه انه لن يكون قادراً على مواجهة الامبراطور في القتال، وعرف ان عليه ان يكسب إلى جانبه السلطان، الذي كان مثله من أصل واحد، وأزال الرجالن خلافاتها واتحدا على مواجهة الرومان، وفي تلك الأثناء قامت القوات الرديفة من الترك بالمغادرة والفرار ليلاً وذلك بناء على دعوة من السلطان، ولدى ادراك الامبراطور لهذه الخيانة غضب غضباً شديداً، وخطط للانطلاق من هناك على الفور، لكن بعض الرهبان، الذين صدف أن كانوا موجودين، حالوا بينه وبين القيام بذلك، وأصروا أن الذي يحتاجه للاستيلاء على غانغرا هو أن يكون شجاعاً، ولاقتناعه بما قالوه قام في الصباح التالي بمهاجمة الأسوار، غير أنه صدد عنها، فانتقل إلى رهنديكن (١٧) Rhyndakene حيث أمضى الشتاء هناك مع الجيش كله، وعانى الرومان الذين أمضوا وقتاً طويلاً هناك معاناة كبيرة من الجوع، حيث لم يوجد مكان للحصول منه

على المؤن من أجل الشتاء.

وانطلق من هناك، ومضى إلى قسطنطين Kastamon ، وبعدما استولى عليها بالاتفاق، قاد الجيش إلى غانغرا، وعرف الأتراك الذين كانوا مستولين على المدينة، أن قواتاً [تركية] قد احتشدت ثانية عند رهنديكن، وتردد هؤلاء في البداية بشأن تسليم المدينة إلى الامبراطور، حيث كانوا يأملون بالنجدة، ولكن بما أن تلك القوات، لم تكن قد اجتمعت بعد في المكان نفسه حتى تفرقت [لأنها لم تكن قادرة على القتال في فصل الشتاء، حسبما سلف وبينت فيما مضى] فقد أرغمتهم الحاجة فسلموا المدينة له، بشرط أن يغادروا هم والأتراك الذين أسرهم الرومان عندما كان [كمشتكين غازي بن] دانشمند ما يزال حياً دونها أذى، ويتحرروا من السيطرة الرومانية، غير أن الأتراك آثروا على الحرية التي توفرت لهم، الخضوع عن طواعية للامبراطور والحصول على فضل رعايته، وشكلوا رديفاً هاماً للقوات الرومانية.

٧- وفيما يلي تبيان لأصول مسألة الحروب الرومانية الايزورية، ذلك ان ليون الأرمني «١٨»، استولى على عدد كبير من المدن الايزورية [أي الكليكية] التي كانت خاضعة للرومان، وشرع بشكل خاص بحصار سلوقية [سيليفكي]، وعندما علم الامبراطور بهذا، حشد قواته، واندفع بسرعة كبيرة نحوها [١١٣٦-١١٣٧]، ولهذا السبب، ولسبب آخر سأقوم بإيضاحه، زحف الامبراطور إلى كليكية، فعندما غادر بوهيموند (١٩) حاكم انطاكية هذه الحياة الدنيا [١١٣٠] أرسل أعيان البلاد إلى الامبراطور يقولون: إنه إذا ما وافق على خطبة ابنة بوهيموند إلى مانويل، أصغر أولاده، فإن مملكة انطاكية ستؤول إلى سلطانه بعد الزواج مباشرة، لكن حتى قبل أن يصل إلى كليكية، غير [الأنطاكيون] نواياهم، وعوضاً على الصداقة والتحالف أصبحوا معادين جداً له، ولادراكهم انهم لا يضارعون الجيش الروماني في قدراته، قرروا انه يتوجب عليهم كسب

ليون إلى أنفسهم، وهكذا قاموا باخراج هذا الرجل من السجن، وأطلقوا سراحه — ذلك أنهم كانوا من قبل قد قهروه بالحرب وأودعوه السجن لديهم — وحرروه بعدما أخذوا عليه العهد انه سيكون صديقهم وحليفهم ضدّ الامبراطور، وهكذا سرحوه بكل لطف، وعندما وصل الامبراطور إلى كليكية استولى على المصيصة، وكان ذلك بعد اخضاعه لطرسوس وأذنة، ثم عسكر أمام عين زربة جنوب سيس.

وحدثت في الوقت نفسه بعض الأشياء حسبما يلي:

كان لدوق بويتو Poitou ، القائمة دوقيته حول خليج ايونيا [كذا] ولدين، وعندما توفي الأب، استقر واحد منهما على عرش آبائه، ووصل الآخر إلى كنيسة القيامة في القدس متخفياً على شكل رجل فقير، وعندما رآه المحافظ هناك، أثاره مظهره الجميل وحجمه، فاقترب منه وطلب منه أن يكشف عن هويته، وأجابه الآخر بأقل ما اعتقد انه يمكن توضيحه، لكنه كان غير قادر على اقناعه، لذلك قام هذا [الغريب] بإعلان جميع الحقائق حول هذا الرجل، وبعدها استدعى [الملك] ريموند (ذلك أن هذا الاسم أطلق عليه) إليه، أقنعه أن يخطب ابنة بوهيموند، التي لم تكن قد بلغت سن الزواج (٢٠).

وبناء عليه انطلق [ريموند] مسافراً نحو انطاكية، وبالصدفة وقع بين الكشافة الرومان، وكاد أن يؤسر من قبلهم، وقام واحد من الجند الذين تصدوا له بتوجيه ضربة له على الخوذة، لكنه لم يقع لأنه أمسك بكلتا يديه برقبة الحصان، ثم لحق به عدد كبير من أتباعه، فتمكن من العودة إلى ظهره، وهكذا تجنب الخطر، ووصل إلى انطاكية.

وعلى كل حال، كان الامبراطور مشغولاً بحصار عين زربة، وكان الذين في داخل المدينة يخططون لجعل الحصار مخففاً، لذلك قاموا بتسخين قطع الحديد بوساطة النيران بما فيه الكفاية، ورموها بالآلات،

على رماة الحجارة، وكانت هذه عندما تصبح قريبة تشعل النيران في الأخشاب القائمة أمام الرماة، وأغضب هذا الذي حدث مراراً الامبراطور، وفي حالة الانزعاج اقترب منه ابنه اسحق [السيباستوكراتور Sebastokrator] وقال: «تعال يا أبي وأصدر أوامرك بتغليف المنشآت الخشبية بالقرميد». وعندما أنجز هذا، وجد الذين في داخل المدينة أنفسهم غير قادرين على مقاومة الهجمات المتوالية، ولهذا فتحو الأبواب وقدموا الطاعة للقائد الروماني.

٨- ووقعت عين زربة، بهذه الطريقة تحت النير الروماني، غير أن ريموند وبلدوين، الذي كان آنذاك صاحب مرعش، وقد شعرا أن الخطر لم يقف بعد أمام أبوابهما، جمعا مايكفي من القوات وسارعا نحو فلسطين لانقاذ الملك هناك من الخطر [١١٣٧]، ذلك أن المسلمين الذين عاشوا على مقربة من فلسطين هزموه بالحرب، وكانوا يحاصرونه في قلعة مونت فيراند Mont ferrand [بارين] التي كان قد التجأ إليها.

وبعدما استولى الامبراطور على عين زربة توجه إلى حصار حصن فهكا Vahka [فيكي] قرب انطاكية، وعاد لذلك ريموند وبلدوين مسرعين إليه، وغير في الوقت نفسه الجيش الروماني أوضاع حصار فهكا، ونصب معسكره حول النهر الذي يجري ماراً بالمدينة [أنطاكية]، وكان الانطاكيون في البداية غير خائفين، واثقين بمتانة أسوارهم وبقوة الدفاعات، ولهذا عندما طال الحصار لوقت معتبر قام بعض المسجلين بين [المشاة البيزنطيين]، كما يحدث عادة في كل جيش كبير، بالاندفاع نحو الحداثق القائمة أمام المدينة لجمع الفواكه، وهاجمهم [الأنطاكيون] بشكل مفاجيء وقتلوا كثيراً منهم، وعندما انتشر هذا الخبر بين الجنود الرومان، اندفعوا بحماس للانقاذ، وهنا هرب [الأنطاكيون] نحو أبواب المدينة، وفقدوا عدداً كبيراً من رجالهم أثناء الفرار، وعندما استأنف الرومان عمليات الحصار بنشاط وفعالية، أصيب الانطاكيون برعب كبير،

ولهذا غالباً ما قصد ريموند الامبراطور ورجاه بحرارة أن يتخلى له عن المدينة، بشرط وجوب اعلان الامبراطور سيداً لها، واعلان ذلك، لكن على أساس أن يكون ريموند وصياً شرعياً عليها، بموجب سلطان الامبراطور جون، وعندما أخفق ريموند في الحصول على مطلبه، عاد بدون نجاح، لكن بعد مضي عدة أيام، عندما اتخذ المجلس الروماني قراراً حول هذا، استقبل ريموند على أساس الشروط المذكورة، ورضخ بقية اللاتين وسلموا للامبراطور، وكان منهم الذين عرفوا بالاخوان [الاستتارية والداوية] والذين سكنوا في تلك المنطقة وهكذا جرت الأمور.

وكان الامبراطور جون يمقت أن يضع الفرصة المناسبة التي تهيأت، فقام بوساطة القوات المذكورة بمهاجمة أعالي سورية، فاستولى بقوة السلاح على حصن بزاعة، وحصل على كميات وافرة من الغنائم منه [١١٣٨]، وأرسل هذه الغنائم مع حشد من الأسرى إلى انطاكية، وذلك بعدما أسند المسؤولية عنهم إلى توماس، الذي كان رجلاً من أصول غير هامة، لكنه دخل — كما أعتقد — منذ طفولته بين موظفي الامبراطور، وذهب الامبراطور نفسه نحو حلب، وهي مدينة قديمة وواسعة الشهرة، وبما أن توماس هوجم بشكل مفاجيء، فقد فقد الغنائم وقافلة الأسرى التي كان يقودها، ونجا بصعوبة بالغة من الخطر، وعندما وصل الامبراطور إلى حلب، تصور أن المنطقة من حولها كانت بدون ماء تماماً، ولذلك اجتازها دون توقف، وبعدما تغلب على حصني حماة وكفرطاب بالقتال، انتقل نحو شيزر، وهي مدينة مزدهرة وكثيرة السكان، وقد حاصر المدينة هذه واستولى عليها، لكنه عندما تقدم نحو القلعة صدّ خائباً، وفيما هو على وشك الاقلاع بهجوم جديد عليها، وصل إليه بعض الرسل ووعد به باليدفع إليه فوراً، وأن يوظفوا عليهم مبلغاً يدفعونه سنوياً إلى الرومان، ولقد كان هذا محتوى عرضهم، ورفض الامبراطور هذا العرض، لأنه كان يأمل في أن يتغلب عليهم بالحرب، لكنه بعدما قام بعدة

هجمات مخففة ضدهم اقتنع انه كان يحاول المستحيل، لذلك استقبل رسولهم، وارتحل وفق شروط (٢١).

وقد زودوه بكثير من المال، وأضافوا إلى ذلك صليباً، وكان شيئاً مدهشاً، وهدية تليق بامبراطور، فقد كان عبارة عن حجر لونه أحمر، وبحجم معتبر، وعندما حفر على شكل صليب، فقد بالحفر شيئاً من لونه الطبيعي، وقالوا إن قسطنطين الأول، الذي هو الرسول بين الأباطرة، قد أمر بصنعه، وقد آل أمره إلى أيدي المسلمين بطريقة ما، وبعدما تسلم هذا، وأخذ العهود عليهم فيما يتعلق بالجزية المستقبلية، انطلق عائداً نحو كليكية ثانية، وما ان استولى على حصني فهكا وكابنسكيري Kap-niskerti ، بقي في تلك المنطقة، لكنه عزل قطعة من الجيش وأرسلها لنهب بقية الحصون، هذا وأن أقوم بتدوين هذه المسائل بالتفصيل، خارج كما أعتقد، عن المهمة التي نحن بصدد تأريخها، فقد كان هدي الحديث عن الوقائع الحالية باختصار، لأنني لم أكن شاهد عيان لها، كما انني لم أتلق رواية موثقة حولها، وعلى كل حال لقد رافقه الحظ، لذلك استطاع أن ينجز هذا القدر في عامين [١١٣٧-١١٣٨].

٩- لقد حاز الامبراطور على شهرة واسعة في الحروب في آسيا، باستثناء المسائل المتعلقة بنو-قيسارية [نكسار الحالية] فهي لم تسر وفق ما كان قد خططه، فقد كان الوقت بداية الانقلاب الشتوي [كانون أول ١١٣٩] عندما عسكر ليس بعيداً عنها، وفكر باخضاعها بوساطة الحصار، لكن بما أن الترك الذين كانوا مستولين على المدينة ذوي فعالية عظيمة في ممارسة الحرب والهجوم بعنف عليه، ولأن برد شتاء قارص غير معتاد ضغط بشدة على جنوده، غادر المدينة وابتعد عنها (٢٢)، وفي أثناء زحفه في المناطق المجاورة للترك، استحوذ على غنائم هائلة، وأعاد إلى الأراضي الرومانية حشداً من الرجال، كان الترك قد استرقوهم منذ زمن طويل.

وفي هذه الحملة، أعني عندما كان مايزال يحتل مناطق في نو-قيسارية، حدث شيء يستحق الذكر والسماح، فعندما وقع اشتباك عنيف بين الرومان والترك، صدف أن نال الترك اليد العليا، ولدى ملاحظة مانويل -الذي غالباً [كذا] مذكرت أنه كان الولد الأصغر للامبراطور- ماكان يحدث، انقض على وسط العدو -دون معرفة أبيه بذلك- ومعه حاشيته، وتمكن من صده ورده إلى الوراء، وأنعش شجاعة جنود الرومان التي ضعفت، وغضب أبوه -محقاً- من هذا ولامه وانتقد تهوره، لكنه في قرارة نفسه أعجب به وتملكته الدهشة، لقيام مانويل، الذي لم يكن قد بلغ الثامنة عشرة من عمره بعد، برمي نفسه وسط خطر عظيم من هذا القبيل، ولهذا أطلق عليه ودعاه علناً بمنقذ الجيش الروماني، وهكذا إن الشجاعة ليست مقصورة على أي عمر أبداً، وفي هذه الحرب بالكاد استطاع أي من الرومان أن يعود على ظهر فرس.

١٠- وهكذا اختتمت قضية نو-قيسارية، وما إن علم الامبراطور أن الترك يشنون حرباً ضدّ سوزوبولس، حتى سارع نحوها بكامل القوى [١١٤٢]، وعندما أخفق في لقاء أي عدو، (لأنهم ما إن علموا باقتراب الرومان حتى انطلقوا فارين)، قاد الجيش نحو بحيرة تدعى بوسغوس Pousgouse [بيشيرغولو] (٢٣)، وهي بحيرة تمتد طويلاً وعرضاً بشكل عظيم، واستولى على الجزر القائمة وسط الماء كل منها معزول عن الآخر، وكان مبني عليها منذ القدم حصون، وعدّ الناس الذين سكنوا فيها الماء بمثابة خندق، وكان من الممكن بالنسبة لهم الذهاب إلى قونية والعودة في يوم واحد (٢٤)، ولهذا السبب بالذات أولى الامبراطور أهمية خاصة للاستيلاء على البحيرة، وعندما رفض الرومان الساكنين في الجزر الخضوع له والتسليم (لأنهم كانوا منذ وقت طويل وممارسة مديدة، متحدين في مواقفهم مع الأتراك) وضع خطة وفق مايلي:

بعدما جمع أكبر قدر ممكن من القوارب والعوامات ربطها ببعضها

بعضاً بوساطة ألواح على ظهرها، ووضع آلات حربه عليها، وقادهم مباشرة نحو الحصون المذكورة، وعندما اضطربت البحيرة بالرياح الجافة، فقد عدد كبير من الرومان، ومع هذا، وبعد عنف لامزيد عليه استولى عليهم.

وعندما علم أن ريموند أمير انطاكية قد ثار، زحف مباشرة عائداً إلى كليكية [١١٤٢]، وعزم على منح كليكية وانطاكية مع ايطاليا وقبرص إلى مانويل، ليكونوا حصته، وسأروي لماذا عزم على هذه النية، فقد كان منذ وقت طويل مضى قد وعد الرومان باعطاء الصولجان إلى ألكسيوس، الذي كان أكبر أولاده (٢٥١)، في حين كان مانويل آخر أولاده ولادة، وراجت حكايات وإشارات تتعلق بالحكم قد ظهرت وأفشيت إلى الشاب، وبالنسبة لي هناك حكاية أو حكايتين ليستا غير مناسبتين للرواية:

مرة عندما كان مانويل نائماً، ظهرت له امرأة في الحلم، وكانت مبعجلة المظهر، متدسرة بالسواد، وفي يدها الحذاء [اللؤلؤي] الذي يسمح به القانون للأباطرة، وقدمت الحذاء إلى مانويل حاثّة إياه على استخدامه، وخلع هذا: مشيرة إلى حذائه العادي الأزرق اللون والخاص (٢٦) بـ [السياسي]، واستيقظ مليئاً بالخوف، وحيث أنه لم يجد مظهر له، انفجر باكياً مثل طفل، وظن أنه أخذ من قبل شخص من أفراد بيته، هذا ما يتعلق بهذا الأمر، لكن هناك شيء آخر لم يقل أهمية بالنسبة له:

كان هناك راهب من الرهبان بلاده هي طبرية، وكان طريق حياته بعيداً، وكان من سكان الجبال، وعندما وقف مرة أمام الامبراطور جون للوعظ، لاحظ اقتراب الأبناء منه، وقد عامل البقية مثل معاملة المواطنين العاديين، لكن عند اقتراب مانويل منه، خاطبه بتواضع، وعندما استوضح الامبراطور منه سبب صنيعه هذا، أجابه الراهب قائلاً:

«لأن من بينهم جميعاً يدولي مانويل امبراطوراً»، ومن هذا الأمر، ومن

أشياء أخرى مرت بالامبراطور بمثابة اشارات لا عدّها ولا حصر، وبما انه لم يكن قادراً على أن يغير مابدا له صحيحاً في البداية، تحول بانتباهه ونواياه نحو الخطة التي سلف ذكرها.

لكن يبدو أن مامن واحدة من هذه المسائل، كان متوقفاً على الخطط البشرية، فهو لم يكد يصل كليكية حتى حرم من ولديه الأكبر سناً [ألكسيوس وأندرونيكوس]، في حين عاد [اسحق]، أحد المتبقين الذي لم يكن صحيحاً بشكل جيد، إلى بيزنطة مرافقاً للجسدين (٢٧)، ثم تقدم إلى عرش الامبراطورية.

ومن المفيد التوقف هنا قليلاً لتبيان كيفية نهاية جون: فبينما كان يصطاد، غلبه خنزير بري، وكان كبيراً، ذلك أن كليكية وجبال طوروس تنتج أعداداً كبيرة من الخنازير، وقد قيل:

وجه إليه الامبراطور طعنة بالرمح، غير أنه تغلب عليها أثناء اندفاعه وحين انغرس السنان في صدره، اشتعل غضباً بسبب الطعنة، فازداد ضغطاً واندفاعاً، ولذلك التوت ذراع الامبراطور، وسحبت جانباً بسبب شدة المقاومة، كما والتوت في الاتجاه الخاطئ جعبة كانت مليئة بالنشاب، كان الامبراطور مجهزاً بها، وكشط رسغه برؤوس النشاب، وتلا ذلك جرح أصابه فوراً، وفار الدم واندفع من الجرح، ووضع على الجرح رباط رقيق، يدعوه العامة ايكديرا Ekdera (٢٨)، بهدف الربط معاً لما انشطر، ولشفاء الجرح، لكنه ازداد التهاباً وتحرك الألم، وكان ذلك السبب لما نجم بعد ذلك من التهاب، لأنه نقل التسمم إلى بقية الجسد من رأس النشاب الذي كان قد انغرس عميقاً، لكن هذا كان فيما بعد.

وبينما كان مايزال لا يشعر بالألم، مدت له طاولة، ووضعت له مساند ليتناول الطعام (٢٩)، وفي أثناء الأكل وقف الأطباء من حوله لمراقبة الرباط، وسألوا عن سبب الجرح، وعندما عرفوا ذلك، اشتكوا بشأن

الطاولة، وطلبوا فك الرباط ورفعته مباشرة عن ذراعه، وأصرّ هو — على كل حال — بشدة على أن الجرح قد أغلق، وأنه لا يشعر بوجود أي خطر فيما يتعلق بتورم الجرح والتهابه في المستقبل، لكنه بعدما تناول الطعام، وما ان استلقى لينام، شعر فجأة بألم حاد قد اعتراه والورم يهاجم ذراعه، وتمّ استدعاء مجموعة الأطباء، وقام نقاش حول ما ينبغي صنعه، ورأى بعضهم أن الأفضل هو فتح التورم، لكن عدم نضجه لم يرض الآخرين، وفضلوا التخلص من الورم بطريقة أخرى، لكن بما انه بدا مريضاً بشكل كبير انتصر يومذاك رأي الجراحة، وعندما فتح الجرح ازداد التورم أكثر، وبات الذراع كله متورماً.

وبدأ الامبراطور يرتجف في قرارة نفسه لتوقعه الموت، خاصة بسبب انه لم ينفذ خطته التي ناضل من قبل في سبيل تحقيقها، وذلك فيما يتعلق بزيارة فلسطين، فلهذه الغاية كان قد صنع شمعداناً وزنه عشرين رطلاً من الذهب، أعده كتقدمة للكنيسة هناك، وبما انه كان وقتذاك في حالة مستعصية على الشفاء، استدعى رجلاً مقدساً، وكان راهباً من بامفيليا Pamphylia، وسأله أن يطلب له الرحمة الربانية بالصلاة طوال الليل، ولقد قيل انه بينما كان الراهب مكرساً نفسه للصلاة سمع أصوات غناء، وانبعث ضوء رؤي من مكان مرتفع، وكان هناك شاب رباني أوقف روحه المضطربة، وهكذا كانت هذه القضية.

ولدى شعور الامبراطور انه في حالة ميؤوس منها، أمر بحضور النبلاء، مع جميع من عدّ بين الأعيان وأمراء الجيش، وخاطبهم كما يلي:

«أيها الرومان الذين اجتمعتم للمشاركة في هذا المجلس معي، لقد رأى عدد من أباطرتنا مع كثيرين انه من المناسب نقل منصب الحاكم إلى ابنائهم بمثابة عمل توريثي، وأنا نفسي أعلم انه لهذا تسلمت السلطة من أبي الامبراطور، وكل واحد منكم يعلم ان الشيء نفسه قد تمّ صنعه

من قبلي في هذه الحالة، وبناء عليه اعرفوا، انني أنا الذي وصلت — كما ترون — إلى نهاية هذه الحياة الحاضرة، قد نقلت المنصب والعرش إلى أكبر أبنائي الباقيين لي، وذلك تماشياً مع عادات بني البشر، لكنني شديد الاهتمام بموقفكم، إذا كان الأمر يتعلق بأي واحد من الاثنين، فيما يخص السمات الصحيحة، انني سأختار كل من لا يبدو معارضاً لرأيكم ولرأيي، لأنني أرى انه لن يكون مفيداً، لاللمعطي ولا للمتسلم، إذا ما تولى موجه الدفة اغراق السفينة بالجهل، حتى وإن كان سيهلك مع العطية، ولن يستطيع إقامة ادعاء ضد المعطي، انني أقدر ان هذا بلا ادراك، وجهل في تقديم الأعطيات، وعمل غير سليم بالبتة.

لهذا انني شخصياً أعطي الأفضلية لما تقدرونه، وهاكم البرهان التالي:

انتبهوا، لفائدتكم، بقدر ما يحتاج الأمر من سرعة، انني جاهز للقيام بعمل مضاد للطبيعة، إن ولديّ كلاهما جيد، وأحدهما متقدم على الآخر بالسن، لكن المنطق الصحيح يرفض الأسن، ويطالب بالأحسن، ويقول إن الجودة تتوافق مع الجودة، وهذا الصراع في جميع الأشياء صعب، إنه صعب أن تحصل على الأفضل، وبما أن الانسان يود أن يعين الجزء الأفضل للشخص الأفضل (لأنه ما الذي هو أعلى من شرف الامبراطورية؟) إنني أرغب، يا جنودي، أن تكون الجودة التامة خاصة بالابن الأكبر، لكن القرار ينظر نحو الأصغر، ويشير معيار الامبراطورية بالحري نحو الآخر ولادة، إنني لست مرغماً على الخوف من أن ما أراه متأثراً بالتفضيل، فأنا أحب ولديّ تماماً بالقدر نفسه، وما من واحد منهما متقدم على الآخر بالأفضلية، ولهذا إن هذا القرار فيما يخصهما ينبغي أن يوكل إليّ أكثر من أن يعهد به إليكم.

وما سأقوله ينبغي أن نتفحصه بكل دقة معاً، ما أعنيه هو:

ياترى عندما يكون ولد أفضل من أخيه، ووضع على العرش، هل

برهن قط على أنه أدنى، أنا نفسي لأشعر بالثقة حول ان الإثرة قد أبعدت تماماً من خططي، كلما تعارضت مع الكفاءات، ذلك انها كافية لافساد كل قرار، وبناء عليه هل ترغبون في أن ألقى على مسامعكم سماته ومؤهلاته، ومن ثم أنتم تتخذون القرار؟ إنه لو اوضح لكل انسان كم يمتلك من القوة والقدرة والشجاعة في أعمال الحرب، إن في أحداث نو- قيسارية براهين على مصداق ما أقوله، فعندما كانت أوضاع الرومان آيلة بوضوح إلى التلاشي، قام باستردادها واعادتها، وإذا كان يكفي الاستشهاد عنه بما يعرفه والده فقط فاسمعوا: غالباً، عندما كان البقية في ضياع، كان يظهر لي متماسكاً وصحيح المشورة، وذلك كان كلما عانيت من مصاعب شؤون لاتعد ولا تحصى، ولقد كان دوماً قادراً على رؤية العاصفة المقبلة، وبارعاً في تجنب الزوابع وفي مواجهة الرياح العاتية، ويمكننا أن نسوغ أمر اعتبارنا له أمام الآخرين، بحكم أن قرار الرب قد وقع على الأصغر، خذوا بعين التقدير كيف أن ألكسيوس قد جرى استدعاؤه إلى العرش من قبلي، وأعلن القرار ونشر قبل عدة سنوات، لكن الرب قد كشف لي للتو، في اللحظة الأخيرة التي توفي فيها، وأخذ بعيداً ذلك الرجل الشاب من بيننا، وسأخبركم أيضاً ببعض المعطيات التي كشفت فيما يتعلق بقدرة [مانويل] الحالي، باستثناء انني متنبه إلى أن هذه الأشياء ينظر إليها بشكل غير معقول من قبل الجمهور، لأنه مامن شيء أسهل إثارة لخواطر الناس من حكايات الأحلام ونبوءات المستقبل، وكل ماكنت قادراً على معرفته بالنسبة لابني قد رويته أنا نفسي. والآن جاء دوركم لاضافة ماترونه».

وما ان قال الامبراطور هذا، حتى وافقه الآخرون بالسرور، والبكاء، وقام الشاب (الذي أحب والده أكثر من أي شيء آخر) احتراماً منه لقوانين الطبيعة، بالانحناء ووضع رأسه على صدره، وغسل الأرض بدموعه، وبعدما لفّ برداء أمير الجيش، ووضع على رأسه اكليل من

الماس، تمّ إعلانه امبراطوراً من قبل الجيش أجمع، وعاش الامبراطور جون بعد هذا لعدة أيام، ثم غادر هذه الحياة، وكان قد حكم الرومان لمدة خمس وعشرين سنة وسبعة أشهر (كذا) معاً، وقد توفي في اليوم الثامن من الشهر الذي يدعوه الاغريق Xanthikos ، أي نيسان عند الرومان [١١٤٣] (٣٠).

الكتاب الثاني من تاريخ الرومان

١- لندع روايتي عن أعمال الامبراطور جون تتوقف هناك، وكان الامبراطور مانويل الذي تسلم الصولجان مايزال شاباً، قد بدأت لحيته بالظهور، ولم يكن هيباً من تحمل أعباء السلطة، كما انه لم يسمح لأي شيء أن يكون متراخياً، وبما أن أخاه اسحق كان آنذاك في بيزنطة، راودت الحشود شكوك، انه لن يتمكن عن إحداث ثورة، وحيث انه كان بطبيعته ميالاً للخصام، تحركه الانفعالات وتقوده، فإنه لابد وأن يجد مسوغاً يتمسك به من أجل الثورة، ومع هذا لم يول مانويل ذلك أدنى اهتمام، فقد مكث مدة ثلاثين يوماً كاملة في ذلك المكان بعد موت أبيه، ولم يغادره حتى أكمل بشكل لائق الطقوس المتعلقة بأبيه (وذلك بالاضافة إلى أشياء أخرى منها تأسيس دير في البقعة التي أسلم فيها روحه)، وأعد مايلزم من إجراءات أمنية بما يخص شؤون كليكية.

وكان قبل ذلك، أي بينما كان الامبراطور جون مايزال حياً، كان الانطاكيون قد شرعوا بالتملص من سلطته، وقد بعثوا إلى الامبراطور مانويل يطلبون منه مغادرة حدود الأراضي التي أعلنوا أنها تعود بملكيتها إلى مدينتهم، وهي الآن مملكة بالقوة وبشكل غير عادل من قبل الرومان، ولقد كان هذا ماقالوه غير ان الامبراطور تصدى لهم وأجابهم قائلاً مايلي في دفاعه:

«من الواضح لكل انسان، أيها الرسل، ان الانطاكيين لم يعانون من أي ضرر صدر عنا، وإذا سرق الانسان شيئاً ما من الآخرين، عندها من العدل أن يعيد إلى الآخرين ممتلكاتهم، وعلى هذا لماذا لم تتخلوا عن

انطاكية للرومان من قبل، بل استوليتم عليها بالعنف وسلبتموها من أبي؟ ألم يستول عليها الترك أولاً عندما كانت مملوكة من قبلنا، ثم ما هذا الذي تطلبون تسلم ملكيته منا؟ ألا تطلبون مدينة انطاكية؟ إنها أولاً كانت مملوكة من قبل دولتنا (١)، وإذا كنتم لاتستحون من خرق اتفاقاتكم، لماذا أتيتم لتتهمونا بالاعتداء على حقوقكم، في حين نحن الذين ينبغي أن نطالب بتصحيح الأمور منكم؟ لكن ستكون هناك فرصة مناسبة لعرض مانحن بصدده من مسائل، والآن أمركم بمغادرة ماليس عائداً إليكم، وإنني سأزيد — ولن أنقص — ماوصل إلى يدي من أبي».

لقد كان هذا ماقاله للرسل. وحمل جثة أبيه على كتفه، وقام يعاونه النبلاء بأخذها بوساطة مسيرة، إلى السفن التي كانت متوقفة في نهر بيراموس Pyramos [سيحان]، وكانت هذه السفن ستعبر من خلال موبسوستيا Mopsuestia ومن ثم تأخذ طريقها إلى البحر، وعندما انطلقت الدرمونات [سفن حربية] إلى البحر من هناك، أمر بإزالة المعسكر وتولى بنفسه قيادة الجيش، وزحف غير هياب في وسط أراضي الترك (٢)، واندesh الترك رعباً، وكانوا معجبين بسرعة اندفاعه الزائدة، ولذلك لم يتجرأوا على التصدي للرومان، وسار الرومان وسط بلاد أجنبية كما ولو أنهم كانوا يعبرون أراضيهم الخاصة بهم، ولم يمض وقت طويل حتى وصل إلى الأراضي الرومانية، ووصلت السفن التي حملت بقايا الامبراطور إلى أرض بيزنطة، وخرج أعيان (٣) الرومان لاستقبالها بشكل رائع، ونقلوا هذه البقايا إلى الدير المقدس، الذي — كما سلف القول — قد أقامته الامبراطورة ايرين من قبل على اسم البانتوكراتور Pantokrator.

وكان الامبراطور مانويل مشغولاً برحلة العودة، حيث انه لم يكن يعلم شيئاً فيما يتعلق بالسبياتوكراتور [أخيه اسحق]، فإن الذين عهد إليهم

من قبل بشؤون الامبراطورية قد أوقعوه في شراكهم بخداعه، وذلك على أساس انه كان يخطط لاغتصاب العرش، ولذلك سجنوه في الأفنية الخاصة بالبانتوكراتور، ولم تحصل فائدة من هذه الخطة وأخفقت، وحمل اسحق مشاعر سيئة نحو بعض الذين كانوا مع مانويل، ولاسيما نحو الذين كانوا يديرون المراكز السامية، وكان من الممكن أن يقوم بالحاق الضرر بأهليهم وحواشيهم في بيزنطة، وفكر مانويل في الحقيقة في كيفية منعه ببراءة من تلك المحاولة، وهكذا ارتأى أن من الصواب ارسال مراسيم إلى بيزنطة يتهم فيها أولئك الرجال [مؤيدي مانويل] بتهمة الخيانة، ولذلك عاقبهم بمصادرة أموالهم وممتلكاتهم، وخيل إليه انه بهذه الطريقة سيفترض السيباتوكراتور أن هؤلاء الرجال قد تآمروا لصالحه هو ذاته كامبراطور، ولهذا سيرعى مصالحهم بشكل أفضل، حتى يكون قادراً على كسبهم ونيل مساعدتهم.

٢- لكن درجات العقلانية جاءت كلها بلا محصلات مغيرة ، وبدون حاجة إلى مواجهة تقديرات الناس، لأن مانويل كان قد نوى هذه الأشياء، وقام بالكشف عن خططه للذين من حوله، وبالنسبة لكل من أخيه اسحق، وعمه، كان كما أسلفنا القول أولهما محافظ عليه ومحروس داخل الدير، وكان الآخر مقيداً بقيود حديدية، وكان عم الامبراطور مسجون من قبل أبيه، أعني أنه كان مسجوناً بأمر من جون في هرقلية [ايرغلي] (٤) البنطشية، وكان اعتاد أن يعيش هناك بشكل لائق، وذلك بعدما كان قد نفى من قبل أخيه الامبراطور عندما كان على قيد الحياة، وبسبب مؤامراته ورغباته بالعرش ما برح ينقل من هذا المكان إلى ذاك، إلى أن وصل إلى حالة التعاسة هذه بالسجن بقرار من قبل الذين كانوا مسؤولين آنذاك عن بيزنطة، وذلك بعدما عرفوا أنه ينوي الثورة مجدداً، ولكن — كما قلت — جعلت الحكمة طريق الامبراطور إلى السلطة ليناً، فما ان وصل مانويل إلى بيزنطة، وعلم بهذه الأشياء التي تخص

السيباتوكراتور حتى بادر على الفور إلى استدعاء أخيه، فعانقه وحياه بطريقة أخوية، ثم استدعى عمه من المنفى، وألغى التهم التي كان أبوه [جون] قد عاقبه من أجلها من قبل بالنفي، وطلب منه المسامحة، ثم بعدما أعطى الجيش المال، أرسله إلى الوطن، ومنح كل بيت في بيزنطة قطعتين من الذهب.

وبسبب أن القسطنطينية كانت بلا بطريق، رفع إلى عرش البطركية ميخائيل الثاني كوركواس، الذي كان راعياً لدير قائم على الجزيرة التي يدعونها أوكسيا Oxeia [«شارب» سيوري أدا الحالية] وذلك اعتماداً على مظهرها (٥١)، وامتلك حسبما قالوا ثقافة عامة بسيطة، وتعليماً دينوياً برأس أصبعه، ولكن بالنسبة لأوليات الأخلاق ودراسة الكتابات المقدسة لم يكن أدنى من أحد من المرموقين بالمعرفة في تلك المنطقة، وبإيديه توج فيما بعد مانويل بالتاج الامبراطوري في الكنيسة، ثم إنه بعدما قدم مائة وزنة من النقود الذهبية ووضعها على المذبح، غادر مخلصاً الشهرة بكرمه، والتعظيم في فم كل إنسان، وأمر منذ ذلك الحين فصاعداً بمبلغ سنوي قدره مائتي وزنة من الفضة من القصر إلى رجال الدين، وقد دعوا هذا: المال الإضافي.

٣- هكذا كانت بداياته في المنصب، وبما أنه كان متشوقاً للانتقام من ريموند أمير انطاكية، بسبب جرائمه التي اقترفها ضد أبيه (ولأنه لم يقم بعد بفرض الغرامات المستحقة عليه، ولأنه كان بالطبع مشغولاً بأمور أعاقته زحفه) أرسل قوة ضده بالبر والبحر [حوالي ١١٤٤] (٦)، وقاد هذه القوة أندرونيكوس وجون اللذان أرجعا نسييهما إلى الكونتو ستيفانيو Kontostephanoi ، وكان معها برسق (٧) الذي كان ضليعاً في فن الحرب، وقاد القوة البحرية ديمتريوس الذي كنيته براناس وعندما وصل برسق والكونتو ستيفانيونين حدود كليكية، استطاعوا خلال مدة وجيزة أن يستردوا الحصون التي كان الانطاكيون قد سلبوها من الرومان،

ودخلوا في مواجهات مع ريموند فأرغموه على التراجع، وقتلوا عدداً كبيراً من أتباعه، لكن كيف حدث ذلك؟ هذا مأسأبينه لكم:

عندما استولى الرومان على الحصون المذكورة، اقتربوا من مدينة انطاكية بلا مقاومة، معاملين كل ما وجدوه أمامهم بمثابة غنائم من المسيحيين (٨)، وعندما رأى ريموند الرومان يقتربون، بقي هادئاً خلف الأسوار، وبعدما قاموا بالاستعداد زحفوا من هناك (لأن مامن أحد تقدم ضدهم) ثم قام هو سراً باتباعهم عازماً على مهاجمتهم من الخلف، ووصل الرومان إلى بقعة رأوها مناسبة لامضاء الليل، فأقاموا معسكرهم هناك، وبعدما مركز ريموند جيشه في مكان مناسب، زحف مع عدد صغير من رجاله ليتجسس ويستطلع أخبار العدو، ولم ينج اقتربه من ملاحظة الرومان، فقد تصدى له بعض الذين كانوا قد خرجوا لجمع المؤن والأسلاب، وكان ذلك غير بعيد عن المعسكر، ولذلك أسرعوا بإخبار القادة، وبما أن الوقت كان ليلاً، أقاموا الحرس وانتظروا، وعندما لم يكن اليوم التالي قد جاء، وقبل انبلاج الفجر، عادوا، وخططوا للانقضاض على الذين كانوا ما يزالون معسكرين مع ريموند، لكن ريموند لم يكن بالإنسان غير الحذر، ففي أول الفجر، وبعدما عمل مارآه لائقاً مع أتباعه، تركهم هناك، وزحف هو للاستطلاع، ودون أن يتوقع سقط أمام الرومان، فأدار ظهره وفرّ، وبعث إلى بقية جيشه يأمرهم بالانطلاق من هناك بأقصى سرعة ممكنة، غير أن القوات الرومانية وصلت بسرعة مساوية، وطاردهم وأوقعت بهم مذبحة كبيرة، واستمرت المطاردة حتى أبواب انطاكية، وأحاطوا بالعدو بصعوبة حتى أن ريموند نفسه دخل إلى المدينة خلال الليل.

وما ان أنجز الذين كانوا مع برسق كل هذا ضد ريموند حتى انطلقوا نحو كليكية، هذا ووصل آنذاك ديمتريوس براناس مع الاسطول فنهب المنطقة المحاذية للبحر، وأخذ حشداً كبيراً من الرجال أسرى، وأحرق

كثيراً من السفن المحلية التي كانت راسية عند الشاطئ، حتى أن واحداً كان يجمع الأموال العامة لهم وقع أسيراً بأيدي الرومان، وعندما سمع ريموند بهذا، جاء إلى هناك وهو عظيم الحنق، لكنه عندما لاحظ أن السفن الرومانية قد أقلعت من هناك، عاد خائباً، وحيث أن البحر لم يكن موافقاً للرومان، فانهم احتاجوا إلى عشرة أيام للملاحة في تلك المنطقة، وعندما قلت لديهم المياه، تقدموا نحو الساحل بشكل غير متوقع، ونزلوا إلى اليابسة فهزموا العدو، ونهبوا اثنين من الحصون الساحلية، وملأوا سفنهم بالقدر الممكن من الخمر وماء النهر، ثم واجهو ريحاً طيبة فأبحروا نحو قبرص.

وأرغمت هذه النوازل ريموند على الرحيل إلى بيزنطة [١١٤٥]، وعندما وصل إلى عند الامبراطور لم يوله في البداية أدنى انتباه، وذلك حتى استجار بضريح أبيه الامبراطور، وهنا كسب عفوه، ثم أصبح ريموند واحداً من أتباعه (٩).

٤- وتزوج في هذه الآونة [كانون الثاني ١١٤٦] الامبراطور من [بيرثا—] ايرين [السولزباكية Sulzback] التي كانت مخطوبة له قبل أن يكون امبراطوراً، وهي فتاة قريبة من الملوك، ولم تكن أدنى من أي فتاة أخرى في محاسن الأخلاق القويمة والروح (١٠)، وفيما يلي ما روي عنها:

عندما وصلت للمرة الأولى إلى بيزنطة [١١٤٢] التقى بها عدد من النساء النبيلات المتميزات، وكذلك الفتاة التي كانت متزوجة من الامبراطور ألكسيوس [أكبر أبناء جون] وكانت [بيرثا] مرتدية رداء من الكتان، وبالنسبة للآخرى فقد كانت ترتدي ثوباً أرجوانياً موشى بالذهب، هذا وجعلها لون ثوبها الأرجواني الداكن تلاحظ من قبل القادمة الجديدة، فاستوضحت على الفور من الواقفات هناك سائلة:

من هي هذه الراهبة التي تتكلم بشكل فيه أبهة عظيمة، وبدا أن هذه الإشارة ليست طيبة أبداً بالنسبة للمستمعين، ولقد جاءت الخاتمة مسرعة ليس بعد وقت طويل (١١).

وشغلت منطقة آسيا القائمة عبر المضائق [البوسفور] الامبراطور، الذي كان يبحث عن كيفية جعل حدود بيثينيا بإمكانها أن تتوقف عن كونها نقاط دخول بالنسبة لأمة الترك، ذلك انه بحكم أن التحصينات التي كانت تصد فيما مضى أعمال خرق البرابرة قد أهملت رعايتها، فقد غدت تلك المناطق هناك منافذ سهلة لوصول الترك، لكن في السنوات الأخيرة بات هذا أكثر أعمال الامبراطور الطموحة فائدة، حيث أقام عدداً من المدن هناك، وقرر في هذه اللحظة انشاء حصن في المنطقة المعروفة باسم ميلانغيا Melangeia [أو ملاغنيا على سكاريا شرقي ازنيق] (١٢)، وبينما كان هذا العمل جارياً، روي له أن مرضاً متقدماً يوحى انه وباء لا يمكن التغلب عليه قد أصاب ماريا الابنة الأكبر للامبراطور جون، التي كان القيصر جون روجر (١٣) قد تزوجها وبعدها أقام الامبراطور مافيه الكفاية في المكان لإكمال الأعمال، أخذ الطريق نحو بيزنطة.

لكن في الوقت نفسه كانت قضت قدرها، وكانت سيدة رفيعة النفس كثيراً، كما وكانت ذات مظهر معبر تماماً. وبوصولي إلى هذه النقطة في روايتي، جئت إلى ذكريات تتعلق بأعمال هذه المرأة التي ماتزال تستحق الإعجاب، لأنهم قالوا إن القيصر روجرنا ببصره على الامبراطورية، في الساعة التي تلت وفاة الامبراطور جون، فقبل أن تستقبل القسطنطينية الامبراطور الجديد، أحاط نفسه بعدد كبير من الميليشيات الأخرى، وربح بشكل خاص إلى جانبه رجلاً ايطالياً، وكان من أبناء جلده من جانب أبيه، وذلك مع أتباعه الذين بلغ عددهم أربعائة، وكان هذا الايطالي متميزاً ومشهوراً بنسبه، إنه روبرت أمير كابوا Capua ، وهي

مدينة ايطالية كثيرة السكان ومزدهرة، وكانت مناسبة اقامته في بيزنطة كما يلي:

كان روجر الثالث، الذي كان وقتذاك الطاغية المتصرف بصقلية، والذي سنقدم عنه مادة كبيرة في الكتب التالية عندما سنكتب عن الحروب الايطالية، كان شديد الرغبة في تملك امارة كابوا، وضغط بالحرب كثيراً على أميرها، الذي عندما قهر من قبل، أخذ الطريق إلى بيزنطة، وبناء عليه لقد كان هذا ماصنعه القيصر جون روجر، وبعد جهود مضنية اقتنعت زوجته انه مصرّ ومتشوق إلى اغتصاب العرش، ولن يتزحزح عن غايته مهما حدث، فاستدعت إليها الذين كانوا مسؤولين عن الشؤون العامة، وأخبرتهم بالقضية، وقالت لهم:

«إما أن تسلموا أنتم لي زوجي، أو تتولون القيام بما يحفظ المملكة لأخي»، ولقد كان هذا ماقالته، لكن لسبب يبدو تعلق ببعض الأشغال أخذوا القيصر بالخديعة تماماً، وحملوه إلى إحدى الضواحي قرب بيزنطة، وعندما وصلوا إلى ذلك المكان، تركوه يقيم هناك ثم عادوا إلى المدينة.

٥- هكذا كانت ماريا، وعندما روي خبر مرضها إلى الامبراطور، توجه إلى بيزنطة، وعسكر بعد وقت قصير [١١٤٦] في السهول القريبة من رينداكوس Rhyndakos [أورهانلي] حيث وجد حصناً كان الامبراطور جون قد أنشأه منذ وقت قريب، وكان اسمه لوباديون Lo-padion [أولبات قرب قراكابي]، فهذا ما أطلقه عليه العامة (١٤)، وجمع هناك جيشاً، لأنه نوى غزو الأراضي التركية، ذلك أن الترك كانوا في الوقت ذاته قد خرقوا هدنتهم مع الرومان، ونهبوا براكانا Prakana واستولوا عليها، وهي مدينة ايزورية تقع إلى الغرب من سلفكي (١٥) Silifke، وأنزلوا كثيراً من الأضرار الأخرى بالرومان، وبعدما استعد بقدر الامكان، انطلق من هناك، وتقدم مسرعاً،

عاقداً العزم على تدميرهم من الشباب فصاعداً، وذلك عندما ينقض عليهم بشكل مفاجيء، ويأخذهم على حين غرة، ومهما يكن من أمر، لم يخفق تماماً بخططه، وفي الحقيقة لم يستخدم يديه في ذلك الصراع، لأنه بعدما عاث بشكل سريع بميسيان أولييموس Mysian olympus [أولوداغ] ووصل حتى بيثيكاس Pithekas (١٦)، حيث أنشأ حصناً قوياً، زحف أثناء الليل خلال الجبال هناك، التي هي عالية لا بل بالحقيقة شاهقة (١٧)، ونامية أكثر من اللازم، وعندما امتلأ رأسه من الضباب المنبعث فوق الأشجار، سقط فجأة، وكان غير قادر على النهوض ثانية، وقد بقي حتى حوالي منتصف الليل بدون وعي، غير أنه تحسن بعد ذلك قليلاً، واستعاد وعية في اليوم التالي، ومع ذلك بقي هادئاً، وأرسل شطراً مناسباً من الجيش، أرسله على كل حال مع القادة لتنفيذ واجباته، وعندما اصطدموا بقوات العدو على مقربة من هناك، تفوقوا عليه بالقتال، ولذلك استحوذوا على كميات هائلة من الغنائم، وعادوا من هناك مع دلائل النصر. ولقد كان هذا ما أنجزه الامبراطور.

وانقض الترك، الذين أعدوا حملة كبيرة، آنذاك على أراضي تراقية [بندتراقية في وسط غربي آسيا الصغرى]، ولم يكن هناك من يتصدى لهم (ذلك أن تيودور الذي كنيته كونتوستيفانوس Kontostephanos)، الذي أرسل لهذه الغاية إلى هناك من قبل الامبراطور، لم يكن قد تمكن من جمع جيش حتى يحافظ به عليه)، ومضى الترك ينهبون وصولاً حتى إحدى المناطق القريبة من البحر التي اسمها كلبيانون Kelbianon [وادي كيستر Csyster] (١٨)، وعادوا وهم يسوقون أمامهم أسلاباً كثيرة، وعندما سمع الامبراطور بهذا لم يستطع أن يحبس نفسه، فبعدها أجرى استعداداته بكل سرعة، وانطلق بسرعة وافية نحو قونية، قام باخبار السلطان (مسعود) صاحبها برسالة، وجاء نص الرسالة كما يلي:

«نحن نرغب أن تعلم أنك اقترفت أشياء أثارت هجومنا عليك، فأنت نفسك الذي سلبت منا براكانا Prakana، التي ليست عائدة إليك، وأنت نفسك أغرت مؤخرًا على الأراضي الرومانية، كما أنك لم تتمنع عن المقاتلة بالطريقة نفسها مع يغي —بسان [بن دانشمند] (١٩)، الذي هو حليف الرومان، ومع عدد آخر كبير من المقدمين هناك، إنك رجل عاقل، وعليك أن تدرك أن الرومان لن يسمحوا لأنفسهم بالاغضاء عن هذا، ويبقى، أنك ينبغي —بعون الرب— أن تدفع الغرامة لهذا مرات عديدة، وعليك إما أن تتوقف عن هذه الحماقات، أو أن تكون مستعداً بالحال لمقاومة الرومان»، هكذا على هذا الشكل كانت الرسالة، وبعدما قرأ السلطان الرسالة أجاب كما يلي: «تسلمنا رسالتك أيها الامبراطور العظيم، وقد أعددنا أنفسنا حسبما أمرت، ثم يتوجب عليك أن تأمر زحفك ألا يؤخرنا بطول الاتصالات، ويبقى فيما يتعلق بسير الأمور، فتلك ستكون مسؤولية الله ومسؤوليتنا، ولتكن فيلوميلون Philomilion [أق شهر الحالية] المكان الذي سنتصادم به، لأننا معسكرون هناك في الوقت الحاضر».

على هذه الشاكلة، وبصورة عامة متدنية، ردّ السلطان على الامبراطور، وقد بقي السلطان مع الجزء الأكبر من الجيش التركي هناك في فيلوميلون، حيث كان معسكراً من قبل، وكان قد انتقى بعضاً من جيشه، وأرسل هذا البعض لاعتراض تقدم الرومان، واشتبك الترك لوقت قصير مع الامبراطور، وكان ذلك قرب مدينة أكرنوس Akrounos [أفيون —قراحصار الحالية]، وكان الامبراطور معسكراً في مكان يدعى تل كالوغرايا Kalograia ، وعانى الترك من هزيمة ساحقة، وعادوا مثل اللاجئين إلى السلطان، وكان بين الذين باتوا طعمة للسيف الحيري (٢٠)، وكانوا مشهورين بين الأتراك، وأصاب الرعب السلطان، بسبب الفاجعة، ولذلك لم يبق في

المكان لتحضير أي شيء، أو التحضير لأي شيء ضروري، بل غادر فاراً من هناك، ولدى معرفة الامبراطور بذلك عزم على الاستهزاء به، لتهوره السالف ولخذلانه وجبنه الكامل فيما بعد، فكتب إليه كما يلي:

«عليك أن تفهم أيها السيد الشريف التالي جيداً: إنه مهما بلغت درجة عارك بسبب جبنك، لقد ازددت عاراً بسبب قحتك التي تقدمت ذلك، ثم إن ذلك لم يمكن رخصه من قبل الآخرين في القتال، وحيث بدا وكأنك نسيت تماماً فخارك المبكر، ولم تقم وزناً لما كتبت مؤخراً إلى امبراطوريتنا [بيزنطة التي هي مصدر جلالتنا] بل هربت إلى حيث لأدري، انتبه إننا نذكرك: إذا كنت لن تنتظر قدومنا إلى فيلوميلون حسبما أعلمتنا يبقى على ذاتك الشريفة والكريمة أن تسرع وتتجاوز دناءة جبنك». مثل هذه الكلمات كانت برسالته.

ووصل الامبراطور إلى فيلوميلون، واستولى عليها عنوة، وأحرقها جميعاً، وقد وجد هناك بعض الرومان الذين كانوا في الاعتقال منذ وقت طويل، فحرر البؤساء هؤلاء من أغلالهم، وسمح لهم أن يروا النور والحرية، وكان الترك عندما اقترب الامبراطور أولاً واثقين من قوتهم، فقرروا عدم نقل هؤلاء الرومان إلى أي مكان آخر، لكن عندما أرغمهم الخوف، ليس فقط لم يعيروا الأسرى الرومان أي انتباه، بل عدّوا أن ممتلكاتهم أقل قيمة من أن ينظروا إليها.

وعندما أحضرت الرسالة إلى السلطان، إما أنه شعر بالارباك، أو كان يخطط لشيء آخر، لذلك تراجع، ووصل بسرعة إلى مكان يدعى بالتركية أندرخمان (٢١)، وعسكر هناك وعندما سمع الامبراطور بهذا قام على الفور بصف جيشه، وعبر مدينة أدرنة (لأن ذلك الاسم انتقل إلى ليكونيا - Ly-konia نفسها) وعسكر في مكان يدعى غيتا Gaita [أكيت] (٢٢)، وعباً في اليوم التالي قواته [لأن الجيشين كانا معسكرين على

مقربة] وزحف، وعندما اقترب من الترك، بدأ القتال، ولم يستطع الترك الصمود أمام هجوم الرومان، فانعطفوا للتراجع، وطاردهم البيزنطيون وقتلوا بعضهم وأخذوا بعضهم الآخر أسرى.

ولم يتوقف السلطان عن الفرار حتى وصل في فوضى إلى قونية، فاندفع إلى داخلها واعتصم خلف أسوارها، وما ان شعر بالسلامة حتى تصور خطة كما يلي: هو لم يتجرأ على البقاء في الداخل، خشية أن يصبح محاطاً به من قبل المحاصرين الرومان، فذلك سيجعله عاجزاً عن الظهور، وبشكل عام، وبدون أن يعرف إلى أي نقطة من الحظ ستصل نهاية الحرب إليها، فقد ارتأى انه غير مفيد له أن يعاق في مكان محاصر، ولهذا وضع قسماً من جيشه شحنة في المدينة، ثم شطر المتبقي إلى شطرين، حيث مركز أحد الشطرين على السفوح خلف المدينة، وأبقى الشطر الآخر معه حيث قاده صاعداً نحو اليمين، فقد اعتمد بشكل خاص على قوة الجبل الممتد بين قونية وحصن قبالة Kabalh (٢٣).

٦- وكان الترك على هذه الوضعية، وعندما وصل الامبراطور إلى قبالة، كان متحمساً حماساً عظيماً، وشديد الرغبة في مهاجمة السلطان، ونظراً لأنه كان في البداية غير قادر على الفور معرفة أين يمكن أن يكون مسعود، تمهل قليلاً وتريث عن الهجوم، وبوساطة الخبرة العسكرية لاحظ أن مسعوداً كان يقود الفرقة المتمركزة على يمين المدينة، (لأن مانويل كان في هذه المسائل أبرع من أي واحد آخر) وقام على الفور بامساك حامل الراية، وسحبه بوساطة المقود، وأداره نحو تلك الفرقة، وعندما تردد الجيش الروماني، ونظر إلى الحركة بدهشة كبيرة، وتساءل لماذا عليه أن يرغب بالمغامرة بشكل غير حذق وضد مثل هذه القوة غير المتفوقة (لأن انعدام ظهور ذلك الجيش قد أدهشهم، وبناء عليه اعتقدوا أن هؤلاء هم مقدمة الفيلق الذي كان مع السلطان، والذي ربما كان مختفياً في مخابىء

الجبيل)، ولأن الرومان كانوا هكذا مندهشين، خفف الامبراطور من اندفاعه قليلاً وقال: «أيها الرومان لاتدعوا حيل البرابرة تحول قوة انتباهكم إلى خوف، وبما أنه هناك نقص في الرايات في الجيش المشاهد أمامنا، عليكم ألا تتخيلوا أن الرايات في مكان آخر مع قوة أخرى، لأنني لأعتقد بوجود فرقة أخرى من العساكر قد بقيت للأتراك، وأن راياتهم قد وضعت بالخفاء فوق هناك في الأماكن الكثيفة، وذلك بغية اخافتنا بمظهر وجود حشود، عليكم ألا تحتاروا وتندهشوا أمام البربري لعدده، بل عليكم ازدراء ضعفه، ولايتعاش الصدق بشكل طبيعي مع التخيلات، وعلى كل حال إنني سأطلق مع أكبر عدد من الأتباع للاشتباك معهم فوراً، وعليكم أنتم بعدما تنظموا صفوفكم أن تلحقوا بي مع بقية الجيش، خشية الوقوع في كمائن العدو».

وما أن أنهى الامبراطور كلامه هذا، حتى اندفع للانقضاض على العدو، وتوضع هو نفسه على اليسار، لأن ذلك كان يواجه قلب جيش الأعداء، وحيث وجد أكبر عدد من خيرة الترك، واعتقد أن الترك فقدوا شجاعتهم أثناء سير القتال، فعندما رأوا سيوف الرومان اضطربت صفوفهم وتفرقوا في فوضى، وكل واحد كان راغباً في أن يكون أول الناجين من هناك، وراجت اشاعة أن السلطان كان موجوداً هناك، وأضاع الرومان وقتاً كبيراً بالانشغال في مطاردة الفارين وهكذا انشغلوا بهذا العمل.

أما بالنسبة للجيش الروماني الآخر الذي كان — كما قلنا — موجوداً في الساقة فقد زحف فوق أثناء زحفه بكمائن غير متوقعة، فانعطف وأعطاهم ظهره، ثم قام الآخرون بالانقضاض عليهم، وأعني بهم الذين تشكلت منهم شحنة قونية، (فقد تشجع هؤلاء بسبب أن الامبراطور كان يقوم بعمليات المطاردة بعيداً عن قونية لذلك خرجوا مهاجمين) وفعل الشيء نفسه الترك الذين كانوا متمركزين على السفوح خلف المدينة،

وبدأ الرومان يتخبطون وتدب بين صفوفهم الفوضى، وما ان سمع الامبراطور بهذا حتى بادر بارسال قوة من حرسه اليهم، عبر أسرع الطرق وقادهم بيرهوجرجيوس Pyrrhogeorgios ، وكان رجلاً نشيطاً وفعالاً، وهو الذي سيشرّف فيما بعد برتبة أمين البلاط (٢٤)، وقادهم أيضاً كوروب Choaroup ، الذي كان من عبيد الامبراطور، وكان من الذين يرتدون الثياب الأرجوانية، ومجدداً كانت القوة المنهكة تماماً في وضع ليس أقلّ رعباً.

وقرر الامبراطور—الذي كان ذكياً جداً في ايجاد المحتاج إليه، وبارعاً في استنباط ما ينبغي صنعه— أن المسألة تحتاج إلى المهارة أكثر من القوة، فاستدعى واحداً من الجنود، واسمه بمبتيوتس Bempitziotes ، وأصله من أدرنة، وأمره أن يخلع خوذته من على رأسه، وأن يلوح بيده بها في الهواء في كل اتجاه من حوله، ليعلن للجيش ما يشبه أسر السلطان، وعندما أنجز هذا استردت القوات الرومانية شجاعتها، ودفعت بالعدو إلى الخلف، هذا العدو الذي كان يضغط عليهم بشدة، فغالباً ماتت فوقت هكذا خطة بارعة على قوى مضاعفة، ومهارة رجل واحد كانت أعظم قوة من عدد من الدروع.

ونظراً لحلول الظلام سريعاً، عسكروا هناك، وانطلقوا من هناك عند الفجر، وعسكروا قرب قونية، وبعدما أحاطوا بها، تصور مانويل انها بعيدة النوال، كما ان اشاعة راجت ذلك اليوم محذرة أن أمم الغرب، شرعت بحكم طباعها الموروثة عن أسلافها بالعصيان، وأنها ستقوم بغزو الأراضي الرومانية بكامل القوى، لذلك تخلى الامبراطور عن الحصار، معتقداً انه يحتاج وقتاً أطول، واستعدادات أعظم مما كان لديه في تلك اللحظة، وبعدما نهب وخرّب تلك الأحواز، غادر من هناك (٢٥).

وروي انه بينما كان كان الجيش الروماني يعيث فساداً في قبور الأتراك

خارج المدينة وينبشها ويخرج أكبر عدد من الجثث منها، لم يرغب الامبراطور، على الرغم من ضغط اللحظة بالاساءة إلى مكانة أم السلطان، فأمر بحفظ رمادها وبعدم ذروه، وأعلن باختصار أنه يتوجب على الرجال العقلاء الاستحياء لدى فواجع النبلاء، وقام بكتابة رسالة لم تكن بعيدة عن اللطف، وأرسلها إلى زوجة السلطان، وقد جاء بالرسالة مايلي:

«نرغب إليك أن تعرفي أن ابن امبراطوريتنا (٢٦)، السلطان حي ومازال باقياً، ذلك انه فرّ من شدائد الحرب»، وكانت هي، على كل حال، قد أعدت حوالي الألفين من الأغنام وكميات كبيرة من الثيران، وأنواع أخرى كثيرة مما يؤكل، لتستقبل بهم الامبراطور وللترحيب به، لكن بما أن الجيش الروماني قام — كما سلف الذكر — باحراق أماكن السكن خارج المدينة، لم تنفذ مانوته. وهكذا كانت هذه المسألة.

وعندما شرع الامبراطور بالانسحاب، أرسل ثانية رسالة إلى السلطان، وقد جاء نصها كما يلي:

«لقد طلبناك مراراً، غير أننا لم نستطع التصادم معك، فقد فررت دوماً، وتلاشيت كما يتلاشى الظل، ولكي لا نبذو كأنا نقاتل ظلالاً، نقوم الآن بالمغادرة، ونحن في طريقنا إلى الوطن، وسنعود إليك بالربيع باستعدادات أعظم، وعليك التنبه وعدم الفرار كلياً بطريقة غير لائقة بك».

٧- هكذا كانت الرسالة، ووصلت قوى كثيرة من الأتراك الذين سكنوا وراء قونية، ممن كانوا تحت حكم المرحوم ابن دانشمند (٢٧)، لقد وصلوا متحالفين مع السلطان، والتحقوا به، واعتماداً منه عليهم لم يرغب الآن بالفرار كما فعل من قبل، بل انه ما ان ضم صفوفه حتى سارع نحو قتال الرومان، الذين كانوا قد وصلوا إلى مكان اسمه بلسان

البرابرة زبريلزamani Tzibrelitzemani (٢٨)، وهو مكان كان الوصول إليه أصعب من أي مكان آخر، ليس فقط بالنسبة للرجال المنظمين على شكل صفوف، بل لم يكن من السهل الجوازه للمسافرين على شكل جماعات صغيرة، وكان الجيش يعاني من مصاعب حمة حول المعسكر، لكن الامبراطور، مدفوعاً بحداثة سنه، وبما انه لم يمض وقت طويل منذ اتخاذه زوجة، رغب في ذاته في تحقيق شيء ما خلال القتال، وذلك تماشياً مع عادات اللاتين، لأن اللاتيني الذي اتخذ زوجة منذ وقت قريب، إذا لم يظهر بمظهر النبل، لا يجلب نعمة عامة، ولذلك وضع في اثنين من الشعاب الجبلية من على يمينه وشماله جماعات على شكل كمينين، وتآلف أول الكمائن من الذين كانوا أقرب الناس إليه نسباً، وكان بينهم أشد الناس لصوقاً به والذين تزوجوا من اخواته (٢٩)، وحوى الثاني على وحدتين عسكريتين، قادهما نيكولاس الذي كنيته أنجيلوس Angelus ، وكان رجلاً شجاعاً في العمل ومزوداً بكثير من الشجاعة، وأمرهما بالموث هناك هادئين حتى يرياه يقوم بالهجوم ضد العدو.

واستجاب على غير رضى لطلبات أخوه اسحق وجون [أكسوكوس Axouchos]، دمستق قوات الشرق والغرب (٣١)، فمضى معهما إلى بقعة حيث رأى بعض الرومان ذاهبين على شكل جماعات لجمع الأعلاف، ووضع هناك سلاحه تحت رداءه خشية أن يعرف من قبل الترك نظراً لما تمتعوا به من سمات استطلاعية بارزة، وانتظر قدوم بعض الترك الذين قد يأتون لإحداث بعض الأضرار، لكن حيث مامن واحد منهم كان بادياً له في أي اتجاه، بعث فأحضر واحداً من جنود الرومان واسمه بوبكس (أبو بكر) (٣٢)، وكان تركي المولد، وامتلك شجاعة عظيمة ونشاطاً كبيراً، وأمره أن يتقدم، ويفتش بحذر علّه يرى أياً من الترك يقترب، وانطلق على هذا الأساس، وعاد بعد قليل ليؤكد انه لم ير أكثر

من ثمانية أتراك، وهنا ترك الامبراطور أتباعه في كمين، ومضى ومعه أخوه والدمستق نحوهم بأقصى سرعة ممكنة، وذلك بعدما أراهم أبوبكر الطريق، وغضب ختنه زوج أخته — الذي تمّ تجاوزه — غضباً شديداً، لأن كل واحد منهم، لابل هم جميعاً ربطوا أنفسهم وأوثقوها بأيان مخيفة، قضت انهم سيلتحقون عن صدق بالامبراطور (الذي لم يرغب بذلك) ويساندوه في هذه المعركة، إذا كانت هناك معركة.

ولم يكن الامبراطور قد اشتبك مع الأتراك الذين شوهدوا، وقد تبين أن عددهم حوالي الثمانية عشر، وكان متشوقاً ومتحرقاً لقتالهم، لكن خشية منه أنهم ربما قد يهربون لأنهم كانوا مجهزين بشكل جيد، (وحيث انه كان مايزال واقفاً بعيداً عنهم لم يكن قادراً على الاشتباك بهم عن قرب) فقد بذل جهده كما يلي: أمر أبا بكر بالمضي حتى يكون قريباً جداً منهم، وعندما يرى انه اقترب منهم، يفرّ بكل ما أوتيته من قوة حتى يصبح قريباً منه، وهكذا فعل أبوبكر ما أمر به، وعندما أخذ البرابرة يطاردونه، هرب، ولم يهرب هروباً كاملاً من العدو، بل راوغه وأعطاه بعض الأمل في أسره، ثم فرّ، وبذلك استدرجهم إلى قرب الامبراطور.

ومع ذلك لم ينجح الامبراطور نجاحاً كلياً في خطته، لأنهم ما إن رأوه، حتى غادروا راكضين بسرعة أكبر مما أظن، ولكن عندما التقوا بحوالي خمسين آخرين كانوا قادمين من خلفهم، تشجعوا بسبب عددهم، وقدروا ان بإمكانهم التصدي له إذا هاجمهم، ومهما يكن الحال، فإن الذين كانوا مع مانويل عارضوا بشدة الاشتباك (لأنهم قالوا: إنهم باتوا بعيدين جداً عن الجيش)، ومع هذا لم يضع الامبراطور الوقت بل هجم بسرعة قصوى، ورافقه السيياتوكراتور [أخوه اسحق] وركب محازياً له، لكن عندما لم يعد قادراً على التقدم — لأن فرسه كان منهكاً — تخلف وراءه، ونظراً لخوفه الشديد على سلامة أخيه، رجاء بحرارة كبيرة، وذكره بزوجته وأولاده، ووبخه مانويل وانتقد رأيه المستخف به قائلاً: «حسناً

يا أخي العزيز، هل تظن انني ماعشت سأتركك في أيدي العدو؟ ليس أنت؟ فكر ولا تتكلم باستخفاف عن نفسك»، وعندما أضاف اسحق هذه الكلمات: «لكن ابق هنا، حتى أستطيع الالتحاق بك وأنت تقا تل البرابرة»، قال مانويل: «إذا أعطاني الرب سأعود مسرعاً إليك بعد الاشتباك، والآن انني أنوي أشياء أخرى، ومتلهف إلى أفعال جريئة جذبتني تماماً إليها». وقال هذا لأخيه واندفع نحو العدو. وعلى هذه الصورة سارت الأمور بالنسبة إلى الامبراطور.

وأما بالنسبة للذين ذكرناهم في الكائن، فقد أرسلوا واحداً من نبلائهم واسمه كوترزس Kotertzes ليقف على أوضاع شؤون الامبراطور وليعلم الأحوال، وأعادته الامبراطور مصدراً أوامره إليهم للقدوم بأقصى سرعة ممكنة، وما ان وصل مانويل إلى تلة مجاورة حتى واجه قوة تركية كبيرة وصل عددها إلى حوالي الخمسمائة، وزحف ليس بعيداً عنها، من خلفها السلطان ومعه الجيش كله، وما ان رأهم حتى قام على الفور بتسديد رمحه، واندفع مسرعاً نحوهم، فطعن كثيراً منهم وألقاهم أرضاً.

ووقف الترك بلا حراك، وكأن ألسنتهم عقدت وأصيبوا بالخرس، وعندما حدث هذا ظهرت القوة الرومانية التي سلف ذكرها، وكانت تشكل الكائن، ظهرت على مقربة من الامبراطور الذي أرسل — كما ذكرنا — يستدعي رجالها، أما الأتراك الذين فهموا هذا وأدركوه فقد اختاروا قطعة من قواتهم وأمروا الذين كانوا في الساقة بالتصدي للرومان، المقترين، وظنوا انهم طوقوا مانويل، وأدخلوه في الشبكة. ولذلك عملوا كما يلي:

غير أنه وقف مستنداً على رمحه، منتصباً على الأرض، ووجه أبا بكر (لأنه كان ما يزال مرافقاً له) أن يراقب عن قرب، خشية أن يمنع الرومان

من الوصول إلى أقرب التلال، وذلك بوساطة الترك، فوقتها يكون قد أحيط به تماماً، ولكن أبا بكر وقد أخذ يتصرف بطريقة معاكسة لما أراده قال: «قف، حقاً قف، ياسيدي، ألا ترى كم من المشاكل محيق بنا؟ اهتم بسلامتك» وبعدما قال هذا وأكثر، وكان غير قادر على اقناعه، تصرف وفق أوامره، ولم يبال الامبراطور ولم يصغ لما قاله (فقد كان من غير الممكن بالنسبة له الفرار إلا مع عار مستقبلي) بل شرع ثانية بحملات على العدو، وبعدما قتل واحداً منهم، أوقع الاضطراب في صفوف البقية، وبذلك اغتنم الفرصة فمضى ووقف على تلة صغيرة، حيث التحق به بقية الرومان، وكان أولهم جون، الذي بسبب كونه [مانويل] ابن أخيه أدخل فيما بعد في صفوف الـ Protosebastoi (٣٣)، وهكذا نجا الامبراطور بهذه الطريقة، من هناك، لأن فرسه كان مغطى تماماً بالعرق، ومنهكاً حقيقة.

وبينما كان الامبراطور مشتبكاً مع العدو، كان الدمستق جون [أكسوكوس] قد ترك بالخلف، وخشي أن يقع بين أيدي الأعداء، ذلك أن العدو استمر بالظهور هنا وهناك على شكل جماعات، وكان هوبلا عون، وألف فيما بعد تسويغات ضعيفة لصالحه، قائلاً إن المكان الذي وقف به كان مناسباً جداً، وكان من المتوجب عليهم التجمع هناك، لاتخاذ نقطة حشد للامبراطور، وهذه الطريقة كان قادراً على أن يُبقي على مقربة منه عدداً كبيراً من الذين كانوا — كما ذكرنا — خارجين من المعسكر إلى الامبراطور، وبعدما أنقذ بوساطتهم، وصل إلى الامبراطور، ثم انتقد جون [أكسوكوس] نفسه وعدد كبير آخر من بقية الرومان شجاعة مانويل، وأصروا على أن مثل هذه الأشياء ليست بعيدة عن التهور، وعندما تفحصت المسألة، أصبت بالدهشة، كيف أنه في ذلك اليوم، كان في وسط مثل ذلك العدد من المهالك، ولم يصب بجراحة أو بضربة، ولا أجرؤ على القول فيما إذا كان بسبب أعماله الجريئة المتكررة ضد هؤلاء

البرابرة، حيث زودهم بمعرفة أصالته ونبله، وأصبح من المتعذر بالنسبة لهم الحاق الضرر به، أو أن مرد ذلك كان إلى عناية حكيمة به حسبما بات مفهوماً، وأنا شخصياً لأرى مقام به بين الأشياء التي تستحق الادانة، كما لا يمكنني تصديق شجاعة الاسكندر، عندما أتفحص بشكل منهجي الحقائق المتعلقة بذلك الرجل، ما لم يمنح المرء شيئاً ما إلى بداية الشباب، لأن الشباب لا يقاوم، وإذا ما ارتبط بالقوة والقدرة يصبح غير مرئي، لكن لندع كل انسان يفكر ويقول ما يجب قوله حول هذه المسألة.

وعندما تعرض الامبراطور — كما سلف بنا القول — إلى ملامة أتباعه قال: «نحن لانحتاج في الوقت الحالي مثل هذه الكلمات، بل ينبغي عقد اجتماع بأحسن صيغة ممكنة خشية فقدان المزيد من الرومان في هذا اليوم، لأن أعداداً كبيرة مازالت تأتي ممن تركوا خلفنا»، وبدا من المناسب اقامة كمين في أقرب شعب جبلي، لمساعدة الذين مازالوا يتقاطرون، من حاشيته، وأيضاً ترك نيكولاس أنجيلوس — الذي تقدم ذكره — في الخلف في الكمين مع الوحدتين العسكريتين، اللتين وضعهما الامبراطور تحت قيادته، عندما قاتل الترك، ولم يكن الامبراطور قد سار بعيداً عندما وصل إلى شعب جبلي، وشاهد الأتراك يقتربون، وقد تصرف وفق ما يلي: فقد وقف مع عدد قليل من رجاله على طرف الوادي، وأمر الآخرين الذين كانوا صاعدين في أن يتوجهوا مباشرة نحو العدو، وما ان اصطدموا بالبرابرة، حتى سمع ذلك الذين كانوا في الكمين، فخرجوا مسرعين، وطعن نيكولاس السالف الذكر برمح واحد من الأتراك، ومع ذلك لم يستطع زحزحته من مقعده، ذلك أن الطعن بقوة لم يكن ممكناً بسبب انحدار الأرض، وبذل مانويل أقصى ما أمكنه لدفع الترك إلى الوراء بعيداً، فأمر أتباعه بالذهاب إلى الشعب الجبلي فيما بدا بسرعة قصوى، لكن توجب عليهم عدم صعوده، وعندما لاحظ الأتراك هذا، انسحبوا بهدوء، وفي هذه اللحظة التقى النبالة الذين كانوا مع كوترزس

Kotertzes بالامبراطور، وكان هؤلاء — كما سلف القول — قد أرسلهم الامبراطور نفسه لتقديم العون للرومان الذين تركوا بالخلف، وهكذا قاتل الامبراطور الأعداء ثانية، وفجأة عطف هؤلاء رؤوس خيولهم وشرعوا بالفرار، وعندما رأى الامبراطور هذا، قال لأتباعه: «تشجعوا، هناك قوة قادمة إلينا من المعسكر»، وعندما أخفق الأتراك في الاقتراب، علل بعضهم السبب بقوله: «لقد أدار الأتراك ظهورهم وغادروا فجأة، مع أنه لم يكن هناك خوف يدفعهم (ذلك أننا لم نكن معادلين لهم بالقوة) بسبب أنهم كانوا قادرين على رؤية شيء كان ما يزال خفياً عنا، ذلك أنهم كانوا ينظرون نحو الأسفل من مكان مرتفع» وتبرهن أن هذا كان صحيحاً تماماً، فقد كان مارأوه هو الرومان من المعسكر، فهؤلاء قد عرفوا أن الامبراطور كان بالفعل واقع في مكان ضيق تماماً، فهبوا مسرعين لتقديم العون له.

وقد روي أنه حدث آنذاك ان قام السيپاتوكراتور اسحق عم الامبراطور من جهة أبيه، الذي كان آنذاك في المعسكر، بالاقتراب من الخيمة الامبراطورية، وذلك عندما علم بأن الامبراطور كان في وضع يائس، ودخل إلى البيعة المجهزة بالفراش اللازم، وانتظر الذي سيحدث، عازماً على اغتصاب العرش، الذي كان منذ زمن بعيد — كما سلف القول — الشوق إليه قد استولى عليه، وتنامى الأمر لديه، ولم يقف عند حد النمو، بل نظر إليه بمثابة ميراث من الآباء إلى الأبناء، وستحدث الرواية المقبلة، — على كل حال — عن هذا الأمر فيما بعد.

٨- عندما — كما قلت — (انني عائد إلى حيث بدأت الاستطراد) التحقت القوات القادمة من المعسكر بالامبراطور، تشجع الامبراطور بعددهم، فقام مجدداً بمهاجمة العدو، وأصبح البطل لأفعال شجاعة، ثم عاد إلى المعسكر بنظام جيد، ونهض عند الفجر، وركب الطريق، وهاجم الأتراك (الذين كانوا معسكرين بالقرب كثيراً) القوة الرومانية، التي

كانت ثانية في أرض وعرة، لقد هاجمها من الجانبين وآلموها بشدة، وسقط كثير من وحدات الرجالة للسبب التالي: كان في الجيش الروماني مقاتل رائع، اسمه كريتوبلس Kritoples ، وكان هذا الرجل يقود قوات الرجالة، وعندما حرف جانباً تشكيلته، صار في قبضة الترك الذين كانوا يتبعونه عن قرب، ولدى تغلبهم عليه بأعدادهم الضخمة، تطلع نحو فرار علني، وبهذه الطريقة، وبعدما فقد كثيراً ممن كانوا معه، نجا بصعوبة، وعندما علم الامبراطور بهذا، عهد بالوحدة التي معه إلى أخيه وإلى عدد كبير آخر من كبار الأعيان، وأسرع مع عدد صغير من الرجال لانقاذ الجزء الذي كان يعاني من تلك القوة، ووصل إلى وسطهم، فأمرهم بالوقوف بشجاعة، وقاتل بنفسه الأتراك، ولاحظه الأتراك وعرفوه، فلم يعودوا يقاتلون الرومان يدأ بيد.

وأعمل الامبراطور فكره، حول كيف يمكن للقوة الرومانية أن تسترد شجاعتها، فبسبب ماحدث لقوات الرجالة — كما ذكرنا — بدأت شجاعتهم تتلاشى، لأنه مامن شيء يؤثر على النفس مثل أن يرى الانسان عن قرب نزيف دم زميله، وسحب الامبراطور من جيبه مدرجاً كان مدوناً عليه أسماء كل واحدة من الفرق، وأعطى توجيهاته بما ينبغي على كل واحدة، أن تفعله في مثل هذه الظروف الدقيقة من الأزمة، ورفض عدد كبير من الوحدات طوال النهار مواجهة العدو، وتخلوا عن صفوفهم، وساروا نحو قافلة أثقال الجيش، ولم يقيموا وزناً لأوامر الامبراطور إلى حد أنه على الرغم من أن كثيراً منهم قد عوقبوا جسدياً ذلك اليوم من قبله، فإن البقية لم يبالوا تقريباً بكل ماكان يفعل، فقد جعلهم الجبن المنقطع النظير ناسين تماماً لشجاعتهم.

وعندما امتزجت على هذه الصورة قوات الساقة بالثقل، طوقت بقية قوات العدو بأكملها الامبراطور، وضغطت عليه بشدة بالغة، غير أنه تصدى للعدو بخبرته القيادية، وهكذا استطاع أن يبقى دون أن يصاب

بأذى، ثم بدا من المناسب لبعضهم العسكرية هناك، وعدم متابعة السير، غير أن هذا لم يرض الامبراطور، خشية انه إذا ما استمر الرومان في حالة الفوضى وعدم الانتظام التي كانوا فيها، فإنهم سيهزمون فوراً، أو في الصباح التالي عندما يكونون قائمين بالتجهز للمغادرة (٣٤)، وقال عليهم بالحري القتال، فإذا ما تمكنوا بطريقة ما من ردّ العدو، فيمكنهم زرع الحسك دونها اعاقه، والعسكرة حيثما أرادوا وليس في فسحة محدودة، وبعدها قال هذا، وعندما رأى أن غالبيتهم لم تقبل النصيحة عهد بالمسؤولية عن المعسكر إلى زيكاندليس Tzikandyles (٣٥) وسينوباتيس Senopates ، وكذلك إلى كريتبليس Krit-oples وعدد كبير آخر من القادة.

وأخذ الامبراطور الراية الامبراطورية، وقام بمهاجمة العدو بكل سرعة ومعه أتباعه، وقد اعتري العدو الدهشة بسبب الهجوم المفاجيء، وأرغمهم الامبراطور على التفكير بالفرار، ثم تبع ذلك مطاردة فخمة، وقتل الرومان الذين تولوا أعمال المطاردة عدداً كبيراً من الأعداء، وأخذوا قليلاً منهم وهم أحياء، وكان بينهم بركوساس Pharkousas ، وكان شخصية بارزة بين الأتراك، فهو الذي كان يقدم بيده الكأس إلى السلطان أثناء تناول الطعام، ويدعو الرومان هذه الشخصية «حامل الكأس»، وكان في الجيش الروماني واحداً له قرابة بالرومان من ناحية المولد، لكن بما أنه نشأ وتربى بين الأتراك، فقد تهيأ له حظ تسلم اماره بينهم، وكان اسمه غبراس Gabras (٣٧)، وعندما قتله الرومان في ذلك اليوم، حملوا رأسه وطافوا به حول المعسكر، وتوقف الامبراطور عن المطاردة (لمضي هزيع طويل من الليل) وعاد مع علامات الظفر، ليجد الرومان مايزالون في فوضى عظيمة وعدم انتظام، (حتى أن حيوانات النقل لم تكن قد تحررت بعد من الأثقال التي على ظهورها) فقام بسرعة برسم دوائر المعسكر كله، وعين مساحة مناسبة لكل واحدة من القطع

العسكرية، لكن عدد الجنود الذين أمضوا الليل على ظهور خيولهم لم يكن قليلاً، فبسبب الجبن المتناهي، كانوا غير قادرين على الترحل عن ظهور مطاياهم، وعلى هذه الصورة عسكروا في تلك الليلة.

وما ان أشرقت الشمس، ورؤيت على وجه الأرض حتى مضى إلى وسط الجيش، ووقف على ظهر فرسه، كما هي العادة بالنسبة للذين يتولون قيادة الوحدات العسكرية، وتحدث كما يلي: «أيها السادة الشرفاء، انني لم آت لأحثكم على أن تكونوا شجعاناً، بسبب ادراكي لجبنكم أو أي جانب ضعف آخر، إن الرومان لا يتصرفون بمثل هذه الدناءة ولا يقودون أنفسهم بمثل هذا الانحطاط، ولا يلطخون هكذا بالعار فخار أجدادهم، ولكن بما انني أنفذ هذه العادة العسكرية بمخاطبتكم، لأريد أيضاً اقناعكم باتخاذ سبل أكثر أماناً للمستقبل، لأن هناك لحظات تقع فيها مخاطر غير مرئية أو متوقعة وتلقي بالحزم والشجاعة في فوضى، وعليكم أيها الأتباع من الجند أن تعلموا اننا نواجه اليوم صراعاً أعظم من الصراعات الماضية، وكأني بهذا الصراع هو الصراع الأخير، ويتوجب علينا أن نكون على خير استعداد، على أساس جهودنا المتقدمة، وإلا سنلطح بالعار أفعالنا الرائعة السالفة، ونكون السبب في جلب تعاسة عظيمة إلى أنفسنا، وكما أن القطعة الخاتمة من حسن الحظ تقوم بشكل طبيعي ما تقدم من سوء حظ، كذلك تدمر المأساة اللاحقة النجاحات المتقدمة، وخشية أن يقع هذا لأنفسنا، على كل واحد منا، ياخيرة الرجال، أن يحافظ على النظام بقدر ما هو ممكن، ذلك اننا جميعاً ندرك اننا إذا ما حافظنا على صفوفنا متراصة تماماً، وإذا ما أسهم كل منا بنصيبه إلى البقية، سيبقى لنا امكانية أن نربح وأن نبقي لأنفسنا شهرة سوف تعيش للناس وللزمن، وعلى كل حال، إذا ما حدث العكس، في أن افترقنا عن بعضنا بعضاً، اعلموا إننا سنكون على الفور فريسة سهلة للأعداء، وكما الحال عندما تكون هناك مدينة محاصرة فتتدمر أسوارها

وتنهار، وبذلك يسهل دخول الأعداء إليها، يندرج كذلك الأمر على الجيوش، وعلى هذا الأساس، ولهذا السبب اخترع القدماء: الفئات، والوحدات، والمقدمة والساقة، والجناحين الأيمن والأيسر، والصفوف المتناظرة، وأشكال الزحف، لأن الجيش أيضاً مدينة، إنه يتطلب أبواباً، وأسواراً، وخنادق، وجميع أنواع المستلزمات مثل المدن، وعليه ينبغي أن نعدّ أنفسنا لأننا مازلنا في وسط بلاد العدو، وتجولنا بعيداً عن حدود رومانيا» (٣٨).

وبعدما قال هذا، وعبأ الجيش ونظمه، انطلق مباشرة نحو البحيرة التي كان الناس يدعونها من قبل «سكلروز Skleros»، ويسمونها الآن «بوزغور» (٣٩) Pousgouse، وعندما وصل السهول من ذلك المكان الضيق، وأصبح في منبسط مفتوح، أمر الامبراطور واحداً من الجنود في أن يصرخ بصوت مرتفع جداً، ويستدعي واحداً من الأتراك، ونفذ الجندي ما أمر به، وقال الامبراطور إلى التركي الذي اقترب: أخبر سلطانك بما يلي:

«يقول لك الامبراطور العظيم عبري هذا: لقد جئنا إلى قونية نفسها، لقد دمرنا أرضك، لأننا بشكل خاص نرغب في معاقبة جرائمك ضد امبراطوريتنا [أي: جلالتنا]، إنك على كل حال، قد فررت بشكل مستمر، مثل عبد أبى، تنتقل من مكان إلى آخر، ولذلك لم تبق لتواجهنا وجهاً لوجه، وبناء عليه، نحن مغادرون لأرضك، لكن عليك أن تستعد، واعلم جيداً انه عندما يأتي الربيع سنعود إليك ثانية باستعدادات أعظم»، وبعدما أعطى هذه الرسالة إلى التركي، وقدم له درع واحد من النبلاء، ليكون دليلاً على أنه قد أرسل من قبل الامبراطور، أمره بالانصراف.

وعندما سمع السلطان بهذا، بعث بعد وقت قصير برسل من عنده

من أجل السؤال عن السلام، وقدر الامبراطور المسألة حق قدرها ولم يغفل عن أهميتها، وأجل الاجابة على الوفد بشكل متكرر من يوم إلى اليوم الذي يليه بحجة الانتقال من مكان إلى آخر، والسبب وراء ذلك كما أعتقد هو أنه أراد أن يعلم شيئاً يقيناً ومحددأ حول الذين متوقع — كما قلنا — قدومهم من الغرب.

٩- وعندما وصل إلى موقع توجد فيه ينابيع نهر منادر [بيوكمنادرزا]، ظاناً أنه بات بعيداً عن الأراضي العدو، وملاحظاً أن المنطقة كانت غزيرة المياه، ومريجة وسارة للعين البشرية، رغب أن ينال نقاهة من متاعب المعارك بالراحة والصيد، غير أنه لاحظ وجود بعض التحركات عن بعد في الأحرار، وبسبب بعد المسافة كان غير قادر على تحديد مارآه، لذلك بعث ببعض من رجال حاشيته ليستطلع، فسمع بوجود عدد كبير من الخيم تجمعت هناك، والحركة في ذلك الحشر كانت حركة خيول هذه الخيم، وكانت ترعى الأعشاب بدون وجود لجم في أفواهها، ولقد عرف على الفور من كان أولئك الأتراك، وسماهم تبعاً لقبيلتهم: متنبهاً إلى أن رجلاً اسمه رامن Raman كان مقدمهم، وأنهم قد جاءوا تماشياً مع عادتهم في نهب بعض الأحواز الرومانية، وأنهم الآن يحملون غنائم كبيرة (٤٠).

وبعدما اختار بعض الجنود الذين كانوا معه، أرسلهم بسرعة للقيام بأعمال المطاردة، وبادر مسرعاً إلى مكان يمكنه من الرؤية الجيدة، ووقف هناك يراقب ومعه عدد قليل من الرجال، وكان الأتراك في الوقت نفسه قد حملوا أثقالهم، وحزموا أمتعتهم وانطلقوا من هناك، ولأنهم أدركوا بسرعة أنهم سيقعون بأيدي الرومان، وذلك بعدما رأوهم مندفعين على شكل جماعات، انعطفوا ووقفوا لمواجهةهم، وعندما دفعهم الرومان، أداروا ظهورهم ثانية، وفي الحقيقة عندما فعلوا هذا مراراً جعلوا كثيراً من الرومان يترنحون، ولهذا تخلوا عن المطاردة، ونشدوا راحة أنفسهم بالعودة.

ولدى ملاحظة الامبراطور ذلك (لأنه — كما قلنا — وقف على مكان مرتفع يراقب الأمور) توجه نحوهم بأقصى سرعة ممكنة، بدون درعه، وعندما رأى الأتراك عدداً من الرومان قد لحقهم الإعياء، نتيجة المطاردة — حسبما ذكرنا — وانهم تفرقوا وابتعد أحدهم عن الآخر، ولدى ادراكهم تماماً كم كان عدد الآخرين قليلاً، هاجموا البيزنطيين من على الطرفين، وقاربوا أن يلحقوا بهم بالحال ايذاءً عظيماً، لولا ان الامبراطور ظهر لهم بشكل غير متوقع وأنقذهم من الخطر، وأمضى وقتاً طويلاً في متابعة مطاردة الهاريين الأتراك، لكن لدى ادراكه أن حصانه قد انهك، وقف هناك منتظراً أن يزود بحصان يكون من نوع الخيول السريعة المتميزة، والتي لسرعتها، دعيت بالخيول «البرية»، ووجه الرومان الذين كانوا يتقاطرون على شكل أفراد أو جماعات، وتمسكوا معه من الخلف بالمطاردة أبعد، وألا يتخلوا عن حماسهم، وقرر آخرون من الرومان انهم بعدما قاموا بمطاردة بعيدة المدى، وبما انهم غير قادرين على تحقيق أي شيء، ثم لأنهم لاحظوا ان المكان الذي جاؤوا مندفعين نحوه معظمه خلواً ومهجوراً، وفي الحقيقة يتعذر الوصول إليه، قرروا ادارة ظهورهم، وسُعد مانويل بابن عمه أندرونيكوس (١٤١)، الذي تحدثنا عنه مطولاً فيما مضى [كذا]، والذي كان مندفعاً نحو العدو، وقد تخلى بعد الضغط عن حصان له [المانويل]، وبعدها امتطاه سمح له بالانتظار هناك، ووجهه أن يأخذ الحصان البري المذكور، الذي سيجلب فوراً، ومن ثم يلتحق به في القتال، وبعدها اندفع مانويل ضد العدو.

وكان الجيش التركي مقسوماً إلى قسمين: مضى قسم منهما نحو الأمام لجلب قطيع الخيل كله، الذي تبعهم على شكل جماعات بدون أحلاس، وجاء البقية خلفهم لصدّ الرومان الواصلين، وحيث أن ما من أحد من الرومان ظهر في أي مكان، فقد تشجعوا للمستقبل، واتحدوا معاً، وخططوا لجمع القطيع المذكور في مكان واحد، وكان هذا القطيع مندفعاً

هنا وهناك بدون سيطرة عليه، وعندما لاحظوا أن الامبراطور لوحده من دون الرومان، يقاتلهم بدون درعه، تقاطروا نحوه بشكل حاشد، مفوقين قسيهم، ومشجعين بعضهم بعضاً، واتخذ الامبراطور موقفاً فوق الشجاعة، فبعدما أدرك أن تطويقه من قبل الأعداء كان من غير الممكن هناك (المكان الذي امتد على الجانبين معاً، منعهم من ذلك) جعل نفسه هدفاً لهجماتهم، فرمى بعضهم أرضاً وأرغم الباقين على طلب الفرار، ثم إن واحداً من البرابرة كان غير قادر على مقاومة طعنة الامبراطور، فانبطح على الأرض، وما ان لاحظ قيام مانويل بالهجوم والتقدم نحو الأمام، حتى رماه بسهم أصاب به نهاية رجله من الخلف، أي أصابه في الجزء الوحشي البارز من كعبه، ثم سارع التركي ليرميهِ ثانية، لكن قبل أن يفعل ذلك أخذه الامبراطور أسيراً بامساكه من شعره، وفيما هو عائد وهو معه إلى الجيش، واجه أندرونيكوس، ذلك أنه عندما جلب له الحصان الامبراطوري، امتطاه وهاجم الأتراك، وحاول مانويل بالحاح أن يشنه عن الذهاب بعيداً، ذلك انه كان مجرداً تماماً من السلاح، وبما أنه كان غير قادر على اقناعه (لأن أندرونيكوس تابع المطاردة بشجاعة وبدون حدود، وشخر ونخر شوقاً للحرب، وكان يحمل رمحاً وترساً بشكل جيد، فهو لم يستخدم سلاحه، بل ماأخذه من واحد من النبلاء) تركه يذهب، وتابع مانويل سيره على الطريق والتحق ببقية الجيش الروماني، ولم يجب على أسئلة الذين استوضحوا منه كيف تدبر الأمور في القتال عندما مضى لوحده تماماً ضد العدو، كما أنه لم يذكر شيئاً عن الأعداء الذين — كما ذكرنا — تولى قتلهم، متجنباً بذلك شكوك دناءة التبجح، لأن الفعل الذي لايقع على مشهد من الناس ويعرض لسماع الشاء عليه، يقود بسهولة إلى الانكار.

وأمر على الفور بمعالجة جرحه والعناية به خشية أن يلتهب وتتعذر معالجته، ثم حدث بعد ذلك حدث يستحق الذكر، فعندما لم يعرفوا

كيف يعالجونه، سحب واحد من الجنود مديته وعزم على ازالة قطعة من لحمه، بغية وضعها وهي ساخنة على الجرح فلربما تمنع الالتهاب، وفي الوقت الذي تقبل فيه الامبراطور رغبة الرجل الطيبة، منع ذلك، وأمر بقطع قطعة من لحم واحد من الخيول التي هلكت على الطريق نتيجة للانهاك، ووضعها مباشرة على الجرح.

وبعدما ثابر على الزحف خلال منتصف الليل وصل إلى المعسكر المنصوب قرب ينابيع نهر منادر، وكانت هناك كميات هائلة من المياه تتدفق من الصخور تحت الجبال، وكأنها تنبعث من عشرات الألوف من الأفواه، وتغطي المنطقة المجاورة ثم تتجمع أولاً في بحيرة، بعدها تندفع حافرة قناة، ومشكلة نهراً من هناك (٤٢)، وبالنسبة لأندرونيكوس الذي — كما ذكرنا — تابع سيره نحو الأمام، فإنه لم يحقق شيئاً، باستثناء أنه ساق إلى المعسكر كثيراً من الخيول كانت ممتطاة من قبل الأعداء الذين قتلهم الامبراطور، وبعد الاكتفاء بهذا، ركب الامبراطور الطريق إلى بيزنطة، وعندما وصل إلى بيثينيا Bythynia أسكن الرومان الذين أنقذوا من فيلوميلون، وذلك حسبما ذكرنا من قبل، وأمن ممتلكات لهم بالتبادل مع أحد الأديرة المقدسة، وأشاد هناك حصناً سماه بيليا Pylia (٤٣).

١٠ - في حوالي ذلك الوقت، جرى خلع كوزماس Kosmas — الذي كان آنذاك مسؤولاً عن الشؤون اللاهوتية، وكان رجلاً أديباً [Kosmios] في الحياة والحديث — من العرش البطريكى للأسباب التالية (٤٤):

كان هناك رجلاً مارس حياة الرهبنة، واسمه نيفون Nephon ، لم يكن عرضة للاغراءات العامة للثقافة، والعلوم الدنيوية، بل كرّس نفسه منذ الطفولة للكتابات المقدسة، وبينما كان ميخائيل، وهو رجل مقدس،

ومتميز بصلاحيه، يحتل العرش اللاهوتي، بشر نيفون هذا بأفكار غير مقبولة، نشرها بين كثيرين من حوله، تعلقت بالعقائد المسيحية، ولهذا السبب تمت ادانته بقرار مجمع ديني مقدس، فقضت لحيته، وسيق إلى السجن ووضعت الأغلال حول قدميه، لكن بعدها توفي ميخائيل، وزين كوزماس العرش — كما ذكرنا من قبل — تلقى نيفون على الفور حرية أعظم للكلام، ونشط كثيراً في الاجتماعات والأسواق، وهو لم يفعل شيئاً تعدى توزيع أفكاره، ورفضه لرب العبرانيين (٤٥)، ورغب بالافادة من مثل هذه الأشياء، وأعجب به كوزماس اعجاباً عظيماً، وجعل من هذا الشخص خدينه، وأعلن أن ماصدر بحقه كان ظلماً، وسارع إلى إلغاء العقوبات التي صدرت من قبل بحق الرجل، وقد احترم فضائله، ومنح شيئاً ما إلى كلماته، لأنه كان في وقت مبكر قد تنبأ باعتلائه العرش البطريكي.

وكانت الجماهير غير راضية عن هذا، ولهذا تقدم بعض من المتعلقين بكوزماس والمهتمين به، منه، عندما كان مرتاحاً مسترخياً، وقالوا: «لماذا، أيها الراعي المقدس، عهدت بنفسك إلى ذئب؟ ألا تعلم أن رأي الرعية انك مخدوع في هذا الجانب؟ انفصل عن صداقة الفاسد، وأن تتعايش مع رجل مزدول أمر يكفي للادانة».

هكذا تكلموا، أما الذين كانوا معادين للبطريك فقد اشتكوا علناً ضده، واتهموه أمام أعين الرب والامبراطور، غير انه تابع غير عابىء بأي شيء، وظل متعلقاً بقوة بنيفون، وكان غير راغب بالانفصال عنه، مهما حدث، وبسبب بساطته المتناهية ماكاد ينجو من العقوبة القاسية، وبعدما أمر الامبراطور بايداع هذا الشخص بالسجن، وعندما جاء الرجال لأخذ [نيفون]، أصيب كوزماس أولاً بالذهول إلى أبعد الحدود، ثم استرد وعيه، وجمع نفسه، وذهب ماشياً إلى صحن الكنيسة، حيث حاول انتزاع الشخص من الرجال الذين كانوا آخذه، وعندما تشبثوا ولم

يتراجعوا، رغب في أن يؤخذ معه إلى السجن، واستولى صراع على الكنيسة بسبب هذه المسألة، وتورط كوزماس بالاتهامات، ولم يتخلص من هذه المشاكل حتى وصل الامبراطور إلى بيزنطة (لأنه كان منشغلاً بالأعمال العسكرية)، وخلع كوزماس من العرش وفق الطريقة التي أنا مقبل على حكايتها:

فبعدما استقبل الامبراطور كل واحد من الأساقفة على انفراد، سألهم كيف بدت تقوى نيفون له، وبعدما أوضح كل واحد منهم الأحوال بكل صدق، أحال آخر الأسئلة إلى كوزماس، وكما هي العادة أعلن باصرار رأيه بنيفون فيه مديح وتبجيل، وسماه علناً تقياً، ولا يوجد من يباريه بفضائله، وعرضت القضية أمام المحكمة، واستشار الامبراطور الأساقفة، لكن ليس مرة أخرى على انفراد، بل سألهم مجتمعين عن رأيهم بنيفون، فأجمعوا على ادانته بعدم التقوى، وتمسكوا بهذا الموقف، فوجه الامبراطور السؤال إلى كوزماس قائلاً: «لكن، أنت أيها السيد، ما الذي تراه بالرجل؟» وعندما أعلن ببساطته عن طواعية تمسكه بالأراء نفسها، صرخت الجماهير ضده، وعدّوه غير أهل للبقاء على العرش، وهكذا أزيح من وسطهم، لهذا السبب، والذي أراه انه باستثناء سذاجته، كان رجلاً غنياً بجميع الفضائل.

١١ - وبعد وقت قصير عاد الامبراطور إلى معالجة مشاكل الترك [١١٤٧]، فبعد وصوله إلى نهر رينداكوس Rhyndakos ، انشغل بالتحضير لحصار قونية ولليث فساداً بكل ماحولها، ولم يكد — على كل حال — الجيش ينتقل من هناك، حتى جاء رسل من عند السلطان يطلبون السلام، وكان على رأس السفارة رجل عالي المكانة قوياً جداً بين الأتراك اسمه سليمان (٤٦)، وكان رجلاً مشهوداً في كثير من الحروب، وتبرهنت لديه قدرة الامبراطور، عندما — كما رويت — واجه الجيش الروماني عند الموقع المعروف بتلة كالوغرايا Kalograia ، وهزم

بشكل ساحق وكانت أهداف السفارة كما يلي:

أن يعيدوا إلى الامبراطور براكانا Prakana ، وكل شيء آخر أخذوه من قبل من الرومان، وهكذا اتفقوا على أن يكون هناك سلام في المستقبل بين الترك والرومان، وقبل الامبراطور بهذه الشروط، وأوقف الحرب، وعاد إلى بيزنطة.

١٢- وكانت في هذه الآونة بداية تحرك جديد في الغرب، للنورمان والفرنسيين، وأمم الغاليين، وكل من سكن حول روما، والبريطانيين والبريتون، وببساطة تحركت جميع صفوف الغربيين، وانطلقت بحجة ظاهرة هي أنهم سيجوزون من أوروبا إلى آسيا بقصد قتال الترك أثناء الزحف على الطريق، ولاسترداد الكنيسة في فلسطين، ولحماية الأماكن المقدسة، غير أنهم، كانوا في حقيقة الأمر يريدون الاستيلاء على بلاد الرومان، بوساطة الاغتصاب، وسحق كل شيء أمامهم (٤٧)، وكان جيشهم لا يعد ولا يحصى، وعندما علم الامبراطور بخبر دنوهم من الحدود الهنغارية بعث إليهم برسولين هما: ديمتروس ماكريمبوليتس De-metrioies Makrembolites ، والاسكندر، وكان ايطالي المولد، وكان كونتاً لمدينة غرافينا Gravina الإيطالية، لكن قد تمّ طرده منذ زمن طويل مع عدد كبير آخر من المملكة، وذلك بوساطة طاغية صقلية [روجر الثاني]، وعقب ذلك، أصبح عن طواعية من رعايا الامبراطور (٤٨)، ووجهها الامبراطور للبحث في نوايا الغربيين، وإذا كانوا قد قدموا وهم لا ينوون الحاق الأذى بالرومان، فليؤكدوا هذه المسائل بالأيمان.

وعندما مثل الرسولان أمام قادة البرابرة قالوا مايلي: «إن توجيه حرب خفية ضدّ الذين لم يقتربوا ذنباً، ليس من التقوى، وليس أيضاً أمراً لائقاً برجال ذوي منزلة رفيعة من حيث الأصل وشدة البأس، لأنهم إذا

ماكانوا المنتصرين، فانتصاراتهم هباء، ربحوها بدون شجاعة، وبما انها هباء، فإنهم لن يعرضوا أنفسهم للمخاطر، من أجل التميز، ثم إن ذلك لن يكون محموداً، وإنه سيكون من المستحيل بالنسبة لكم عبور أرض الرومان دون أن تقدموا للامبراطور ضمانات بعدم الايذاء، ومالم تكونوا أدبتم أيماناً زائفة، لماذا تثيرون الحرب سراً؟ وسيكون من الصعب بالنسبة لكم قتال الرومان مباشرة، وسيكون الأمر أكثر صعوبة إذا خرقتم موثيقتكم وأثرتم الحرب ضدهم سراً، لأنكم في تلك الحالة إنما تحاربون الرب، وتقاتلون قوة الرومان، وعلى كل حال، إذا كانت صداقتكم أصيلة، وخالية من الرياء، وليس في باطنها خيانة، وتؤكدون هذا الأمر بالأيان، وقتها سيكون بإمكانكم جواز أرض الامبراطور العظيم، وكأنكم تعبرون أرضاً صديقة، وبالتعتل والتبصر سوف تتمتعون بكرم الضيافة وبجميع أنواع اللطف». هكذا قال الرسولان.

واجتمع الآخرون [الصلبييون] معاً في خيمة كونراد ملك ألمانيا، لأنه استحوذ على مكان الصدارة بين أمم الغرب، وأعلنوا أنهم لم يقدموا للاحق الأذى بالرومان، وإذا كان الأمر يستدعي ضمانة القسم، فهم على استعداد لأداء ذلك، مذكرين أن حملتهم هي إلى فلسطين، وضد الأتراك الذين نهبوا آسيا، وبناء عليه بات من المناسب للرومان أن يترجموا أقوالهم إلى أفعال، أي أولئك الذين كانوا على مقربة من الملوك، وكل من كان بارزاً بينهم، وأعني الأدواق والكونتات، الذين مناصبهم متميزة، ومثلها تميزهم بتحدرهم من أعيان الامبراطورية، وبحكم أن الأعظم نبالة يتفوق على الآخرين، وبما أن الدوق يتقدم على الكونت، والملك أعلى من الدوق، والامبراطور أرفع من الملك، من الطبيعي أن يخضع الأدنى للأعلى والأسمى مكانة، يسانده في الحرب، ويطيعه في مثل هذه المسائل، وبناء على ذلك فإن اللاتين اعتادوا على تسمية الذي يدعوه الرومان «باسليوس» بالامبراطور، وذلك اشارة منهم إلى منزلته الرفيعة، ثم

إن الملوك هم الذين يحتلون المرتبة الأدنى. وهكذا يكون الحال.

وعندما أنجز الرسولان المهمة التي توجهها من أجلها إلى البرابرة ونجحوا، عادا إلى بيزنطة، بينما تابع الملكان سيرهما على الطريق، وبالطبع لم يختلط الجيشان ببعضهما، وسار الألمان أولاً، وخلفهم سار الفرنسيون، وأنا لأعرف لماذا فعلوا هذا، ولعل مرد ذلك إلى أن كل منهما كان يود أن يتفاخر بأنه خاض معركة هامة لوحده، أو أنهم اهتموا بموضوع المؤن، وإنها ما كانت لتكفيهم مجتمعين معاً، وساروا بأعداد لاحصر لها ولاعد، تزيد على رمال الشاطئ، وعندما نصب اكزسيس Xerxes جسراً من المراكب فوق الهلسبونت، لم يتفاخر بأعدادها الكبيرة، لأنهم عندما وصلوا إلى الدانوب، اتخذ هناك الامبراطور اجراءات محددة لجوازهم، وأمر الشطر الأكبر من الموظفين الذين تركزوا على ضفتي النهر ليكتبوا حمولة كل سفينة، وبعدما وصلوا بالعد إلى تسعين عشرة ألف [٩٠٠, ٠٠٠] لم يستطيعوا أن يعدوا أكثر (١٤٩).

١٣ - هكذا كانت عزيمة هذه الحشود، وعندما وصلوا إلى القرب من مدينة نيسوس Naissos [نيسش]، التي هي حاضرة داشيا (٥٠)، قام ميخائيل، وكنيته براناس، الذي كان الامبراطور قد عهد إليه بحكومة تلك المنطقة، بتزويدهم بالحاجيات الأساسية، ولدى وصولهم إلى سارديكا [صوفيا] Sardika، تلقاهم اثنان من الأعيان، ورحبوا بهم بشكل لائق وزودوهم بالضروريات، وكان أحد الرجلين ميخائيل سياستوس، من أسرة باليولوجي Palaiologi، وكان واسع التجربة، خبيراً في كثير من الشؤون، وكان قد طرد من قبل، من قبل الامبراطور جون، لسبب أجهله، وصار منفياً، غير أنه استدعي من قبل الامبراطور مانويل، وأصبح أثيراً لديه، وموقفاً على دولة الرومان خاصة، فهكذا كان هو.

أما الآخر فكان شخصاً اختاره كل من الامبراطورين ليشغل وظيفة كارتوليريوس Chartoularios [رئيس ديوان الانشاء]، ونال رعاية الامبراطور جون ونظر إليه نظرة تقدير، فعندما توفي ألكسيوس أكبر أبنائه، اعتمد عليه الامبراطور بدعوة مانويل لاستلام صولجان الملك بعد موته وأن ينقل إليه المنصب الامبراطوري (١٥١)، ولهذا السبب ذهب إلى سارديكا.

وكان البرابرة في منطقة وعرة صعبة (لأنه من نهر الدانوب إلى سارديكا يرتفع عدد كبير من الجبال عالياً، وهي في الحقيقة متعذرة العبور) وقد تقدموا بهدوء، ولم يفعلوا شيئاً يتعارض مع رغبات الرومان، ولكن عندما دخلوا إلى السهول التي أعقبت المصاعب في منطقة داشيا، بدأوا يظهرن نواياهم الشريرة، فقد استخدموا قوتهم الظالمة ضد الذين كانوا يقدمون لهم البضائع للبيع في الأسواق، وإذا ما قاوم أحد سلبهم، جعلوه ضحية لسيوفهم، وكان الملك كونراد غير مبال تماماً بما كان يجري، وهو إما لم يهتم بالمتهمين، أو كان إذا ما أولى الاهتمام تولى عزو كل شيء إلى حماقة الحشود.

ولدى سماع الامبراطور بهذا، أرسل جيشاً تحت قيادة بروسوك [برسق] Prosouch وهو رجل قوي المراس في الحرب، وبعدما قابلهم قرب أدرنة، تتبعهم لبعض الوقت على مسافة قريبة، ساعياً إلى كبح جماح الحشود، والحيلولة دون انتشار فوضاهم، وعندما رأهم أصبحوا أكثر وقاحة، اشتبك معهم وقتها في مناوشات عسكرية مكشوفة، وذلك للسبب التالي:

حوى أحد الأديرة في أدرنة واحداً من الشخصيات الألمانية، وكان يعاني من مرض في جسده، وكان معه أمواله وتجهيزاته كلها، وقام بعض الرومان من وحدات الرجالة بنهبه، ثم أشعلوا النار في مقر اقامته، وبعد

أن دمروا على هذه الصورة الرجل، استولوا على بضائعه جميعاً، وما ان وصل الخبر إلى مسامع فردريك، ابن أخي كونراد، وهورجل لا يمكن السيطرة على انفعالاته، وكان بالفعل يتسم بالوقاحة، بسبب غضبه المفرط، فلقد عاد سريعاً، وبات بذلك عليه امضاء يومين على الطريق للحاق بكونراد، لقد عاد مسرعاً إلى أدرنة، وأحرق الدير حيث هلك الألماني من قبل، وبذلك أوجد بهذه المناسبة فرصة الحرب للرومان ولهم أنفسهم، وعلى هذا الأساس جاء بروسوك للسيطرة على الموقف، وصد فردريك وطرده وأوقع مذبحه كبيرة بين البرابرة، وكان فردريك هذا هو الذي تولى حكم الألمان بعد كونراد، للسبب الذي سأحكيه في الرواية التالية (٥٣)، وتخلّى الألمان منذ ذلك الوقت عن تبجحهم السالف، وذلك بعدما تعرفوا إلى مقدرة الرومان بالفعل.

١٤- وبينما كان هذا يحدث هناك، فإن أندرونيكوس، الذي كانوا يدعونه أوبوس، والذي كان الامبراطور قد بعث به لهذا الغرض، ذكرهم بأيامهم، وغالباً ما أوضح لهم الذي تعهدوا به من قبل بعدم الحاق أي أذى بالرومان، ولامهم لغدرهم، ونصحهم، انهم إذا ما أرادوا تفادي الوقوع بالخطر، فما عليهم سوى متابعة السير إلى العبّارات عند أبيدوس [جنق قلعة] والجواز من هناك، وبعدها كرقول هذا وردده، وكان غير قادر على اقناعهم، عاد أندرونيكوس مخفياً إلى بيزنطة.

واجتمع الألمان للتشاور، ولتقدير الأمر المعروض أمامهم، وعندما بدا لهم أن الصواب بالتمسك بالطريق إلى بيزنطة، انطلقوا نحو الأمام، وساروا على طريقهم، وكانوا ثانية ليسوا أقل وقاحة وتبجحاً، حتى بعد هزيمتهم، فقد ذبحوا الماشية دونما رحمة، وقتلوا كثيراً من الرومان الذين قاوموهم، ومع ذلك فإن الحرب المكشوفة لم تتطور.

وعندما علم الامبراطور بهذا، قرر بأن عليه هو نفسه القيام

بالاستعدادات، وهكذا شحنت القسطنطينية على الفور بالعساكر، التي قام بعضها بالعسكرة أمام الأسوار، واتخذ آخرون مواقفهم داخل الأبواب، وبعث بياسيل الذي يكنيه قومه زيكاندلس (٥٤) Tzikandyles الذي كان قد حقق مجداً في كثير من الحروب في المناطق الواقعة عند مشرق الشمس، وفي القتال هناك مع البرابرة، وكان هو ومعه بروسوك السالف الذكر من أصل تركي، ولكنه كان واحداً ممن حظي بالتربية الرومانية والتعليم، ووقف منتظراً مع قواته عند مكان اسمه لونغيو Longoi، وأمرهم أن يبذلوا قصارى جهدهم في ردع الألمان إذا ما حاولوا مجدداً الشروع بأعمال عنف جائرة.

ولدى وصولهم إلى تلك البقعة، تعرفوا إلى أرقام الألمان، واستطلعوا بدقة كيف كانت تشكيلاتهم، وفيما إذا كانت في فوضى أو في انتظام، وكان مما لاحظوه أن بنيتهم الجسدية كانت مفرطة الضخامة، ومغطاة تماماً بالسوابغ، لكن خيالتهم لم تكن خفيفة الحركة وسريعة أبداً، ولاحظوا أيضاً أنهم يمارسون فوضى عظيمة أثناء الزحف، وافترضوا أن قوتهم لهذا سوف تكون من السهل التغلب عليها من قبل الرومان، الذين يقاتلون بشكل علمي، وبعثوا إلى الامبراطور، بتقدير حوى هذه الأشياء، وسألوه ما الذي ينبغي صنعه، وكان حتى الآن ما يزال حذراً بشأن الغرض الظاهري للبرابرة، وأعني حملتهم المزعومة إلى فلسطين، ولهذا تمنع عن القيام بأجراء ضدهم، وأثر الانتظار حتى يقدموا على القيام مجدداً بمزيد من محاولات العنف، وهكذا تمسك الامبراطور بهذا القرار.

واستمر البرابرة بالسير على طريقهم، وعندما زحفوا في السهول القائمة قرب كيوروباكيو (٥٥) Chirobacihoi (لأن المنطقة هناك واسعة الامتداد، وتوفر بشكل خاص كثيراً من الأعشاب لرعاية الخيول) عسكروا هناك، وقد حلت بهم كارثة هناك بالتأكيد تفوق الوصف،

يمكن أن يستخلص منها بشكل منطقي أن الرب كان غاضباً عليهم، لأنهم أفسدوا أيماهم وزيفوها، ومارسوا كثيراً من الأعمال اللاانسانية نحو أناس يدينون بالدين نفسه، ولم يقتربوا بحقهم أي خطأ، فحينما هبت عاصفة غير متوقعة، فاض النهران اللذان يمران بذلك المكان، وكان أولهما يعرف بين السكان المحليين باسم ميلاس Melas (قراسو) وثانيهما باسم أثيراس Athyras ، ولقد ازدادت مياههما بشكل تخطى بعيداً المستوى المعتاد، وغمرت الجزء الأكبر من السهل، وجرفت المياه شطراً كبيراً من الجيش الألماني بخيولهم وسلاحهم، واقتحمت المياه الخيم نفسها، وجرفت أمامها من البر إلى البحر.

وعندما علم الامبراطور بهذا تحركت نفسه اشفاقاً على الرجال، وبعث بعدد من الأعيان إلى كونراد لمواساته بسبب النكبة التي حلت به، ودعوته للمشاركة في مباحثات وخطط تخص مسائل هامة، وكان كونراد ما يزال حتى الآن غير راغب بالتخلي عن كبريائه، وطالب أن يقابله الامبراطور عندما يقترب من بيزنطة، وقدّر أن محادثاته جديرة بمثل هذا الاهتمام، ولدى ادراك الامبراطور أن غروره لاحد له، تركه وشأنه يخلد إلى الراحة، وسارع كونراد ومعه جميع قواته، إلى بيزنطة، وعندما وصل إلى المقر الامبراطوري مقابل الأسوار، والذي يدعوه الناس فيلوباشن Philopation ، ولا أدري هل الإشارة بهذه التسمية إلى لطافة المكان، (لأنه يوفر الراحة والاسترخاء من المتاعب للذين يهربون إلى هناك فراراً من صخب المدينة) أو لأن أشجاره وارفة الظلال، وأرضه تنتج نباتات خضراء غنية (وكان المكان واسعاً جداً، ويحمل من كل جانب مظهر الخضار) (٥٦)، ومن هناك أولى كونراد انتباهه إلى أسوار المدينة، وعندما رأى الأبراج المرتفعة إلى علو شاهق، وأبصر الحجم الكبير للخندق العميق الذي يحيط بها، أصيب بالذهول، وعندما رأى حشداً من النساء والسكان يقفون بدون سلاح وبدون عمل، على الأبنية

الخارجية، (لأن جميع الذين كانوا يستخدمون في الأعمال العسكرية الصعبة، وقف بعضهم للحراسة فوق الأسوار الداخلية، ووقف الباقيون أمام تحصينات المدينة، ينتظرون شروع الألمان بالقتال)، وعندما لاحظ هذه الأشياء، قرر على الفور أن المدينة ما برحت منيعة الجانب لفرط قوتها، التي كانت حقيقية، ولهذا انطلق من هناك بسرعة، وعبر الجسر، الذي يقوم على كتفي ما يمكن للمرء أن يدعوه وصلة النهر البحري [القرن الذهبي] ووصل إلى واحد من الأرباض المواجهة لبيزنطة، التي كانت تدعى بيكريديون Pikridion [هاسكوي] (٥٧)، ويقوم هناك المجاز الطبيعي المعقول، ويكوّن بحريوكسين Euxine [البحر الأسود] هناك خلفية من المياه، وذلك بدورانه إلى اليمين، في حين أن مساره نحو الغرب يشكل ميناء واسعاً للبيزنطيين، وهنا يتكوّن نهر يندفع في بعض الأمكنة عالياً ويجري بين السهول هناك، ثم يصل إلى رأس الميناء على مسافة قليلة من بيزنطة، ثم إلى المكان الذي يقوم عليه الجسر.

١٥- هكذا كان الحال هناك، وعندما وصل كونراد إلى هناك بعث برسالة إلى الامبراطور، لم تكن في الحقيقة بعيدة عن الغرور، وجرى سياقها على النحو التالي:

«يتوجب على الامبراطور المتملك للذكاء، ألا يتفحص المشكلة في ذاتها، بل عليه أن يبحث في السبب الذي صدرت عنه، وكل من يعتمد على الأحكام المسبقة غالباً ما يخفق في اصلاح ما هو جيد، ولا يلوم بالطبع ما يبدو أنه دنيء، وعلى عكس الرأي الرائج، يقابل الانسان أحياناً ببعض الترحاب من قبل الأعداء، غير أنه قد يعاني مجدداً من بعض سوء المعاملة من الأصدقاء، لاتعزو إلينا أسباب المضار التي أنزلت بأرضك من قبل بعض العامة في جيشنا، ولاتغضب لهذا السبب، حيث أننا أنفسنا لم نسبب مثل هذه الأشياء، لكن الغوغاء كانوا قادرين على فعل

ذلك بارادتهم وهم مندفعون بلاضبط وراء شهواتهم، ثم إنه عندما يكون هناك جيشاً أجنبياً خارج بلاده يطوف ويتجول في كل مكان، جزئياً لاستطلاع الأرض، وجزئياً لجمع الحاجيات الضرورية، وقتها ليس من غير المعقول حدوث مثل هذه الأضرار على كل يد». هكذا قال الألمان.

أما الامبراطور الذي نظر إلى المسألة بشيء من الاستخفاف فأجاب كما يلي:

«لم يكن بعيداً عن ادراك امبراطوريتنا مسألة أن أهواء العامة يصعب دوماً التحكم بها وقيادتها، وفي الحقيقة إن ماكان موضع اهتمامنا هو وجوب جوازكم أنتم أيها الأجانب الغرباء لمملكتنا دون أذى، ودون شكوى، أو بالحقيقة دون أن تعانوا أي أذى من قبلنا، خشية أن نكسب سمعة سيئة بين الناس بالتصرف بها هو مضاد لكرم الضيافة، وعلى كل حال، بما أن مثل هذه الأشياء واضح انها لا تستحق الملامة بالنسبة لك، ونظراً لأنك بارع جداً، وعظيم المهارة في البحث في طبيعة الأشياء على الوجه الصحيح، فنحن مدينون لك بالشكر، ذلك أننا سوف لن ننظر من الآن فصاعداً بكيفية وجوب كبح جماح العامة من شعبنا واندفاعها ضدكم، بل سوف نعزو ذلك إلى حماقة الغوغاء، طبقاً لما تعطفت ووجهتنا إليه، وعليه لن يكون من الآن فصاعداً نافعاً بالنسبة لك أن تأخذ الطريق مع الجيش بشكل جماعي، ولا التجول أيضاً في أرض أجنبية، وبالنظر إلى أن العامة مسموح لها بممارسة أهوائها في كل جانب، لأن ذلك صواب كما تقرر، لا بد أن الأجانب سيكونون عرضة للمعاناة من السكان المحليين». بمثل هذه الأقوال أعاد الامبراطور الرسل.

ولمعرفة الامبراطور أن الجيش الروماني كان أقل عدداً من البرابرة، لكنه كان مكافئاً بالتفوق بالعلوم العسكرية والثبات في القتال، فقد خطط كما يلي:

أمر بروسوك وباسيل زيكاندلس مع عدد آخر من القادة الرومان، أن يقودوا قوة كافية، وأن يتخذوا مواقع تواجه الألمان، وقد اصطفوا كما يلي: وقف الجزء الأقل دربة من الجيش مع العوام بعيداً إلى الأمام، على شكل أربع فرق، وجاء بعدهم الجند الأفضل تسليحاً والدارعين، ثم الذين امتطوا خيولاً سريعة، ووقف أخيراً خلف خط المعركة الكومان مع الترك وقوات النبالة الرومان، وعمل الرومان على هذه الصورة، حيث أنه ما ان رأى الألمان هذا حتى استولت عليهم شدة الرغبة والفوضى، وزحفوا مسرعين، وأعقب ذلك معركة حادة، ووقع قتلى كثيرين الألمان، ذلك أن الرومان قاوموهم بكفاية وقتلوهم.

وبقي كونراد متغطرساً، ذلك انه لم يكن عالماً بما حدث، وكان مقوداً بآمال عظيمة، ورغب الامبراطور بالسخرية من رعونته السالفة، فكتب إليه مايلي:

«يتوجب علينا أن ندرك تمام الادراك، أن الفرس الذي لايحتمل اللجام لايفيد راكبه، لابل حتى ربما لن يحمله فوق منحدر صخري، وهذا الجيش الذي أخفق في الاصغاء إلى أمره، غالباً مايورط قاداته في المهالك، وعلى هؤلاء القادة عدم السماح لقواتهم بالسير حسب أهوائها، غير انني لأعرف ماالذي اعتراك من الآم، فلقد ازدريت هذا وأقنعت جلالتنا بذلك، ولقد كانت تعاملك معاملة الصديق، ولتبقى محافظاً على موقفك نفسه، قدر الآن إلى أين قادك السماح للغوغاء من مصاعب، ذلك انني عرفت أن قطعة صغيرة جداً من الجيش الروماني هي التي تصدت لأعداد هائلة من الألمان وعاملتهم بكل قسوة ورجولة، والقاعدة هي أن الجيش الوطني والمحلي يكون متفوقاً على الغرباء الأجانب، وإذا لم يكن لدينا رغبة في معاقبة العامة لعدم التزامها، كيف يمكننا ذلك؟ لقد سمحنا لهم باستئصالهم تماماً واستئصال عنفهم، لكن إذا ماارتأيت، أن علينا معاً كبح كلا الجانبين بمكبح رسمي، وأن نوقف نزوات الجند

نفعل، أما إذا كان هذا لا يروق لك، فدع الأمور تبقى على ما هي عليه الحال في الوقت الحاضر، وبناء عليه يبين لنا بوضوح ما الذي ينبغي صنعه».

١٦- لقد ختمت كلمات الامبراطور على هذه الصورة، وبما أن كونراد لم يكن قد سمع بعد بما حلّ بالألمان، لم ير من المناسب الاهتمام بأي شيء من هذا، هو بالحري طلب أن ترسل إليه السفن الامبراطورية الحربية مع العبارات المعتادة، وأن يتولى ذلك الامبراطور، وذلك بغية استخدامها بالجواز، وهدد انها إذا لم تصل إليه بسرعة، سيطوق المدينة في اليوم التالي بآلاف مؤلفة، وأغضب هذا الامبراطور، ومع ذلك كان ما يزال غير راغب بالرد على هذا المتبجح، فتصبر إلى حد اللطف المصطنع، ولهذا كتب إليه وهاجمه بكلمات قاسية كما يلي:

«بالنسبة للذين هم قادرين على فحص الأمور بدقة لا يحكم بالعادة على الأمور بالكم بل بالكيف، وبوساطة التفوق وسد الخلل، وبناء عليه ينبغي على المرء ألا يميز بين المتصارعين في الحرب بناء على العدد، بل بوساطة التفوق والممارسة والبراعة هناك، ولئن كان الجيش الذي يتبعك جيشاً كبيراً، إنه لا يتفوق على الجيش الوطني إلا قليلاً، وصحيح أن الجزء الأعظم من الجيش المحلي مقسم وموزع بين أجزاء كثيرة من المملكة الرومانية، فإن الأصح أيضاً أن قوات كونراد قطع من الدهماء، وأعداد كبيرة من غير العسكريين، هل يعتد بقطع من الأغنام، تزهو بعشرات ألوفها، إذا ما صادفت أسداً واحداً متوثباً عليها تتبعثر، أولست غير مدرك أنك مثل عصفور تحت سلطتنا؟ أولسنا إذا ما رغبتنا، فإنك ستهلك مباشرة؟ خذ بعين التقدير أن الذين يمتلكون هذه البلاد هم الذين جاب أجدادهم بأسلحتهم جميع أنحاء الأرض، وأصبحوا سادة عليكم أنفسكم وعلى كل عرق آخر تحت الشمس، وقدروا أيضاً أنكم لن تعلق متن السفينة الامبراطورية، ولن تنفذوا بيننا ما تسعون إليه، لكن أرجل

خيولكم سوف تحملكم عائدين على الطريق نفسه، ويجب ألا تلومونا إذا
ما جعلنا من أنفسنا غير لطفاء جداً مع الذين رغبوا باقتراف الاثم
والعدوان، لأن اقتراف الاثم والعدوان ليس مثل الأخذ بالثأر والانتقام،
فالأول يصدر عن تقدير خاطيء، بينما يقود الحذر إلى الآخر، ويعطينا
تملكنا الماضي الحق باستحواذ أي أرض سوف تسترد من الأتراك
المجاورين، وفي الحقيقة سوف يملك الرومان هذه الأراضي بدون
صعوبة، والذي لم نستطع تحمله هو مطالبة شعبنا [بمقاتلة الألمان]، ومع
هذا سنجازف الآن بالعمل فوراً بالذي تحثنا على عمله».

وعندما سمع كونراد بهذا، وعلم بالوقت نفسه بالبلايا التي نزلت
مؤخراً بالألمان، اعتلى ظهر عبارة بائية كانت مربوطة هناك على
الشاطئ، وجاز مضيق داماليس (٥٨) Damalis ، وبسرعة وصل
إلى الشاطئ المقابل، ذلك أن واحداً من البرابرة المعاندين قاد الرجل
وأرشده، ومع أن البربري يتباهى ويتفاخر بلا حدود في حالات الرخاء،
لكنه يتواضع ويتذلل في حالات النكبة أكثر من اللازم، فقد فكر
الامبراطور في اذلاله أكثر، ففعل مايلى: لقد أرسل عدداً من الرومان إلى
ساقة الجيش الألماني، فأفسدوا بالرشوة عدداً لا يحصى من أعيانه ليسحبوا
ولاءهم لكونراد.

وما ان لاحظ كونراد هذا، لم يعد كما كان من قبل الرجل الفائق
المهارة، فكتب إلى الامبراطور يسأله أن يبعث إليه بواحد من الرومان
ليقوده على الطريق، ويوجهه بأمان، وجرى ارسال الذي كان يشغل
وظيفة أكولاوثوس (٥٩) Akolouthos ، ووجهه للبحث في
اقامة حلف مع كونراد، وبعدما دخل الرومان والألمان في نقاش طويل،
توجب على كونراد الموافقة على اقامة تحالف مع الامبراطور، لكن مقابل
ثمن كبير جداً، إذا ماتوجب عليه الانضمام إلى الامبراطور في القتال ضد
الأتراك، وأخبر ستيفن (الأكولاوثوس) كونراد أن أمامه طريقين، والذي

عليه هو أن يختار أيهما ليتابع سيره عليه، وبعدما تشاور كونراد مع أتباعه، رفض التحالف واختار الطريق الذي يقود إلى فيلوميلون.

وسار الألمان حتى وصلوا إلى ميلانغيا Melangeia ودوريليون Dorylaion [اسكي شهر] ولم يعق سبيلهم عائق مزعج، وعندما وصلوا إلى هناك هاجم تركي اسمه ممبلينز (٦٠) Mamplanes مع قوة صغيرة، مقدمة جيشهم، ليختبر قوتهم وليعلم أي نوع من النظام يتبعون، وعندما ظهر أمامهم للوهلة الأولى، زحف الألمان بشكل فوضوي، واستبد بهم حماس شديد وفوضى، واندفعوا نحوهم، وبما أن الألمان لم يكونوا بعيدين كثيراً عن معسكرهم، أدار الأتراك ظهورهم وتظاهروا بالفرار، وعندما أصاب الانهك الفرسان الألمان، وباتوا بعيدين عن المعسكر، قام الأتراك بهجمات سريعة وقتلوا الخيول والرجال، وتكرر حدوث هذا الشيء نفسه مراراً، وألقى برعب لاحدود له في قلوب الألمان، وبات من الممكن آنذاك ملاحظة أولئك الذين كانوا مفرطين من قبل في الغرور، كيف أنهم عندما هوجموا بأسلوب وحشي لا يمكن مقاومته، قد باتوا عاجزين بجبن وضعة عن فعل أي شيء أو التخطيط له، ثم إن كونراد (وكان شجاعاً في الحرب) اندفع ضد الأتراك، ففقد بشكل خاص الخيول السريعة التي أهداها له الامبراطور، وكاد نفسه أن يقع أسيراً في أيدي هؤلاء البرابرة.

١٧- وبينما كان الألمان في هذه الضائقة، كان [لويس السابع] ملك الفرنسيين (حسبما جاء بالتقارير قد عبر الدانوب وتقدم أكثر) قد عزم على ألا يصبح بالضرورة وقحاً مثل كونراد، فقد رحب بالذين قدما إليه من عند الامبراطور، وأقصد بذلك السيئاتوس ميخائيل باليولوجوس، وميخائيل الذي كنيته براناس وبها يدعى، ووعد بحسن السلوك مع الامبراطور، ولوحظ أنه لم يلحق أي أذى بالرومان منذ ذلك الحين، ولا أستطيع القول فيما إذا كان قد تلقى درساً مما أصاب كونراد من سوء

حظ، أم ان أخلاق الرجل كانت بشكل طبيعي هكذا! ولهذا أنهى حديثه مع الرسولين معبراً عن بهجته للاستقبال العظيم من جانب الامبراطور، وعندما بات قريباً من بيزنطة، أرسل رسلاً إلى الامبراطور واعداً بمزيد من الصداقة، ووافق على التعاون معه في المسائل الهامة، وإذا كان من المفيد لهما الالتقاء مع بعضهما والاشتراك في بحث في القصر، لم يرغب في اهمال ذلك، وأصغى الامبراطور باهتمام إلى هذه الرسائل، ووجهه للقدوم مطمئناً.

ولدى وصوله، استقبله هناك رجال يمتون بصلة القرابة إلى الامبراطور وبالمكانة، وكانوا يحتلون وقتها أهم المناصب، وكان عليهم اصطحابه إلى الامبراطور في أبهة، ومنحه التشريف اللائق به، وعندما بات في داخل القصر، كان الامبراطور جالساً على عرش مرتفع، وقدم للويس مقعداً منخفضاً، وهو الذي يسميه الناطقون باللاتينية كرسيّاً، وبعدما جلس عليه تكلم وسمع ما هو مناسب، ثم غادر إلى الربض خارج الأسوار، الذي تسميه العامة — كما قلنا — فيلوباشن، ليقيم هناك، وذهب بعد وقت قصير مع الامبراطور إلى قصر بلاشرين في جنوب المدينة (٦١)، ليتفحص هناك الأشياء الجديرة بالتفحص، وليشاهد الآثار المقدسة في الكنيسة هناك، وأعني بذلك الأشياء التي كانت متعلقة بجسد المسيح، والتي هي علامات حماية ربانية للمسيحيين، وبعدما أنجز هذا كله في بيزنطة وأعطى العهود بالأيان أن يكون صديقاً للامبراطور وحليفاً مادام حياً، عبر هو بدوره إلى آسيا (٦٢).

١٨ - لقد كان هذا ما حصل، وقام الامبراطور بترقية شخص اسمه نيقولا وكنيته موزالون Mouzalon إلى عرش البطريركية (٦٣)، وكان منتمياً من قبل إلى النظام الرهباني، لكنه بعدما تسلم عرش الكنيسة القبرصية، استقال عن طوعية منها، لكنه ما ان تولى الادارة حتى انفتح كل فم ضده، وادعوا انه اعتلى العرش بشكل غير شرعي،

بسبب أنه تخلّى من قبل عن الرهينة وعن الكنيسة المعينة له، وكان في البداية عنيداً وغير راغب بالتخلي عن العرش، لكن ما إن اتخذ الامبراطور قراراً حول المسألة، حتى أدرك [موزالون] أنه اختار الجانب الخاسر، ودون أن ينتظر فحصه ثانية، تخلّى عن العرش، وتابع العيش بمثابة فرد عادي، وعين مكانه ثيودوتوس Theodotos ، الذي كان عميق الخبرة في النظام الصوفي (٦٤).

وكما ذكرنا من قبل، كان الألمان قد هزموا مراراً من قبل الأتراك، وفقدوا كثيراً من رجالهم، وما إن تخلّوا عن المرور خلال فيلوميلون، حتى سارعوا بالعودة، ولدى وصولهم إلى نيقية [إزنيق] التقوا هناك بالفرنسيين الذين كانوا سائرين على الطريق، والتقوا أيضاً بالملكين الآخرين اللذين كانا قد أحضرا معها قواتاً كبيرة:

وكان واحد منهما يحكم أمة التشيك، وكان فيما يبدو، قد عين ملكاً من قبل كونراد، وكان الآخر ملك البوليسيين، الذين كانوا شعباً سكيثيا Scythie ، وقطنوا إلى جانب الهنغار الغربيين (٦٥).

وعندما اتحد الجيشان معاً، تردد بشكل مكشوف كلمة عابرة اعتاد الفرنسيون على استخدامها وتلفظها وإطلاقها على الألمان، ومعناها شيء يشبه «الفقاعة الألمانية» (٦٦)، ولما كان لهذا الشيء أصله الصادر عنه، فسأبى ذلك على الفور:

إن أسلوب هاتين الأمتين في القتال ليس نفسه، فالفرنسيون قادرون بشكل خاص على امتطاء ظهور الخيل في نظام جيد، والقتال بالرمح، وخیالتهم متفوقة على الألمان بالسرعة، والألمان — على كل حال — أقدر على القتال على الأقدام وأفضل من الفرنسيين، وهم ممتازون في استعمال السيف الكبير، ولذلك عندما كان الألمان يقومون بحملات عسكرية ضد الفرنسيين، فإنهم كانوا يرتابون بقدرة خیالتهم، ويصرّون على خوض

الحرب على الأقدام، وكان الفرنسيون يواجهون خيالتهم غير المنتظمة ويهزمونهم، وبعدها كانوا يطاردون القسم الأكثر خبرة من الألمان، كانوا يعودون بالكرة على الذين يسرون على الأقدام، ومع انهم كانوا أقل منهم كثيراً بالعدد، كانوا يسخرون منهم بالعبرة السالفة الذكر، لأنهم في الوقت الذي من الممكن لهم فيه القتال مع الخيول كانوا يختارون الحرب على الأقدام، وكما قلنا تكرر اطلاق ذلك من قبل الفرنسيين على الألمان، مما أغضبهم كثيراً.

وبناء عليه، وبسبب أن المخاطرة في أخذ المركز الثاني بعد الفرنسيين على الطريق كانت تهددهم، فإنهم ساروا معاً (٦٧) حتى فيلادلفيا، وعندما لم يعد كونراد قادراً على تحمل السخريّة منه من قبل الفرنسيين، قرر العودة، فكتب إلى الامبراطور وكشف له عن خطته، ولما كان مانويل يرغب في انفصال الملكين عن بعضهما بعضاً، ولتعاطفه مع الرجل، أجابه بما يلي:

«ينظر الرجال الذين يدعون أنهم ازدادوا حكمة بالعادة إلى المسائل، ليس وفقاً لدورة الحظ، بل على انفراد، بعيداً عن التبدلات المفاجئة، ولهذا عندما كنت موفقاً محظوظاً، قررنا عدم معاملتك فوق قدرك وقيمتك، والآن بما أنك في حالة بائسة جداً، إننا لن نتردد بالترحاب بك عائداً مع الأشياء نفسها التي كنا متشوقين للقيام بها على شرف قريب، وحاكم للأمم كثيرة، ولنتشاور معاً تجاه الأوضاع الحاضرة، على أساس الأسباب المذكورة، وكذلك لأننا ندين بدين واحد، وبالنسبة لك لأدري كيف استهترت، ونظرت بقليل من الأهمية نحو ما كان يمكن أن يكون مفيداً لك، واخترت شيئاً أقل فائدة، لكن طالما انه من غير الممكن تغيير ما قد حدث، تعال إلينا بدون ابطاء، ودعنا نفكر، على الوجه الأفضل، ما الذي بقي ممكناً لنا، وما الذي لم نخسره حتى الآن، للحظ ميزة التغير المستمر، وهو لم يقف قط جامداً، فإذا ما جنى أحدهم في البداية شيئاً،

من الممكن له أن يمتلك الكل، لكن ماهلك في الماضي، من غير الممكن إعادة ثانية، ومادامت أمورك ممكن اصلاحها بطريقة ما، أسرع للامساك بها هو سيكون مفيداً لك».

١٩- على هذه الصورة انتهت الرسالة. وكان كونراد قد أدرك من قبل حماقته، ولكن بما أنه لم يعرف ما الذي ينبغي فعله، تبع بدون ارادته الفرنسيين، ولدى وصول رسالة الامبراطور إليه، آمن أن هذا الحدث جزء من الحظ، فتقبل نصائحه بالسرور وعاد مسرعاً، ولدى وصوله إلى الهالسبون، جاز إلى تراقيا بالعبارة من هناك، وقابل الامبراطور الذي كان مقيماً هناك، وعاد إلى بيزنطة معه [شتاء ١١٤٧-١١٤٨]، وتتابع هناك أعمال التسلية الواحد تلو الآخر: مساكن امبراطورية، ومشاهد متنوعة، وسباق خيل، واستقبالات فخمة، وبذلك زال ارهاقه الجسدي ونقه.

وبعدما زود بما يكفي من المال، انطلق إلى فلسطين مع عدد من السفن الحربية، وقاد سفينته نقفور داسيوتس Dasiotes ، وأمن بقية الخدمات، والتقى هناك ببقية الملوك، وأدى طقوسه المطلوبة عند ضريح المسيح المانح للحياة، وبينما انطلق الآخرون كل منهم نحو وطنه بخير ما يمكن، رحل هو من هناك مع السفن المشار إليها، ورسا عند سالونيك، ورأى الامبراطور هناك للمرة الثانية، واشترك مجدداً معه في مناقشات ومحادثات، وذكره الامبراطور بما جرى الاتفاق عليه من قبل، وكان هذا قد قضى بأن تعود ايطاليا [أي أبوليا وكالبرا] إلى الامبراطورية [بيرثا] ايرين، لتكون هدية زواجها [بائنة] لأنها كانت قرية [كونراد] وهو الذي خطبها إلى الامبراطور، وبعدما وثق هو وفردريك اتفقاها بالأيان الاضافية، غادرا الأراضي الرومانية، ذلك أن أعمال كونراد واجهت نهايتها هناك [شتاء ١١٤٨-١١٤٩] (٦٨).

ووقع شيء — كما يلي — للملك الفرنسي أثناء عودته من فلسطين [١١٤٩] مع سفن رست هناك بأعداد كبيرة، فقد عرض للنقل بالأجرة إلى أوروبا لأشخاص رغبوا بذلك، وكانت هناك سفن صقلية طافية على وجه الماء في تلك الجوار، وكانت هذه السفن قد قامت من قبل بالاغارة على الأراضي الرومانية، وكان هناك أسطول روماني يقوده كوروب Chouroup ، قد قابل هذه السفن وقام بمهاجمتها، وبينما الأسطولان يتحاربان، حدث أن أبحرت سفينة الملك إلى وسطها، ولما كان الرومان متفوقين بالقتال، كاد الملك أن يقع بالأسر، للسبب التالي:

كان عندما — كما ذكرنا — التقى بالسفن الصقلية، نزل من سفينته، وصعد إلى ظهر مركب صقلي، ولولا أنه عندما شعر بالخطر، تم رفع علم واحد من حلفاء الرومان، لكان سقط سريعاً في أيدي القوات الرومانية، وبعدما فقد عدداً كبيراً من أتباعه الذين أصبحوا ضحايا الحرب، جرى انقاذه نفسه بصعوبة، وما ان قام بتقديم شكوى إلى الامبراطور، حتى كسب حرية الأسرى، واستعاد كل ما كان قد أخذ منه، وعلى هذه الصورة انتهى تدخل الأمم الغربية في الأراضي الرومانية (٦٩).

٢٠- وبعد عودة كونراد إلى بلاده مالبثت أن وافته منيته، وذلك دون اكمال انجاز أي شيء مما وعد به الامبراطور، ووصل إلى السلطة بعده فردريك (٧٠)، لكن لماذا آلت مملكة كونراد الألمانية إلى فردريك، سنقدم الرواية التالية:

قام الملك الألماني هنري [الخامس] بسجن أبيه [هنري الرابع] وهو على قيد الحياة، وهو الذي أشعل الحرب مع أسقف روما [البابا باسكال الثاني]، وهو أيضاً استولى على الملك بشكل غير شرعي، ولهذا السبب انتقم الألمان منه، عندما مات، حيث قرروا عدم منح السلطة لأولاده، (كان أولاده كونراد هذا ووالد فردريك) (٧١)، بل استدعوا إلى السلطة

رجلاً عجوزاً هو لوثر (٧٢) [الثاني]، ومنحوه السيادة على الألمان، ولكن بما أن الآخرين [كونراد وفردريك الأكبر] لم يستطيعا تحمل حرمانهما من ملكهما الموروث، قررا محاولة الثورة، وعندما عرف لوثر بهذا، وكان بالحقيقة عجوزاً، ومتقدماً بالسن كثيراً، كما كان يمتلك طبيعة نبيلة، ولا يعرف كيف يتكلم ويعمل إلا ببساطة، وافق على نقل الملك منه لهما عندما يتوفى، وإثروافته، آل الملك الموروث إلى أسن الأخوين، وأعني به والد فردريك، مع ذلك بما أنه كان مصاباً بالجرح في إحدى عينيه، فقد اختار أخاه كونراد عوضاً عنه، ووافق كونراد في البداية، بعدما أقسم، أنه عندما توافيه المنية سينقل السلطة إلى فردريك الأصغر، لذلك عندما كان — كما ذكرنا — على فراش الموت، وضع التاج على رأس فردريك، ومضت هذه الأمور على هذه الصورة تقريباً، وإثر ذلك كانت بداية الحروب الصقلية.

الكتاب الثالث

١ - كان روجر في البداية كونتاً بين الكونتات (١)، غير أنه كان رجلاً فعالاً ونشطاً، بارعاً في التصدي للمشاكل، وماهراً في تحريك ما كان مستقراً، وأقرض مالا إلى وليم دوق لومبارديا [أي أبوليا] الذي كان هو تحت سلطته، وكان منطلقاً إلى فلسطين، وعلى هذا الأساس تسلم حكم لومبارديا بالضم (٢)، وبعدما مارس الطرد ضد أسقف روما، بطريقة أنا مقبل على حكايتها، تم تكريسه ملكاً من قبله.

وعندما سمع الجالس على العرش [البابوي] في روما أن روجر قد تملك لومبارديا، امتلاً حنقاً تجاه هذا العمل الوقح، وادعى أن هذه البلاد تعود ملكيتها منذ زمن طويل إلى كنيسته (٣)، وقام لوثر بغزو لومبارديا بجيش كبير، وذلك بعدما ادعى أنه تعرض للتهديد، وأنه يعارض سلب البابوية وأهانتها، وقد احتل جزءاً عظيماً من البلاد، وبات على مقربة من طرد روجر من جميع البلاد، لكن روجر نسج — كما هي العادة — خططاً تأمرية، وطرد لوثر بلا قتال من هناك، وأنا سأحكي فيما يلي كيف حدث هذا:

كان للوثر قريب عن طريق الزواج، وكان صاحب سلطان عظيم في بلاطه، وعد من قبل الألمان الثاني بعد لوثر، ودون معرفة من لوثر، اتصل به روجر، فأفسده بالمال، وأقنعه أن يعطي إشارة انتهاء الحرب إلى الجيش الألماني، ولم يكن هذا بنفخ البوق أو أي شيء مشابه بل وفق عادة البرابرة وحماقتهم، وكان وفقاً للتقاليد يجري عزف نغمة محددة في المعسكر، بعدها يكون غير مسموح للعساكر بالبقاء، ولكن بمجرد سماع ذلك، يفترقون ويقوم كل واحد بالاستعداد للعودة، وسعى قريب لوثر خيانة إلى أن يتم عزف هذه النغمة بشكل مفاجيء، وبذلك سبب ارفضاض الجيش

وتبعثه مباشرة، وغضب لوثر مما حدث، وحاول إيقاف عملية اندفاع الحشود هذه، بايقاف خمسمائة رجل للقيام بذلك، لكنه لم ينجح، وتسلس الألمان وتبددوا، متجاهلين العقوبات والحرمان معاً، واستولى اليأس والرعب على لوثر، ومالبث أن أصابته حمى حادة، فارق بسببها الحياة، وطبقاً لما ذكرناه من قبل خلفه على الحكم كونراد (١٤).

٢- وما ان حدث هذا حتى شدد روجر من قبضته على لومبارديا مرة ثانية، وقام أسقف روما، الذي لم يستطع تحمل هذا، بإقامة تحالف بينه وبين الألمان، وسارع بالعمل ضد روجر بحماس شديد [١١٣٩]، غير ان روجر ظهر بشكل مفاجيء، وعسكر أمامه، فهزم أتباعه، وأخذ أسيراً، وعندما أصبح في قبضة يده، أمر بنصب خيمة من الكتان، وجعل الأسقف يجلس فيها، وألقى بنفسه أرضاً ووجهه نحو الأسفل، ثم زحف على قدميه ويديه نحوه متظاهراً بطلب المغفرة لجريمته، وسائلاً تكريسه ملكاً، واستقبله الرجل الآخر عندما اقترب منه (ماذا كان بإمكانه أن يفعل غير هذا؟) وعندها سماه ملكاً، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، بات حاكم لومبارديا يحمل لقب ملك (١٥).

وعندما نجح روجر في خطته، أرسل رسلاً إلى الامبراطور جون — وكان مايزال على قيد الحياة — يسأله الحصول على عروس ذات دم امبراطوري، لابنه، ولم تحقق السفارة هدفها عندما توفي جون، واتصل بعد مرور بعض الوقت بمانويل، الذي كان حاكماً للامبراطورية آنذاك، وصنع الطلب نفسه [حوالي ١١٤٣-١١٤٤]، وبناء عليه توجه باسيل الذي كنيته اكسروس Xeros إلى صقلية للبحث في هذه المسألة مع روجر، وبعدما أغواه بالذهب، وعده ببعض الأشياء غير المرغوبة، كان على رأسها أن يكون في المستقبل كل من الامبراطور وروجر على سوية واحدة بالعظمة، وتلا ذلك قيام صراعات كبيرة، وعاد اكسروس إلى بيزنطة ليموت مباشرة، وبذلك لم يدفع عقوبة عمله المتسرع، وعالج

الامبراطور مسألة سفارته بمثابة عمل عابث، وأزاح روجر نفسه من تفكيره (٦)، وغضب روجر، وعدّ المسألة مسألة خداع وغش، فأمر ببناء اسطول، ووضعه على أهبة الاستعداد، ينتظر لحظة مناسبة يتمكن فيها بطريقة مامن الانتقام من الرومان.

ونجح البربري في خططه، وفي ذروة تدخل أمم الغرب وخرقها للأراضي الرومانية، قام بنهب: كورنشا، ويوبيا Euboea ، وبيتين Boeotia في طيبة [١١٤٧-١١٤٨]، وبما أن الجيش الروماني كان مشغولاً بالمشاكل التي يواجهها أمامه، فقد قام البرابرة بمهاجمة المدن المذكورة، دون أن يعترض سبيلهم أحد مطلقاً، وشحنوا سفنهم بالأسلاب، وعبر من هناك إلى كيركيرا Kerkyra (كورفو)، فاستولى عليها عنوة، مدعياً أنها ملكاً له، ثم حكمها حكماً مطلقاً (٧)، ولدى سماع الامبراطور بذلك غضب غضباً شديداً، وأعمل فكره في كيفية تمكنه من الانتقام من روجر، وأن يفرض عليه العقوبة التي يتطلبها مثل هذا العمل الوقح، وأمر على الفور باعداد اسطول فيه خمسمائة سفينة حربية، مع ألف ناقلة للخيول، وقام بشحن الاسطول، وفي الوقت الذي أخذ فيه الطريق البري، أبحر الأسطول وتجوّل هناك بأقصى سرعة ممكنة.

٣- وما ان وصل الامبراطور إلى فيلبه [بولفديف] حتى دأبت اشاعة وعمت أفادت ان جيوش الكومان قد عبرت الدانوب، وكانت تقوم بنهب وسلب كل ما كان أمامها، حتى ان هذه الجيوش قد استولت على مدينة بارزة، قائمة على شاطئ الدانوب [١١٤٨]، وبهذا القدر والنوع كانت فحوى محتويات الاشاعة، لهذا غير الامبراطور اتجاهه، وخف نحو الدانوب من خلال أنكيالوس Anekialos [بوموري Pomorie]، وبما أنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى هناك، فقد شغل نفسه بالتجوال بالسهول هناك صائداً، لأن كميات هائلة من الوحوش قطنت على شكل قطعان في تلك السهول، ذلك انها كانت مهجورة تماماً وغير

مسكونة منذ زمن طويل.

وفيما هو مشغول هكذا، نقل إليه خبر أن الكومان كانوا يسوقون أمامهم في طريق عودتهم غنائم من الأراضي الرومانية، وأنهم عبروا للتو نهر الدانوب، وكانوا معسكرين على مقربة منه، وعندما سمع بذلك، بادر مسرعاً بالقدر الممكن نحو الدانوب، وصدف أن وجد هناك قارباً، من النوع الذي يصنع من جذع واحد، ويترك بالعادة على الشواطئ هناك، وأمر باحضار القارب إليه، غير أن الملاح كان عنيداً، وعندما سمع بأن الامبراطور يدعو له قال: «لو كان الامبراطور مهتماً بشؤوننا، لما سقطت ديمنزيكوس (٨) Demnitzikos (فهكذا كان اسم الحصن الذي استولى عليه الكومان كما سلف بنا الذكر) ولم تنهب ممتلكاتنا وتحمل ثم تؤخذ بعيداً من قبل الكومان دونما اعاقاة»، ولدى سماع الامبراطور هذا الكلام، غضب غضباً شديداً، وأعلن: «تأكدوا، انني لن أكون الرجل الذي عهد الرب إليه بشؤون الرومان، إذا لم يدفع الكومان الغرامة عن عملهم الطائش».

وعلى هذا ترك بقية الجيش يقوم ببناء المعسكر هناك على الشواطئ، ولما كانت السفن لم تصل بعد — كما ذكرنا من قبل — قام بجمع القوارب وربطها مع بعضها، وعبر الدانوب مع خمسمائة من الأتباع، وواجه هناك نهريْن كبيرين، ولعدم رؤية قوارب هناك يمكن استخدامها للعبور، أمر الذين كانوا معه أن يربطوا القوارب التي كانت على سطح الدانوب إلى ذيول خيولهم، ومن ثم نقلهم إلى النهرين المذكورين، ولدى انجاز هذا العمل، تمكنوا من العبور بسهولة، وجالوا بعد ذلك في طول المنطقة إلى أن وصلوا إلى جبل تلي — أورمان (٩) Teli-orman، الذي امتد على مقربة من حدود روسيا، ووجد معسكر الكومان خالياً تماماً من الرجال، (لأنهم انطلقوا راحلين منذ وقت قصير) ولذلك تابعوا تقدمهم.

وبما أن النهار كان قد شارف على الانتصاف، وما من أحد من العدو قد ظهر، اختار الامبراطور الكومان الذين كانوا يقاتلون إلى جانب الرومان، مع قائدهم جفردوس Giphardos ، وكان رجلاً مجرباً في عدد كبير من المعارك، وأرسلهم لملاحقة الأعداء، ولتتبع آثارهم، والاشتباك معهم عندما يكون ذلك ممكناً، وسار خلفهم بخطوات واسعة، لذلك لم يمض وقت طويل حتى اصطدم جفردوس مع العدو، ونظراً لعدم جرأته على الاشتباك معه (لأن عدد العدو قد ظهر له لا يعد ولا يحصى) أرسل إلى الامبراطور ورجاه أن يقدم بأقصى سرعة ممكنة، وعندما سمع الامبراطور بهذا، بادر إلى حمل سلاحه، وحملت القوة كلها أسلحتها، وانطلقت نحو مطاردة الكومان، ووصل الرومان إليهم ودنوا منهم، وفي البداية وقف الكومان صامدين لاستقبالهم، وعبأوا صفوفهم، ورغبوا في القتال للدفاع عن أنفسهم، وعن الغنائم التي ساقوها معهم، وتطور الصراع، من حملات كرّ وفرّ إلى اشتباك عنيف على كلا الجانبين، وكان عدد من الرومان شجعاناً يومذاك، غير أن الامبراطور كان أشجعهم، وعندما رصّ العدو صفوفه، انقض عليه بكل قوة وحمل برمحه فخرق سور دروعه، وقتل عدداً كبيراً من الأعداء ليس بشكل فردي، بل ازدواجي، وعندما تمّ صدّ العدو بحملة الامبراطور التي لا تقاوم، اندفع الرومان نحوهم بكامل القوى، وحققوا حملة رائعة، حيث سقط عدد كبير من البرابرة قتلى، وتمّ أسر مائة منهم، كان بينهم لازاروس Lazaros ، وهو رجل احتل مرتبة عالية في الشجاعة، وكان محترماً من قبل المقدمين بينهم، وحفظ باقيهم سرعة خيولهم، وانتشار أحرّاش الجبال، التي توفرت وامتدت بأعداد كبيرة، واسترد الرومان منهم جميع الأسلاب وعادوا، وحدث في هذا الوقت أيضاً أن تم تحرير سوتاس Sotas ، الذي كان —كما ذكرنا من قبل— [كذا] واسع الثراء عالي الأسرة، وكان قد وقع في أسر الكومان، وقد عاد إلى معسكر الرومان بمثابة لاجئ.

٤- بعدما حقق الامبراطور هذا النصر السريع والحكيم. تقدم الامبراطور نحو الأمام، ليعد العدة للحرب مع الصقليين، وبالنسبة لمسألة التعب العسكري، كان لا يظهر عليه التعب، مع أنه — كما اعتقد — لم يكن أدنى من أي عسكري عادي، وليس حتى من الأباطرة أو القادة، وتقدم يفكر ببراعة حول صقلية وجميع ايطاليا، لكن بدا أن القدر رفض توقعاته المخلصة، وفهم بشكل جيد كيف ينهي قيادة علمية بشكل مضاد تماماً، بدون جهود، لأنه مع أن الكومان عادوا في الوقت نفسه، وكان هو نفسه قد وصل في موسم مناسب إلى المنطقة التي منها يتم الابحار إلى [كيركيرا]، لكن الأسطول قد تأخر، على كل حال إما بسبب ريح غير مواتية أو بسبب جهل أميراله بالأمور، ثم وصل متأخراً عن الوقت المناسب، فقد كان قد أقلع من موانئ بيزنطة في الربيع، غير أنه وصل إلى الامبراطور في الخريف، لذلك باتت أمور الرومان في وضع سيء، وصعد الامبراطور ظهر إحدى السفن الحربية، وأقلع الأسطول كله للعبور فوراً، لكن وقوع عاصفة غير متوقعة مع رياح شديدة أعاقته مشروعه، وكان البحر واسع الامتداد هناك، والابحار في الحقيقة خطير، لاسيما في الشتاء، ولهذا توجه إلى مكان قريب من بيرهويا Berrhoia [فيرويا إلى الغرب من سالونيك] وأمضى الشتاء هناك [١١٤٨-١١٤٩].

وأرسل قريبه بالمصاهرة ستيفن الذي ينبذه الناس بلقب كونتوستيفانوس [ستيفن القصير] [لأنه كان قصير الحجم]، أرسله مع الأسطول كله إلى كيركيرا، التي — كما ذكرنا — كانت آنذاك بأيدي الصقليين، وذلك بغية استردادها إلى الرومان، وبعدها وصل إلى المدينة وجرب كل نوع من القتال ضد أسوارها، وبينما كانت الأمور ماتزال متأرجحة، فقد حياته بطريقة أنا مقبل على حكايتها، فقد أنشأ سلباً طويلاً جداً، امتد أعلى من الأسوار الخارجية، وبوساطته قاد الجيش ضد

المدينة، وتساقطت مجموعات هائلة من الحجار المقذوفة من المجانيق في المدينة فوق السلم، وحطمته بالضربات، ونشرت شظاياها في كل مكان، ووصلت إحدى هذه الشظايا إلى الدوق، وأصابته إصابة قاتلة.

وشعر أن منيته قد دنت، وفكر في عقابيل هذا الأمر، مقدراً أن الخبر عندما يصل إلى الطرفين، سيسبب ربما الاحباط إلى الرومان، لكنه سيشجع الصقليين الذين كانوا يتقهقرون، لذلك أمر بتمديده بهدوء على ظهر سفينة، وأن يعودوا إلى القتال، وقام باستدعاء ابنه أندرونيكوس، الذي كان أصغر أولاده، والذي كان مقدم حملة البلطات، وأشار عليه أنه ينبغي على الرومان عدم التخلي عن الشجاعة، بل عليهم الآن النشاط بشكل خاص، لأنهم وقفوا غير بعيدين عن تحقيق آمالهم بالاستيلاء على المدينة، وكان هذا — كما اعتقد — تعبيراً عن روح الرجولة والشجاعة الحربية والوطنية، لكن ما ان كمل العمل وانتشر الخبر وعم بين الجميع، حتى سارت الأمور جميعها بالاتجاه المعاكس، فقد صدّ الصقليون الرومان، مع أنهم كانوا قد اعتلوا فوق الأسوار، وسادت الفوضى واستولى الاضطراب على كل شيء.

٥- وكانت أحوال الرومان كما يلي: كان الامبراطور حزينا لدى سماعه بهذا، وعين أميرالاً مكانه، وأمره بالحفاظ على الحصار دون انقطاع، وبما أنه لم ينتج شيئاً يستحق الملاحظة، (لأن خصاماً تفجر فجأة بين الرومان والبنادقة، الذين قاتلوا كحلفاء لهم، وقد حرم هذا الخصام الجيش الروماني من النجاح) صمم الامبراطور نفسه أخيراً على الذهاب إلى هناك والانشغال بالحصار، وقام أولاً بانهاء الخصام فيما بين البنادقة والقوات الرومانية، بايقاعه العقوبات المناسبة بحق المجرمين على كلا الطرفين، وإثر هذا هاجم بقوة الأسوار، وهكذا كان مشغولاً [١١٤٩].

غير أنه ما إن علم روجر طاغية الصقليين أن الامبراطور يصرف وقته

في كيركيرا حتى أرسل اسطولاً ضد الأراضي الرومانية، عازماً على ارغام الامبراطور على ترك الحصار، بإعماله العيث هناك، وقام الامبراطور، بفصل جزء من السفن التي كانت معه، وسارع بارسالها تحت قيادة كوروب، لمواجهة الصقليين، عندما — كما قلت — يهاجمون الأراضي الرومانية، وقام هو نفسه بتشديد الحصار على الصقليين بحدة أعظم، وأوقف أمام الأسوار سلام عملاقة امتدت من السفن، وقاد الجيش صعوداً بصعوبة ومشقة، وانكسر أحد السلام تحت ضغط ثقل الذين صعدوا عليه، وقذف بكثيرين إلى البحر، حيث لفظ هؤلاء التعساء أرواحهم، مخلفين إلى الرومان كمية كبيرة من الشجاعة، ومع أن الصقليين رأوا الرومان قد صاروا فوق الأسوار وفيها، كانوا على غير استعداد للتخلي عن المدينة للامبراطور، وسارعوا نحو الحصن بأقصى ما أمكنهم، ومن هناك كانوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم، وأخذوا يسقطون على الرومان الحجارة والنشاب وأي شيء طالته أيديهم، مثل زخات المطر الساقطة من السماء، ذلك أن القلعة كانت ذات ارتفاع شاهق، وكان من المتعذر اصابتها بحجارة المنجنيق.

ثم إن الامبراطور قام وهو يغلي غضباً، بسبب سوء الحظ الشرير هذا، فوقف عالياً فوق ظهر السفينة التي كانت تحمله، وأمر المجذفين بالاندفاع بالسفينة نحو الأسوار، في محاولة منه — كما أعتقد (١٠) — للهجوم بنفسه، لكن بعضاً من القادة ومن أقربائه بالدم، بذلوا جهد طاقتهم، لايقافه والحيلولة بينه وبين تنفيذ رغباته، إن هذا ما أعتقده، لأنه كان على درجة عالية من الاقدام والشجاعة، ولقد سمعت بعض الناس يتهمه بالتهور، لكن المسألة انه امتلك إقداماً رائعاً وشجاعة فوق الشجاعة العادية، وفي الحقيقة، عندما كان في السادسة عشرة من عمره، أمسك بيديه بكثير من البرابرة وجعلهم أسرى، ولهذا قالت السيدة الألمانية التي تزوج منها [بيرثا—ايرين] ٥ بادراك كامل بأنها انحدرت

من عرق محب للحرب كثيراً جداً، لكنها لم تربينهم، ولم تسمع عن أحد قط قام بالتفاخر بمثل ما أنجزه في عام واحد.

ثم دنت إحدى سفن الاسطول الروماني من أسوار كيركيرا، ولم تكن من السفن الكبيرة المحمولة، كما أنها لم تكن من السفن المنخفضة والطويلة، بل كانت من السفن التي امتلكت ارتفاعاً كافياً وعرضاً مناسباً، وكانت مشحونة كلياً بالخيول، ومليئة بالسلاح، وحملت قوة الريح إلى مكان خاص من السور، كانت أكوام الحجارة تغطي أطراف أرض الشاطئ هناك، مما جعل المكان شديد الصعوبة للوصول إليه، وفي الحقيقة مخيفاً، وصب عليها صخور كل منها بحجم عربة ونشاب وكل شيء كان متوفراً، ولهذا تحلى عنها الذين كانوا فيها بسبب ما حدث، وأصابهم رعب عظيم، وزحفوا مرعوبين تحت ظهر السفينة، وما ان لاحظ الامبراطور هذا حتى بادر فحمل بإحدى يديه ترساً لم يكن من الأنواع العادية التي تتخذ لحماية فرد واحد، لكنه كان من الترسات العراض، التي لم يكن من السهل على الرجل حمله، وأمسك باليد الأخرى وحرك بمهارة الآلة التي تزود بها بالعادة السفينة الامبراطورية، واستهدف من ذلك درأ نفسه من الرمايات التي كانت تأتي من الأسوار، حتى لاتصيبه احداهن، وأسرع نحو السفينة، وبعدما ربطها بالحبال، كان قادراً على جرّها وإنقاذها من المخاطر.

وروي أن الرجل الذي كان معهوداً إليه من قبل روجر بتسيير أمور كيركيرا والدفاع عنها، قال وقتها، وهو يرى الناس من المدينة وهم يقومون بقذف الحجارة نحو الامبراطور:

بحق خلاصكم، توقفوا أيها الجنود عن رمي أي سهم آخر نحو مثل هذا البطل، وإذا مالزم الأمر في تقديم تسويغ لهذا، فأنا نفسي سوف أتحمّل غضب [الملك].

على هذه الشاكلة مضت الأمور هناك، وكان الأسطول الصقلي عندما اصطدم مع كوروب، هزم معظمه، ولم ينج من المخاطر سوى أربعين سفينة، وصلت إلى بيزنطة، وبعدما حاولوا النزول إلى البر هناك، لم يحققوا شيئاً يستحق الذكر، وعندما بذلوا جهودهم في إشعال النار في المستودعات المنتشرة حول منطقة داماليس [جزء من أوسكودارا] عبر القسطنطينية، غادروا المكان والعار يجللهم، وقد فقدوا كثيراً من رجالهم، ثم إن الذين هربوا من المخاطر لم ينجوا تماماً، لأنهم واجهوا سفناً كانت تنقل الخراج العام من كريت، وغدا كثير منهم أسلاباً للقتال.

وتمكن الامبراطور من الاستيلاء على مدينة كيركيرا بوساطة التجويع ووسائل الحصار، ثم انطلق من هناك، وفيما يخص صقلية والأرض الإيطالية، وضع الخطط لاستردادها في المستقبل لصالح الرومان.

٦- واكتشف أنه عندما كان يستعد للحرب في صقلية، عرف الألمان والصرب والهنغار بهذا وانضموا إلى تحالف مع بعضهم بعضاً في سبيل قتال الرومان من الغرب، كما وعرف أن يغني—باسان، الزعيم التركي، قد قرر نهب آسيا بالتعاون مع سلطان قونية، وسارع هنا الامبراطور بنفسه بالتوجه ضد الصرب، وكان متشوقاً لازاحة زعيمهم زوبان الكبير (١١)، الذي كان وقتذاك قد شرع بالنشاط، وأوكل الامبراطور أمر الأسطول كله إلى جون أكسوكوس Axouchos دمستق الجيوش الشرقية والغربية، وأمره أن يقف في أنكونا Ancona (أنكونا جزء من إيطاليا) وأن يتخذها قاعدة ينهب منها إيطاليا، وعلى كل حال، عندما وصل جون إلى نهر فيجوسي Vijose [في ألبانيا] قرر عدم التقدم أكثر، وفعل ذلك إما لأن هذا الدمستق أخفق في مجال الخبرة البحرية، أو أن قادة البنادقة أشاروا عليه بهذا خشية منهم أن يستولي الرومان على إيطاليا، وبذلك يتمركزون بمثابة جيران لبلادهم، وبذلك يستخفون بهم ويقللون من الرغبة بالتحالف معهم، وهكذا فإنه إما لهذا السبب أو ذاك لم ينجز

الدمستق شيئاً مما أمره به الامبراطور، لكن عبثاً أضاع وقته، ولهذا عندما هبت عاصفة مفاجئة (لأن الوقت كان قريباً من الاعتدال الخريفي) فإن كثيراً من السفن التي كانت متروكة ومهملة من قبل الأميرال تحطمت، وفي حين أن السفن التي كانت راسية عند النهر، كان من الممكن سحبها من أحد الطرفين، وتركها واقفة على شاطئ البحر (١٢).

وهاجم الامبراطور بلاد الصرب، وأخضع حصن راسون Rhason، ونهب كل شيء في جواره [١١٤٩] (١٣) وبعدما وضع حشداً لا يحصى من الناس في فوج الأسرى، تركهم هناك مع العساكر تحت قيادة قسطنطين الـ Sebastohypertatos ، الذي يكنىه الناس أنجيلوس (١٤).

وزاد الامبراطور من تقدمه، واستولى على منطقة نيكافا Nikava، التي كانت من ممتلكات زوبان العظيم، وأخضع جميع بقية الحصون التي كان قد بناها هناك، بدون جهد، ووصل إلى غاليتزا (١٥) Galitza، فوجد البرابرة يثقون بأعدادهم الكبيرة وبوعورة الأرض، ولذلك كانوا على غير استعداد للتخلي عن الحصن الذي كان هناك، وأقام الامبراطور معسكره، وأمر رجاله —دون أن يفقد وقتاً— برمي التحصينات بالسهام والحجارة من العرادات، وهكذا تمكن في اليوم الثالث من الاستيلاء عليه عنوة، فوجد فيه حشداً من البرابرة، عاد جزء منهم إلى طبقة الفرسان، والبقية كانوا من العامة، وقد اقتادهم جميعاً بمثابة أسرى.

وعندما وصل في طريق عودته إلى راسون، بعث بهم لاسكانهم في سارديكا Sardika وفي بقية الأراضي الرومانية، وقد أخبره أنجيلوس أن زوبان كان ينتظر الفرصة بعد انسحابه، ليبدأ بقتال الرومان، ولم يلق مانويل سلاحه، وظل مشغولاً بالحرب، لذلك عاد بأقصى سرعة ممكنة، متشوقاً لمفاجئته، لكن زوبان، ما ان سمع باقتراب

الرومان، حتى اندفع نحو الممرات الجبلية، وهرب من الخطر بسرعة هائلة، ودخل الامبراطور إلى المنطقة، وقام في غياب من يدافع عنها بنهبها، وفي أثناء عبوره ألقى النار في أماكن الاستقرار التي أقامها على حذو زوبان العظيم من أجل بناء قصر له، وأحرقها.

٧- وما ان حلّ الشتاء القاسي [١١٤٩-١١٥٠] ولأن الحرارة الجسدية تتمركز في المخلوقات الحية حول القلب، وفي كثير من الحالات يهاجم الجرح الأطراف، رأى مانويل أنه بات من المناسب التفكير بأخذ الطريق إلى بيزنطة، وقام في السنة التالية [١١٥٠]، عندما بات الفصل هو فصل الخريف، في ذلك الوقت الذي تغدو فيه الطرقات في بلاد الصرب بشكل خاص في متناول العدو، ولأن الاخضرار قد غادر الأشجار آنذاك، قام بحشد جيش في نيسوز Naissos ، وعندما عرف هناك أن قواتاً أرسلت من هنغاريا إلى الصرب، تنفيذاً للتحالف، أسرع في قيادة جيشه خلال المنطقة المعروفة باسم لونغوميروس (١٦) Lon-gomeros وذلك بهدف تمكين الجيش الروماني من الاشتباك مع الهنغاريين، الذين كانوا يزحفون على اليمين، ولدى وصوله إلى سافا Sava عبر من هناك إلى نهر آخر اسمه درينا Drina لموجة ينابيعه في مناطق أعلى بعض الشيء، وهو الذي يفصل البوسنة عن بقية بلاد الصرب، والبوسنة نفسها غير خاضعة لصرب زوبان العظيم، لكنها قبيلة قائمة بذاتها، وتحكم بشكل منفصل.

وسأبين على الفور لماذا اصطدم الهنغار بالرومان:

كان بين الصرب شخص بارز، لا أعرف اسمه، وكان أخوه هو بيلوس Belus ، وكانا معاً بارزين بين الصرب، وكان هذا الشخص متزوجاً من أخت زوبان العظيم، لكن لما حدث أن أصيب في إحدى عينيه، بطريقة أنا غير قادر على حكايتها، سافر إلى هنغاريا، وبعد امضائه وقتاً

طويلاً هناك بات عالي المكانة عند الملك غيزا (١٧) Geza بشكل خاص، ذلك انه أسهم في تربيته وتعليمه منذ الطفولة.

وبسبب هذه العلاقات الطيبة، سعى إلى جعل بلاد الصرب خاضعة بالتحالف إلى غيزا، وقد عرض هذا الأمر وناقشه في كل مناسبة ممكنة، وبذلك استطاع اقناع الرجل، بوساطة الطلبات الملحة، وبناء عليه عندما سمع غيزا أن الرومان كانوا يهاجمون بلاد الصرب، بعث بقوات من عنده تنفيذاً لتحالفه مع الصرب، وكانت هذه هي المناسبة التي جعلت الرومان يبدون مشاعر سيئة نحو الهنغار.

وبينما كان الجيش الروماني يتقدم، اصطدم الرومان الذين كانوا يتجولون لجمع المؤن، بالهنغار، وهم على الطريق نحو هدفهم، وجاؤوا وجهاً لوجه معهم، وما ان وصلت الأخبار عن هذا إلى الامبراطور، حتى بادر بارسال جون [كومينوس] (١٨) البروتوسيبياستوس، وأرفقه بقوة لمساعدته، وما ان وقع الاشتباك حتى انهزم الهنغار من قبل الرومان، وفروا إلى أن وصلوا مجرى نهر ستريمون (١٩) Strymon [كذا] فتخلوا عن أثقالهم وجدّوا فارين بدون توقف، لكن الرومان تابعوا اللحاق بظهور الفارين إلى أن وصلوا إلى نهر تارا (٢٠) Tara ، وعندما لم يعد الرومان يلاحظون وجود من يقاومهم، فكروا بالعودة، وأقام الامبراطور معسكراً في وسط الطريق المؤدي إلى سيتزينيتزا (٢١) Setzenitza ، ولم يكن قادراً على معرفة مكان وجود زوبان العظيم، ولهذا مكث بعض الوقت متوجساً، وعندما سمع من الأسرى الصرب أن قواتهم كانت تنتشر وصول الخلفاء الهنغار، الذين دنا وقت وصولهم، حرك جيشه نحو الأمام، ولم يظهر أي خصم أمام الرومان من أي اتجاه حتى وصلوا إلى نهر تارا.

وعندما وصلوا إلى هناك، وبينما كانت الشمس ماتزال تمر بالأفق الغربي، رؤي حشد من الصرب شاكي السلاح، واستولى على الرومان

التعب والرعب، فعادوا لاختبار الامبراطور بما رأوه، وحكم الامبراطور بشكل صحيح أن القوة المشاهدة كانت قوة الهنغار المتوقع وصولهم إلى الصرب، وعلى الفور أعلم كشافة كوروب بما كان يتوقعه قائلاً: «ينوي الصرب الآن الانقضاض بشكل مفاجيء على الرومان» لأنهم كانوا معسكرين غير بعيد عن هاهنا، وبما أن الليل بادر إلى السقوط، فقد وضع خطة هي كما يلي:

لقد كان من عادة الرومان أثناء ذهابهم إلى الحرب، إذا ما أراد الجيش أن يتخذ موقفاً في أحد الأماكن، أن ينفخ بالبوق في أواخر النهار، وكان صوت البوق بالنسبة للحشود إشارة تعني أن عليهم منذ تلك الساعة البقاء في تلك البقعة، وبناءً عليه ولكي يتمكن من خداع الذين يعرفون العادة الرومانية، أمر بالنفخ بالبوق فوراً، غير أنه أفشى بشكل سري إلى القادة على انفراد بما كان قد خطط له: عندما تشرق الشمس، على كل واحد منهم أن ينتقي من الوحدة التي تحت قيادته كل من كان كامل التسليح، وأهلاً لأن يكون بين عناصر قوات النخبة، وأن يقف هؤلاء بكل هدوء بانتظار الأوامر منه، وخشية منه أن يتم كشفهم، أمر بلف الأسلحة بقطع من الأقمشة الرخيصة.

٨- وهكذا فعلوا، وعندما اقترب النهار، غادروهم برفقة المعسكر، وكأنهم ذاهبون لجمع المؤن، ولهذا الغرض أمر بعض الرجال المجردين تماماً من السلاح أن يسيروا في الطليعة ومعهم الكلاب والمذارى، التي اعتاد أن يستخدمها الذين يجمعون المؤن للجيش في البحث عن الأطعمة في مخازن ماتحت الأرض، وأمرهم أنهم عندما يرون العدو زاحفاً ضدهم، أن يفروا حتى يلتحقوا بالرومان القادمين من خلفهم، وبذلك يكونوا أمنين، ومن أجل وصول المعلومات حول ما كان يحدث بالسرعة المتوجبة إلى القادة، أمر قائدين أن يمضيا في المقدمة، وأن يتبعهما على مسافة قريبة أربعة، ثم من بعدهم ستة، وإثر ذلك عشرة، وبعدها عدد

أكبر، وأمر بعدها بمركزة فرقة أخرى من النبالة، وأمرها بمحاربة الأعداء من جانب آخر، وتوجب انه إذا مابداً الصرب بالقتال، أن تقوم الوحدات الأقل عدداً بالفرار، لكن إذا لم يهاجمها أحد، عليها أن تلتزم بالوقوف هادئة أمام المعسكر، وفعل هذا بغية أنه في الوقت الذي يبقى هو فيه مع القوة الأخرى، سيتمكنون من إلحاق الهزيمة بالصرب أولاً، وبالوقت نفسه من الممكن قتل المهزومين بوساطة القوات الخفيفة التسليح.

وهكذا زحفوا نحو الأمام، وقبل أن يتعدوا كثيراً، وصل بعض الكشافة يركضون نحو الامبراطور، وهم يولولون بصوت مرتفع، وفي الحقيقة كانت وجوههم مصفرة من الرعب تمام الاصفرار، وقالوا هناك جيش لا يعد ولا يحصى واقف ومعباً على الطرف الآخر من النهر، ولم يكن جيشاً محلياً، بل فيه قوات لاتعد ولا تحصى من الحلفاء من فرسان الهنغار وكذلك كان بينهم قوة من الهراطقة الـ «Chalisioi الخاليسونيين» [الخزر اليهود]، لأنه في الوقت الذي كان فيه الهنغار ييجلون العقيدة المسيحية، كانوا يتبعون الشرائع الموسوية، حتى وإن كانت هذه الشرائع ليست جميعها نقية، وقال الكشافة: إن هؤلاء سيقاتلون إلى جانب الصرب ومعهم البشناق، وعندما سمع الامبراطور بهذا، احتاط خشية أن يتم تطويق الرومان الذين ساروا في الطليعة، ومن ثم قهرهم بالقوات المتفوقة عددياً، لهذا سار وهو شديد الاندفاع، وحثهم على اتباع حامل الراية، وبما أن ذلك الشخص اضطر إلى السير ببطء، لأن فرسه قد أعياه الزحف، فقد تناول الامبراطور نفسه الراية منه وتابع الطراد إلى الأمام، ولدى وصوله إلى نقطة بارزة هناك، جعل العدو يعرف من هو ويعرف الراية.

وفي الوقت نفسه وقف الرماة الذين وصلوا إلى النهر وجهاً لوجه مع الصرب، وبما أن أياً من الفريقين لم يبدأ القتال، وقفوا هادئين بلا حراك

تقريباً، وعندما ظهر العلم الامبراطوري ورآه الصرب، قاموا بالتخلي عن الجسر، وبذلك أعطوا الرومان الفرصة من أجل التناوش، ولدى ابصار الامبراطور هذا (لأنه وقف — كما ذكرنا — فوق مكان مرتفع بعض الشيء، يراقب ما كان يحدث) تقدم ليعبر الجسر بنفسه معهم، لأنه — كما ذكرت مراراً من قبل — كان يتحرك دوماً في المعركة على شكل فوق الطاقة البشرية، لابل حتى أعلى بكثير من مجرد الشجاعة.

ومع أن الذين تبعوه تألفوا من عدد قليل من الجند، فقد هرب الصرب حتى وصلوا إلى أرض وعرة، وانعطفوا من هناك، واقتربوا من الرومان، وعندما اشتبك الطرفان بالقتال، سقط قليل من كلا الطرفين، ولدى معرفة الصرب بوجود الامبراطور هربوا مجدداً، وتابع الرومان مطاردتهم فقتلوا عدداً كبيراً من الهنغار ومن الصرب أنفسهم، وسقط في ذلك الوقت في أيدي الرومان غرديشا Grdesa وفلسين (٢٣) Vlcin، وكان من أبرز الشخصيات بين الصرب، وبالنسبة للبقية، فقد رأى الامبراطور أنه من المهم جداً أن يصب عليه دروعه، وعندما أضاء بعض الوقت في هذا السبيل (لأن الذين كانوا يحملون الدروع لم يكونوا قريبين منه) كان بعض القادة الرومان، وكان من بينهم غيفاردوس Gi-phardos وميخائيل الذي كنيته براناس، بين آخرين كثر من القادرين على العمل على انفراد، وبارعين في القيادة، كانوا قد وصلوا إلى أماكن مستعصية وكثيفة الانحدار على طريق المطاردة، وكانوا في وضع يائس، لأنهم زحفوا نحو خطر واضح، وحيث أن الصرب قد تصوروا أنهم باتوا بعيدين جداً عن الرومان الآخرين انعطفوا ووقفوا مواجهين لهم.

٩- وفيما الرومان في هذه المآزق، كان الامبراطور قد أكمل لبس لأتمته، فقام باللاحاق بهم بسرعة كاملة، وعندما وصل إليهم وجددهم قد تجمعوا ووقفوا إلى جانب بعضهم بعضاً في بقعة منفردة، فتوجه إليهم باللوم والتوبيخ بكل حدة وبشكل علني، وأهانهم بأن وجه إليهم تهمة الجبن

وجهل التكتيكات العسكرية، وعندما أومأوا إلى طبيعة الموقع وكثافة الثلوج، ركب بذاته الطريق بعد اختياره له، وأمرهم باتباعه، وفي تلك الأثناء وصل حشد من الرومان وانضموا إليهم، وفيما هم سائرون على طريقهم، خرج عليهم كمين للعدو كان مختبئاً، وقاتل الرومان من على الطرف الأيسر، ونظراً لادراك الامبراطور أن حجم الكمين كان صغيراً جداً، ارتأى عدم وجود حاجة للدوران والعودة، واستمر بالمطاردة دون راحة بغية إلقاء القبض إما على زوبان الكبير نفسه، أو على الذي تولى ذلك اليوم القيادة بين الهنغار، أو على واحد ممن شهر بالشجاعة، وبما أن الذين كانوا في الكمين لم يحققوا شيئاً يستحق الذكر، فقد تملصوا وابتعدوا من جديد.

وبعدما استأنف المطاردة لمسافة قصيرة، لاحظ الامبراطور أن أتباعه كانوا في مأزق حاد، فقام بتخليصهم، مستعيناً باثنين من أقربائه، كان أحدهما جون دو كاس (٢٤)، وكان اسم الآخر أيضاً جون ويحمل كنية كانتاكوزينوس Kantakouzenos الذي كان متزوجاً من [ماريا] ابنة أندرونيكوس السيباتوكراتور [أخو مانويل] (٢٥)، فقد زحف معها ضد الأعداء، الذين عرفوه من خلال لأمتة (لأنها كانت مزينة بالذهب)، وعرفوه بسموه وبرشاقة جسده وبقوامه الذي لانظير له (كان في الحقيقة يشبه الأبطال [القدماء] وذلك بقدر ما كان متميزاً بفروسية لاشبه لها أبداً، وبقدرته على التعامل مع السلاح واستخدامه بكلتا يديه)، ولم يكن عاراً بالنسبة لهم إدارة ظهورهم فراراً، وفيما هو يقاتل ضد الفارين، روي أنه ألقى أرضاً بخمسة عشر واحداً من الأعداء بطعنة واحدة برمح، ولأنهم سيقوا إلى حالة من الفوضى والاضطراب ضرب أحدهم الآخر لدى اختلال الصفوف، وبعدما رمى على الأرض بأربعين منهم ساق البقية وطاردتهم، وأعمل الطعن والضرب باستمرار في الهاربين، مستخدماً السيف والرمح معاً.

ثم حدث شيء هو كما يلي:

كان واحداً ممن طعنه برمح من قبل (لم تكن طعنته مميتة) قد استرد وعيه بعد سقوطه، ونظراً لاعتقاده أنه قد انتهى أمره، تحامل على نفسه وخرج من بين الجرحى، وعندما شاهد الامبراطور يقترب، سحب سيفه واندفع نحوه ليطعنه، لكن الامبراطور لبطه بقدمه على صدره، فألقاه أرضاً، وتجاوزه بعدما لاحظ أنه مصاب بجرح مرئي حول إحدى عينيه.

وفي تلك الأثناء شعر مانويل أن الإعياء لحق بحصانه بسبب ثقل السلاح، ومع هذا لم يرغب بالعودة، فأمر كانتاكوزينوس Kan-takouzenos (صدف أن كان وحده من بين رجال الامبراطور مشابراً إلى جانبه) بالتقدم نحو الأمام والاشتباك مع البرابرة، ذلك أنه بوساطة انشغاله معه، سيكون من الممكن له الايقاع بهم، ولقد نجح في مقصده هذا، فعندما اقترب جون [كانتاكوزينوس] بسرعة من الأعداء ضرب باكشينوس Bakchinos [باغين Bagin] (٢٦) على ظهره، وكان متشوقاً لتمرير الرمح فيه، ومع ذلك هو لم ينجح لأن الدرع قاومه، واستدار هذا الرجل فرأى أنه مطارِد من قبل رجلين، لأننا — كما أسلفنا القول — كان جون الآخر مصاحباً للامبراطور، فجمع سبعة من أتباعه واشتباك مع كانتاكوزينوس، وصار القتال يداً بيد، وفي هذه الآونة عندما كان واحداً من البرابرة قادماً من أحد الاتجاهات، وآخر قادماً من اتجاه آخر، بات كانتاكوزينوس في خطر عظيم، ولولا أن الامبراطور ظهر إلى جانبه، وأنقذه من الخطر، أظن أن الرجل، ما كان لينجو من أن يصبح ضحية لسيف البرابرة، كما أن الامبراطور نفسه لم يكن بعيداً بالمرّة عن المخاطر، لأنه عندما لاحظ أنه إذا مات تصدى للسبعة الذين كانوا يطوقون جون، سيكون بإمكان الآخرين الذين يصل عددهم إلى ثلاثمائة القتال على الجانبين، لذلك قرّر ان عليه الاشتباك مع القوة الرئيسية أولاً، وعندما تخلّى هؤلاء عن القتال وهربوا، بات من المتصور أن الذين كانوا يطوقون

جون سيقومون أيضاً بالانسحاب، فقام بغمز حصانه، واندفع فكان في وسطهم، وعزم على طعن واحد منهم برمحه، غير أنه لم يصبه، لأنه عندما استدار البربري على ظهر حصانه، مرّ الرمح إلى طرفه دون أن يصبه، ثم اشتبك معه يداً بيد.

ولدى ملاحظة باكشينوس هذا قام بنفسه ومعه أتباعه بترك جون هناك، وحملوا بكل سرعة على الامبراطور، وكانت الحادثة محشوة بالرعب، وقام الامبراطور بالقاء رمحه والتخلي عنه، وجرد السيف الذي كان يحمله، وشرع يضرب ويتلقى الضربات وهو يدور حولهم وبينهم، وإلى أن تفرق البقية، تطورت نتيجة المعركة وتمحورت حوله نفسه وحول باكشينوس الذي كان مشهوراً بشجاعته، ويمتلك بنية بدنية هائلة، وبعد اشتباك طويل، وجّه باكشينوس ضربة أوصلت سيفه إلى فك الامبراطور، ومع هذا لم يستطع قطع واقة [سلسلة اللأمة] التي تدلت من الخوذة فوق العينين، وكانت الضربة — على كل حال — من القوة بما يكفي لجعل الحلقات الموضوعة فوق الجلد تضغط بعمق عليه، وبعدما حرم الامبراطور البربري من إحدى يديه بوساطة سيفه، سلمه بسرعة إلى قريبه [جون كانتاكوزينوس]، وفي الوقت الذي كان فيه عديم الصبر يريد مهاجمة العدو ثانية، بذل كل من جون والبربري باكشينوس جهدهما لايقافه عن الحملة، لأن هذا الأخير كان قد أعلن عن طاعته، وتظاهر بالصدّاقة، فعندما كشف عن شعر رأسه، أعطى بذلكشارة [استسلامه] للغوغاء الذين كانوا قادمين للقاء به، وحرّم كانتاكوزينوس في هذا الصراع من اصبعين من إحدى يديه، وعاد الامبراطور نحو المعسكر، وهو يدفع أمامه حوالي أربعين أسيراً من الأعداء، وتذكر هناك الرجل الذي رماه أرضاً وخلفه وراءه، وذلك بعدما حفظ العلامة فوق عينه، وطلب البحث عنه في المعسكر، ذاكراً علامته الفارقة، وبذلك وقف عليه، وعرف الرجل المهزوم، وعُرف من قبله.

ووصل قبل مضي وقت طويل إلى المعسكر رسول من عند زوبان العظيم، هو [بيرفوسلاف أورش الثاني Pervoslav Uros] يطلب العفو عن جميع ما اقترفه من أعمال، وبناء على طلب من الامبراطور جاء الرجل بعد وقت قصير، وقدم نفسه بمثابة تائب متواضع، وقبل الامبراطور توبته، وعفا عن ذنوبه، وبعدما نهض [زوبان العظيم] قليلاً، وارتفع عن سطح الأرض، وذلك بعدما رمى بنفسه على قدمي الامبراطور، تعهد بالأيمان بما وافق عليه، وأعلن أمام العالم أجمع أنه سيكون خاضعاً للرومان، وإذا ما أراد [مانويل] القيام بحملة في الغرب، وافق على أن يلتحق به ومعه ألفين من رجاله، أما بالنسبة للقتال في آسيا فليسوف يبعث بهاتين من الرجال وذلك بالاضافة إلى الثلاثمائة التي اعتاد من قبل على ارسالهم.

أما وقد نجح في هذه الأشياء، فقد عاد الامبراطور إلى القسطنطينية، وعاد في الوقت نفسه الاستطول الذي لم ينجز شيئاً في ايطاليا، إلى بيزنطة، وحافظ الصرب إثر هذا على خضوعهم للرومان، وبعد مضي عدة سنوات، وبعدما طردوا من الملك أورش الثالث، قاموا بدون رضا من الامبراطور بمنح الملك لواحد من اخوانه، وكان واضحاً أن الامبراطور سيغضب منهم لما حدث، وخشية منهم أن يقوم باستدعاء كل من ديسا Desla وأورش إلى حضرته، قائلاً بوجوب اطاعتهم لمن سيعينه عليهم، حاولوا إيجاد حل للقضية بأنفسهم، فأخفقوا، ثم كان أن عاد أورش إلى منصبه ثانية، كمنحة له من الامبراطور لكن هذا حدث بعد مضي بعض الوقت [حوالي ١١٥٥].

١٠- وزحف الامبراطور على هنغاريا، عاداً تحالفهم السالف الذكر مع السرب، حجة لاعلان الحرب عليهم، ولم يفاجئهم بالقتال، لكنه راسلهم أولاً مبيناً لهم سوء تصرفهم نحوه، وحذرهم من الهجوم الروماني الوشييك، وعندما وصل إلى شاطيء الدانوب [خريف ١١٥١] لم تكن

السفن التي تمّ اعدادها في بيزنطة قد توفرت وحضرت أمامه، وخشية منه أن تذهب الفرصة التي تهيأت سدى، وبحثاً منه عن شيء يفيد في مثل هذه الحالات ويساعد على النجاح، أمر بصف قوارب جذوع الأشجار التي كانت ملقاة على الشاطئ هناك، وأسرع نحو الشاطئ الآخر لنهر [السافا Sava] ، حيث قام بجرف فرسه بمقوده ولجامه، وبعدما عبر الجيش الروماني على هذه الشاكلة، وضع هنغاريات تحت قدميه، وبينما كان هذا الجيش يتقدم نهب بدون رحمة كل شيء عثر عليه في طريقه.

وكان يوجد على إحدى ضفتي النهر هناك قلعة اسمها زيوغمينون Zeugminon [أو زيوغمي—زيوم الحالية]، وكانت مجهزة بأسوار قوية وبدفاعات أخرى، ولما وجد استحالة الاستيلاء عليها فوراً، ترك هناك ختته ثيودور باتاتزس مع جيش، وقام باجتياح جميع القرى هناك، وحمل تقريباً كل من كان فيها أسرى، ووقتها جاء جيش هنغاري لمواجهة الرومان، ولدى ادراك هذا الجيش أنه كان يحاول المستحيلات، ذهب إلى الامبراطور، وإثر ذلك تدبر الأمر وحمل كل شيء دون تدخل من أحد، وبعد هذا بات من الممكن رؤية أجيال بكاملها تزحف مأسورة مع أمم تتحرك مهاجرة، وفرغت الجزيرة بكاملها [كذا]، وأعني بذلك الجزيرة التي يشكلها كل من نهري الدانوب والسافا، فأثناء تدفقها وجريانها من الألب إلى هنغاريات انفصالان عن بعضهما في الأعالي، وبعد عملية دوران كبيرة يجتمعان معاً ثانية، لقد فرغت هذه الجزيرة من سكانها، ثم قام الرومان بتمزيق المساكن الملكية، وهو أمر جدير بالتدوين بين أعظم انجازات الرومان ونجاحاتهم.

ونجح الامبراطور في هذا، وإثره عاد إلى زيوغمينون، حيث — كما ذكرنا — كان قد ترك باتاتزس الذي حافظ على الحصار، غير أن الذين كانوا يديرونها من الداخل بإحكام حافظوا عليها وظلوا متمكنين لها

ماداموا يأملون بأن الملك سيصل إلى عونهم بعد وقت قصير، لكن بما أنه لم يرد في الأخبار حديث عن وجوده في أي مكان قريب، وكان الرومان على أهبة الهجوم على الأسوار، ولكراهيتهم البقاء تحت المخاطر، فقد سألوا الامبراطور عما إذا كان يمكنهم تسليم القلعة إليه، بشرط مغادرتهم لها وأجسادهم سليمة حرة، وعندما رفض هذا ربطوا رقابهم بحبال، وجاؤوا كاشفين عن رؤوسهم، وبذلك أخضعوا أنفسهم إلى الامبراطور بكل خنوع، ومنع الامبراطور الرومان من التعرض لأي منهم بالقتل، غير أنه نهب القلعة وكانت مشحونة بمؤن لاتعد ولا تحصى.

١١- وبعدما حقق الرومان هذا، بادروا إلى جواز السافا، وهم يقودون أجيالاً من الهنغار أسرى، وكان عددهم أكبر بكثير من تعداد جيشهم، لكنهم ماكادوا يعبرون حتى وصلتهم أخبار قالت بأن ملك الهنغار، قد نجح للتو في إنهاء حرب في غاليشيا Galicia ، التي كانت مقاطعة روسية، وهو قادم بسرعة عظيمة لمواجهة الرومان، وتحت امرته قوات عظيمة.

وإنه بشكل خاص بسبب حربه لغاليشيا كان الامبراطور يعاقبه، لأنه [غيزا] قام نكايه بمانويل بمحاربة فلادميركو (لأن هذا كان هو الاسم الذي أطلق على أمير غاليشيا) الذي كان حليفاً للرومان (٢٧).

ولدى سماع الامبراطور بهذا أمر بقية الجيش، والذين كانوا في قطار الأثقال وحشود الأسرى التي كانت فوق الحصر، والتي كانت قد عبرت النهر، بالبقاء على الطرف الآخر من النهر، وبعدما أخذ النخبة من جيشه، بادر نحو الاصطدام به [غيزا] وسعى إلى ذلك بأعظم سرعة ممكنة، ومع أن القادة عارضوا خطته بكل قوة، فقد أوضح مانويل لهم أن الهجوم على قطيع من الماشية هو عمل الذئب وليس الأسود، لكن عندما يظهر الرعاة أو الكلاب من أي مكان لا يشعرون بالعار إذا ما فروا،

ويعنون بذلك فقط أنهم نادراً ما كانوا قادرين بكل صعوبة على الحفاظ على فريستهم.

ثم كان أن حدث أمر، إذا ما كان قد بدا له لدى اختياره له صحيحاً، فأنا لأوافق عليه، لكن إذا كان الاختيار قد تمّ بناء على تبصر أو بعد نظر حتى يبذل الرومان غاية جهدهم ليكونوا على درجة عالية من الشجاعة، فأنا أرى في ذلك مثلاً رائعاً من أمثلة الابداع العسكري، ذلك أنه عندما كان يعد العدة للانطلاق من السافا إلى مواجهة الهنغار، وجه الأوامر إلى الشخص الذي عهد إليه بقيادة الأسطول بالبقاء راسياً مع سفنه على الطرف الآخر من النهر، حتى إذا ما جاء أي واحد من الرومان طالباً الالتجاء، إلى الضفة الأخرى من النهر ونقله إليها، عليه أن يتظاهر بعدم رؤية ذلك الشخص، وقال: «إذا ما جئت أنا نفسي الامبراطور إلى هناك ورغبت إليك بشيء يتعدى الأوامر الحالية، عليك أن ترفض ذلك، وإذا لم تفعل هذا لن تنجو من عقابي المباشر»، وهكذا أعدّ الأمور، فاتحاً بذلك باب الشجاعة — كما أعتقد — لجنوده، وذلك حسبما ذكرت من قبل، لأنه عندما تنعدم الفائدة من الخوف، يبات من الضروري أن يكون الانسان شجاعاً حقاً.

وفيما هو على نية الانطلاق، جاء إليه واحد من الأسرى الرومان، ملتحجاً إليه بعد فراره من عند الهنغار، وأخبره أن ملك الهنغار قريب الوصول، وعندما سمع الامبراطور هذا، لم يعد قادراً على ضبط نفسه، خشية أن تصل القوات الهنغارية فوراً، وأن تبدو وكأنها تقاتل الفارين الرومان، لذلك عبأ قواته ونظم صفوفها، وانسحب، وبما أن ملك الهنغار — على كل حال — لم يكن هو الواصل، بل بيلوش ` Belus الذي شغل أعلى مرتبة بينهم (دعا الهنغار هذه المرتبة باسم «بان») (٢٨) وكان قد دنا وصوله، أسرع مانويل نحوه، ونظراً لحلول الظلام، ترجل من على ظهر حصانه ونام بسلاحه، فوق ترسه المقلوب، وأمضى الجيش كله الليل على

هذه الحال نفسها، وفي اليوم التالي علم بيلوش باقتراب الامبراطور، فقام بالمغادرة ومعه قواته كلها، بعدما فبرك بعض الأعذار الواهية، وبذل بيلوش غاية جهده لتعليل فراره، فأعلن أنه مأمور من قبل الملك بالتحول عن الطريق المرسوم، والذهاب إلى مدينة برانيتشيفو-Bra-nitshevo وبذلك يتمكن من محاربة الرومان بشكل أفضل هناك.

وتمنع الامبراطور عن مطاردته، وعبر نهر [السافا] وتوجه إلى برانيتشيفو، وعسكر هناك، وبعد مضي بعض الوقت عزم على نهب جزء آخر من هنغاريا، حيث الجبال التي يطلق عليها المحليون اسم تيميسس (٢٩) Temises فبعث بالقائد بوريس Boris مع جيش، وبوريس هذا نفسه قيل إنه جاء من الأبوين نفسيهما مثل غيزا، ولكن بسبب بعض الخصومات التي وقعت منذ زمن طويل مضى، جاء إلى عند الامبراطور جون ملتجئاً (٣٠)، وقدم له جون مايكفي من التشريف، ووحده معه عن طريق القران بزوجة من أسرته الخاصة، وعندما وصل بوريس هذا إلى المنطقة، قام بالاغارة على البلدات هناك، التي كانت مكتظة بأعداد كبيرة من السكان، وكانت مثقلة بكل نوع من الأشياء الثمينة، ثم إنه اصطدم بثلاث فرق هنغارية، وأوقع هزيمة قاسية بهؤلاء الذين تصوروا أن الامبراطور كان موجوداً، ولدى انسحابه، عاد إلى المعسكر الروماني محملاً بالأسلاب من هناك، وبعدما عرف الملك أن بوريس هو الذي صنع هذه الأفاعيل المرعبة في هنغاريا، قام بملاحقته، متشوقاً إلى قتاله، ومع ذلك لم يتمكن من الالتقاء ببوريس، الذي كان قد عبر الدانوب ليلاً، معتمداً ضوء المشاعل، التي كان الامبراطور قد أشعلها له بأعداد كبيرة من المعسكر، ثم إن اثنين من أفراد فرقة الرجالة، اللذين خلفا على الضفة الأخرى، اختبئاً هناك تحت الأحراش، بعد وصول الهنغار، ونجحا بالنجاة.

ومكث الامبراطور بعد هذا النجاح هناك ليقوي بقدر الامكان المدن

الباريسترينية Paristrrian [القائمة على امتداد الدانوب أو «إستر Ister»]، وكان في نيته عبور الدانوب مجدداً والاصطدام بالملك، الذي كان هو نفسه معسكراً على الدانوب على الضفة المقابلة، ولدى معرفته بهذا، وخوفاً منه فيما يمكن أن يأتي به الحظ، وخشية منه (غيزا) أنه إذا ماهزم هذه المرة، فإن هذا سيورط الباقي من القوات الهنغارية ويقودها إلى الدمار، لهذا كله قام بالاتصال بالامبراطور، وبحث شروط السلام، وإثر هذا وبناء عليه، عاد الامبراطور إلى بيزنطة واحتفل بالنصر، وقدم للرب شكراً عظيماً.

وفي هذه الآونة، ولد له أول مولود، وكان ابنة رائعة الجمال من الأوغسطه [بيرثا] ايرين، وأطلق عليها اسم ماريّا، واحتفي بها بمثابة امبراطورة (٣١).

١٢- وفيما الرومان منشغلين بهذه الأحداث، وصل روجر [الثاني] طاغية صقلية إلى نهاية حياته [١١٥٤]، وكان ابنه وليم [الأول] الذي تسلم الحكم واعياً تمام الوعي وعارفاً بجرائم أبيه ضدّ المملكة الرومانية، فارتأى أن عليه ارسال رسل إلى الامبراطور لتسوية خلافاتهما، وبناء عليه جاء رجال، قام كل واحد منهم بالبحث مع دائرة من الدوائر الكنسية، وكانت مقترحات السفارة كما يلي:

لقد وعد بإعادة جميع الأملاك والأشخاص —الذين كما سلف في الرواية— كان روجر قد حملهم [في سنة ١١٤٧] بالسفن من يوبويا Eu-boea وطبية في بلاد الاغريق ومن كورنشا، ووافق على أن يخدم الامبراطور، وأن يكون جاهزاً حيثما أراد (٣٢).

غير أن الامبراطور رفض السفراء، وقام بإعداد اسطول من السفن، حمل عليه جيشاً تحت قيادة قسطنطين الذي كنيته أنجيلوس، والذي هو خاله، وأمره أن يرسو في مكان ما حول لاكونيا Laconia، وأن ينتظر

بقية الاسطول الذي كان وشيك الوصول، وبناء عليه أُلِّق من بيزنطة ووافته ريح طيبة، لذلك رسا عند رأس لاكونيا، الذي يعرف بشكل عام باسم مونمباسيا (أي المدخل الوحيد) وذلك صدوراً من شكل المكان.

وعلى كل حال، علم الامبراطور، أن غيزا ملك الهنغار، الذي كان منزعجاً لما حدث من قبل، قد عزم على مهاجمة المدن الباريسترينية بشكل غير متوقع، وبادر الامبراطور مسرعاً ليصل قبل المحاولة [١١٥٢]، وهكذا عاد إلى شواطئ الدانوب بأقصى سرعة ممكنة له، ووقف أمام الجيش الهنغاري الذي كان معسكراً على الطرف الآخر، ولم يرغب أي واحد من الطرفين — لبعض الوقت — بالدخول في المعركة، خاصة وأن الرومان لم تكن سفنهم قد توفرت بعد، وتمكن الرومان بعد مضي عدة أيام من بناء أكبر عدد ممكن من القوارب الخفيفة، اعتماداً على المواد التي كانت متوفرة، وسحبوها إلى النهر، ولاحظ الملك الهنغاري ما كان يحدث، وكما ذكرنا، خشي أن يهزم للمرة الثانية فتدّمر مملكته، لذلك لجأ إلى طريق المفاوضات، وقام بارسال سفراء من عنده طلبوا ألا تعاقب هنغاريا بحرمانها من أكثر من عشرة آلاف شخص، وأن يسترد البقية من حشد الأسرى، وبموجب ذلك أعلن أنه سيبقى صديقاً إلى الرومان طوال حياته، وأنه سينتظم بين حلفائهم إلى الأبد، وبعدما عقد اتفاق السلام طبقاً لهذه الشروط، شرع الجيش الروماني بالعودة من هناك (٣٣).

١٣ - هكذا كانت أحوال الأوضاع على الأرض، لكنها انتهت على البحر بالطريق المعاكس بسبب حماقة القائد [١١٥٤]، فقد علم أنجيلوس، أن أسطول وليم كان عائداً من الأراضي المصرية ونهر النيل، مشحوناً بالغنائم والثروات من هناك، فعزم على تحقيق انجاز كبير، ولهذا أُلِّق نحو البحر بقدر ما أوتي من سرعة، ليلتقي به، وذلك دون أن ينتظر وصول بقية الأسطول من بيزنطة، ومع أن الامبراطور قد اعترض مراراً على هذا، ونصحه بوساطة الرسائل وبين له أنه لا ينبغي لقوة صغيرة أن

تدخل في صراع مع قوة أكبر منها بكثير، وأكد أن مامن شيء سيحول بين أنجيلوس نفسه وبين أن يؤسر من قبل البرابرة، وتقع الواقعة، ولا يعود من هناك — كما يقول الناس — مخبر [Angelos] يخبر بها حدث، وأصغى أنجيلوس إلى هذا قليلاً، ولذلك دخل في معركة مع الأسطول الصقلي لحظة ظهوره.

واستدار الصقليون في البداية وانسحبوا في نظام جيد، لكنهم عندما أدركوا أن الرومان كانوا في فوضى عظيمة، وأنه من الواضح أن عدد سفنهم أقل عدداً مما لديهم، استداروا مسرعين، وعادوا مندفعين نحوهم، وحدث آنذاك أن الريح التي كانت ساكنة فوق السواري الرومانية، تحركت فجأة إلى زوبعة عاتية، وهنا قامت بقية السفن الرومانية، التي هي تحت إمرة أنجيلوس آخر، كان أخاً للأميرال الرئيسي (كان يقود عدداً ضئيلاً من السفن) بالفرار بشكل فوضوي، أما بالنسبة لقسطنطين [أنجيلوس] الذي بقي في وسط الأعداء، فقد وقع في أيديهم، وهكذا نال جزاء حماقته، وبعدما فعلت السنة هذه الأفاعيل المغيرة، انتهت (٣٤).

١٤ - وسمع الامبراطور أن الحاكم الهنغاري قد أعلن العصيان مجدداً، (كان لا يستطيع تحمل مثل هذه المواجهات العدوانية) لذلك ركب الطريق عائداً إلى الدانوب، وبما أن الطرف الآخر كان مرعوباً لدى اقترابه، لذلك فتح باب المفاوضات حول السلام، وهكذا انتهت حربهما، وأشرقت ابتسامة منافع السلام [١١٥٣] (٣٥)، وبعد وقت قصير — على كل حال — عندما هيا ابن عمه أندرونيكوس مناسبة، قام غيزا مجدداً بمقاتلة الرومان، غير أن هذا حدث فيما بعد.

ففي ذلك الوقت [١١٥٢] أرسل الامبراطور أندرونيكوس هذا إلى كليكية وايزوريا، وذلك بعدما سمى قائداً أعلى للحرب هناك، لأن طوروس الأرمني، وكان رجلاً عالي المكانة، قد وقع في أسر الامبراطور

حرب، وعندما قام الامبراطور بحملة على الحدود الايزورية [أي الأرمنية] عاد طوروس إلى كليكية هارباً من بيزنطة [حوالي ١١٤٥]، وحاول إثارة اعلانه العصيان أن يجعل المدن هناك تشورتتخلص من السلطة الرومانية (٣٦)، ولهذا السبب أرسل الامبراطور أندرونيكوس، وبعث أيضاً بالقيصر [جون روجر] بغية الاقتران عن طريق الزواج بكونستانس، زوجة الأمير ريموند [صاحب انطاكية] الذي كان قد فارق الحياة، بطريقة أنا مقبل على حكايتها:

حاول البرابرة الذين يقطنون في تلك الأحواز احتلال إحدى القلاع بعد حصارها، وهذه القلعة قائمة على مقربة من حلب، وكانت تدفع الجزية إلى الانطاكيين، وقد حاولوا ذلك بعدما علموا بقلعة المؤمن فيها [١١٤٩]، وكان ريموند متفوقاً بالنشاط العسكري وفعالاً أكثر من أي إنسان آخر، لذلك ما أن سمع بذلك حتى بادر على رأس القوات المتوفرة لديه نحو القلعة، ونظراً لانسحاب الأعداء ولعدم انتظارهم له، اكتفى بتزويد القلعة بالمؤن والعتاد، ثم كرّ راجعاً، وكان الوقت عصراً، ولذلك بدا له أن الأفضل هو متابعة السير، لأنه لم يكن هناك مكان قريب، يمكنهم بأمان الترحل والعسكرة فيه، وكان الذين معه قد أصيبوا بالانهك الشديد بسبب الرحلة، فقد أرادوا العسكرة في أي مكان هناك، وقد أروه مكاناً محاطاً غالبية بالمستنقعات، وبقيته مغلق بالتلال والشعاب البارزة هناك، ومع أنه كان عنيداً، فقد أعلن، وهو يشير إلى التل، «انه يخشى أن الأعداء إذا ما قاموا بهجوم ليلي، فسيجدون المكان مغلقاً ليس فيه منفذ للخروج لنا، ووقت ذاك سنكون غير قادرين على الدفاع عن أنفسنا، وسندبح مثل الشياة المحصورة في حظيرة»، وهنا قام واحد من الذين كانوا معه فألقى متسرعاً نحو الرجل بكلمات قاسية، وأعلن أن هذا التردد مصدره الجبن، وليس الحكمة، وسمح ريموند لغضبه وعناده أن يسيطر عليه فقال: «إنني أعرف أيها السيد النبيل، أننا

إذا مارحلنا من هنا وغادرنا هذا المكان، أنك لن تتوقف مطلقاً عن اتهمنا بهذا، لذلك سوف نعسكر هناك، مادام ذلك يبدو مناسباً لك، لكن انتبه لنفسك، ولا تكن عاجزاً عن التعبير بالأفعال عن الشجاعة التي أعلتها هنا بدون حاجة إليها، ولا تخف ولا ترتعب عندما تنقض الأعداء علينا من المكان الذي قمت أنا بذكره»، وما إن أنهى ريموند كلامه هذا حتى دخل إلى ذلك المكان، الذي كان مناسباً لفصله والاحاطة به كلياً، وبعد مضي قسم طويل من الليل، هاجمهم الأتراك من الاتجاه الذي ذكره وقتلوا خيولهم وقتلوهم هم أنفسهم، دون أن يكونوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم، أو حفظ ذواتهم (٣٧).

إنه في ظل هذه الظروف، وضمن هذه المعطيات ذهب القيصر جون إلى انطاكية [١١٥٢]، لكنه لم يحقق شيئاً مما جاء من أجله، (لأنه كان مسناً، ونظرت كونستانس إليه بدون سرور ورغبة) وعاد إلى بيزنطة، وعندما نزل به المرض، حلق شعر رأسه، ولبس اللباس الأسود الذي يرتديه [الرهبان] (٣٨).

١٥ - وعندما جاء أندرونيكوس إلى كليكية [١١٥٢]، ووجد طوروس مقيماً في المصيصة، شرع بحصارها ومعه الجيش كله، وكان من الممكن له أن ينجز بسرعة شيئاً مفيداً، وأن يلقي القبض على المتمردين بسهولة كبيرة، لولا أنه كرّس نفسه وأوقفها على اللهو واللعب في خيمته، وهكذا حبطت شؤون الرومان وهوت، لأن طوروس عندما تعرف إلى عجز أندرونيكوس، ولاحظ التوافه التي شغلته بلا فائدة، انتظر قدوم ليلة ظلماء بدون قمر، فرمى بأجزاء كبيرة من سور المصيصة، وقاد بشكل غير متوقع جميع قواته، وهاجم الرومان الذين كانوا غير مستعدين تماماً، وألحق بهم هزيمة شنعاء، وبعد مضي وقت طويل، علم أندرونيكوس بهذا، (لأنه كما ذكرت مارس اهمالاً كبيراً جداً)، فما كان منه إلا أن امتطى ظهر حصانه، وحمل وبيده رمحه، وأظهر أفعالا رائعة وقدرة عظيمة (لأنه

كان كما ذكرت مراراً [كذا] متفوقاً على غيره بالشجاعة ولا ندّ له في ميدانها) غير أنه عندما وجد نفسه غير قادر على انجاز أي شيء، انهزم بصعوبة كبيرة، ووصل إلى انطاكية، وفي أثناء ذلك القتال، حدث أن تعرض ثيودور كونتوستيفانوس، الذي وصل إلى مرتبة سيباستيو-Sebastoi ، لفقدان فرسه برمية سهم، وحرمانه من رأسه بوساطة أحد المرتزقة الرومان، الذي كان يكن له عداوة قديمة، لأن ثيودور كان —كما قيل— قد طرد هذا الشقي من البلاط الامبراطوري منذ وقت طويل انقضى بسبب سوء أخلاقه (١٣٩).

١٦- لقد كان هذا ماوقع في كليكية في ذلك الوقت، وعندما عاد أندرونيكوس من انطاكية إلى بيزنطة، لم تتأثر مكانته في القصر، وعلى عكس ما كان متوقعاً تمتع بحقوق خطابته السالفة، وقد قيل، بأن الامبراطور قد استقبله على انفراد، ووبخه بمرارة، ووجه اللوم إليه لإهماله للشؤون العسكرية، وأدان تهاونه وتراخيه غير المسوغ، وكان —على كل حال— يبدي نحوه في العلن تشريفاً وتقديراً فوق الآخرين، ويتحفه بأعطيات فخمة، وبالفعل قام فيما بعد بتعيينه حاكماً لكل من نيسوس وبرانيتشيفو Branitshevo ، وإضافة إلى هذا منحه كاستوريا Kastoria [١١٥٣].

هل كان أندرونيكوس يسعى جاهداً للثورة منذ البداية، وأن ذلك كان حبيساً في نفسه؟!، فهذا ما لا أستطيع تأكيده، ولكن انطلاقاً من الساعة التي وضحت فيها نواياه السيئة سوف أحكي: عندما احتل الامبراطور مانويل العرش الامبراطوري، أصبح أندرونيكوس مسؤولاً عن كيف يمكن للرومان تطوير تسليحهم من أجل المستقبل، وكانت العادة بالنسبة لهم من قبل التسليح بترسة مستديرة، وأن يحمل معظمهم جعباً، وتقدير مصير المعركة بالقسي، وقد علمهم حمل [ترس] واحد يصل إلى أقدامهم، كما وعلمهم استخدام الرماح الطويلة، وممارسة الفروسية

ببراعة، راغباً في جعلهم يتقلون من الاستعداد لحرب إلى حرب، وغالباً ما اعتاد على ممارسة الفروسية، وتطبيق ما يشبه المعركة، وذلك بوضع تشكيلة أمام أخرى، والقيام بحملات برماح بدون أسنة، وأقاموا مناورات بالسلح، وهكذا برع الرومان في حقبة قصيرة في الأسلحة الفرنسية والايطالية، ولم يعيش الامبراطور نفسه نائياً عن هذه الصراعات والتدريبات، بل كان يصطف في الصفوف الأولى، يستخدم رماً لا قرين له في الطول والحجم، ثم إنه بالاضافة لما قيل ربطت راية ذات طول عظيم إلى رمحه هذا، ونظراً لأنها كانت مقسمة إلى ثمانية أقسام أطلق عليها بالعادة اسم «أقدام ثمانية»، وقد قيل في الحقيقة انه عندما جاء ريموند إلى بيزنطة اندهش وظن أن في المسألة خدعة ما، علماً بأن ريموند هذا كان رجلاً يشبه هرقل الأسطوري، ولذلك اقترب من الامبراطور وسأل أن يرى الرمح نفسه والترس، ولدى حمله لهما، أدرك الحقيقة، وأعلن عن دهشته لما اكتشفه.

١٧- وعندما كان الامبراطور مرة مشغولاً في هذه الصراعات [الوهمية] في هرقلية السالفة في منطقة مسينا [بيلاغونيا - بيتولا الحالية] (٤٠)، أصيب جون بن أندرونيكوس السيبتاتوكراتور [أخو مانويل] مباشرة بجرح في إحدى عينيه، وذلك بطعنة من رمح ايطالي، وكان شاباً وسيماً ورشيقاً، وقام مانويل بترقيته إلى Protovestiarios ، ثم رفعه إلى رتبة الـ (٤١) Protosebastoi ، وقيل أثر هذا كثيراً على نفسية أندرونيكوس، فعمل منذ ذلك الحين بلا انقطاع بالتآمر والنشاط الخياني، وعندما كان بعد ذلك في القيادة في كليكية، ربح إلى جانبه ملك فلسطين وسلطان الترك، وبعدما عهد إليه بحكم نيسوس وبرانيتشيفو، كما ذكرنا من قبل، تعهد في رسالة بعث بها إلى الملك الهنغاري، أنه إذا ما أسهم في مساعدته على تنفيذ نيته باغتصاب العرش، سيتنازل في حال نجاحه في أغراضه، عن كل ادعاء بكل من برانيتشيفو ونيسوس، وذلك اعترافاً

بفضله، واحتياطاً منه أنه إذا ما تمّ كشف هذه الأشياء، ولكي لا يكون موضع شك في المستقبل، قرر التحول إلى اتجاه آخر، وبناء عليه أفشى إلى الامبراطور عن وجود مؤامرة خيانية يدبرها بعض الشخصيات القوية في هنغاريا، فهؤلاء اتصلوا به ليتملكوا علاقات صداقة معه، والذي قصده من ذلك أنه يمكن وضعهم تحت سلطته بكل سهولة، وكان الامبراطور —على كل حال— على دراية بما يدبر، فقد وصلت إلى يده الرسالة التي وافق فيها أندرونيكوس على التعهدات السالفة الذكر مع الحاكم الهنغاري، ورغب مانويل في امتحانه، فسمح له أن يفعل هذا دون تستر، وتصور أندرونيكوس مقتنعاً أن كل نوع من الريبة قد زال من حوله بالنسبة للمستقبل، فبعث برسל من عنده إلى كل من ملكي الهنغار والألمان ليجذبها نحوه ليقدمها حتى إلى تقديم العون له في اللحظة المناسبة.

وبعدما دبر أندرونيكوس هذا، عاد إلى بيزنطة [١١٥٤] متظاهراً بأنه أتم إبرام المعاهدة بين الرومان والهنغار، وظل الامبراطور متمنعاً عن الحاق الأذى به، ولا أدري هل كان سبب هذا حبه له وعنايته به (ذلك أنه كان معجباً به إلى أبعد الحدود، لأنه كان من العمر نفسه مثله، وتشارك معه في النشأة والتعليم، لابل في الحقيقة تدرب معه على السباق والمصارعة ورياضات أخرى كثيرة) أو كان في ذهنه شيئاً آخر.

عندما كان أيضاً مرة في هرقلية المسيانية —والتي يدعوها الرومان الآن باسم بيلاغونيا متبعين بذلك إحدى اللغات المحلية— ذهب الامبراطور في إحدى رحلات الصيد الليلية، حسبما كانت عادته مراراً [١١٥٤]، وبعث به النبلاء المشرفون على تدريباته الجسدية ضد دب، وسلحوه بكل ما هو محتاج لمنازلة دب متوحش على الأقدام بوساطة الرمح، وروي أنه كان بالدرجة الأولى واضعاً على صدره درعه، وكان بالوقت نفسه شاكي السلاح تماماً، محترساً —كما قيل— ضد مؤامرة يدبرها اسحق

(أخوه) (٤٢) السيياتوكراتور، والـ Stratarchos الأكبر، علماً بأن اسحق لم ينجح بالنهاية في أكثر من الاستيلاء على الأختام الامبراطورية، التي كان الامبراطور يصدق بها عادة على المنح، هذا وهو لم يأخذهم بدون تسويغ، بل أخذهم لسبب، أنا مقبل على قصه:

بينما كان مقيماً في ميلانغيا في موضع اسمه ميتابول Metabole، أُلقيت أثناء إحدى الولائم خطب أمام الامبراطور، وفي الوقت الذي أجمع فيه الخطباء على الثناء على أفعال الامبراطور، آثر اسحق مدح أبيه وتفضيل أعماله على أعمال أخيه، وكان الامبراطور مسروراً لما قاله، فقد كان يعجبه أن يكون أدنى من أبيه، وفي الوقت الذي بدت فيه كلمة اسحق مملة بالنسبة للآخرين، لم يقف في خطابه عند هذا الحد، ولئن كان معقولاً التفوه بمثل هذه الأشياء اظهاراً لالاخلاص للامبراطور الراحل، وهذا شيء، أعتقد أن كثيراً من الرجال يعرف كيف يقوم به، ثم إن تقديم المديح من قبل الأحياء إلى الذين ليسوا على قيد الحياة، هو بالتأكيد برهان على المشاعر الطيبة نحوهم، غير أن اسحق أضاف إلى هذا أشياء من قوارص الكلام، وتكلم بمشاعر بغیضة نحو الابن، مما أدى إلى نشوب شجار واحتدامه، واندفع أندرونيكوس هذا يشتم السيياتوكراتور، وكان على وشك حرمانه من رأسه، لولا أن الامبراطور مدّ ذراعه، وقام ابن خاله جون دوكاس بادخال السوط الذي يغمز به بالعادة فرسه، تحت السيف الهاوي، فأنقص بذلك من تأثير الضربة وأضعفها وجعلها تصيب حنك أندرونيكوس، وأنقذ بهذه الطريقة، وذكرنا أن الامبراطور مدّ يده فوق أندرونيكوس، ولذلك أصيب، ولم تكن اصابته في الحقيقة اصابة قاتلة، بل جرح قطع اللحم قليلاً، وخلف ندبة على رسغه طوال الحياة، وعلى هذا أطفئت هذه الخصومة التي اشتد أوارها، وأبعده الامبراطور، وطرده من حضرته لبضعة أيام، واستجابة منه لما حكم به جون، فرض عليه غرامة أدنى مما تحدد بالقانون (٤٣).

ودعونا الآن نعود إلى حيث كنا من سياق الخبر.

١٨- وبما أن أندرونيكوس كان يعرف أن الامبراطور ذاهب في حملة صيد تستمر طوال الليل، قام بتسليح عدد كاف من أتباعه الايزوريين، الذين تقدم لهم أن حلفوا له أنهم سيقاتلون إلى جانبه ضد كل انسان، وبعدما أخذ أسرع فرس بين خيوله، ذهب معهم إلى البقعة المحددة، ومركزهم هناك بعيداً قليلاً في المكان الأكثر كثافة في الأشجار، وأوقف فرسه، واقترب من خيمة الامبراطور وهو على ظهر بغل، وهناك ترجل، وتوجه يجري متقدماً سيراً على الأقدام بكل هدوء وقد حمل مدية في يده اليمنى، وخشية منه أن يجري تعقبه من قبل أي انسان، فقد ارتدى معطفاً ايطالياً عوضاً عن معطفه العادي، ولكن عندما لاحظ أنه شوهد، (لأن الذين كانوا يحيطون بالامبراطور النائم قد شهبوا سيوفهم، وكان بينهم ابن اخت الامبراطور جون [الـ Protosebastos] فهو كان أول من رأى اقبال أندرونيكوس) وأدرك أندرونيكوس تماماً ذلك، فجلس فوق الأرض، وتظاهر بالقيام بافراغ مافي أحشائه، وبعد وقت قصير انسحب، وبذلك أخفقت هذه المؤامرة هناك.

ولكن بعد مضي بعض الوقت، جاء مع مزيد من الايزوريين، وأقبل في الليل وهو شاكى السلاح لمهاجمة الامبراطور، وعندما رفع الخبر إلى الامبراطورة [بيرثا—ايرين] من قبل ألكسيوس، الذي كان آنذاك مسؤولاً عن الاستقرار في القصر (يدعو الرومان هذا المنصب Protostrator) (٤٤)، ذهب واحد من رجال الحرس مباشرة نحو الامبراطور ليحذره من المؤامرة، ثم أرسل اسحق (٤٥) — وكان من أصل بربري، ومحط الثقة الخاصة والعناية من قبل الامبراطور — مع ثلاثمائة رجل مسلح، لكن لم يكذ اسحق يصل إلى البقعة حتى كان الامبراطور قد علم بمجريات الأحداث، وبينما كان البقية قلقين وحائرين حول أنفسهم (لأنه حدث أن كان معظمهم ممتطين البغال) بين أن عليهم تجنب الطريق المباشر

الذي يقود إلى المعسكر والخيمة الامبراطورية، بل أشار بيده ليسيروا على الطريق غير العادي وغير المطروق، كما وتوجب عليهم عدم السير بشكل معلن، بل على شكل أفراد موزعين، وقال: «بهذه الصورة نبدو وكأننا بعض الأشخاص العائدين من جمع المؤن ومتوجهين نحو الخيم المرئية هناك»، وذهب الامبراطور على هذه الحالة غير هياب إلى خيمته، لكن حدث أن دبا متوحشاً قد اصطدم بجون السالف الذكر (البروتوسيباستوس) وعضه بأنيابه، وما ان علم الامبراطور بهذا حتى عاد نحوه، واتخذ الاجراءات المناسبة للعناية به، ثم غادر، وتصرف بذاته بشكل كريم كبير تجاه هذه القضية إلى حد أنه لم ينتقد أندرونيكوس حتى بنظرة، وتظاهر أندرونيكوس أنه لا يعرف شيئاً عن المسألة، واعتنى عناية فائقة بالفرس الذي سلف وذكرته، وكان واضح التحامل بحديثه وآرائه ضد جون، وعندما سأله الامبراطور لماذا يفضل العناية بهذه الفرس قال: «من أجل انني عندما أحرم أشد أعدائي مرارة من رأسه، سوف أهرب عليه وأنجو»، وظهر بذلك وكأنه يشير إلى البروتوسيباستوس [جون]، وأعتقد [مانويل] أن الرجل كان مصاباً بعقله، ولهذا السبب فصله وأبعده عن حاشيته وأتباعه وأودعه السجن في القصر. [حوالي ١١٥٥-١١٥٦] (٤٦).

١٩- وهكذا أزيح من الطريق، لكن بالنسبة لملك الهنغار الذي لم يسمع شيئاً عما حلّ بأندرونيكوس، فقد قام بحشد قوى من التشيك، والساكسون ومن أمم أخرى، وتهيأ لحصار برانيتشيفو [١١٥٥]، وأعتقد أن الذي أثاره وحركه ما كان أندرونيكوس قد وعده به، ولدى سماع الامبراطور بذلك استطار دهشة تجاه ماسمعه، وتساءل حول مصداقية الهنغار، وعن السبب الذي حدا بهم إلى عدم مراعاة العهود التي قطعوها على أنفسهم مؤخراً، وتقرر لديه أن المسألة لابد وأن تثير سرعتها الخوف، لهذا بادر على الفور بالذهاب نحو الدانوب، وإدراكاً منه أن أتباعه لن

يكونوا مكافئين في القتال للجيش الهنغاري (لأن القوات الرومانية كان كل منها باقياً في منطقته بسبب أن الدولة لم تواجه عدواناً من قبل أحد من أي اتجاه منذ زمن بعيد) قرر أن يعمل كما يلي: كان هناك مكاناً اسمه سميلس (٤٧) Smeles يمتلك خصائص دفاعية معتبرة، لذلك قرر الاستيلاء عليه، واتخاذ قاعدته لحملة ضد الهنغار.

ومن أجل أن يقوم أهل برانيتشيفو بالوقت نفسه بحراسة مدينتهم لصالحه، كتب إليهم رسالة أخبرهم فيها أنه سيصل إليهم بعد وقت قصير، وعهد بالرسالة إلى واحد من جنوده، وأمره أن يرمي بها إلى المدينة بعد ربطها على سهم، ونفذ الجندي ما أمر به، غير أن الرمية ذهبت أبعد مما هو محتاج، ووقع السهم في أيدي الهنغار، فاستولى عليهم الانزعاج ودبت بين صفوفهم الفوضى، فألقوا النار في آلات دك الأسوار، وكل ما كانوا أعدوه للحصار، وتوجهوا نحو نقطة عبور الدانوب، فوجدوه فائضاً (ذلك أن عاصفة قد أوصلت مياهه إلى أعلى ارتفاع) فأسرعوا بالتوجه نحو بلغراد.

وعرف الامبراطور بهذا، وعلم أن بورج Boric، حاكم البوسنة، وهي منطقة صربية (٤٨) — وكان قد التحق بحلفاء الحكام الهنغار — قد عاد إلى أراضيه، فاختر الجزء الأعظم شجاعة بين الجيش الذي كان معه، وأرسله للاشتباك مع بورج، وقاد هذا الجيش باسيل، الذي ورد ذكره من قبل، والذي جاء من أسرة متواضعة، لكن الامبراطور عينه Chartoularios (٤٩)، وذهب الامبراطور مع بقية الجيش، وتبعه لكن على مهل، وكان باسيل، على كل حال، ناسياً، كما أظن، لماذا أرسله الامبراطور وليتحارب مع من، وفيما هو زاحف بالسرعة القصوى، اقترب من الجيش الهنغاري، واصطدم بطلائعه، وردها إلى الخلف، ثم انقض على وسط القوة الهنغارية، وخطط لنيل نجاح كبير، وقاتلهم وهم مذعورين ورمى بهم في لجة الفوضى، وهكذا حقق بسرعة شيئاً لم يكن

مطلقاً في حسبانته.

ذلك أنه خيّل للهنغار في البداية أن الامبراطور، كان هو الذي يدير دفعة هذه المعركة، فهربوا بشكل فوضوي، وغرق كثير منهم في النهر من الذين تكاثروا فوق القوارب أثناء جوازه، لكنهم ما ان لاحظوا أن الامبراطور من خلفهم ولم يصل بعد، وأن باسيل هو الذي يقود الجيش، حتى تشجعوا، واستداروا، وواقفوا الرومان، وصحيح أن الرومان كانوا أقل بكثير عدداً من الأعداء، مع ذلك قاوموهم، وسقط العديد من القتلى على الطرفين، واستمر الحال كذلك حتى بدأ البلغار —الذين كانوا بخدمة ستيفن بن غيزا(٥٠١)، وكانوا حلفاء مع الرومان يقاتلون إلى جانبهم— بالفرار، وسقط أثناء المطاردة على الطريق التي تلت عن قرب جميع الهنغار الذين كانوا مع ستيفن مع كثير من الرومان، وأنقذ آخرون حياتهم بالهرب وكان من بينهم القائد باسيل.

وعندما حملت هذه الأخبار إلى الامبراطور، وذلك بالإضافة إلى أن سكان بلغراد كانوا يفكرون بالثورة والتخلص من الرومان، شعر بقلق عظيم، فبعث بجون كانتاكوزينوس Kantakouzenos ليقوم أولاً بالاستقرار بالمدينة التي اضطربت بمشاعر العصيان، وثانياً ليتولى دفن أجساد القتلى الرومان، وليدعو البقية من الفرار من حيث كانوا منتشرين في المنطقة ومختبئين فيها، وكان مانويل على كل حال غاضباً إلى أبعد الحدود بسبب ما حدث، وكان متحرقاً ومتشوقاً للحاق بالهنغار، وعندما لم يوافق الرومان على هذا قال: «لكن أيها السادة، إنه عار عليّ، وأنا أناضل في سبيل رفاه الرومان، أن أراجع أمام المصائب»، وعندما سمع أن قوات الهنغار لم تكن بعيدة عنه، تخلى عن المحاولة، وفي الوقت نفسه كان كانتاكوزينوس قد أكمل الأعمال التي أرسل من أجلها، وعاد، ومعه مربوط بالسلاسل الناس من بلغراد الذين كانوا —كما قيل— يحاولون العصيان، ثم تحرك مانويل من هناك وأمضى الشتاء على مقربة من

مدينة بيرهويا Berrhoia [ستارازاغورا Starazagora].

وفي الربيع [١١٥٦] عاد إلى هنغاريا، وذلك بعدما جمع قواتاً من كل اتجاه، ذلك أنه كان متشوقاً ومليئاً بالرغبة ليخترق البلاد إلى أقصى أجزائها، وفي هذا المقصد أقام معسكراً على شواطئ الدانوب مباشرة ومعه جميع قواته، ورست السفن التي جاءت من بيزنطة، هناك في أعداد كبيرة، وأقامت تنتظر القيام بحمل القوات المسلحة أثناء الجواز، ولدى ادراك الملك الهنغاري أن أموره كانت بالفعل في حالة صعبة، تحول نحو الرسل، فبعث إلى الامبراطور برجال كانوا ذوي مناصب عالية في بلاطه، ووعد بإعادة الأسرى الرومان على الفور، وأنه من الآن فصاعداً سيطيعه في كل شيء يرغب به، وبدا الامبراطور في البداية ميالاً تماماً لرد الرسل ورفض عروض السلام، ثم تراجع نحو قبول مطالبهم، وأنهى السفارة بالاتفاق على الشروط المذكورة، وعلى هذا الأساس تمت إعادة جميع الأسرى الذين أخذوا — كما ذكرنا — في المعركة المتقدمة، ولقد أعيدوا إلى المعسكر الروماني، وأعيد معهم أيضاً الأسلحة والخيول وكل شيء كان من أسلاب المعركة، أما بالنسبة لما هلك من خيول وثيران، فلقد تمّ التعويض عنهم ببدائل حيوانية جمعت من السكان المحليين بين الهنغار، وبإنهاء الحرب على هذه الصورة، عادوا إلى الوطن.

ومن هذه اللحظة بدأت الحرب الإيطالية وتحركت بشكل كبير، وهي الحرب التي كنْتُ قد تحدثتُ عن بداياتها، وإذا ماعدنا قليلاً إلى الوراء ننتقل للحديث عنها.

الكتاب الرابع

١ - شغل فردريك - ابن أخي كونراد - منصب حكم الألمان، بعدما واجه كونراد منيته (١١)، وكونراد هو الحاكم الألماني الذي سلف وذكرناه بما فيه الكفاية في روايتنا المتقدمة، وبما أن فردريك قدّر النبالة تقديراً عالياً، (بالنسبة للزواج كان أهم الأشياء لديه أصالة العروس، فالعروس الأصيلة كانت لديه مفضلة على كل شيء آخر) وقد سمع أن ماريّا ابنة السيياتوكراتور اسحق [أخو مانويل] كانت متميزة بالمولد، ومتفوقة بالجمال، وقد بلغت سن الشباب في بيزنطة، فوقع على الفور في أسر الفتاة، وبعث بالرسل إلى الامبراطور، وطلب أن تخطب إليه لتكون زوجته، ووعد بالوفاء بكل ما وعد به عمه كونراد وهو معه، عندما كانا عائدين من فلسطين، ووعد كذلك بتقديم العون للرومان في الاستيلاء على ايطاليا، ولقد حملت سفارة فردريك هذه الشروط وطلبت الموافقة عليها (٢).

وقبل الامبراطور هذه العروض، وقام نفسه بارسال رسل إلى فردريك، وأمرهم بتأكيد الاتفاقات، وعندما جاء هؤلاء السفراء للحديث مع فردريك لاحظوا عدم وجود أي شيء صلب في نواياه، فعادوا دونها نجاح، وذلك بعدما أقنعوه بارسال سفارة ثانية إلى الامبراطور، وعندما رفضت أيضاً من قبل الامبراطور، أرسل الامبراطور رجالاً من الارستقراطية [١١٥٥] فيهم ميخائيل باليولوجوس، وجون دوكاس، وكلاهما قد وصل إلى مرتبة سيباستيو Sebastoi، وكان بينهما أيضاً الاسكندر صاحب [كونفيرسانو Conversano] الذي كان يحكم غرافينا Gravina فيما مضى، وهي مدينة ايطالية، لكن

عندما طرده روجر جاء ملتجئاً إلى الامبراطور (٣)، وعهد إليهم بكمية كبيرة من المال من الامبراطور عند سفرهم، وقد توجب عليهم أنهم إذا عرفوا أن فردريك مقيم في جنوب الألب أن يذهبوا جميعاً لمقابلته، أما إذا كان موجوداً في مكان أبعد، فعلى ميخائيل الذهاب إلى إيطاليا مع المال، وأن يذهب البقية إلى فردريك، وإذا ما عبر عن عدم اعتراف بالاتفاقية، فالمتوجب عليهم آنذاك أن يتقدموا بأنفسهم باعلان الادعاء بامتلاك إيطاليا، وكان هذا ما حدث بالفعل.

٢- كان لروجر [الثاني] طاغية صقلية ابن اخت اسمه [روبرت أوف] بازونفيل (٤) Bassonville ، وفي أثناء حياة روجر، كان يتولى ادارة حكومة إيطاليا [أي أبوليا]، وبعدما مات وانتقلت السلطة إلى ابنه وليم [الأول]، أنزل بازونفيل إلى مرتبة معاون لحاكم إيطاليا، حيث تولى رجل آخر حكومة إيطاليا، ورفض بازونفيل تحمل هذه الالهانة، فعزم على الثورة، وبناء عليه كتب إلى فردريك، ووعد به وضع إيطاليا كلها مع صقلية بين يديه، وفي الوقت الذي كان فيه فردريك أسير التردد والمصاعب عاد رسل بازونفيل مخفيين، وفيما هم على الطريق صدف أن التقوا بالاسكندر، وكان الاسكندر بدوره عائداً من بلاط فردريك بعد اخفاقه في تحقيق أي شيء كان قد قصد ذلك البلاط من أجله، وكان أثناء عودته من هناك برفقته [جون] دو كاس، وعندما تحدث رسل بازونفيل مع الاسكندر، وعلم الاسكندر السبب الذي توجهوا من أجله إلى بلاط فردريك، توجه إليهم بالخطاب يقول: «أيها الأصدقاء الأعزاء، على مقربة منا شخص يمكنه منح النجاح لسفارتكم»، وعندما رغبوا إليه في معرفة من هو، أجابهم قائلاً: «امبراطور الرومان»، وحدثهم عن كل شيء بانتظام، وأضاف بأن باليولوجوس، الذي كان عضواً من المجلس الروماني، والذي تمت [ترقيته] (٥) إلى مرتبة الـ Sebastoi، كان موجوداً ومعه مبلغ كبير من المال، وقد جاء إلى هاهنا لانخضاع

ايطاليا لصالح الامبراطور.

وعندما سمع رسل بازونفيل هذا، أوصلوا إليه هذه الحقائق برسالة، فأبدى رغبته في مناقشة المسائل مع الرومان في بيسكارا Pescara، ولدى اطلاع باليولوجوس على هذه المستجدات، قام بدون تأخير بالابحار إلى بيسكارا ومعه عشرة سفن، واستولى وهو في طريقه على فيستي Vies-ti، وآلت ملكية هذه المدينة إلى الامبراطور، وهنا بدا لبازونفيل أنه من المفيد اللقاء معه في فيستي، لذلك أبحر عائداً إليها، فالتقيا هناك، وبعدما تبادلوا الأيمان حول المسألة قيد البحث بينهما، انضم وقتها إلى عملية الصراع (٦).

وكان دوкас قد جمع قوة، قادها إلى خصار قلعة كانت حسنة التحصين، يتولى قيادتها ايطالي اسمه براونتزوس Prountzos، وعندما هاجمها الرومان، دفعوا بالأعداء من وراء الأسوار، وانقضوا على الفارين، وهرب البقية إلى داخل الحصن، لكن عندما أخذ الرومان باللقاء النار في أماكن السكنى، وبنهب الممتلكات والمقتنيات في البيوت، شرع الناس بالنزول وهم يهتفون بحياة الامبراطور وينادون به سيداً لهم، وهكذا بات الرومان متملكين لها، وعندما وصلوا إلى مدينة تحمل اسم القديس المبجل هناك، وهو القديس (٧) Flaviano، اندفع السكان جميعاً عبر الحقول، يسألون ويرجون عدم تعرضهم للأذى، أو أي ضرر من الجنود الرومان، ووافقوا على أن يدينوا بالطاعة إلى الامبراطور وأن يفعلوا كل شيء يرغب به الرومان، واستجاب لهم القائد الروماني بكل لطف، ثم زحف من هناك وكأنه يسير وسط بلد صديق، وفيما هو على نية الانطلاق من هناك، جاء وليم أخو بازونفيل، وكان صديقاً للرومان منذ القديم، جاء يحمل رسالة من أخيه يحث فيها دوкас أن يطمئن نحو المستقبل، لأن المنطقة الواقعة آنذاك أمامه باتت تدين بالطاعة له نفسه (٨).

٣- وكما ذكرنا من قبل بعدما استولى باليولوغوس على فيستي بموجب معاهدة، تابع زحفه نحو تراني Trani ، وعندما رأى شعب تراني الجيش الروماني، أرسلوا رسلاً إلى القائد الروماني وطلبوا منه المغادرة، ذلك أنهم كانوا لا يرغبون في تسليم المدينة له، وأعلموه أنه من غير الممكن له الاستيلاء على تراني إذا لم يحتل باري Bari أولاً، وبناءً عليه غادر من هناك مصطحباً معه ليس من أقل من عشرة سفن، وقصد باري، وذلك على الرغم من معارضة جنوده، (ذلك أنه كان بارعاً جداً، ولم يكن أدنى من أي إنسان في الخبرة العسكرية) فهو كان مدركاً تماماً أنه لم يكن من السهل الاستيلاء على تراني، ولذلك رأى عدم إضاعة الوقت فيما لا يفيد.

ومع هذا بدت باري مدينة مستعصية على الفتح، فقد أحاطت بها أسوار عملاقة، كما كان فيها جيشاً من البرابرة، وقف بعضهم بأسلحتهم فوق ووراء الدفاعات واندفع البقية، وكانوا حشداً لا يحصى، من الأبواب نحوه، وتألفوا من المشاة والفرسان، في كامل السلاح، وكان البحر هائجاً بفعل عاصفة عنيفة هددت بجرف السفن، ومع أن أموره كانت محاطة بالمصاعب من كل اتجاه، هو لم يفقد الأمل، وبعدها تدبر أمره ونجا من الأمواج خلال عدة أيام، أبدى رغبته بانشاب القتال، ولأن الأمور لم تيسر له كما كان يأمل فقد أرغم على التراجع فوراً (ذلك أن بعض الأعداء رماه بالحجارة والأخشاب وأي شيء كان متوفراً من فوق الأسوار، وغطى آخرون، كانوا على الأرض، السماء بزخات من النشاب) وابتعد عن مدى رمياتهم، وجرب أن يتخاطب معهم بلغة الكلام، فأخبرهم عن الأشياء الجيدة التي سيصنعها لهم على الفور إذا ما قاموا بتقديم مدينتهم إلى الامبراطور العظيم بدون قتال، وضمن لهم آمالاً عظيمة بالنسبة للمستقبل، وعندما سمع الذين كانوا بالمدينة هذا، اندفع بعضهم نحوه على ظهور خيولهم، وبعضهم على متن الطوافات، ودعوه

إلى الاقتراب من المدينة مشيرين إلى الأبواب المفتوحة، وخشية منه أن تكون المسألة — كما ثبت — خدعة، لجأ أولاً إلى الاختبار، فأمر لهذا الغرض إحدى السفن التي كانت معه أن تقترب من الشاطئ، وكأنها تريد الرسو، لكن ما إن رآها الأعداء تقترب حتى صعد حوالي الخمسمائة منهم فوق الأسوار، ووقفوا وراء الدفاعات.

ولاحظ هذا الاكسندر [أوف كوفير سانبو]، وخشية منه أن يلجأوا إلى السلاح، خرج ذهاباً من حافظته، واعتلى بسرعة ظهر السفينة، عارضاً الذهب أمام الذين كانوا في المدينة، وصاح بأعلى صوته: «على كل من يريد الثروة والحرية، أن يقدم إلى هنا ليتفتح بهم فوراً» وما كاد ينتهي كلامه حتى اندفع عدد كبير منهم نحوه من داخل المدينة، والتحقوا فوراً بجانب الامبراطور، وفور استقبال القائد الروماني واقسامهم يمين الطاعة، قام بدون تردد بقيادة الجيش ضد المدينة، وعلى هذا ما من شيء يخدع الناس أكثر من جاذبية الذهب، وعندما عرف بقية السكان ما حدث، وكانوا غير راضين عما وقع، بادروا مسرعين نحو القلعة، وما إن أصبحوا وراء أسوارها، حتى شرعوا بالقتال في سبيل [ممتلكاتهم]، وكان ما حدث بالفعل شيئاً يبعث على الدهشة، فمثير أن ترى الناس الذين كانوا متحدّين منذ قليل بالأصل والهدف ينقسمون اليوم بوساطة الذهب، وينفصلون عن بعضهم كما وكأن بينهم أسوار، ومشاعر كراهية نحو بعضهم بعضاً. على هذه الشاكلة مضت الأمور هناك.

وكان هناك قلعة أخرى عبر المدينة، قام في داخلها كنيسة القديس نيقولا، وفكر القائد بالاستيلاء عليها، فعمل كما يلي: وشح رجالاً بالأردية السوداء، وأمرهم بالنهوض عند الفجر والذهاب إلى الكنيسة، وعندما صاروا في داخلها أشهروا سيوفهم وقاتلوا، وبذلك اقتربوا من القلعة عند الفجر، وقرعوا على الباب، وافترض الذين كانوا بالداخل أنهم من الرهبان، فرفعوا مغاليق الأبواب، وسمحوا لهم بالدخول، وبهذه الطريقة

باتت القلعة بأيدي الرومان.

وصحيح أن هذه القلعة قد احتلت، فإن الذين كانوا بالقلعة الأخرى ظلوا صامدين، لقد وقفوا حتى اليوم السابع يواجه أحدهم الآخر، لكن عندما وصل بازونفيل إلى هناك على رأس جيش كبير جداً، سلموا القلعة إلى الرومان، وحدث إثر هذا أنهم لكراهيتهم نحو روجر ولحقدهم عليه تولوا هدم القلعة حتى الأساسات، وتخلصوا منها، مع أن القائد عارض ذلك بشدة، وعرض شراءها مقابل مبلغ كبير من المال، ومرد كراهيتهم لروجر، هو أنه تصرف نحوهم بشكل غير انساني، وذلك وفق عادة كل طاغية.

٤- على هذه الصورة جرت الأمور في باري، وبعدما استحوذ باليولوغوس عليها، عاد مبحراً نحو تراني، فاستولى عليها صلحاً، ثم استولى على جيوفينازو Giovinazzo، وهي مدينة مشهورة وكان هناك واحداً اسمه رتشارد [صاحب أندريا Andria] وكان رجلاً مجرمًا متوحشاً، كان يذبح الناس كذبح قرابين الضحايا، فإذا ما اختلف مع انسان حول أي شيء تافه، كان إما أن يأمر بتوسيطه، أو بحرمانه من يديه أو قدميه، وكانت مثل هذه العقوبات عادية جداً بالنسبة له، ولقد كان آمراً لقلعة أندريا، وعندما سمع أن الرومان يريدون الاستيلاء على جيوفينازو، حذرهم أولاً من فعل ذلك، ثم هددهم بأنه سيمنعهم من القيام بذلك، ولكن كما هو معلوم تجاهلوا تهديداته، واستولوا صلحاً على جيوفينازو، وخططوا للزحف على أماكن أخرى، ولذلك اتحد مع عدد آخر من الكونتات، ومع [أثكلتين Asclettin] حاجب وليم، الذي يقال له بالاغريقية لوغوثير Logothete، وقد ذهب معهم إلى تراني لاسترداد هذه المدينة بدون مقاومة، ولحق به جيش، تألف من ألفين من الفرسان، وحشد هائل من الرجال المسلحين.

وكان الرومان الذين خلفوا في داخل تراني عددهم قليل وقوتهم صغيرة جداً، ولذلك كانوا مرعوبين كثيراً، خوفاً منهم على المدينة وعلى أمورهم، ولهذا بادروا مسرعين إلى استدعاء دوكاس، موضحين له برسالة القدر الذي حاق بهم، وعندما تسلم الرسالة تهيأ، وانطلق في اليوم نفسه، وأخذ الطريق إلى تراني، ولدى وصوله إلى بقعة اسمها روفو (Ruvo)، تقدم الناس الذين كانوا هناك نحوه، وقاموا بحث الجيش الروماني على تملك مدينتهم بدون قتال، ورأى دوكاس — على كل حال — أن التوقف هناك عديم الفائدة، وخشي من أن ذلك سيسمح لرتشارد بالاختلال بموازين القتال بدون معيق، ولذلك تجاوز المدينة مؤقتاً، ومرّ دون وقوف، طالما أنه سيكون بإمكانه الاستيلاء عليها مؤخراً في الوقت المناسب، وبأدنى سرعة ممكنة.

وكان على الطريق مدينة ساحلية اسمها بارليتتا (Barletta)، صدف أن كان القنصل بها، وفيما دوكاس يتقدم نحوها، كان هناك قوة من جيش [أسكلتون] قوامها ثلاثمائة فارس مع فرقة من الرجال تقوم بأعمال الدورية، واصطدم دوكاس فجأة بهذه القوة، فقام بدون أن يفقد وعيه تجاه الحادثة غير المتوقعة، بكل سرعة بتعبئة رجاله وصفهم على شكل كتلة صلبة، وانقض عليهم بهجوم فعال، وبعدما قاوموا لبعض الوقت، لحقت بهم الهزيمة، وأنا غير قادر على وصف كيف قاتل الرومان هناك، وأظهر كل واحد منهم أفاعيل شجاعة، فقد حمل دوكاس وبيده رمحه، فطرح أرضاً — كما قيل — بطعنة واحدة ثلاثين رجلاً منهم، وبعدما فقدوا كثيراً من رجالهم، هربوا حتى غدوا وراء أبواب بلدتهم، وقام الرومان الذين طاردوهم، بالعودة إلى المعسكر، وكان النهار قد مضى أكثره، وكانوا لم يعانون من أية خسائر باستثناء واحد من المرتزقة الخيالة، وصحيح أنهم عسكروا هناك لإمضاء الليل، فقد ركبوا الطريق مجدداً مع انبلاج الصباح.

وعندما علم رتشارد بالذي حدث، هرب من هناك بأقصى سرعة ممكنة، خشية أن يطوقه الرومان، ويحصل له كسر لا يمكن جبره، وما إن وصل إلى أندريا، حتى مكث هناك، وبعدما أنقذ دوкас الجيش الذي كان مع باليولوغوس، قام بالزحف خلف رتشارد، مع أن القوات التي كانت من حوله متفوقة على قوات الرومان بأعداد كبيرة، فقد كان الرومان ستمائة بلازيادة، وذلك فيما عدا الرجالة، الذين كانوا هم أنفسهم أدنى كثيراً من الأعداد الهائلة لقوى الرجالة التي كانت مع رتشارد. فقد تبع رتشارد ألف وثمانمائة من الفرسان مع جيش لا يحصى عدداً من الرجالة.

وعندما سمع رتشارد أن الرومان يقتربون، قام بنفسه بقيادة جيشه والتقدم نحوهم، ولدى اقترابهم من بعضهم بعضاً، انقسم الرومان إلى ثلاثة أقسام، تعبأوا كما يلي:

وقف الكومان وحملة الأقواس من الرجالة في الأمام بصف متلاحم، ووقف دوкас مع نصف الخيالة، وخاصة جماعة من الكومان في الساقة، بينما احتل بازونفيل مع الكونتات الآخرين وبقية الفرسان الأرض المتوسطة، وكان رتشارد غاضباً جداً، وغير قادر على تأدية أية براعة لها علاقة بالعلم الحربي، لذلك حمل والفرسان من حوله حتى وصل إلى مركز الجيش الروماني نفسه، وبذلك عطل حركة القتال وكاد يوقفها، ذلك أن الصف الأمامي للجيش الروماني الذي تألف من النبالة لم يستطع الصمود أمامه حتى ولا لمدة قصيرة، ثم مارس الضغط على بازونفيل، فأرغمه على التراجع نحو الخلف، ثم قاتل بعد ذلك الذين كانوا حول دوкас، وهنا تطور قتال عنيد، وقتل عدد كبير ممن مع رتشارد، ولكن بما أنهم سقطوا وسط الضغط العظيم لم يعرف بذلك الجيش، وكان القتال عنيفاً جداً، وما كنت تسمع سوى أصوات قعقة السلاح والضربات العنيفة على الترس، وتطايرت أعداد لا تحصى من

النشاب في كل مكان، وأحاقت المخاطر بكل مكان، حتى حملت قوات رتشارد حملة عنيفة وضغطت بشدة فأرغمت الرومان على إدارة ظهورهم، فدوكاس نفسه، سقط أرضاً بفعل طعنة رمح، وكاد أن يقع بالأسر.

ولكن العناية الربانية تقود وتوجه جميع الشؤون البشرية وفق ماتريد، فصحيح أن الرومان وصلوا إلى هذه الحالة من سوء الحظ، غير أنهم نجحوا في النهاية، ذلك أن دوكاس نجا فراراً إلى واحد من الأسوار المقامة من الحجارة، بدون ملاط أو إكساء، فلقد كان من النوع الذي يقف خارج أبواب المدينة ليكون بمثابة علامة فارقة للمروج، ولقد كان آمناً هناك، ثم جاء الرجال الرومان إلى عونه، وقذفوا بالحجارة على الذين كانوا من حول رتشارد، وهكذا تجمع هناك معاً كثير من الذين فروا من قبل، ولدى ملاحظة رتشارد لذلك، اندفع نحوهم مع ستة وثلاثين فارساً، وقام واحد من أهل تراني، وكان صاحب مرتبة بين رجال الدين، بالوقوف فوق مكان مرتفع، وقذف بكمية كبيرة من الحجارة نحوه، فأصابه على إحدى ركبتيه، فألقاه أرضاً، وفيما هو منبطح على الأرض يئن من الألم، قام رجل الدين هذا بتوجيه قذيفة نحو رقبته، ولشعور رتشارد بالهزيمة بدأ يستعطف بحرارة ليرحم ويبقى حياً، لكن رجل الدين ألقاه على ظهره، وطعن بمديّة في بطنه، فشقها وأخرج منها أحشاؤه، مثل اخراج الطعام من الفم، وقدم رتشارد بذلك مثلاً على وحشيته تجاه الأسرى التعساء، ثم خرج أهل أندريا وجاؤوا ومعهم القوات المسلحة إلى الرومان وتصالحوهم، وعاد الرومان، الذين كانوا لا يتوقعون النجاة من المخاطر، إلى باري، تخفق فوق رؤوسهم علامات النصر، فوجدوا هناك كميات وافرة من المؤن، فنقحوا فيها واستراحوا مما عانوه من المتاعب العسكرية.

٥- وبعد مضي بعض الوقت، بدا مفيداً قسمة الجيش إلى شطرين، شطريبقى هناك مع واحد من القادة، ويمضي القسم الآخر مع

القائد الآخر ليقوم بالاغارة على القلاع المجاورة، ووقع اختيار القتال الخارجي على دوكاس، وكان هناك مدينة، يحكمها رجل عالي المكانة اسمه كاسترو، فقام دوكاس بتطويقها وحصارها بكل نشاط، لكنه مالبث أن لاحظ أنه كان يحاول المستحيل، وذلك بسبب أنه قام بعدة محاولات متكررة للاستيلاء على الأسوار (فتبرهن لديه انعدام الأمل بخرقها بالحجارة مع أنها ضربت مراراً بآلات الحصار)، فانطلق من هناك ساعة حلول الظلام، وبأدب مسرعاً نحو مونوبولي Monopoli، عازماً على مهاجمتها بشكل مفاجئ، وصدف آنذاك أن كان شعب مونوبولي مرسلين جيشاً ضد الرومان، ليكتشف أولاً ماذا كان يجري هناك، وليصطدم بهم حيثما يكون ذلك ممكناً، وصدف أن التقى رجال مونوبولي بطلائع الجيش الروماني، ووقفوا وجهاً لوجه معهم، وعندما وصلت هذه المعلومات إلى الذين كانوا في الساقة، هرب غالبية الفرسان، وركضوا نحو المدينة، وحدثوا أهل المدينة وأخبروهم، بأن الجيش الروماني قد حان وصوله، ووقع كثير من الرجال بالأسر، واضطربت المدينة لسماع هذا، ومع هذا قرر أهلها مقاومة الأعداء وهم على الحالة التي كانوا فيها، وبناءً عليه تقدم مايزيد على مائتي فارس ومعهم أكثر من ألف من المشاة، في حين لحق بهم حشد لا يحصى عدده من حملة المقاليع، ووقفوا أمام المدينة.

وعندما كان الوقت مايزال نهراً، توقف دوكاس، واحتفظ لنفسه بما يزيد على نصف الجنود، وأرسل البقية للقيام بنهب المناطق المجاورة، ثم استأنف زحفه بعدما قسم الجيش إلى نصفين، غير أنه بالواقع لم يشتبك مع رجال مونوبولي مباشرة، بل تظاهر أنه يقوم بالتجسس حول الأسوار، ثم تقدم قليلاً، مظهراً أنه يقوم بتفحص المدينة بالتفاصيل، ثم قام بدون سابق انذار، فأمر ثلاثين من رجاله بالانقضاض على الأعداء، واندفع هو إلى وسطهم، وأذهلتهم المفاجأة، فأداروا ظهورهم هاربين، وطاردهم، ولم يتخل عن ذلك حتى وصل خلفهم حتى أبواب المدينة، وقام بطعن

أحدهم بنفسه فألقاه أرضاً داخل الأبواب، وبعدما قام باسترداد من كان وقع من أصحابه بالأسر، غادر المكان، وفي تلك الأثناء كانت القوة الأخرى قد قامت بالطواف في المنطقة وعادت ومعها الأسلاب، ثم انها عادت أيضاً مع دوкас إلى باري.

وأثناء حدوث هذه الأشياء، جاء رسل إلى القائدين الرومانيين مرسلين من قبل أسقف روما، الذي اعتاد اللاتين على منحه لقب بابا (١٠)، ورغبت السفارة أن يذهبا كلاهما أو واحد منهما إلى روما للبحث في مسائل هامة مع الأسقف، ذلك أنها قالاً بأنه قد حشد ما أمكنه من قوات وكان يستعد للقتال إلى جانب الرومان، واستجاب القائدان الرومانيان لهذا المطلب برسالة، كما أرسلوا رجلاً اسمه باسيلكوس، وكان من موظفي ديوان الامبراطور، لكنه كان آنذاك مرافقاً لهما، وأعطياه ذهباً لاستئجار فرسان من هناك.

وقام القائدان الرومانيان بالإعداد للحرب ضد مونوبولي، وحيث أن سكان مونوبولي لم يمتلكوا الشجاعة للتصدي للرومان، فقد طلبوا منحهم وقتاً محدداً، إذا لم يأتهم خلاله أية مساعدة من أي مكان، فإنهم سيسلمون المدينة طواعية وبدون قتال، وتمّ هذا، وقامت هدنة لمدة شهر منحت إلى أهالي مونوبولي.

٦- وفيما الرومان منشغلين بهذه المسائل، كانت القوات الصقلية تقاتل بازونفيل، فقام هذا باستدعاء القائدين الرومانيين برسالة وطلب منهما القدوم إلى مساعدته بأقصى سرعة ممكنة، وعندما لم يلتفتا إلى طلباته، كرر مراسلته لهما، وتساءل عن المسألة نفسها، ورد عليه القائدان الرومانيان في البداية أنها لم يقدموا إلى هناك من عند الامبراطور ليقاتلا لصالح بازونفيل (ثم ان المعاهدة بينهما وبين بازونفيل ليس فيها هذا) بل قدما بشكل محدد للاستيلاء على ايطاليا لصالح الامبراطور، وأن ينالا

المساعدة منه، لقد أجابا بازونفيل على هذه الصورة، غير أنه لم يتوقف عن حثها قائلاً بأنه مطوق بالمخاطر، وبعد تقدير للمسألة ذهباً من باري إلى مدينة بيتيتو Bitetto ، وكان الطريق يحتاج يوماً واحداً للرجل المسلح، هذا وكانت قد راجت شائعة تقول قبل هذا بأن بازونفيل قد خطط لخيانة الرومان لصالح رتشارد صاحب أندريا، عندما كان مايزال حياً، ولهذا السبب قرر الرومان أنه كان من الضروري ربطه بمزيد من الأيوان، وعندما تم تنفيذ هذا، عاملوه بدون المزيد من الريبة.

وأرسل الامبراطور في الوقت نفسه اسطولاً إلى إيطاليا، مشحوناً بفارسان من اللان (١١)، والفرنجة والرومان، وكان اياناكوس Ioannakios الذي كنيته كريتوبلس Kritoples يقود اللان، أما الفرنسيون فكان يقودهم الاسكندر [أوف كونفيرسانو Conversano] وهو لومباردي [أي أبولي] المولد، لكنه كان موقفاً نفسه تماماً على خدمة الرومان وشؤون الامبراطور، وكان لجون الذي كنيته أنجيلوس القيادة العامة (١٢)، وعندما سمع قائد قوات وليم بهذا، وبأن جيشاً رومانياً كان يقترب منه، وهو يقوم بحصار أندريا وبنهب الأراضي هناك، ذهب مع جيشه كله إلى مدينة مولفيتا Molfetta ، التي كانت حصينة بما فيه الكفاية.

وعزم الرومان على اخضاع بوسكو Bosco ، وهي قلعة كانت تخضع إلى رتشارد المتوفى، وهي أقوى من أي قلعة أخرى، ومن الصعب جداً الوصول إليها، وكان هناك معرضاً هائلاً فيه كل نوع من أنواع الوحوش النادرة، لكل منها مقرّ خاص به، وذلك بهدف تيسر الصيد بالنسبة له كلما أراد، وقاد دوكاس عدداً قليلاً من رجاله وجاء ليتفحص المكان، وعندما اقترب منه، تشجع الذين كانوا في داخله، وتقدموا حيث انقضوا على وسط الرومان، فأوقعوا فيهم أربعة قتلى، غير أن اثنان من رجالهم سقطا، وتحول القتال إلى اشتباك بالأيدي، وبعدما اجتمعت

القوات الرومانية، تمكنت من دفع الأعداء إلى داخل موقعهم، وعبر كثير من الرومان مع اثنين من اللان في هذا القتال عن شجاعة ونبل، وانتهى القتال هناك، وقام دوкас، عندما جاءت بقية القوات باقامة معسكر أمضى الليل فيه، حيث قام في الفجر بتعبئة رجاله، وزحف بشكل نظامي، وفيما الهجوم مستمر، قام الرومان بازعاج الذين كانوا في الداخل بالنشاب والمقذوفات من آلات الحرب، ودافع الآخرون عن أنفسهم بفعالية ونشاط من وراء الشرافات.

وحدث آنذاك حدث جدير بالذكر، فقد رأى اثنان من حرس دوкас القلعة وقد تضررت من رميها بالحجارة وتهدمت، ومع ذلك لم تستسلم، لذلك سترأسيهما بالترسة، وحمل كل منهما بيده الأخرى مشعلاً وقصدا الأبواب لاحتراقها، ولكن بما أن المواد كانت غير قابلة للاحتراق، فقد تراجعاً مخففين، وتجنباً — خلافاً لجميع التوقعات — الأشياء التي قذفت نحوهما من فوق الأسوار مثل زخات المطر. وبعدما استمرت المعركة حتى غياب الشمس، تراجع الرومان إلى المعسكر، وذلك لأنهم لم يحققوا شيئاً.

وعلم قادة وليم بهذا، فعقدوا اجتماعاً للتداول حول امكانية القتال ضد الرومان، وكان رأيهم أن يجمعوا قواتهم، ويزحفوا على المعسكر الروماني، وعلم الرومان بذلك فاستعدوا للتصدي لهم، وكان تسعة من القادة يتولون قيادة الايطاليين، وكان الحاجب هو القائد العام، وكان جيشهم كامل التسليح، وكانوا يمتطون خيولاً قوية، ويحملون رماحاً طويلة، ولدى وقوف الرومان على هذه الأشياء، استولى عليهم الرعب، وتساءلوا كيف يمكنهم بجيش صغير القتال ضد قوة جيدة التسليح وهي لاتعد ولاتحصى، ومع هذا وقفوا مصطفين على شكل جماعات، في حين اقترح عليهم القادة أشياء كثيرة أوصلتهم إلى الشجاعة، ووقف الجيشان لوهلة دون مباشرة القتال، ولكن عندما صدحت الأبواق من الجانبين، وأعطيت شارة الهجوم، انقض الفريقان على بعضهما، وأخذ

يقاتلان يداً بيد، وكان بإمكانك أن تقول إنه لا أشعة الشمس ولا ضوء النهار كانا مشاهدين، فقد امتدت سحابة من الغبار فوق كل شيء وصعدت نحو عنان السماء، وارتفعت أصوات الضربات وتصاعدت رنة السلاح.

وظل القتال حتى منتصف النهار متكافئاً، لكن الطليان شقوا بعد ذلك طريقهم وذلك بفضل تفوقهم العددي، وضغطوا على الذين كانوا حول دوكاس، ولاحظ دوكاس بسرعة المشكلة، فاندفع إلى وسط تشكيلات العدو، وهو يطعن فيه على الجانبين، وتبعه الرومان بالهجوم وهم يصرخون، وهكذا اشتبكت القوات ثانية، واحتدم القتال واشتد كثيراً حتى تمكن الرومان بشجاعتهم من دفع العدو إلى الخلف، وفقد العدو أثناء الفرار ما لا يقل عن ثلاثمائة من فرسانه، وحشد لا يحصى عدده من المشاة، غير أن البقية نجوا فراراً، وبعدها نجح الرومان في هذا، تحولوا عائدين نحو قلعة بوسكو، وبعدها تغلبوا عليها، وجدوا فيها كميات وافرة من المؤن، وبعدها زودوا أنفسهم بمختلف الأنواع الجيدة، عادوا إلى باري.

٧- وبعد مدة وجيزة صاروا ممتلكين لـ «مونتيلوسو-Montepelo SO» وهي مدينة واسعة الشهرة، واستولوا على «غرافينا Gravina»، التي كان الاسكندر صاحب كونفيرسانو يحكمها من قبل، كما واستولوا على عدد كبير آخر من البلدات والحصون، ويضاف إلى هذا أنهم استحوذوا على خمسين قرية، وهكذا ازدهرت شؤون الامبراطور من كل جانب بشكل عظيم، لكن قواته كانت تتجنب وليم وتبتعد عنه باستمرار، وكان هو في الحقيقة، في وضع صعب، وراجت في ايطاليا كلها أقاويل تعلن عن أن الرومان لا يقهرون، ثم إن الايطاليين لاحظوا أن الرومان، الذين لم يعانون من فنون القتال لديهم منذ حقبة طويلة من الزمن، كانوا ينتزعون كل ما يمتلكون تقريباً ويحملون معهم جميع مقتنياتهم.

كانت الشؤون الرومانية تتحرك حتى الساعة مع التيار، لكن منذ ذلك الحين بدأ القدر يحسد بعض الشيء حسن حظهم، وحل مرض على باليولوغوس، ألهب الرجل بحمى حارقة، ولم يتوقف عن امتصاص نضارته الطبيعية وقواه، حتى تم ارغامه على أن يصبح أولاً بلا شعر (١٣)، ثم بعد مضي وقت حمله هذا المرض بعيداً عن بني البشر، وقبل وفاته لبس شعراً مستعاراً، وبدأ وكأنه يتحسن، فقام بتوجيه دوكاس للهجوم على بقية المدن التي لم تكن قد دخلت في حوزة الرومان، وبعد هذا بثلاثة أيام، ساء وضعه كثيراً، وعندما علم دوكاس بذلك عاد إلى باري، فوجده قد مات، فأمر بوضع جسده داخل تابوت، وذلك بعدما جهزه وفقاً لما سمحت به العادات المسيحية والطقوس المتبعة، وإثر هذا قام بترتيب الأمور بشكل جيد في باري، وبذلك بات صاحب السلطة، والمشرّف على القضايا بالنسبة للمستقبل.

٨- وهكذا فارق باليولوغوس الحياة، وكان رجلاً فطناً وبارعاً جداً في التعامل مع المسائل العسكرية، وقاد دوكاس جيشه وتوجه مباشرة إلى برانديزي، فقد كان متشوقاً بشكل خاص لأن يلحق بازونفيل به، ذلك أنه كان قد انفصل وابتعد للسبب التالي:

فهو قد ابتعد — إما كما أظن — ليعطي نفسه حجة للحصول على المباح، أو كان بالواقع يعاني من قلة المال، فقد كان قد سأل باليولوغوس — عندما كان حياً — أن يقرضه عشرة آلاف قطعة ذهبية، فاقترح عليه على الفور أن يمنحه أربعة آلاف بمثابة إعطية من الامبراطور وليس ديناً، ورفض تماماً امداده بالباقي، فغضب بازونفيل لهذا، وانفصل عن الجيش الروماني، ولكن ما ان توفي باليولوغوس، وحل محله دوكاس في المسؤولية عن الأمور، حتى جاء بازونفيل إليه، فحصل على مبلغ المال الذي أراده، وشارك من جديد في الجهود العسكرية الرومانية.

وأخذه دوكاسن معه وتوجه نحو مسافرا Massafra وبرفقته بقية الجيش، وكان هناك مدينة اسمها بوليميلون (١٤) Polymilion ، وكان فيها واحد من أتباع وليم اسمه فلامنغ Flameng، وعندما سمع هذا باقتراب الجيش الروماني، غادر المكان وذهب إلى تارنتو Taranto ، واستولى الرومان على بوليميلون ونهبوا أحوازها، فأثقلوا جيشهم بالغنائم، وذهبوا من هناك إلى مدينة موتولا Mottola ، التي كانت قائمة فوق مكان مرتفع، وكانت قوية وجيدة التحصين من جميع الجوانب، فقد قام على طرف منها شعاب ووديان جبلية حقاً يستحيل الوصول إليها، وأحاط بها من جانب آخر نهر عميق يصلح للملاحة، لكن بدا أن مامن شيء يمكنه أن يعيق الذين يبشرون بريح طيبة، ومع أن موتولا بدت آمنة محصنة من جميع الجوانب، فقد استولى عليها الرومان دون بذل جهود كبيرة وفي وقت قصير، وذلك وفق طريقة سأتولى حكايتها:

لقد كانت معنويات الرومان عالية جداً نتيجة لانتصاراتهم الماضية، وعندما شاهدوا أهل المدينة ومصدر شجاعتهم هو طبيعة المكان، وكانوا واقفين خارج الأبواب التي كانت هناك وهي مفتوحة من أجل القتال، وقتذاك حمل الرومان وصعدوا الراية مسرعين، وتملكت الدهشة أهل المدينة لما رأوه من جرأة، واندفعوا يقاتلون قرب أبوابهم، وعندما انقض الجيش الروماني عليهم، لم تكن هذه الأبواب قد أوصدت، وهكذا تم الاستيلاء على المدينة عنوة، وبعدما أنجز الرومان هذا، انطلقوا من هناك.

وبعد وقت قصير، التقى بهم فلامنغ وهم يزحفون، وقفز بعض الرومان أمام وحداتهم واصطدموا بالأعداء، وأظهروا براعة ومهارات رائعة، لكن بما أنهم كانوا أقل عدداً من خصومهم فقد تراجعوا، وفي تلك اللحظة اشتبك دوكاسن ومعه جميع قواته بقوات فلامنغ وأرغموها على التراجع، ثم هاجموا مسافرا فاحتلوها عنوة، واكتشف دوكاسن وجود كميات هائلة من المؤن والعتاد مخزنة في القلعة، وكان بينها سلاح كثير وما لا يقل عن

مائي فرس، ولدى سماع أهالي تارنتو بذلك قام رجالهم بعدما جمعهم الحرفيون ومعهم جيرانهم بتوجيه الاهانات بشكل مكشوف إلى فلامنغ، واتهموه أنه بجبنه الشخصي سبب شجاعة الرومان، ولم يستطع فلامنغ تحمل هذه الاهانات، لذلك أعاد جمع عساكره، ووقف ينتظر الجيش الروماني، لكن ما ان أصبح هذا الجيش مرئياً من قبله، حتى أصيب بالرعب، ولم يستطع تمالك نفسه أو يسترد شيئاً من شجاعته، وقامت ثلة من الرومان بقتال أتباعه وهم منهزمون فقتلوا بعضهم.

وعندما أصبح الرومان على مقربة من تارنتو، تصوروا أن المدينة لا ترام، ولذلك تركوها عازمين على الوصول إلى مونوبولي، ونظراً لقلة ماكان بحوزتهم من أسلحة الحصار، استدعوا —بوساطة رسالة— الأسطول الراسي في باري، للقدوم بأقصى سرعة ممكنة، وبذلك يمكنه أن يحمل منها الكثير من الأشياء، وعبر الرومان في الوقت نفسه خلال منطقة خصبة، مليئة بأنواع كثيرة من المنتجات، لذلك أشبعوا أنفسهم بأشياء جيدة، فقد قيل كان بإمكان الجندي شراء عشرة رؤوس من الماشية بقطعة ذهب واحدة، وأن يشتري بالمبلغ نفسه مائة وثلاثين من الأغنام، ووجدوا هناك أيضاً بعض الرومان الذين كانوا مودعين بالسجن منذ زمن طويل، فأطلقوا سراح هؤلاء المساكين وفكوا أغلالهم.

٩- ولدى وصولهم إلى مونوبولي في اليوم الخامس، لم يخرج أحد للتصدي لهم، (لأن الأقاويل التي راجت حولهم أرعبت أهل المدينة، وأجأتهم للاختباء وراء الأسوار) لكنهم وقفوا شاكي السلاح فوق أبراجهم، مستعدين للدفاع عن أنفسهم، إذا ما وصلت الحملات إلى الأسوار، ونصب البيزنطيون معسكرهم، ومكثوا في مكان موائم ليس بعيداً جداً عن المدينة، وبما أن دوкас كان قد استدعى الاسطول إلى مونوبولي، فقد جاء من باري، وأمد عملية الحصار بما يكفي من المؤن، ثم هاجموا الأسوار بالقوى كاملة، لكن بما أن السكان كانوا يصبون على

أعدائهم أشياء كثيرة، فقد تمكنوا من ردّ المهاجمين الرومان وقتل بعضهم، وكان القتال قد بدأ بالصباح، وقد استمر حتى الليل، وبسبب حلول الظلام عاد الرومان إلى معسكرهم، وعين أهالي مونوبولي حراساً لحماية الأبراج وجعلوهم يتناوبون ذلك خشية أن يطمع الرومان فيلحقون الأضرار بالمدينة أثناء الليل، ولهذا أشعلوا الآلاف من النيران في كل جهة، وكانت الأبواب وأدوات النفير ترزق.

وعندما أخذت الشمس طريقها نحو الأفق الشرقي، وبدأ نورها يشع فوق سطح الأرض، خرج الرومان من المعسكر، وعادوا إلى القتال، وفي الوقت نفسه اندفع رجال مونوبولي إلى مواقعهم، وحملوا أسلحتهم، ومرة أخرى جرى صراع عنيف واشتباكات مع الرومان الذين كانوا يحاولون جاهدين شق طريق للوصول إلى الأسوار، لكن العدو المهاجم أمكن صده من قبل رجال مونوبولي، وبذل الرومان غاية جهدهم في هذه الظروف، ثم قام جيشهم فيما بعد بإلقاء النار في سفن أهالي مونوبولي التي كانت راسية هناك، وسببوا بذلك صعود لهيب عظيم.

وقام واحد من الجنود الرومان، واسمه هيكانتوس Hikantos بعمل رائع يستحق الحكاية والسماع:

كان يحيط بمدينة مونوبولي سور مزدوج، وكان السور الداخلي مرتفعاً جداً، وكان من غير الممكن ادراكه برماح الأعداء، في حين كان السور الآخر الذي استدار حول قاعدة الأول يساوي بالارتفاع ثلثه، وتسلق اثنان من رجال مونوبولي فوق هذا السور، وأخذوا يرمون نحو الأعداء ويحثون الآخرين للالتحاق بهم، ولاحظ هيكانتوس هذا، فقام بالهجوم برمحه فأمكنه إصابة واحد من الرجلين، فوقع فوراً على الأرض، وتبع هذا صدور صوت عظيم عن الجيش الروماني، وصار الصراخ هائلاً، ولا يمكن تحمل سماعه، وأدهش ذلك الواقفين فوق الأبراج، وخيل إليهم أن

المدينة قد سقطت، فتخلوا عن الدفاعات وركضوا نحو مركز البلدة، ولولا أنهم أدركوا الوضع بسرعة، وعادوا فاعتلوا الدفاعات لسقطت المدينة على الفور بيد الرومان، وعلى هذه الصورة انتهى الهجوم الثاني على مونوبولي.

وبسبب معرفة شعب مونوبولي أنهم باتوا في مأزق مؤلمة، بعثوا برسالة إلى فلامنغ وسألوه أن يقدم إليهم بما أمكنه من سرعة، فأجابهم بأنه سيلحق بهم بعد وقت قصير مع جيش كبير، ليتولى طرد الرومان وإبعادهم، وظلّ الرعب ساكناً داخل فلامنغ، وامتلاً بجبن لا حدود له عندما قدّر من سيقا تل، وضد من ستكون المعركة، وبناءً عليه عندما حلّ اليوم السابع، ولم يظهر فلامنغ من أي جهة من الجهات، وقتها استولى اليأس على شعب مونوبولي، وقنطوا من وصول المساعدة إليهم من أي اتجاه، لذلك بعثوا برسالتهم إلى الجيش الروماني، مع عرض بتسليم المدينة وأنفسهم إلى الامبراطور العظيم، وأخبرهم دوكاس أن تعهدهم لا تكفي في هذه الاتفاقية، مالم يقبلوا بوضع حامية فوقهم من قبل الامبراطور، وعندما وافقوا على هذا، جرى تحديد تاريخ لعقد الاتفاق [وابرامه وتنفيذه].

وقام بعض سكان مونوبولي (ممن كان غير راضٍ بما تمّ صنعه) باخبار فلامنغ بهذه الأشياء، وذلك دون معرفة الآخرين، وأثارت فلامنغ هذه الأخبار، فاختار ما لا يقل عن مائة من الفرسان المسلحين من بين أتباعه، وبعث بهم على الفور، وقال إنه سيلحق بهم بعد قليل، وتحت لوائه قوة معتبرة، وانتظر الذين وافقوا على هذه الأفعال وصول هؤلاء الجنود في ليلة استمر فيها هطول الأمطار من فوق، وأدخلوهم إلى المدينة من خلال باب جانبي، وبناءً عليه خططوا لحمل السلاح ثانية، وما ان وصلت هذه الأخبار إلى مسامع دوكاس حتى عدّ السفارة التي جاءت من مونوبولي خدعة، وقام على الفور بالتقدم على رأس جيشه زاحفاً من

المعسكر، لكن ما ان أدرك أهل مونوبولي أن المائة فارس لا يكفون لعونهم، وبما أن الجيش الروماني كان في حالة استعداد للقتال وحماسة أكثر من قبل، قاموا وراسلوا دوكاس ودعوه إلى المدينة ثانية عازين المشكلة إلى آخرين، سارعوا إلى اقتراح الأعمال الحالية بدون موافقة جماعية، وأظهر دوكاس رفضه في البداية، وتمسك بوجود خداع كبير، وتعجرف معلناً أن المسألة قد تقرر البت فيها بواسطة الحرب، ولكن عندما ضغط عليه السكان أكثر، ورجوه أن يعفو عنهم ما اقترفوه من إثم، استجاب مؤخراً وقاد قواته إلى داخل المدينة.

وساعة استيلاء الرومان على المدينة، وصلت تقارير تحدثت أن فلامنغ بات على مسافة قرابة عشرين غلوة من المدينة [ميلان ونصف الميل]، وما ان علم دوكاس بهذا حتى بادر إلى اختيار فرسان من أتباعه على أساس براعتهم، وبعث بهم لاعتراض سبيل فلامنغ، وبقي هونفسيه بالمدينة للاشراف عليها، غير أنه عندما رأى فلامنغ عن بعد أعلام الامبراطور مرفوعة فوق الأسوار، أدار ظهره وعاد قبل أن يتلاقى مع الفرسان الرومان، الذين كانوا قد باتوا على مقربة منه، ثم طارده الرومان وقتلوا كثيراً من أتباعه، وأسروا مائة من فرسانه كاملي السلاح، وحفظ فلامنغ من المخاطر سرعة حصانه، فقد كاد أن يقع بالأسر، وبعدما حقق الرومان هذا النجاح عادوا إلى مونوبولي.

١٠- ولم يكن دوكاس، الذي لاحظ أن الحظ يبتسم يومياً للرومان قادراً على الوثوق به كثيراً، بل كان حذراً بشكل معقول من انقلابه، وكان يقول إنه مثل شخص ساذج متقلب يتبع قوماً مسافرين لا بد من أن يعود أدراجه، ويدعهم في وسط الطريق، ولهذا كتب رسالة بعث بها إلى الامبراطور، وقد جاء بالرسالة مايلي:

«أيها الامبراطور العظيم، إذا لم يكن قد بقي أمامنا المزيد من الصراع

في ايطاليا، فلن يكون هناك حاجة لجيش آخر أو أي شيء آخر، وتعلمون أن كل شيء قد سار بالنسبة لنا حتى هذا اليوم وفقاً لما نبتغيه، حيث سيطرنا على معظم المدن الموجودة، في ايطاليا [أي أبوليا] مع الموجود على خليج ايونيا [البحر الأدرياتيكي]، ولقد كنا نحن المنتصرين في معارك عظيمة بطريقة تليق بعظمة امبراطوريتك والعرق الروماني، وبما أنه مازال أمامنا صراعاً أعظم، (لأن وليم الذي يتولى نهب صقلية، لاشك منزعج جداً بسبب تدمير أتباعه، وهو يقوم الآن بحشد العساكر من كل مكان، وقد قام بانزال أسطول فيه عدد هائل من السفن، على سطح البحر، وهو عازم على حربنا براً وبحراً) علينا ألا نستخف باستعدادات الجزري [وليم]، وألاً نواجه هذه الحرب بسذاجة، خشية أن نخسر سمعتنا ونستعيز عنها بالعار، ثم إنه من المتفق عليه أن النجاحات التي تحققت على أيدي عدد قليل من الرجال، لابد من أن تكون أعظم بكثير على أيدي عدد أكبر، ومع هذا إن الانخفاق يجلب أضعافاً مضاعفة من العار، لأنه كما علمتنا ياصاحب الجلالة إن الهزيمة تدلل على جهل بالاستراتيجية لدى المهزوم، ولذلك ينبغي حتى لا يقع شيء من هذا القبيل لنا، نطلب ارسال قوة بحرية أكبر مع جيش بري إلى هاهنا». هكذا كانت محتويات الرسالة.

وبما أن الأمور سارت بشكل طيب لدوكاس في مونوبولي، فقد انطلق من هناك بصحبة قواته كلها، وبعدها استولى صلحاً على أوستيني OS-tuni، هي مدينة واسعة الشهرة بقوتها، سارع بالزحف نحو بلدة أخرى، هي برنديزي، التي كان اسمها القديم تيميسي، فلقد غير مضي الوقت معظم الأسماء القديمة وعسكها، وغيرها إلى أسماء تختلف عن سالفاتها تماماً، أو تختلف بعض الشيء (١٥)، وعندما وصل الرومان إليها [١٤ نيسان ١١٥٦] مكثوا هادئين (لأن اليوم التالي كان يوم عيد الفصح المسيحي) وخيّل للذين كانوا في المدينة أن مرد هذا هو الخوف، لذلك

قاموا بحملات متوالية ووصلوا إلى المعسكر، ووقتها انقض الرومان عليهم بدون ارادة منهم، لكن عندما دفعوهم إلى الخلف، عادوا إلى المعسكر.

وهكذا عاد الرومان إلى انشغالاتهم المتقدمة، يقدمون التبجيل للموسم المقدس، لكن واحداً منهم، واسمه توماس، أصله من أنطاكية، كان منذ زمن طويل قد أصبح من المتعلقين عن قرب بالامبراطور (١٦٦)، وضع عليه سلاحه، وتقدم من المعسكر على ظهر حصانه نحو السهل، وعندما بات قريباً من المدينة استدعى سادة القوم للنزول للقيام بمبارزة فردية معه، وكان هناك واحداً اسمه أنجيلو، مشهوراً بشجاعته، فعندما رأى توماس يطلب مبارزة فردية، صب سلاحه على نفسه وخرج إلى السهل، وسار حتى بات وجهاً لوجه مع توماس، ثم استولت الحيرة على الذين وقفوا على الجانبين ينظرون نحو رجلين متسلحين بشكل كثيف وعلى درجة عالية من الشجاعة، استعداداً للمبارزة في ذلك المكان، كما لو أنهما في حلبة للصراع، وهمزا فرسيهما، بعدما شرعا رمحيهما نحو بعضهما، وخرق رمح توماس ترس ودرع خصمه ووصل حتى الجلد، في حين دفع أنجيلو برمحه فنفذ من خلال ترس توماس، وهو رافع إياه فوق رأسه، وكان هذا العسكري آنذاك قد رفع ترسه ليحمي المنطقة التي حول رأسه، وهكذا خرق الرمح البيضة وجرح جلدة الرأس، وإثر هاتين الضربتين المتبادلتين افترق أحدهما عن الآخر، فعاد واحد منهما إلى معسكر الرومان، ومضى الآخر عائداً إلى المدينة.

وعندما أكمل الرومان الاحتفال بعيدهم، زحفوا ضد المدينة، وعندماقرر لديهم أنهم عبثاً يفعلون بقذف الأسوار بالحجارة (لأن الرجال القدماء الذين أبدعوا وسائل العناية بأعمالهم العامة، ربما كانوا أكثر تفوقاً في بناء المدن) توقفوا عن ذلك، وشرعوا برماية الحجارة مثل صحنون طائرة، تحلق عالياً من فوق الأسوار، لتسقط بعد ذلك داخل المدينة، ولما

أطلقوا الرمية الأولى، كان في المدينة عجوز تعول وتولول جيئة وذهاباً، فأصابتها على رأسها، فشطرت الرأس، وحطمت كل عظم من عظام أطرافها، وارتفع العويل والصراخ، واستولى على الناس مظهر من جرى الاستيلاء على مدينتهم، ونال هذا حتى الذين لم يمتلكوا الشجاعة للذهاب لرؤية تلك المرأة التعيسة، ولدى متابعة الرومان برماية أخرى ثم رميات، اعتقد كل واحد من السكان الخائفين أن الحجارة باتت فوق رأسه، لكن ليس وفق الطريقة المحكية في الرواية المتعلقة بـ«تانتالوس» (١٧) Tantalus، وشعر الجنود الواقفين للحراسة في الأبراج أن أهل المدينة يخططون لادخال الرومان، ولذلك ذهبوا راكضين نحو القلعة، وفتح السكان الأبواب، وأدخلوا الرومان.

وإثر استيلاء دوкас على برنديزي باستثناء القلعة، قسم جيشه إلى قسمين، احتفظ بقسم في المدينة لقتال الذين كانوا في القلعة، وأرسل القسم الثاني للقيام بأعمال جمع المؤن والغلال، وهكذا عملوا، وقام سكان المنطقة الخصبة المسماة هاليتزيون (١٨) Halitzion بتقدير ما حدث في برنديزي، فقرروا الالتحاق بالامبراطور، والاعتراف بسلطانه لكن قوة صغيرة من الأعداء (كانوا من النورمان) (١٩) كانت تنتظر داخل الأحرش وتربص بالفرسان الرومان الذين يرعون الخيول، وعندما رأت هذه القوة الرومان قد توقفوا وناموا، قاموا بسرقة خيولهم وسوقها بعيداً، ووصلت الأخبار إلى الذين كانوا عائدين من جمع المؤن، فبادر هؤلاء الرومان مسرعين وقاموا بمطاردتهم، فاستردوا الخيول، وأسروا معظم الأعداء، وكان وقتها بينهم رجل ايطالي عالي المقام اسمه سيكيرين Sycheren [سيغر Siger ؟] قد وقع بالأسر، غير أنه بسبب عدم معرفته استطاع أن يخدع أسره فأطلق سراحه مقابل منحة من الذهب.

١١ - وراجت بين صفوف الرومان اشاعات تحدثت عن اقتراب

وصول وليم وهو يقود قوى عسكرية كبيرة برية وبحرية، وبناءً عليه أعدّ الرومان أنفسهم بقدر الامكان، ومكثوا من دون حركة، ولم يأت اليوم الخامس حتى وصل واحد من الفارين من جيش العدو، وأنذر الرومان وأعلمهم بأن وليم بات على مقربة منهم، ومن الممكن ايقاعه بالشباك، وعندما سمع القادة الرومان بهذا، عبأوا قواتهم وأعدوها للقتال، وارتوي أن من المناسب أن يتولى بازونفيل وجون أنجيلوس اللذان كان برفقتها يحمل قوات المرتزقة، القيام بالقتال البري على أن يرافقهما أيضاً الايطاليون الذين انضموا إلى صف الامبراطور، وبالوقت نفسه يقوم دوكاس بالقتال ضد الأعداء بحراً، وقالوا بهذا يمكنهم التعاون ومساعدة بعضهم بعضاً، وعند الفجر زحف دوكاس بخطوات سريعة نحو الشاطئ مع الفرسان المسلحين الذين يحيطون به، وجعل السفن تبحر على صف واحد، في حين كانت بقية القوات جاهزة للقتال برأ، وقد تقدمت هذه القوات على تعبئة، ولم تكن السفن الصقلية، التي كانت على مقربة من المدينة، قادرة على دخول الميناء دفعة واحدة (فهذا الميناء كان عريضاً بما فيه الكفاية بالداخل، لكنه انتهى بما يشبه المضيق) ولذلك دخلت بالتعاقب، وانقسمت إلى مجموعات كل مجموعة مؤلفة من عشرة سفن.

ثم إن دوكاس خاف من عدد السفن الصقلية، بعدما رأى أن الاسطول الروماني كان صغيراً جداً بالمقارنة (لأنه تألف من أربع عشرة سفينة فقط) ولذلك خطط لشيء كان حسبما يلي:

لقد تدبر صنع رسالة كأنها قدمت من الامبراطور، تذكر بشكل محدد وشوك وصول قوة كبيرة برية وبحرية، وأن هذه القوات ستصل بالتحديد حوالي منتصف النهار، وعندما رفع من معنويات الجند وآمالهم خاطبهم قائلاً: «أيها الجنود، لقد تعهدت أننا سنحوذ النصر أولاً، خشية أن نتشارك ببركات النصر مع الذين سيلتحقون بنا مؤخراً ليشاركوا

بالصراع»، ومع انهائه لكلامه لاحظ هذا القائد أن سفن العدو بدأت بالوصول إلى داخل الميناء، فأمر بانشاب القتال، وهكذا بدأت المعركة على الفور، ولم يستطع الصقليون تحمل الرمايات الرومانية من البر والبحر، ذلك أنهم كانوا عرضة للنشاب من على الجانبين، ولذلك تراجعوا، وطاردتهم الرومان وقتلوا الكثير منهم، واستولوا على أربعة سفن مع ملاحيها، بعدما اصطدمت بالأرض، ومرد هذا أن المجذفين فيهم كانوا أكثر سرعة من اللازم، ولذلك اصطدموا بالشاطئ، فكانوا فريسة جاهزة للقوات البرية، وقتل في المعركة ما يزيد على الألفين من الأعداء، وسقط أيضاً من الرومان عدد كبير، ولا سيما واحد من الأعيان اسمه سكارامانكاس Skaramankas ، وكان من الخاضعين مباشرة لإمرة دوكاس فهو عندما شاهد العدو يفكر بالفرار، همز فرسه، وأمسك بدفة مؤخرة إحدى السفن التي كانت تحاول المغادرة، وحاول بالقوة أن يمنع مغادرتها، وبذلك قام بعمل أوسع شهرة من عمل كينيغيروس القديم (٢٠) Kynegiros ، ولدى تأثره بضربات صدرت نحوه من داخل السفينة، اضطر إلى تركها تغادر، لكن بما أنه أعاق نجاتها لبعض الوقت، فقد سبب أسرها من قبل الرومان الآخرين الذين اندفعوا وقتلوا نحوها.

وما ان حقق الرومان هذا النجاح حتى زحفوا ضد قلعة برنديزي، وذلك بعدما اخترعوا آلة اعتادوا على تسميتها «السلحفاة»، وقد دفعوها حتى القلعة، وعندما رآها الذين كانوا واقفين فوق الأسوار ضحكوا بصوت مرتفع، ظانين أن المقصود من هذه الآلة تدمير جزء من منشآت السور، وكان هذا شيئاً غير ممكن التحقيق تماماً، لأن الأحجار كانت شديدة التلاصق حتى أن السور بدا وكأنه مؤلف من قطعة حجر واحدة، لكن عندما أوصل الرومان هذه الآلة إلى الأسوار وأصقوها بها، ولجوا إليها خلال الليل، وحفروا على مقربة من الأساسات، وأخذوا الأوساخ

بعيداً، بعدما وضعت فيها ثم أفرغت من الجانب الآخر، وظلوا متابعين لعملهم حتى تجاوزوا آخر حجرة في الأساسات، ووصلوا إلى الأرض دونها، وهنا أزاحوا الآلة، فأوجدوا بهذا ثغرة واسعة، فشحنوها بالأخشاب حتى امتلأت، ودعموا بذلك جزء السور الذي صار معلقاً، وبعدها لاحظوا أن المدافعين من الداخل ظلوا متشبثين بمواقعهم، ألقوا النار في ذلك المكان، والتهمت النيران جميع المواد، وسببت انهيار السور هناك حتى الأساسات، وأدت إلى سقوط الذين كانوا وراء الشرافات، لكن البرابرة تراجعوا إلى السور الداخلي، ولم تضعف مقاومتهم.

١٢- وبينما كان الرومان مشغولين في هذه المسائل، حشد الامبراطور اسطولا من السفن وبعث به إلى ايطاليا مع جيش بري، وتولى ألكسيوس ابن بنت الامبراطور ألكسيوس الأول (٢١١)، قيادة هاتين القوتين، وكان آنذاك يشغل منصب الدوق الأعظم، [الأميرال الأعلى]، وأمره الامبراطور بحشد قوة أخرى ومن ثم الابحار إلى ايطاليا، لكنه أبحر إلى برنديزي دون أن يفعل ذلك، ومرد ذلك أن مجريات الأحداث كانت مخيفة للقيام بمثل هذه الرحلة، وكذلك خشية من المخاطر التي قد تحقيق بهم من العدو.

وبدأ السعد منذ الآن فصاعداً باشاحة وجهه علناً عن الرومان، لأن روبرت صاحب [بازونفيل] بدأ بالتخلي عنهم، وذلك بعدما حارب حتى الآن إلى جانبهم، فهو عندما سمع بأن وليم قادم مع قوة كبيرة، وشهد أن الرومان عجزوا حتى الآن عن اخضاع قلعة برنديزي، تظاهر أنه ذاهب لجمع قوات تساعد في القتال هناك، لكنه لم يعد، يضاف إلى هذا أن الفرسان الذين جاؤوا من تخوم أنكونا Ancona، طالبوا بأن يُدفع لهم في المستقبل ضعف ايجارهم السالف، وعندما أخفقوا في تحقيق مطلبهم غادروا، ولدى سماع وليم بهذا حشد قواته وزحف مباشرة ضد الرومان.

وشرع الرومان يخططون بشأن كيفية ادارة الحرب، فقد رأى بعضهم أن الصحيح هو الذهاب إلى باري، ومن ثم الحصول على الأمن بالتحصن بها، لكن هذا لم يحز على رضا الآخرين، الذين أعلنوا أنه سيكون عملاً جباناً إذا ما انسحبوا، وتخلوا عما كان في أيديهم، وبما أن هذا الرأي بدا هو الصحيح، ومن أجل عدم ترك الوقت يذهب سدى، قاموا ثانية بمهاجمة أسوار قلعة برنديزي، وهدموا قسماً كبيراً منها بوساطة الآلات الحربية، ومع هذا لم يستطيعوا اقتلاع البرابرة، فهؤلاء قد تشجعوا في البداية، وأقلعوا بهجوم على الرومان، لكن عندما ضغط الرومان عليهم بشدة هربوا عائدين إلى الأسوار، ولولا وقوع حادث عرضي أعاق الرومان، لأمكن الاستيلاء على برنديزي عنوة وبكل سرعة، فقد كان الرومان قد اعتلوا فوق الأسوار، وأخذوا يقاتلون الذين داخل المدينة من الأبراج، لكن عدداً كبيراً من الأبراج التي كانت قد تضررت كثيراً من قبل لرميها بالآلاف الحجارة، تساقطت إلى الأرض وأوقعت معها كثيراً من الرومان، ولهذا اضطر جيشهم إلى الانسحاب خائباً.

ولاعتقد الصقليين أن وليم كان بعيداً، وضعوا خطة لتسليم القلعة إلى الرومان وفق شروط، ولكن بما أن السعد قد وعد بخدمة الرومان لوقت محدد، ولشعوره أن هذا الوقت قد انتهى، فقد تخلى عنهم في وسط المدينة، لأنه بينما كان الصقليون يخططون هكذا جاءتهم الأخبار بأن وليم وصل، وبات قاب قوسين أو أدنى مع جيش كبير، ولدى سماعهم بهذا تخلوا عما عزموا عليه، وصعدوا فوق الأسوار، ورفعوا أصوات سرورهم عالياً، وأخذوا يحتفلون وكأنهم قد حققوا فعلاً طرد الرومان.

١٣- لقد كان هذا ما تحقق هناك، وزحف وليم، الذي أقلع من مسينا مع كامل جيشه، مباشرة نحو برنديزي، وفي ذلك الوقت كان اسطوله راسياً قرب جزيرة على مسافة جد قصيرة مقابل برنديزي، وخطط الصقليون لمهاجمة الرومان من الجانبين في وقت واحد، وحال سوء التدبير

— كما أعتقد — مع ما قدر للرومان من هزيمة، بينهم وبين الهجوم البحري فوراً، وقبل أن يظهر وليم لهم ويقف ضدهم، فعندما قاتلوا ضد الطرفين، جلبوا الدمار للمصالح الامبراطورية، وكانوا قد انتظروا آنذاك وصول جيش من بيزنطة، وهكذا أجلوا الهجوم حتى وصوله المنتظر بسرعة، لكن عندما وصلت الأخبار باقتراب وليم، أرغموا وقتها على خوض المعركة ضد الطرفين معاً.

واختار الرومان رجلين مجريين بالقتال هما: يواناكيوس كريتوبلس Ioannakios Kritoples وبيرم (٢٢)، الذي كان من أصل تركي، وبعثوا بهما مع جورجيين ولانيين لمناوشة الأعداء عندما يلتقون بهم، وكان هؤلاء الأعداء قد أقاموا معسكرهم على بعد خمس وأربعين غلوة [خمس أميال ونصف الميل]، وبعد ذهابهم إلى هناك هاجموا العدو وقتلوه في الساقة، واشتبكوا عن قرب به وقتلوا بعض رجال المؤخرة، وساقوا أمامهم عدداً كبيراً من الخيول من قطار الأثقال، وبعدما انتزعوا منهم واحداً من أعلامهم، عادوا إلى برنديزي، غير أن الصقليين لم يأبهوا بهذا (بسبب أعدادهم الهائلة، لم تصلهم أخبار ما حصل)، وعسكروا بالفعل على مقربة من الرومان، حتى أن الذين كانوا يبحثون عن الأعلاف من الطرفين غالباً ماتوا مع بعضهم بعضاً، وخطط الصقليون للمعركة، وكان أسطولهم راسياً في الميناء على مقربة منهم، واقفاً بانتظارهم، إذن على هذه الشاكلة انشغل الصقليون.

وكان الرومان أقل عدداً من جيش العدو، وذلك بسبب الذين تخلوا عنهم من قبل، ثم لاستمرار تناقص قواهم لكثرة حالات الفرار، ولأن عدداً كبيراً من حلفائهم الآخرين قد هجروهم، وبشكل خاص قيام جماعة معتبرة من النورمان كانت مستأجرة من قبل الرومان بالالتحاق سراً بوليم، ولاحظ وليم ما كان يجري فقرّر الامساك بالفرصة التي توفرت له تلك الساعة خشية أن تفوته بعد وقت، بسبب أنه إما أن يأتي روبرت

صاحب بازونفيل لمساعدتهم (لأنه روي أنه جمع جيشاً وكان عائداً) أو ان نجدة بحرية ستصل إليهم من عند الامبراطور، ولهذا صف وليم جيشه على شكل وحدات وتقدم، ونظراً لأن روبرت قد تأخر، إما عن قصد أو صدفة، قام الرومان بإعداد أنفسهم والتهيؤ بقدر ما هو ممكن، ووقفوا في وجه العدو، وكان مثيراً آنذاك أن ترى قوة صغيرة من الرومان استعدت للقتال مع جميع القوات الصقلية [٢٨-أيار ١١٥٦] [٢٣] ووقف الجيشان لبعض الوقت دون التحام، ثم قفز واحد من الفرسان المرتزقة من بين صفوف الرومان، ووقف بين الصفين، ودعا إلى من يبارزه وينازله بشكل فردي، وهكذا بدأ القتال، واندفع كل فريق ضد الفريق الآخر، وكان النزال قد بدأ عند الفجر، واستمر القتال متوازناً لمدة طويلة، قاتل فيها الرومان بشجاعة، ثم إن الصقليين شقوا طريقهم لتفوقهم العددي، ودفعوا بالرومان إلى الخلف، ووقع كثير من الفارين وأخذوا أسرى، وشق البقية طريقهم إلى المدينة بعد كثير من الجهد والعنف، وكان بينهم القائد ألكسيوس [كومينوس]، أما دوكاس الذي ترك خارج الأسوار، فلم يتوقف عن الضرب وتلقي الضربات حتى جرى تطويقه من قبل الأعداء، وأخذه أسيراً، لكن بعد صراع طويل، وعندما أسره الصقليون بات من السهولة بمكان إلقاء الذين داخل المدينة في الشبكة، وكانهم وقعوا في فخ.

إلى هذه النهاية جلب الأحمقان كومينوس ودوكاس شهرتهما المبكرة، وهكذا رجال هذه الأيام: عاش بعضهم وهو مجرد من العلم العسكري، فقاد المصالح إلى الدمار، وعرف آخرون بالصدفة قسماً من العلوم العسكرية، لكنهم أخطأوا في الجزء الأهم، ذلك أن الاستراتيجية فن، وينبغي على من يمارسها أن يكون مرناً ومهراً، وأن يعرف كيف يقوم بالتغيير بالوقت المناسب أثناء كل مرحلة من المراحل، فهناك أوقات ليس من العار فيها الفرار، إذا سمحت المناسبة بذلك، ومرة أخرى

المطاردة بدون توقف، كل ذلك حسب منفعة الفرد، وعندما يبدو أن النجاح مضمون بالبراعة أكثر منه بالقوة، المخاطرة وقتها بكل شيء أمر مأسوف عليه، وبما أن عدداً كبيراً ومتنوعاً من المسائل يستهدف غاية واحدة هي النصر، فالمسألة هي مسألة خلاف حول الطريقة التي يستخدمها المرء للوصول إليه.

وبما أن ألكسيوس لم تكن لديه القوات التي أمره الامبراطور بجلبها، ولو أن الرومان لاحظوا أنهم ليسوا مساوين للصقليين، فحملوا جيشهم على ظهر سفنهم، واشتبكوا مع الأسطول أولاً، وكانوا حققوا النصر عليه بالقوة، وكانوا أيضاً سوغوا بانتصاراتهم في البحر عملية انسحابهم من البر، حتى إذا ما حانت الفرصة، نزلوا ثانية على الأرض وربحوا المعركة في إيطاليا بقوات أكبر، لكن بما أنهم احتفظوا بأذهانهم بفكرة التراجع الخسيسة، سقطوا في حماة العار لتعرضهم للدمار مع جميع قواتهم.

١٤- لقد كان هذا ما وقع هناك، وعندما سمع الامبراطور بذلك ظهرت عليه علامات الغضب، خاصة بسبب أن هذا حصل بعد عدد كبير من النجاحات المتقدمة، لأن الفاجعة التي تقع بعد الأعمال المجيدة تجلب العار، وتسبب هذه الأمور بالعادة الحزن الشديد بشكل خاص، لأنها تفتقر كلياً حتى إلى قليل من النجاح، ثم يعقب ذلك دمار لكل شيء، ولهذا كان حزينا جداً، ومع هذا لم يقهره الحزن، فبعث بألكسيوس [أكسوكوس Axouchos] الذي شغل انذاك منصب بروتوستراتور، إلى أنكونا، ليعمل ثانية في سبيل الاستيلاء على إيطاليا، ولو من البداية، لأن الناس هناك كانوا قد أقسموا للامبراطور، أنهم مع عدم رغبتهم في قتال الملك الألماني، سيتولون حماية أموال الامبراطور والرومان الذين سيبعثهم إلى هناك مثل حمايتهم لأنفسهم، لكن لماذا اقتنع الامبراطور بالقيام بهذا، هذا مأسوف أحكيه، فعندما كان من قبل قائماً بحملة على كيركيرا، لاحظ أن أمة البنادقة كانت مخادعة وعنيدة، ولهذا

ارتأى أنه من الأهمية بمكان الاستيلاء على أنكونا، فبذلك يمكنه أن يقلل إلى حد بعيد من عجرفة البنادقة، ويصبح سهلاً له من هناك شن الحروب في إيطاليا، ولذلك توجه ألكسيوس إلى أنكونا وحمل معه كثيراً من المال [١١٥٧]، وأرسل من هناك إلى إيطاليا [أي أبوليا] قسطنطين أوتو، وأندريه كونت إحدى المدن الإيطالية [روبي كائنا Rupe Ca-nina] وكان شجاعاً جباراً، وممتلئاً بالاقدام، وحشد ألكسيوس قوة كبيرة من المرتزقة، فأخضع عدداً كبيراً من المدن للرومان (٢٤).

ثم حدث شيء كان كما يلي:

بما أن أسقف روما [البابا هادريان الرابع] سلف له ووافق على تحالف مع وليم، فعندما لاحظ هذين الرجلين [قسطنطين وأندريه] ماضيان خلال منطقة روما، عارض ذلك بشدة، غير أن بعض أعيان روما، الذين تقدم لهم الموافقة على إقامة صداقة مع الرومان (لأن الامبراطور مانويل اعتاد على التحالف مع عدد كبير من هؤلاء) أثاروا الشعب ضده، وطلبوا راية امبراطورية، وتلقوها بتشريف عظيم، وسمحوا عن طواعية لكونتوستيفانوس بتجنيد كل من يرغب بذلك، ولغضب الأسقف مما حدث وضع الناس تحت الحرمان [الكنسي]، وهو الشيء الوحيد الذي كان بإمكانه أن يفعله، قائلاً إنه لا يوجد ما يجمع بين روما الجديدة [القسطنطينية] وروما القديمة، ذلك أنها انفصلا عن بعضهما منذ زمن قديم، «وبالحري علينا أن نقاتل إلى جانب أمير الصقليين، وإنه لإثم إذا لم نذهب إلى عون الرجل الذي هو عضو في جماعتنا، فضلاً عن ذلك إنه الرجل الذي يناضل بصعوبة ضد واحد أقوى منه نفسه»، وقام واحد ممن تدبر شؤون الامبراطور، بعدما خاف من العقوبة، بعكس مواقفه، ومضى للانضمام إلى جانب الأسقف، لكن القائدان الرومانيان شداه بكل عنف، وشهرا به لخرقه عهوده، وعلقاه بطريقة وحشية معدومة المثال، فقد علقا سلاحه وسابغته وحصانه بوساطة حبال، ربطوها إلى

شجرة، وحشدا قوة بشكل علني ضد الأسقف حتى أرغماه على اعفاء الناس من العقوبات، وهكذا حظيت شؤون الرومان ثانية بحظ عظيم (٢٥).

واستولى الرومان حرباً على مدينة نالت اسمها من القديس جرمانوس [سان جرمانو، كازينو الحالية]، ووضعوا أيضاً ثلاثمائة آخرين تحت حكم الامبراطور، ومن الممكن قراءة اسم كل واحد من هؤلاء من قبل كل راغب، لأنهم مثبتين خارج القصر القائم جنوب [كذا] المدينة، وهو القصر الذي بناه هذا الامبراطور، وذلك بالاضافة إلى القصور القديمة [أي بلاشرين] (٢٦)، وإذا كان قد دون هناك أكثر من أسماء هؤلاء، فتلك مبالغة فيها ادعاء باطل بطريقة مفضوحة من قبل الذين ادعوا مثل هذه الأعمال، كما هي الحال عادة مع العامة، وبسبب هذا سمعت أنا مرة الامبراطور نفسه يعبر عن غضبه تجاه ذلك، هذا وأنا الآن لأدري هل أزيلت هذه الأسماء أم ماتزال باقية.

١٥ - وهكذا بدت الأراضي الايطالية وقد دنت من أن تصبح ثانية خاضعة للرومان، لكن ألكسيوس كومينوس ودوكاس وبقية القادة الرومان، الذين سيقعون أسرى في قبضة صاحب صقلية، دمروا القضايا ثانية [١١٥٨]، ذلك أنهم تعهدوا بأشياء كثيرة إلى الصقليين، لم تكن برضى الامبراطور، وبذلك استلبوا من الرومان أعظم الانتصارات وأكثرها نبلاً، فما الذي يمكن للانسان أن يوافق عليه، عندما تكون الأغلال ممسكة به، وهو سجين في زنزانات تحت الأرض؟ لقد فعل الصقليون هذا، وهكذا قام الرجال الذين كانوا هناك — وكانوا يتوقعون أن يقوم الامبراطور بصنع سلام مع وليم — بانتزاع المدن من الرومان وحرمانهم منها بكل سرعة.

وعندما سمع الامبراطور بهذا، وفهم الذي حدث، بعث برسائل إلى

صقلية، وكتب مايلى إلى الرومان الذين كانوا بالسجن:

«إنني أتساءل أيها السادة كيف يمكنكم متابعة ممارسة الدناءات في الأعمال، لأنكم هكذا قمتم من قبل بتدمير الانتصارات السالفة والرائعة، وجلبتم إلى أنفسكم القدر الذي أنتم الآن فيه، والآن، عندما كان آخرون متلهفون إلى أن يعالجوا بالحرب وبعون من الرب، ماقمتم من قبل بافساده، تقفون في الطريق، ألم يخطر ببالكم أن الصقليين يريدون بهذا إعاقة تقدمنا نحو الأمام؟ لأنه من هو الذي بين الايطاليين، سيسمع أن الأرض التي نمتلكها اليوم سوف ترد إلى وليم من قبلنا، من هو هذا الذي عندما يسمع بذلك، لن يثور علينا ويمضي مباشرة إلى التحالف مع وليم؟ لن يكون هناك من أحد، باستثناء الحمقى والذين بدون عقل، وهم كما يحدث كثر، أسألكم، أخبروني بحق الرب، متى بدت أرض آباءكم أكثر نبلاً بالنسبة لكم؟ متى، بعدما أصبحت ايطاليا وجزيرة صقلية موضوعة تحت سلطانكم، أم عندما كنتم أبطالاً متميزين تمّ انقاذهم بعقريّة من قبل أبناء قومهم، أم عندما تعودون إلى بيزنطة أبطالاً شجعاناً للرومان، ويكون ذلك بمثابة مشهد ترحيب بالنسبة لزملائكم؟ أو متى عندما نكون تخلينا عن لاشيء، وربحنا لاشيء، فقط حسبما تحدد أيانكم لوليم، أو عندما نستدعيكم إلى هاهنا؟».

لقد كان هذا ماكتبه للرومان، أما ماكتبه إلى وليم فكان مايلى:

«لاتظن أيها السيد النبيل، أننا سوف لن نلاحظ لماذا تمّ تدبير هذا من قبلك، مادام ليس من الضروري تقديم أعذار لما تمّ صنعه تحت الاكراه، وعلى هذا إن ماتعهد به هؤلاء المكبلين، والرجال المسجونين مرفوض من قبلنا كلياً ولا نرضى به البتة، ولن يتوقف الرومان عن الحرب في ايطاليا حتى يضعوها مع الجزيرة كلها تحت سلطاننا كما كانت من قبل».

وعندما تسلم الذين كانوا يحيطون بوليم الرسالة، ردّوا عليها كما يلي:

«إذا ما كنتُ ترغب، أيها الامبراطور الجليل، أن تفرض عقوبات علينا بسبب الأخطاء التي اقترفت بحق جلالتك من قبل، فلقد عذبت إيطاليا فوق ما هو ضروري، فلقد استوليت على ما لا يقل عن ثلاثمائة مدينة في وسطها، بعضها لم يكن داخلاً في المملكة الرومانية منذ زمن طويل مضى، ولقد نلت شهرة لم ينلها غير جلالتك منذ أيام جستنيان، الامبراطور السالف للرومان، نحن نطلب منكم مقارنة ذنبنا (نعني عندما استولينا على كورنثا ويوبويا) مع الانتصارات الرومانية في إيطاليا، التي استولت منذ زمن طويل على ممتلكات كثيرة هناك ونقلت كثيراً من المقتنيات، وغالباً ما ملأت الأرض بثلاثة أضعاف من الدماء، ثم إنكم لم تقتصروا في عملكم على مجرد نهب الكثير من المدن بل حولتوها إلى رعية لكم. أيها أعظم بالنسبة لكم؟»

وإذا لم ترغب بقياس هذه الأشياء ضدنا، نحن الذين أدنى كثيراً النسبة لجلالتكم، إلتفت وعد بالذاكرة إلى الأباطرة القدماء، وقدّر معي إعات الرومان في الأيام الماضية، أم أنه لم يحدث أن قام أحد بتسبب الاضطراب للمملكة الرومانية؟ أو لم تكن دولتك هي التي عانت كثيراً على أيدي شعوب الترك والهون [البشناق]، وفيما بعد على أيدي روبرت [غويسكارد] الذي عبر من إيطاليا إلى إبيدامنوس Epidamnus [دورازو، حالياً دوريس] وناهض جدك [ألكسيوس الأول] بعدد كبير من المعارك؟ فلقد تمكن جدك بكل صعوبة، لابل نادراً ما تمكن من دفع روبرت من الأراضي الرومانية، غير أنك استطعت أن تسيطر تقريباً على كل مالدينا، وإذا ماكنت قد فعلت هذا انتقاماً لنفسك منا، فلقد حصلت على ما فيه الكفاية من انتصارات، ولقد عاقبتنا بما فيه الكفاية.

وبما أنك أنت الذي دست ترابنا، ليس من العار أبداً قبول عروض السلم، كما أن ذلك لا يتخطى الفخار أبداً، وإنك — في حال القبول — سوف تتسلم على الفور جميع الرومان، الذين وقعوا في أسرنا، مادام القدر

هو الذي أعطانا مثل هؤلاء الرجال العظماء، مع أنك لست محقاً بغضبك علينا، لأنه ليس من المعيب للانسان الذي يخوض الحرب أن يتخذ اجراءات ضد أعدائه، هذا ويبقى أنك محق في اثاره الحرب ضدنا ولسبب واحد، لكن ما الذي اقترفناه من ذنب تجاه يوبويا؟ لأنك — كما قلنا — تجاوزت التوزيع العادل، وعلى هذا إذا ماكنت راغباً في فرض عقوبات علينا بسبب ماقمنا به في أراضيك، فلقد فعلنا مايساويه في الدفاع ضد جلالتك، إنما إذا ماأردت اثاره الحرب دوماً ضد شعبنا، لقد حان الوقت لتقدير هذا الأمر فيما إذا كان مناهضاً للقوانين الانسانية، لأنه انسانياً أن تقوم بقياس الحروب بأسبابها، وربما يقول انسان آخر ان تمضي أبعد فذلك عمل وحشي، لكن هذا لن يقال من قبلنا، نحن نطلب منك إبرام معاهدة وإنهاء هذه الحرب».

وبعدما استعرض الامبراطور هذه الرسالة عدة مرات، وافق على ما قيل فيها، وعندما تسلم مانويل الأسرى الرومان واسترد أسلاب الحرب التي كانت هناك، وحصل بالاضافة إلى ذلك على أيمان أداها وليم أنه سيكون حليفه فيما يتعلق بقضايا الغرب، عند ذلك أنهى الحرب، وقام بعد وقت قصير بتشريف وليم بأن جعله ملكاً، حيث أنه لم يكن قبل ذلك كذلك، واحتفظ نحوه بعواطف جيدة، حتى انه عندما استفرغ وليم ماكتب له من حياة، واتصل أخوه به [مانويل] وطلب تقديم المساعدة له ليحكم صقلية، لم يستقبله أبداً (٢٧).

١٦ - وهكذا وصلت الانشغالات الرومانية في الحروب الايطالية إلى نهايتها هناك، وبما أن الشؤون في آسيا كانت متحركة منذ أمد، بينما كان الامبراطور مايزال يتابع الصراع في ايطاليا، ولذلك كان مهموماً كثيراً بشأن المسائل هناك، لكنه كان مستغرقاً كلياً بمشاكل ايطاليا، ذلك أن سلطان الأتراك (٢٨) كان قد استولى على كل من مدينتي بونورا Pou-noura وسبيلا (٢٩) Sibyla وكانتا من قبل خاضعتين للرومان، كما

أن طوروس السالف الذكر كان قد استولى على عدد كبير من مدن كليكية، وقام في الوقت نفسه يغى—باسان، الذي كان مقدماً للأتراك وحاكماً لمنطقة كبدوكية، بالاستيلاء على أونايون Oinaion [أوني] وبوري Pourae [بافرا]، وكلتاها من مدن بحر بنطش (٣٠)، وقام الامبراطور بإرسال ألكسيوس غيفاردوس [حوالي ١١٥٨] ضد السلطان، فاستطاع استرداد المدينتين المذكورتين، ونجح الامبراطور في الوقت نفسه في جهوده في جعل يغى—باسان يتخلى عن حملة ضد الأراضي الرومانية، وأن يغدو حليفه المخلص، ومن ثم خطط ليقوم بنفسه بحملة إلى كليكية.

وحدثت آنذاك في بيزنطة الحوادث التالية: كان هناك لاوياً، من الذين ندعوهم قسس، كان اسمه باسيل، كان معهوداً إليه القيام بنشر وتفسير الكتابات المقدسة للجماهير في أوقات الاجتماعات الدينية في كل مكان، وقد أراد أن يقوم بشكل علني بذيء بالاساءة أثناء الطقوس إلى بعض الذين تخاصم معهم مؤخراً، لاسيما ميخائيل السالونيكى ونقفور الذي كنيته باسيلاكىوس (أوباسيلاكس)، وكان واحداً من هذين الذين اسمه ميخائيل آنذاك أستاذاً للبلاغة يتولى شرح وعرض الكلمات المقدسة للأناجيل في كنيسة آيا صوفيا، ونظر إلى الآخر نظرة تقدير من قبل رجال الأدب، خاصة لبراعته في تأليف الخطابات، وفي الحقيقة كان مدرباً بشكل بارع في كثير من أقسام البلاغة، وعمل هذان الرجلان في هذه الأشياء، وكانا ينزعجان إذا مارأيا انساناً متقدماً في المعارف العلمية، ومن ثم يقومان بالدس ضد مثل هذا الانسان، وبذلك أصبحا الأسباب لمضار بالغة لحقت بهما وبكثير غيرهما.

لأنه عندما كان باسيل يؤدي قداسه العادي في كنيسة الرسول يوحنا اللاهوتي خارج المدينة، ذهباً للاصغاء إليه، وبنوايا تأمرية عدوانية مليئة بالشور، لأنه عندما كان ماضياً في القراءة لواحد من نصوص الانجيل،

يخيل أنه أعلن أن ابن الرب والروح كانا واحداً، بدون تمييز وأنها تلقيا أضحية قربان التعميد مع الأب «٣٠»، وقاما على الفور بالتمسك بهذه العبارة، وصارا يصعدان وينزلان وهما يستهزئان بها، قائلين إن باسيل أعطى طبيعتين [تتعلقان بحال المسيح]، إذا كان واحد قد ضحى وتلقى الآخر الأضحية، ووافق آخرون ممن احتلوا مكانة ونالوا تقديراً لعلمهم على هذا التفسير، وخاصة سوتريكوس Soterichos الذي كنيته بانتيجينوس Panteugenos ، وكان رجلاً قد تفوق على الآخرين في تلك الحقبة في المعرفة وفي البراعة الخطابية، وكان قد نال عرش البطركية في انطاكية، لكنه لم يكن رسم بعد، ودافع سوتريكوس عن عقيدتهما ليس فقط باللسان والفم، ولكن بحشد كمية هائلة من الأدلة المنطقية، التي إذا عرضت على شكل حوار، تملك شبهاً عظيماً بأفلاطون، ووجد في تصنيفه بين كثير من الأشياء المتناقضة، وبسبب ذلك خضع للخلع من العرش البطركي هو وكل الذين تعاونوا معه، وكان ذلك عندما تولى الامبراطور الحكم على المسائل موضع الخلاف، واسترد باسيل مرتبته ثانية، ذلك أنه كان قد فقدتها من قبل، ومع هذا لقد خسرنا ثانية في وقت متأخر، عندما اتهم أنه غير أرثوذكسي العقيدة (٣٢).

١٧- وما ان وصل هذا الخلاف اللاهوتي إلى هذه الخاتمة حتى انطلق الامبراطور ضد طوروس، ذلك أنه عندما كان مشغولاً — كما ذكرنا من قبل — بشؤون الغرب، قام هذا البربري الذي كان ينتظر هذه الفرصة، بالاستيلاء تقريباً على مجمل مدن كليكية، ذلك أنه كان أعظم مهارة من أي انسان في الامساك باللمحة المناسبة، وقادراً على تحريك القضايا.

لهذا السبب ذهب الامبراطور إلى آسيا، وكذلك لأسباب أخرى أنا مقبل على حكايتها: عندما كان ريموند صاحب أنطاكية قد انتقل من بين الأحياء، أقدمت زوجته كونستانس على منح نفسها والممتلكات الأنطاكية إلى الامبراطور، لكن — كما سلف بنا القول — عندما أرسل

الامبراطور القيصر جون روجر للزواج منها، غيرت رأيها بموافقة عامة من الأنطاكيين، وارتبطت بالزواج [١١٥٣] بواحد اسمه رينودي شاتلون [أرناط]، ذلك أن الانطاكيين كانوا يخشون أنه عندما تتزوج المرأة من روجر سيصبحون تابعين للرومان ومن رعاياهم يدفعون الضرائب لهم، وعندما لم يستجب الامبراطور لما طلبه أرناط منه، حاول هذا أن يخيفه، وعرض كثيراً من التهديدات، وأكد أنه يريد المال، وهنا قام بما يلي [١١٥٦]:

بعدما قام ببناء عدد من السفن، أبحر بها نحو قبرص، وقاتل الذين فيها بطريقة القراصنة، وحمل من هناك كميات هائلة من الثروات، وفي البداية تمكن ابن أخت الامبراطور جون (كومينوس البروتوسيبياستوس) الذي كان آنذاك حاكماً للأرض ومعه ميخائيل براناس والذين كانوا متمركزون هناك للدفاع عنها، من رده والتعامل معه برجولة، ثم إنه عندما كان براناس يتولى مطاردته باندفاع لم يكن ضرورياً عند ليكوسيا (نيقوسيا)، تقدم جون للالتحاق به، فوقع الاثنان بالأسر بأيدي أرناط، وبناءً على هذه الأحداث زحف الامبراطور إلى كليكية (٣٣).

وعندما وصل إلى فريجيا الصغرى (٣٤)، اصطدم بالأتراك هناك، فهزمهم بالقتال، وقتل منهم كثيراً، وعاث فساداً بالمنطقة المجاورة التي كانت عائدة للترك، وفعل ذلك وهو مسرع نحو كليكية، متظاهراً بالحرب ضد الأتراك، فقد ارتأى أنه بهذا الأسلوب يمكنه أن يفاجأ طوروس وهو غافل، ومن أجل أن يصل بشكل غير متوقع، قام زيادة على ذلك بالعمل كما يلي:

أمر ألكسيوس كاسيانوس Kasianos ، الذي كان يحكم آنذاك منطقة سلوقية بأن يقوم بحشد القوات المحلية وأن يكون مستعداً، ثم اختار الجزء الأفضل تسليحاً من جيشه وبادر مسرعاً إلى سلوقية، وأمر

بقية الجيش الروماني الذي بقي في بعض الأماكن حول أضااليا، أن يعتني بخيوله، لانتشار مرض كان مؤثراً بشكل خاص على المخلوقات النادرة، فقد هاجم حوافر الخيول وسبب لها قروحاً مؤلمة.

وعندما وصل إلى سهول سلوقية (١١٥٨) لم تكن القوات جاهزة حسبها كان قد أمر (لأن ذلك كان قد أهمل من قبل ألكسيوس) فتحول نحو شيء آخر، ذلك أنه كان متشوقاً لالقاء القبض على طوروس بكامل قواه، وقام بارسال ألكسيوس أمامه حتى يتمكن بشكل ما من اعاقه طوروس، الذي التقى به هناك، في حين قام هو [مانويل] بالزحف خلفه وهو يقود قوة لم تزد على خمسمائة رجل مسلح، وكان هذا الطاغية سيقع بسرعة أسيراً بأيدي الرومان، لولا أن القدر تدخل بشكل غير متوقع وأنقذه، ذلك أن واحداً من المتسولين [الحجاج] الذين كانوا بأعداد كبيرة من الأجناس اللاتينية، ذاهبين إلى فلسطين، وكانوا قد عانوا أثناء تجوالهم بالجبال والحصون ولم يدعوا شيئاً لم يحتاجوه بحشودهم، وقد التقى هذا اللاتيني بالامبراطور، وحصل منه على قطعة ذهبية، ثم بادر مسرعاً بقدر ما أوتي من قوة إلى طوروس وحذره من دنو الامبراطور، ولدى سماع طوروس بهذا اندهش، غير أنه لم يفش الأخبار إلى أحد من الناس باستثناء توماس وكوركيس اللذان كانا مقربين منه، وسارع بالفرار ملتجئاً من مكان إلى آخر.

ودخل الامبراطور إلى كليكية، غير أنه لم يعثر على طوروس في أي مكان، وقد تمكن من الاستيلاء على حصن لاموس [على اللاموس جي]، وكان جيد التحصين، ومع ذلك أخذه بدون قتال، ثم استولى على كستراموس وعين زربة، وهي مدينة واسعة الشهرة، وزحف نحو الأمام فعاث فساداً في المنطقة وأخضع لونغينياس Longinias وجميع المنطقة المحيطة بها، وعبر يريد طرسوس التي كانت حاضرة تلك الدولة، فاستولى عليها بسهولة، وقام بارسال بعض عساكره إلى تلي [توبرا كل

Toprakkale تل حمدون] وهو حصن حصين جداً، فوضعه تحت سلطة الرومان (٣٥)، لكن كيف استولى على طرسوس التي لم يكن من السهل الاستيلاء عليها بآلاف الحملات، كيف فعل ذلك في يوم واحد، هذا ما أنا مقبل على حكايته:

لم يرغب الامبراطور بالإقامة طويلاً هناك، لذلك توجه نحو مدن أخرى، غير أنه أرسل ختته ثيودور باتاتزس Batatzes ليتولى حصارها، وقبل أن يصل ثيودور إلى المدينة، تخيل الذين وقفوا فوق الأسوار أن الامبراطور هو الذي يقترب منهم فأصابهم رعب منقطع النظر، حتى أنهم ألقوا بأنفسهم من الأبراج، فمات هؤلاء الأشقياء ميتة تعيسة، وبهذه الطريقة تمّ على الفور الاستيلاء على المدينة.

١٨- وهكذا تمّ الاستيلاء على طرسوس، ولاحظ طوروس وأرناط هذا، فلم يتجاسرا على التوجه نحو الامبراطور رسلاً لأنفسيهما، لأنها كانا يعرفان عظيم ما اقترفاه من ذنوب، ولهذا آثرا بعث بعض الرسل من بين الأعيان (٣٦) إليه، مع أمل أن يصالحهما الامبراطور ويغفر لهما، ونظراً لاختفاهما فيما ابتغياه، وافق أرناط، الذي طوقته المصاعب من كل الجهات، على تسليم قلعة أنطاكية إلى الامبراطور، إذا ماعفي عن جرائمه، وكان من حيث المبدأ مدركاً لسوء مشاعر أسقف أنطاكية نحوه، وهو رجل من بني قومهم أقاموه راعياً لأنفسهم، وأعطوه لقب بطريك، وكان قد نشب نزاع بينه وبين أرناط للسبب التالي:

لقد شعر أرناط — كما ذكرنا من قبل — بفقر شديد، فقرّر نهب قبرص، والتقى أرناط بالبطريك على انفراد، وحيث أنه كان يعلم أنه ثري جداً، فقد طلب منه منحه بعض المال، وبما أنه لم يكن قادراً على الحصول على أي مبلغ منه، قام بانتزاع ثياب البطريك وأخذ منه أرديته، ثم قام بضربه بالعصا مراراً، وبما أن الموسم كان فصل الصيف في ذروته، قام بدهن

جروح البطريقك بالعسل، وتركه يحترق بالشمس، وهكذا استقر الذباب والبعوض والدبابير والنحل وكل حشرة ماصة للدماء، حول جسده العاري تماماً، ومصت دمه، وأمام هذا العذاب استسلم الرجل، ووافق على التنازل عن جميع ثروته إلى أرناط، وقام أرناط حتى ينال رضا [البطريقك] بجعله يرتدي جميع ملابسه المعتادة، ثم أركبه على ظهر حصانه وقاده خلال المدينة، وقد سار إلى جانبه وهو ممسك بالحزام المتدلي من سرجه، ومع أنه فعل هذا، فقد كان البطريقك أكثر غضباً على أرناط، وبات ينتظر الفرصة لينتقم منه، وقد كتب مراراً وتكراراً إلى الامبراطور وعرض عليه القيام بخيانة أرناط لصالحه، وعندما رفض الامبراطور هذا العرض (ولأنه كان يؤثر الربح بوساطة الحرب لابوساطة الخيانة) تخلى عن هذه المحاولة.

ولدى معرفة أرناط بهذا، قام بالوعد بالأشياء السالفة الذكر إلى الامبراطور، وعندما لم يأذن الامبراطور بقبول ذلك، تصرف أرناط وفق الأسلوب التالي:

رفع الغطاء عن رأسه.. وشمر عن ذراعيه حتى المرفقين، وسار داخل المدينة حافياً مع حشد من الرهبان، ثم ظهر أمام الامبراطور، وقد لف حبلًا حول عنقه، وحمل سيفاً بيده الأخرى، وأقيمت دكة رائعة هناك، ووقف أرناط بعيداً عن الخيمة الامبراطورية، وكأنه غير متجاسر على الاقتراب منها، بينما اقترب من الامبراطور حشد من الرهبان —الذين لم يكونوا رهباناً— وكلهم حفاة، ورؤوسهم عارية، وجثوا على ركبهم، وهم يبكون والدموع تنحدر من مآقيهم، وقدموا نحوه أذرعتهم، وفي البداية رفض الامبراطور، لكن فيما بعد استجاب لكثرة الرجاءات، فأمر الأمير أن يتحرك نحوه، فمشى نحوه بالأسلوب الموضح من قبل، فغفر له ذنوبه وتجاوز عن آثامه العظيمة، وفي الوقت نفسه ربط أرناط نفسه بعدد كبير من الأيمان تعهد بها بأشياء كثيرة، منها أنه سيعمل وفقاً لارادة

الامبراطور، وسيقبل بشكل خاص بالعادة القديمة في ارسال أسقف إلى أنطاكية من بيزنطة.

وفي الحقيقة استولت الدهشة على الذين كانوا حضوراً، لاسيما هؤلاء الذين جاؤوا رسلاً من دول آسيا: من خوارزم، وزوزن، وأقباط، وجميع ميديا وبابل، اللتان يعرف حاكمها باسم السلطان الكبير (٣٨)، ومن نور الدين أتابك حلب، ويغي—باسان مقدم الترك، ومن أباسغاي -Abas gai ومن الايبيريين [الجورجيين] لابل حتى من الفلسطينيين [الدول الصليبية] ومن أرمن ماوراء ايزوريا [أي مملكة أرمينيا السالفة شمالي بحيرة وان].

١٩- لقد كان هذا ماوقع هناك، وقام بلدوين [الثالث] ملك فلسطين بمراسلة الامبراطور وطلب الالتقاء للتباحث في بعض الأمور الهامة كما قال، لكن العمل هو المسوغ والمطلب، فقد كانت عينه متمركزة على إمارة انطاكية، التي وقعت على مقربة منه، ومع ذلك هو لم يعرف كيف يمكنه نيلها، وبما أنه لم يكن قد عرف بعد شيئاً عما حدث لأرناط، فقد أشار على الامبراطور ألا يطلق سراح أرناط أبداً، فعندما لا يكون أرناط موجوداً يمكنه التعامل مع الانطاكيين وجعلهم بمثابة رعية له، لاسيما وأنهم كانوا قد أنقذوا من قبله، أو على الأقل يمكنه أن يفرض نفسه على الذين كانوا يرفضون أن يحكموا من قبل الفريقين [أرناط ومانويل] (٣٩).

وما ان فرغ بلدوين من التخطيط لهذه الأشياء، حتى وصل إلى أنطاكية، وخاطب الانطاكيين مخادعاً لهم بتذكيرهم كيف جاء من فلسطين من أجل منفعتهم، وأنهم مدينين له بفضل عظيم، وعندما وافقوا على ذلك، طلبوا مرة ثانية من الامبراطور استقباله، ولادراك مانويل لنوايا الرجل، فقد رفض في البداية، مدعياً أن بلدوين لن يتلقى

التحيات الرسمية المناسبة، ولا الترحيب، إذا كان سيتباحث معه بينما هو غارق في وسط الأعمال العسكرية، لكن مانويل وقد رأى بلدوين قد ازداد اصراراً والحاحاً بالرجاء حول المواضيع نفسها يومياً، وافق أخيراً، وأمره بالقدوم، وعندما توجه للقاء الامبراطور، وخرج من المدينة أحاط به الانطاكيون، ورجوه أن يبذل المستطاع من أجل مصالحتهم مع الامبراطور ورضاه عنهم.

وحدثت في الوقت نفسه أشياء كانت كما يلي في معسكر الامبراطور:

كان هناك واحداً من أمناء سر الامبراطور اسمه ثيودور وكنيته ستبيوتس Stypeiotes ، وكان ستيفن هذا من المقربين بشكل خاص من الامبراطور ومعهد إليه بوظيفة الدوا دار، وهي وظيفة رئيسية، ولكن عندما برهن هذا التعيس أنه سيء النوايا نحوه ومختل فقد لسانه مع عينيه، ذلك أنه تنبأ لعدد كبير من الناس وأخبرهم على شكل مايفعله الأنبياء، أن مدة حياة الامبراطور قد شارفت على الانتهاء، وأعلن أنه يتوجب على الشيوخ الرومان إعطاء السلطة إلى واحد ليس في شرح الشباب وممتلئ بالفخار، بل إلى رجل مسن أصيل، قد تجاوز مرحلة الشباب، من أجل أنه عندما تجري مناقشته، أن يتولى توجيه أعمال الدولة بشكل ديموقراطي، وهكذا انقضت الأمور بالنسبة لثيودور، وحدث أيضاً بعد ذلك أن رجلاً اسمه جورج وكنيته بيرهوجرجس -Pyr rhogeorgios ، وكان مسؤولاً عن الأبواق الامبراطورية، وكان يدعى عادة بـ Primikerios البلاط (١٤٠)، هذا الرجل اختلف مع الامبراطور حول مسائل هامة وكبيرة، ومع أنه تمتع ثانية برضاه عنه، ولم يعان من أية أضرار، لكنه فقد وظيفته فقط.

٢٠- ولدى معرفة الامبراطور باقتراب الملك أرسل بعض الأعيان إلى أحد الأماكن، وأرسل البقية لاستقباله، والسير خلفه بأفضل طريقة مميزة،

كما وبعث ابن ختنه لتقديم التحيات له ولتشریفه بالشكل اللائق حتى يصل إلى حضرة الامبراطور، ثم شرفه مانويل ورحب به بطريقة تليق بعرش داوود، لكن بلدوين تصرف بشكل آخر فيه عجرفة مردها إلى شعوره بأهميته، أو لما جبل عليه من رعونة، ذلك أنه عندما وصل إلى الخيمة الامبراطورية يحيط به حملة الصولجان الامبراطوري والارستقراطية الرومانية، ترجل من على ظهر حصانه حيث كان من عادة الامبراطور أن يفعل ذلك، وتقديراً من الامبراطور وفهماً لتفاخره غض النظر عن كثير من هذه الأشياء التي تتعلق بمكانته، ومع ذلك أولاه الأهمية، وتوجه إليه بالخطاب، وقدم له مقعداً منخفضاً ليجلس عليه، وتحادث معه، وكرمه بدعوته إلى مائدته.

وبعدما عقد أرنات هذه الاتفاقيات، لم يرض الأنطاكيون بارسال قوات فرضت عليهم لمساعدة الامبراطور في الحرب، لأن قواتهم القديمة قد اضمحلت وزالت من المدينة، وكذلك لم يعجبهم ارسال أسقف إلى انطاكية من قبل بيزنطة، ولهذا السبب جاءوا يشتكون إلى الامبراطور، وتدخل بلدوين لدى الامبراطور حول هذا، ولاحظ بلدوين أن هذه المطالب لم ترفض بشدة لذلك جعل الرسل يلقون بأنفسهم على قدمي الامبراطور، وتفحص الامبراطور وفكر حول أي الشرطين فيه كرامة أعظم للرومان، وسمح لهم مانويل على الفور بالاسهام بقوات أقل، (لأنه ينجم عن طلب شيء يتجاوز طاقات الانسلان في كثير من الأحيان مصاعب جمة، ويكفي على العموم تقديم شيء رمزي للدلالة على التبعية والخضوع في الوقت نفسه) غير أنه قال: لا يمكن قبول الأسقف من أي مكان غير بيزنطة، وقبل الانطاكيون هذا بكل سرور، وعادوا إلى المدينة.

٢١ - (أ) (٤١١) وهكذا ختمت مسألة أرنات هناك، وعزم الامبراطور بعدها على مهاجمة طوروس، وهرب طوروس في البداية إلى مكان مهجور في جبال طوروس، ثم إنه عندما تدخل بلدوين لصالحه لدى الامبراطور،

جاء إلى المعسكر الروماني بمثابة تابع تائب، ورحب به الامبراطور، وأدخله ضمن الرعايا الرومان، وهكذا ألغى الحرب.

وبما أن الامبراطور كان مقبلاً على الدخول إلى مدينة أنطاكية [نيسان ١١٥٩]، خاف الانطاكيون — كما يبدو — من أنه حالما يتم السماح للقوات الرومانية بالدخول إلى المدينة، فإن هذه القوات ستحاول طرد الانطاكيين منها، وهكذا لم يعرفوا كيف يصرفون الامبراطور عما عزم عليه، فاخترعوا بعض الأعذار الزائفة، وقدموها له، وكانت هذه الأعذار أن بعض الأشخاص من المتهورين من بينهم قد تأمروا انه عندما يدخل الامبراطور المدينة مجرداً من السلاح (لأنه لم يكن غير ذلك لائقاً) سيتولون بعض الأعمال الخيانية ضده، وفهم الامبراطور الخدعة، فأعلن لهم أنه لن يحدث شيئاً من هذا القبيل، وأوضح بجوابه للذين كانوا من حوله كيف أن ذلك لم يكن ممكناً، ليس فقط لأن الملك كان سيقوم بالاستعراض أمام الامبراطور، بعيداً عنه وهو مجرد من السلاح، بل لأن أرناط مع آخرين سيحيطون بالامبراطور ممسكين بلجام فرسه وبأطراف سرجه، وذلك أثناء سيرهم على الأقدام مجردين من السلاح، وستحيط بالوقت نفسه بالامبراطور وتتولى حراسته جماعة كبيرة من حملة الفؤوس من البرابرة [الحرس الفريجي] وذلك وفقاً لما جرت عليه العادة.

وهكذا رفض هذه المعاذير، لكنه عندما كان على دخول المدينة، لبس درعين فوق بعضهما، معتمداً على قوة جسده وقدرته على التحمل، ولبس فوق الدرعين رداءً مزيناً بالأحجار الكريمة لم يكن أقل وزناً مما كان تحته، كما وضع على رأسه تاجاً وأشياء أخرى اعتاد عليها الأباطرة، وأنا مندهش حول هذا الأمر، فبعدما احتفل بالنصر بالطريقة التي اعتاد عليها في بيزنطة، ووصل إلى كنيسة بطرس الرسول ترجل بكل سرعة ورشاقة، ثم لما عاد لامتطاء صهوة حصانه، امتطاه بقفزة واحدة، وكأنه مجرد تماماً من السلاح.

واستقبله هناك أسقف المدينة، وقد ارتدى الثياب الكهنوتية، وكان معه جميع رجال الدين، وقد حملوا في أيديهم صلباناً، كما حملوا الكتابات المقدسة، واندعش الأجانب والغرباء عندما رأوا بالاضافة إلى هذه الأشياء أرناط ومعه أعيان انطاكية يركضون على أقدامهم من حول الحصان الامبراطوري، وكان بلدوين، وهو رجل متوج، يسير في عرض بعيداً، وهو على ظهر حصانه، لكن بدون شارات وعلامات، وبعد الانتهاء من احتفال النصر هذا وفق هذه الطريقة، بقي الامبراطور في المدينة مدة ثمانية أيام، ثم غادرها، وأظهر الانطاكيون تذلاً كبيراً نحوه، وذلك أثناء اقامته في قصر أرناط، حتى انه مامن أحد عرض قضية أو شكوى أمام المحكمين المحليين للبت بها، بل أمام الرومان.

٢١- [ب] وبعدما نجح في هذه المسائل، استعد الامبراطور لقتال نور الدين، لكن بما أن نور الدين قد عرف بزحفه ضده، قام باطلاق سراح واحد من الايطاليين، هو ابن [كذا] صنجيل (٤٢)، مع الرجل الذي كان يتولى قيادة الفرسان في فلسطين، الذي يطلق عليه اللاتين اسم مقدم الداوية (٤٣)، وكانا من الرجال الأعيان، وبالإضافة لهما أطلق سراح عدد كبير من النبلاء ومن العامة، فقد أطلق نور الدين سراح ستة آلاف من الناس العاديين الذين كان قد أسرهم من بين صفوف الجيش الألماني والفرنسي أثناء زحفهما في آسيا [الحملة الصليبية الثانية]، ولقد فعل نور الدين هذا كله، ووافق بالاضافة إلى ذلك على مساعدة الامبراطور في حروبه في آسيا، وتقبله مانويل حليفاً على قاعدة هذه الشروط، ومن ثم تخلى عن أغراضه في حربه.

لكن بعد مضي وقت قصير عزم الامبراطور على إلغاء الاتفاقية، لكنه لم يتوصل إلى ما استهدفه، كما سيتضح معنا فيما يلي من أخبار: فبدون معرفة من نور الدين قام حشد من المسلمين بصنع كمين أوقعوا من خلاله أضراراً بالرومان الذين كانوا يقومون بجمع المؤن والأعلاف، وعندما

سمع الامبراطور بما حدث أقام كهائن في أماكن مناسبة هناك، وقام عند الفجر بالهجوم على المسلمين، وهم لا يتوقعون ذلك.

وبعدما تولى طرد المسلمين، رغب بالقيام بالصيد، فتوجه لهذا الغرض إلى السهول العليا من سورية، وهو أمر مرعب، السماع به في تلك الأوقات، ومضى أمامه عدد من الرجال لا يزيد عددهم عن الستة، لاقامة الفخاخ أمام أجحار الحيوانات، وقبل أن يقطع هؤلاء مسافة طويلة التقوا بأربعة وعشرين من مقاتلي الأعداء، وقد اشتبكوا معهم، وحاولوا بالخداع جذب بعض الرومان نحو جيشهم، الذي كان من ورائهم، وما ان رأى الصيادون هذا حتى ألقوا بأنفسهم في مجرى نهر كان أمامهم، وسبحوا عبره، وتوجهوا إلى الامبراطور كي يخبروه بما نزل بهم، ولم ينزعج الامبراطور لسماعه هذا الخبر، بل قال: تعالوا أخبرونا أين هو العدو؟ ومع أن الآخرين كانوا يرتجفون ومضطربين كثيراً، فقد أطلق الامبراطور العنان لفرسه وحمل على الأعداء، وظهر فجأة جيش لا يحصى عدده من المسلمين كان مرابطاً هناك في تلك المناطق، وانقض الامبراطور دونما توقف على وسط عدد كبير من الرجال المسلمين، وكان اندفاعه شديداً، وقد تمكن من دحرهم، ولم يتوقف عن المطاردة حتى التجأ العدو المهزوم إلى داخل حصون كانت قد شيدت هناك، وقد امتلأ السهل بجثث القتلى، ولهذا السبب، أراد عندما عاد إلى المعسكر، أن يقوم — كما ذكرنا — بإلغاء الاتفاقية مع نور الدين، لكن بعض الأخبار التي وصلته من الغرب، والتي تحدثت عن اضطراب شديد هناك، حالت بينه وبين تنفيذ ما رغب القيام به.

وفي هذه الآونة انكسر ذراع بلدوين للسبب التالي: فلقد شارك الامبراطور في الصيد، وكان مساهماً في التمارين، وقد تولته الدهشة تجاه الامبراطور من جميع الجهات، وهكذا رغب في أن يعرف هل هو مقدّر في أعماله، وأراد أن يظهر أنه مكافئ للامبراطور في حملاته، وفيما هو منشغل

في نشاطه الرائع، انزلق فجأة مع حصانه، وأصيب — كما ذكرنا — بذراعه، وتولى الامبراطور على الفور تضميدها، وقدم له ما يلزم من عناية، لذلك فك الرباط بعد أيام قليلة.

وتفوق الامبراطور في هذه المسائل على عدد كبير من الناس الذين انشغلوا طوال حياتهم في فن المعالجات الطبية، وفي الحقيقة رأيته وسط عدد من الرجال المدربين يعالج الجروح، ويقدم الأدوية والعقاقير للمرضى، كما أنه أسهم كثيراً في علم المعالجة والإبراء، الذي ظل مجهولاً لوقت طويل، ولا يُعرف أي عقار يصلح للدهن وأيها يصلح للشرب، وذلك مع أشياء كثيرة يمكن لأي راغب أن يجمعها من المشافي العامة، التي تدعى بالعادة «بيوت الضيافة»، لابل قدم أكثر من هذا كله.

ثم ركب الامبراطور الطريق إلى بيزنطة، وارتحل على أقصر الطرق، فانطلق من بامفيليا، وقاد جيشه من خلال وسط ليكونيا، مع أن السلطان قد عارض ذلك بكل شدة، وعندما اقترب من مدينة لاراندا Laranda [قرامان] (٤٤)، غادرها الأتراك الخائفون وفروا منها، حيث خيّل إليهم أن الرومان سيقومون على الفور بالهجوم على قونية، لكن عندما لم يلحق بهم أدنى أذى على أيدي الرومان، استردوا شجاعتهم، وجلبوا كميات من المؤن وقدموها لهم، وزودوهم بها، بيد أنه كان من غير الممكن بالنسبة للأتراك التخلي كلية عن الكراهية التي جبلوا عليها، وهكذا عندما وصل الرومان إلى كوتيايون Kotiaion [كوتاهيا] قاموا بمهاجمة بعض الذين تخلفوا عن بقية الجيش، وقتلوا عدداً منهم وأخذوا البقية أسرى، ثم عاد الامبراطور إلى بيزنطة، وبعدما احتفل بانتصاره العظيم، وقدم الشكر للرب على انتصاراته، عاد إلى قصره (٤٥).

٢٢- وجرى تذكيره بعد أمد قصير ليأخذ الثأر وينتقم من الأتراك لأعمالهم الحمقاء التي مارسوها ضده، فقام بحشد جيش في سهول

كيبسلا Kypsella [إبسالا في تراقيا]، وكتب بالوقت نفسه إلى حاكمي المناطق الرومانية في آسيا، يأمرهما بمهاجمة الأراضي التركية في وقت محدد: واحد من جانب، وآخر من جانب آخر، وبما أن هذا قد وقع بالفعل، فقد أدى إلى إلحاق أضرار عظيمة بالأراضي التركية، وعندما وصل الموسم إلى الانقلاب الشتوي، عبر الامبراطور المضيق وجاز إلى آسيا، ووصل إلى دوريليون عبر نهريها الذي يدعى أحدهما باثيس Ba-thys [موتاليب ديري أوساريسو Muttalip Dere-Sarisu] وذلك من قبل السكان المحليين، واسم الآخر ثيريس Thybris [أوتمبريس وحالياً بورسول جي]، وبعدما اجتاحت المنطقة المجاورة بأكملها، طرد حشداً كبيراً من الناس مع كميات من مختلف أنواع الحيوانات، وبعدما عرف الأتراك بما لحق بهم من أضرار، شرعوا يظهرن على شكل فئات وجماعات، وأرسل الامبراطور إحدى التشكيلات الرومانية لتتولى نهب المنطقة الممتدة أمامها، وقام هو نفسه بالصعود إلى المناطق المرتفعة في تلك المنطقة مع قليل من أتباعه، وأمرهم بالنفخ بصوت مرتفع بالأبواق الامبراطورية، ساعياً من وراء ذلك إلى إلقاء الرعب بين الأعداء، حيث سيتصورون أن الامبراطور يقود بنفسه أعمال القتال.

وكما حدث دوماً، في ايقاعه مذابح عظيمة بين صفوف هؤلاء البرابرة، كلما ظهر بشكل غير متوقع بالنسبة لهم، فقد ظهر كالصاعقة، وقيل إن آلفاً قد ذبحوا منهم، لابل إن عشرات الآلاف من الرجال المسلحين وغير المسلحين قد فروا غير مباليين بالعار، وعندما وصلت هذه الأشياء إلى مسامعي، بدت لي لا يمكن تصديقها، مثلما، لا يمكن تصديق أفعال [نقفور الثاني] فوكاس ويوحنا الأول تزمكس، اللذان لم يكونا بين الأباطرة القدماء، أو أعمال أباطرة آخرين كانوا مشهورين لشجاعتهم ومن الممكن مقارنتهم بهما، لأنه فوق المعقول أن تتم هزيمة آلاف من قبل رجل واحد، وأن يتم التغلب على أعداد كبيرة من الرجال المسلحين

تمام التسليح بوساطة رمح واحد، ولهذا، كان كلما أقمت في البلاط وسمعت بصوت مرتفع عن أعمال الامبراطور هذه، كنت أنصرف من الاجتماع وأنا فاقد لصوابي، لأن أخلاقي لا تتماشى بشكل طبيعي مع الاطراء الكبير، كما انني لأسمح بارادتي بمرور عبارة واحدة باستثناء العبارات الصادقة وليس الاطراء الكاذب، واعتدت أن أدع هذه الأشياء لتنسج ولتصنع باستمرار في العاصمة وداخل القصر، وبين الذين يشغلون الوظائف العالية، وذلك حتى تصل الحقائق إلى ناظري، وهذا ما حدث عندما صدف أن وجدت نفسي وسط الأعداء، ورأيت عن قرب قريب الامبراطور وهو يتولى مقاومة وحدات تركية كاملة، وسيتولى التاريخ وصف هذه الأشياء في اللحظة المناسبة، ودعونا الآن نتابع السير نحو ماهو قائم أمامنا.

وكان الامبراطور في أعالي تلك المنطقة، في حين زحف الجيش الروماني نحو الداخل، واصطدم بشكل غير متوقع مع القوات التركية، وبما أن الصراع بدأ يداً بيد، وبما أن القوات الرومانية بدأت تشعر بالضييق، عندما علم الامبراطور بذلك سارع بأقصى ما يمكن، دون أن يرتدي درعاً، ودون أن يحمي جسمه بأي شيء آخر باستثناء ترس، وانقض بسرعة وسط الأعداء، وقام بأعمال رائعة عبّرفيها عن قوة جبارة، حيث كان يضرب بسيفه كل من اقترب منه، وعندما شرعوا بالهرب، لم يضع وقته، وقام بمطاردتهم إثر تزويد يده برمح، ودون أن يلتفتوا نحو الخلف هربوا بعيداً، وحقاً من غير الممكن تصور جيش كبير بهذا التعداد قد تمت مطاردته من قبل رجل واحد، لأن الخوف الذي حلّ بهم أغلق تماماً أعينهم، لكن عندما لاحظوا الحال الذي كانوا به، أخذ كل واحد منهم يهزأ بالآخر ويعيره بالجبن، وهنا انعطفوا فجأة، ووقفوا مواجهين له، لكنهم والرعب مازال يقودهم، امتنعوا عن الاندفاع نحوه والانقضاض عليه بأنفسهم، غير أنهم أفرغوا ما كان بجعبهم من سهام أطلقوها عليه،

ولذلك كان يحول ترسه من جانب إلى آخر، يدفع بذلك عن نفسه الرمايات، ويحمي جسده من السهام.

وكان بين الأتراك واحداً شجاعاً وفرداً نشيطاً، وعندما رأى ما من واحد بين هؤلاء جميعاً تصدى للامبراطور بالقتال، كان يغلي غضباً، فتناول سيفاً من أيدي واحد من أتباعه، واندفع ليضرب الامبراطور، لكن الامبراطور أمسكه من شعره وأخذه أسيراً، وأخذ معه ثلاثة آخرين من الأعيان، وعندما وجد البقية أنفسهم غير قادرين على مواجهته، غادروا المكان فراراً، وعاد الامبراطور إثر ذلك إلى المعسكر ومعه أسراه هؤلاء، ولدى ادراكه أن الشتاء جاء قاسياً جداً، قرر العودة إلى بيزنطة (٤٦).

٢٣- وفي ذلك الوقت تماماً [أوائل ١١٦٠] كان في ثغريشينا، حيث كان قد أسكن من قبل الأسرى الرومان من فيلومليون [كان اسمها فيليا] (٤٧)، وتعامل هناك مع الرسل الذين جاءوا من عند السلطان، وعندما لاحظ أنه لم يكن لديهم شيئاً جاهزاً لإعلانه، صرفهم، وهددهم أنهم ما لم يعملوا متماشين مع ارادته سيقوم الفرسان الرومان بعد وقت قصير باجتياح أراضيهم، ونهب كل شيء بشكل أسوأ حتى مما تم الآن، وبعدها أمضى بعض الوقت في أوغسطيني Augouste، انطلق من ثم من هناك (من قرية دعيت آنذاك محلياً باسم رتزيون Rhitzion)، وقد استقبله السكان المحليون عندما عبر إلى الطرف الأقصى من [خليج أستاكينوس Astakenos]، وذهب إلى الشاطئ المقابل، وزحف من هناك راكباً الطريق المار بالمدن الساحلية، ووصل إلى فيلادلفيا، وقام من هناك —بعدها أعدّ عدته— بمهاجمة الأراضي التركية (٤٨).

وكان الرسل الأتراك يسيرون عبر سهول دوريلايون Dorylaion، حيث كانوا يجهلون تماماً أخبار حملة الامبراطور على قومهم، ذلك أنهم كانوا واثقين أنه كان مقيماً في أحواز مدينة بيزنطة، وعندما كانت أخبار

الحملة الرومانية لاتتعدى الاشاعات في كل مكان [شتاء ١١٦٠-١١٦١]، شعر الأتراك بالبداية أن الأمر لا يصدق، غير أنهم عندما سمعوا عنها من عدد كبير من شهود العيان، حركوا جيشهم، وبادروا مسرعين للتصدي لها، لأنه لم يحدث أن عانى البرابرة من قبل مثلما عانوه الآن من خسائر بالمال والعتاد، وظناً من الامبراطور أن الأتراك مازالوا لا يعرفون شيئاً عما فعله، قدّم أمامه بقية الجيش الروماني، وسار خلفهم مع عدد قليل من الرجال، وسمع الرومان أن الأتراك كانوا يزحفون بقوة، وقد انزعجوا لذلك واضطربوا كثيراً، لاسيما لأن الامبراطور لم يكن معهم، غير أنه مالبث أن التحق بهم، ذلك أنه سمع بزحف الأتراك، فاستردوا شجاعتهم، وزحفوا بحماس أكبر، وبما أن الوقت كان آخر النهار فقد ترجلوا من على ظهور خيولهم، وقدموا للخيول طعامها المعتاد، واستراحوا لبعض الوقت، ثم استأنفوا انطلاقهم، وكان الليل قد حلّ، لذلك ركبوا الطريق وساروا عليه مستخدمين ضوء المشاعل.

وصنعت المشاعل كما يلي:

بأثبات أقداح معدنية على قاعدة تشبه الصحن، وهذه الأقداح المعدنية مثبتة نحو الأعلى، وهي منفصلة، وتتضاءل صعوداً من العرض إلى أن تصبح مدببة، ويثبتون على الصحن شوكة معدنية أخرى، تختلف عن البقية، بأنها في أولها سميكة ثم تغدو مدببة، وبعدما يتولون ربطهم صعوداً حول بعضهم برباط ما، يصبحون أشبه بقاعدة مشعل، ويربطونهم على رأس رمح، ثم يأتون بقطع من الكتان جرى قصها طولانياً، يجعلونها تمتص ما أمكن من دهن الخنزير (٤٩)، ثم يلفونها بعناية، ويثبتون كل منها فوق إحدى النقاط المدببة للشوك المعدنية، وهذه عندما كانت تشعل كانت تعطي ضوءاً ساطعاً، يصدر عنها، فيكون الحال بالنسبة للعساكر أشبه بضوء النهار، وما قلناه هذا يكفي عن المشاعل.

وكان الثلج يتساقط بغزارة، وهكذا اختفي الطريق تماماً، وتاه الجيش الروماني، وأضلّ الطريق، وكاد أن يقع في منطقة خطيرة، لولا أن الامبراطور شعر بالخطأ، فحمل بيده مشعلاً، وتحرك ذهاباً وإياباً، وفي هذا الاتجاه وذاك، حتى عرف الطريق، ومن ثم قاد الجيش عبر الطريق الصحيح، وعندما وصل الجيش إلى قرية سماها السكان المحليون باسم ساراباتا ميلونوس (٥٠) Sarapata Mylonos حتى شرع بالعمل على جمع المؤن والأعلاف، وكان اسم الذي تولى حكم جميع تلك الامارة (اسمه سليمان) (٥١)، وقد سمع بالأخبار التي انتشرت في كل مكان، ومع ذلك كان متردداً في تصديق ما قيل، لذلك بعث بابن أخيه واسمه بوباكس (٥٢) (أبوبكر)، الذي غالباً ما كان قد رأى الامبراطور، وأمره أن يقترب ما أمكن من الجيش الروماني ويتجسس أخبار الامبراطور، وعندما رأى أبوبكر الامبراطور ترجل على الفور من على ظهر حصانه، وخاطبه بعبودية ولدى معرفة مانويل الرجل من كان ومن الذي أرسله قال له: «قل مايلى لسليمان:

أنت الذي ترغب الآن في معرفة من الذي يتولى نهب الأراضي التركية، اعمل كما لو أن النار قد أُلقيت على بيتك، وأنت لم تقم اعتباراً للطريقة التي يمكن أن تتغلب بها عليها، والذي عليك هو أن تبحث جيداً لتعرف من أين جاء أصلها، ومن الذي أشعلها، لا يجوز لك الرغبة بالتخفي وراء جبنك بالتظاهر بالجهل، وكأنك قابع تحت رداك، لأنه من غير المنطقي أن يعفى التظاهر بالجهل مستخدمه من الملامة، والمنطق العام يعرف شيئاً واحداً رائعاً فقط: إن الشجاع وقت المخاطر هو الذي يوازن بين الأمور، وهو إذا لم يتمسك بهذا يفقد كل شيء، وفيما عدا ذلك فإن عذرَكَ لا مكان له، حسناً، لقد أدركت، أنك لاقيت الذي أنزل القوارع بالأتراك، فإذا ماكنت ترغب بالتصدي له، لا تمتلك عذراً، [أن لا تفعل ذلك]».

وما ان أكمل كلامه هكذا حتى أعاده، وبعدما تولى نهب ماوقع أمامه، وعرضه للهدم، والتخريب، ركب الطريق عائداً، لكن حدث أولاً شيئاً لا يمكن أن يصدق، لأنه قيل بأن الجيش الروماني لم يكن فيه أكثر من ستين رجلاً مقاتلاً، بيد أنه عندما باتت أمور الرومان في وضع خطير جداً، تمّ انقاذهم بشكل غير متوقع، ولقد تجمع الأتراك بأعداد كبيرة، كما أنهم امتلكوا أجزاء من الأراضي زادت تفوقهم، وكان الأتراك يرمون من الأعلى، لذلك آلموا الرومان آيلاً شديداً، وأرغموهم على التجمع مع بعضهم والتكتل، ومع هذا لم يكن الأتراك على دراية بشجاعة هؤلاء، ذلك أن طبيعة المكان لم تكن موائمة لمروهم، ثم أحاق الخطر بالامبراطور نفسه، لأن بعض الذين كانوا يتولون حراسته أخذوا يتبددون خفية، ومع أن الامبراطور في هذا الوضع الخطير، لم يتخل عما اعتاد عليه من الشجاعة، قام بأبعاد جون قريبه بالمصاهرة (٥٣)، الذي غالباً ماورد ذكره من قبل، وكان قد اقترب منه، وكان متشوقاً لتزويده بترس (لأنه كان آنذاك مجرداً من السلاح)، قائلاً بأنه كان من غير الممكن لترس واحد أن يكون كافياً لحماية جسدين، وتمكن الرومان بعد صعوبات جمة من الجواز خلال تلك المنطقة، وعندما أصبحوا في منطقة أعرض وأوسع، سمحت للخيول بالتحرك وللرجال بفرصة البرهنة على قوتهم، فرددوا عالياً صرخة الحرب، ومدوا رماحهم وأشرعوها باتجاه العدو، وانقضوا عليه، فردوه إلى الخلف، وذبحوا عدداً كبيراً من أفرادهم، وعادوا جالين معهم جميع أسلاب كل من طردوه، وصحيح أن كثيرين قاتلوا بشجاعة، فقد تفوق الامبراطور على كل الموجودين، فما من واحد تقدم عليه بالاشتباك مع العدو، وما من أحد قام بمثل ما قام به من أفاعيل شجاعة، ولقد عاد الامبراطور إلى بيزنطة بعد نجاحاته هذه.

٢٤- وبعدما نزل بالأتراك منازل من فواجع، قرروا رداً على ذلك إلحاق الأذى بالرومان، وحزموا أمرهم واستغلوا وقتهم فاستولوا على

فيليتا (٥٤) Phileta ، وهي مدينة شرقية، ثم هاجموا أيضاً بشكل غير متوقع لوديكييا في فريجيا الصغرى، وألحقوا بها أضراراً كبيرة وكادوا يدمرونها، وساقوا أمام سيوفهم كثيراً من السكان من الشبان فما فوق حيث اتخذوهم أسرى، وفي الحقيقة كان عدد الأسرى كبيراً وتكوّن من حشود لا يمكن عدّها.

وعندما سمع الامبراطور بهذا غضب غضباً عظيماً وتألّم كثيراً، وود — لو أنه كان ممكناً — أن يجوز على الفور إلى آسيا ويشرع بقتال قونية، لكن لما كان يعلم أن هذا يحتاج إلى وقت موائم لتنفيذ مثل هذا العمل، ولا استعدادات أعظم للحرب، فقد قرر التخلي عن الفكرة والابتعاد عنها.

ووضع في ذهنه أن يقوم بجمع قوات من كل اتجاه، ولذلك بعث بجون كونتوستيفانوس إلى فلسطين [أوائل ١١٦٠] كي يقابل الملك بلدوين، ويجلب معه من هناك الرجال الذين جرى الاتفاق حولهم بموجب تحالفهم الذي قضى بتزويد الامبراطور بما يطلبه، وأن يقوم كذلك بتجنيد وحدة من المرتزقة، وأمر أيضاً أرناط أمير أنطاكية أن يشرع بأقصى سرعة ممكنة بالتحرك مع القوات التي من حوله، وكذلك أمر قادة الأرمن آنذاك وهم: طوروس وتيغرانيس وكريسافوس الكيلكي، والذين يدعوهم الناس كوخ فاسلي (٥٥)، وهم قادة قوات عسكرية، لكنهم كانوا قد التحقوا متطوعين منذ أمد بعيد بالامبراطور وصاروا من رعاياه، وحشد من الشرق بهذه الطريقة جماعة كبيرة، واستدعى من الغرب الفرسان الليغوريين [أي اللومبارديين]، كما استدعى زوبان العظيم صاحب صربيا مع القواد الذين كانوا تحت أمرته، واكثرى كثيراً من بين السكيزيين من بين القبائل التي عاشت حوالي تاروس [أي تاروس سكيزيا أو الروس]، ولم تقتصر استعداداته للحرب على هذا فقط وبهذه الحدود، بل كان يعرف أن بين الأراضي التي وقعت في أيدي اللاتين المستولين على فلسطين، كانت جزيرة رودس، وقد استأجر من

هناك جماعات كثيرة من الفرسان المرتزقة، ومن أجل المؤن والخدمات الأخرى أمر بجلب أعداد لا تحصى من الثيران مع عرباتهم من قرى تراقيا (١٥٦).

وقام بهذه الاستعدادات، وفي الوقت نفسه أراد أن يحول عداوة السلطان نحو بني جلدته وقرابته، فكتب إلى أخيه شاهنشاه الذي كان يحكم غانغرا Gangra وأنكير غلاطية [أنقرة]، وإلى صهره يغني—باسان الذي كان يحكم كل من قيصارية [قيصري] وأميسيا [أماسيا] مع مدن أخرى هامة قائمة في أراضي كبدوكية، وبعدما جعلهم يشكون بالسلطان، بات على وشك انجاز الاستعداد للحرب، وعلم السلطان بهذا كله، وبما أنه لم يكن قادراً على مواجهة كل هؤلاء الذين ثاروا ضده بتحريض من الامبرطور، تخلى عن ملكية عدد من المدن، خاصة المدن التي احتلها منذ وقت وجيز بعد بذله لجهود كبيرة، تخلى عنها لصالح الذين عاشوا على مقربة من أراضيهم، وكتب إلى الامبراطور وسأله العفو عنه، ووعد أنه إذا ما حظي بذلك فإنه سيتولى إعادة الأسرى الرومان، حيثما كانوا محتفين في مملكته، وأن البحث عنهم هو مسؤوليته وعمله.

وبينما هذه الأمور قيد التجربة، حدث شيء ما كان كما يلي: عندما كان جون [كونتوستيفانوس] منطلقاً من فلسطين [خريف ١١٦١] مع الفرسان، اصطدم بجيش تركي زاد على العشرين ألفاً من الرجال المقاتلين، ولقد فوجئ بالبداية، ولذلك توجه مسرعاً مع أتباعه إلى رابية كانت قائمة هناك، واتخذوا موقفاً، ومن ثم بعث الحماس في الجيش كله، وانقض على الأتراك، وبما أن حملة الرومان كانت شديدة جداً على الأعداء، والقتال كان قاسياً، فقد شرع الأتراك بالتراجع، وهنا سقط عدد كبير منهم، كما وسحق الفرسان كثيراً تحت أقدامهم، وحدث أن عدداً كبيراً من الأشخاص الآخرين حققوا انجازات وقاموا بأفاعيل جديدة

بالتدوين، ودللت على شجاعتهم، لكن في ذلك الصراع أبدى القائد ماتفوق به على الآخرين شجاعة وإقداماً، وعاد جون بعد هذا النجاح يحمل معه إلى الامبراطور غنائم نصره.

وعندما سمع السلطان بهذا، تملكه الغضب والأسف، ولعن نفسه لتسرعهم هذا الذي جاء في غير وقته، ولم يزعجه ما حدث لأتباعه بقدر ما بقي أمامه وعليه مواجهته بسبب زحف الامبراطور ضده، ولهذا تصرف وكأن البيزنطيين يهددون الذين لم يستعدوا بعد، وبناءً عليه سارع بزيادة عروضه المتقدمة بأشياء إضافية وبتقدمات أعظم، فوعد بإعطاء الرومان سنوياً قوة حليفة بناءً على الطلب، كما ووافق على أنه مامن تركي سوف يدوس بقدمه الأراضي الرومانية بدون إذن من الرومان، وإذا ما حاول أحد من بقية الامارات التركية إزعاج الرومان وتسبب الأذى لأراضيهم، فإنه سيعلن الحرب عليه، ويباشرها ضده فوراً، وسوف يعيق بكل وسيلة أي عمل تآمري مهما كان مصدره ومنشأه، وسيكون على استعداد لفعل أي شيء يأمر به الامبراطور بدون تردد، ووافق على إعادة إحدى المدن التي كانت تابعة من قبل للرومان، غير أنها وقعت تحت السيطرة التركية، واقتنع الامبراطور بهذه الأشياء، فأخذ عليه العهود والمواثيق المغلظة، فأنهى عمله العسكري، وعاد إلى الوطن.

ولدى معرفته بخبر أن الكومان قد عبروا الدانوب، لنهب الأراضي الرومانية، تحول عن الطريق الذي يقوده إلى بيزنطة، وزحف نحو مكان الجواز قرب مدينة أبيدوس، حيث قامت بلدة ساحلية صغيرة في منطقة تراقيا، أعتقد أنها نالت اسمها من كالياس Kallias ، وكان قائداً للأثينيين (٥٧)، وعبر من هناك، وأسرع في زحفه ضد الكومان، أما هؤلاء فلإنهم حزموا أمتعتهم بسرعة وغادروا المكان، عندما سمعوا بزحف الرومان، وحدث هذا حتى قبل أن يصل الامبراطور إلى الدانوب.

الكتاب الخامس

١- هكذا سارت الأمور هناك، وبما أنه لم يبد في الأفق أي شيء من أي اتجاه يهدد المملكة الرومانية، فقد توجه الامبراطور إلى إحدى القرى الواقعة على مقربة من بيزنطة للاستراحة، وكان اسمها لونغوي Longoi، وبينما هو مقيم هناك، حلّ اليوم الأخير من حياة الامبراطورة [بيرثا] إيرين، وكانت امرأة، حسبما ذكرت من قبل، تفوقت كثيراً على الأخريات في ذلك الحين، بالحكمة، وصواب الرأي، والرحمة تجاه الذين كانوا بحاجة (١)، وكانت أما لابنتين، كانت أكبرهن [ماريا كومينا البروفيروجنيتا Prophyrogenita] قد بقيت حية وأقامت مع أبيها، أما الثانية فقد فارقت الحياة بعد قليل من اكتمالها لعامها الرابع.

وبينما كانت تصارع ضد مرضها، عاش الطفل مع ذلك، ومهما يكن من أمر فقد استدعت أوضاع الغرب الامبراطور إليها، وقد خلف الامبراطور مسائل بيته الخاصة خلفه، وزحف ليعالج المشاكل هناك، ذلك أنه سرت وقتذاك أخبار أفادت أن فردريك ملك الألمان، كان قد حرك جميع شعبه لمهاجمة الأراضي الرومانية، ولهذا السبب، وبسبب، انقضاء أجل غيزا ملك هنغاريا (٢)، ذهب إلى سارديكا، وقد تأخر هناك مافيه الكفاية، لأنه أولى اهتماماً كبيراً مسألة السيادة في هنغاريا، ولأن ما روي عن الألمان لم يكن يقيناً وأصيلاً بعد، ودعونا الآن نبين لماذا رغب الامبراطور في الادعاء بحق له في حكم هنغاريا، فلقد كان لغيزا أخوين هما: لازلو Laszlo ، وستيفن [أسطفان]، وقد اختصما معه، وأنا لأعرف لماذا أصبحا مكروهين كثيراً منه، وبعد نفي طويل، لأحدهما في مكان وللآخر في مكان آخر، توصلنا إلى الامبراطور، وحضرا بين يديه، وقد

تزوج ستيفن ابنة أخي الامبراطور، ماريا ابنة اسحق السيباتوكراتور، التي كانت — كما ذكرت — فائقة الجمال، وبقي الآخر بدون زواج، وعندما توفي غيزا استدعى قانون العدالة، واحداً من الأخوين إلى السلطة (لأن القانون بين الهنغار قضى بذهاب التاج دوماً إلى الأخوة الأحياء) وكان الامبراطور راغباً بشدة في اعادتهما إلى أرض أجدادهما، ذلك أن غيزا قام قبل وفاته بتجاوز العادة الوطنية، وحول المنصب الملكي إلى ابنه، وكان الهنغار من بعض الجوانب يدينون بهذا القانون، وخائفين من جانب آخر من قدوم الامبراطور، فانتزعوا المنصب من ستيفن ابن غيزا [اسطفان الثالث] ومنحوه إلى لازلو [الثاني] الذي كان واحداً من الأخوين، وأعطوا ستيفن، وأعني به الأخ الأكبر، منصب أوروم Urum ، وكان معنى اسم هذا المنصب بين الهنغار أن صاحبه سيكون الخليفة في تولي السلطة الملكية (١٣).

٢- هكذا سارت الأمور بالنسبة للأخوين، ووصلت المسائل إلى خواتمها، وإثر هذا تابع الامبراطور زحفه إلى فيلبه، وهي مدينة مقدونية، وكان هدفه إنهاء المشاكل في صربيا، ذلك أن بريميسلاف، الذي كان يحكم البلاد آنذاك، كان — كما سلف بي القول من قبل — قد حدثته نفسه بالثورة، لأنه يمتلك روح الاستقلال، وأنه بعدما أوشك أن يفقد سلطانه لهذا السبب، وذلك على يدي الامبراطور، رأى الرحمة مجدداً أمام ناظريه، وبقي في [منصبه] نفسه (١٤)، ثم إنه لم يقم الآن وزناً لاتفاقاته وأيمانه، وتورط ثانية بالعصيان، وقام الامبراطور الذي فهم الرجل، بتنحيته من منصبه، وأقام مكانه أخاه بلوس Belus ، وعطفاً منه على مصيره، قام بنفي بريميسلاف، حتى لا يحدث ضرراً مرة ثانية، غير أنه أعطاه منطقة خصبة جداً، وجيدة للرعي من قبل الحيوانات، وبعدما عاش بلوس في منصبه لوقت قصير ممجداً، تخلّى عن الملك، وهجر أرض آبائه، وذهب إلى هنغاريا، ولقد عاش هناك لوقت طويل، غادر بعده

هذه الحياة، وأمر الامبراطور باستدعاء آخر الاخوة الذي كان يدعى ديسا Desa وكان يحكم منطقة دندرا، وهي منطقة خصبة ومكتظة بالسكان، وتقع على مقربة من نايسوس (٥) Naissos ، وبعدها تلقى مانويل منه يمين الولاء، والوعد أنه سيحتفظ طوال حياته بنقاء بشرط الطاعة، وذلك بالاضافة إلى تخليه نهائياً عن دندرا لصالح الرومان، وهي منطقة — كما ذكرت — كانت خصبة، قام بمنحه لقب «زوبان العظيم».

٣- وحوالي هذا الوقت [١١٦٢] حدث أيضاً أن جاء السلطان قلعج أرسلان (٦) [الثاني] متطوعاً وباختياره إلى بيزنطة ليتوسط لدى الامبراطور بشأن مسائل مفيدة له، وهذا شيء هائل، وفوق العادة رائع، فمثله لأعرف أنه حدث للرومان من قبل، فهل تقدم لأحد من بين الأباطرة العظام أن ظهر رجل في بلاط الرومان على شكل عبد، مع أنه يحكم أراضي واسعة شاسعة، وهو سيد لعدد كبير من القبائل، ولكي أصف الاحتفالات والرسوم التي تمت لمن يود أن يسمع:

فقد نصبت دكة رائعة، ووضع عليها عرش، ارتفع ارتفاعاً كبيراً عن الأرض، وكان مشهداً جديراً بالملاحظة، ولقد صنع كل شيء فيه من الذهب، لكن كميات كبيرة من أحجار الياقوت والزفير كانت مرصوفة على جميع أطرافه، كما أنه لم يكن بإمكان أي انسان احصاء عدد اللآلئ، فقد وضع عدد كاف منها حول كل جوهرة، وكانت مثبتة في الفراغات المناسبة، فقد كانوا ذوي استدارة كاملة، ويشعون اشعاعاً أشد بياضاً من الثلج، وكان العرش مليئاً بمثل هذه المشعات، وتفوق بالروعة القسم الأعلى الذي يمتد فوق الرأس، عن البقية، بقدر ما يتفوق الرأس على بقية أعضاء الجسد المرتبطة به، وجلس عليه الامبراطور، وملاً المكان بالفخامة لحسن توزيع جسده، وقد التف بثوب أرجواني، وكان شيئاً رائعاً، وقد رصع الثوب من الرأس حتى الأسفل بالياقوت واللالئ المشعة، لكن في الحقيقة ليس بدون نظام، وإنما طرّز ببراعة حرفية رائعة، فقد رسم الفن

على الثوب منظرأ أصيلاً لمرج جميل، وتدل من رقبته إلى صدره سلسلة ذهبية نظمت جواهر تميزت في الحجم والألوان، وكان فيها ياقوتة لونها وردي، لكنها أخذت شكلاً يشبه شكل تفاحة، وأرى إنه من غير الممكن الكتابة عن الترصيعات التي كانت فوق رأسه، ووقف على كل طرف من طرفي العرش —تبعاً للعادة— فريقاً من الرسميين، انتظم وفقاً للأسرة والرتبة فذلك حدد مكان كل واحد منهم، وعلى هذه الصورة كان فريق الاستقبال الامبراطوري الرسمي:

وعندما وصل قلعج—أرسلان إلى وسط هذا الفريق، كانت الدهشة مستولية عليه، ومع أن الامبراطور قد حثه على الجلوس، فقد تمسك في البداية بالوقوف وتشبث بذلك، لكنه وقد رأى الامبراطور يتابع الضغط عليه، جلس على مقعد منخفض، كان متواضعاً جداً إلى جانب العرش المرتفع، وبعدما قال وسمع ماهو مناسب غادر إلى المقر المعين لسكانه داخل القصر.

وبما أن الامبراطور قد ازداد عظمة وعلت مكانته بسبب نجاحاته، فقد أعدّ العدة لإقامة استعراض موكب نصر من القلعة نفسها إلى كنيسة آيا صوفيا الواسعة الشهرة، وكذلك ليسير معه في الاستعراض، ومع هذا لم ينجز ما عزم عليه، لأن [البطريك] لوقا (٧)، الذي كان آنذاك مسؤولاً عن المسائل اللاهوتية عارض هذا العمل، قائلاً لا يجوز للرجال غير الأتقياء المرور في ثياب كهنوتية مكرسة ومزينة، ثم إن شيئاً آخر قد حدث ليحول دون تنفيذ المسألة، ففي الهزيع الأخير من الليل هز الأرض فجأة زلزال عظيم، وهنا لاحظ البيزنطيون أن رأي لوقا قد تمّ تجاهله وتخطيه، لذلك أعلنوا أن المشروع مضاد لإرادة الرب، ذلك أن الناس يولون بشكل طبيعي اهتماماً إلى المسائل الحاضرة، ولا يبحثون في أي شيء بعيد المتناول، وعلى كل حال أعطت خاتمة المسألة شرحاً لما حدث، لأنه بعد مضي كثير من السنين أصبح قلعج—أرسلان قليل الاهتمام بارتباطاته

نحو الامبراطور، مما سبب قيام الرومان بالهجوم على الأتراك بكامل القوى، ولبعض الصدف وقع الجيش في مشاكل ومصاعب أرضية، ففقد كثيراً من الارستقراطية، وبات على شفير المعاناة من مأساة عظيمة، لولا أن الامبراطور كان موجوداً، وقد نظر إليه على أنه كان متفوقاً في فن الحرب براعة على بني البشر (٨)، لكن، كما سلف وقلت من قبل: هذه الأمور ستتم روايتها فيما بعد من قبلي، وقد تم اصطحابه إلى القصر الواقع إلى الجنوب [كذا] من المدينة، وقد استقبله الامبراطور بمائدة رائعة، كما وعامله معاملة ودودة تامة (٩)، ثم أغراه بسباق للخيل، ووضع تبعاً للعادة النار في بعض القوارب والمشاعل التي زودت بسائل قابل للاحتراق، وقد أدهش هذا الرجل تماماً، لاسيما منظر ميدان السباق، فهناك تظهر بشكل خاص عظمة المدن، وبعدما أمضى قلعج—أرسلان الوقت الكافي في بيزنطة، وتولى تأكيد الاتفاقات الماضية بأيمان اضافية، عاد إلى بلاده، وكانت شروط الاتفاق كما يلي:

أن يكون خلال حياته كلها معادياً للذين يرعون العداوة ضد الامبراطور، لكن أن يكون صديقاً للذين يتخذون موقفاً معاكساً، فهؤلاء يحظون باحسانه، وسيعطي إلى الامبراطور من بين المدن التي استولى عليها المدن الأعظم والأكثر أهمية، ولا يحق له إبرام أي اتفاق سلام مع واحد من الأعداء ما لم يكن ذلك بتوجيه من الامبراطور، ولسوف يقاتل بمشابهة حليف مع الرومان بناءً على طلب، وسيقدم مع قواته كلها للمشاركة بالحرب سواء أكان الصراع صراعاً شرقياً أم غربياً، ولن يسمح لأي واحد كان يخضع لسلطانه، لاسيما الذين يعيشون ببراعة من أعمال اللصوصية ويدعون بالعادة باسم التركمان، بالقيام بالحق أي أذي مهما كان نوعه بالأراضي الرومانية، ولن يمرر ذلك بدون عقوبة، وقد وافق على هذه الأشياء، وتعهد الذين رافقوه من الأعيان، أنه إذا ما حاول عدم مراعاتها، سيمنعونه من محاولة ذلك بكل ما أوتوه من قوة.

وكان هذا ماتحقق في بيزنطة، وقد عبرت الأخبار [لذلك] من قبل من أوروبا إلى آسيا، وارتأى قادة القبائل هناك أنه لن يكون من صالحهم إذا ماتعامل الامبراطور مع السلطان، فبعثوا برسلكهم يرجون أن يتصلخوا مع السلطان، واستمع إليهم مانويل بروح الصداقة، وقد ترك كل شيء لاختيار السلطان، فبعث بهم إليه، وكان كما سلفت الإشارة مقيماً في القصر، وما ان مثلوا أمامه للمناقشة، حتى سأله برعاء أن يتخلى عن عداوته نحوهم، وأقنعوه أن يتوسط لصالحهم لدى الامبراطور، وتبعاً لذلك جلب مانويل هؤلاء المستعطفين إلى جانبه، واتخذهم أصدقاء، ومنذ ذلك الحين استقر السلام في مملكة الرومان.

٤- وبما أن الامبراطورة [بيرثا] —ايرين كانت قد غادرت هذه الحياة، والامبراطور لم يكن بعد قد صار أباً لطفل ذكر، لذلك فكر آنذاك بزواج ثانٍ، وكانت هناك فتاة في طرابلس في فينيقية [لبنان]، لاتيية المولد، لكن ذات جمال متميز، لذلك أرسل لخطبتها [١١٦٠] السياتوس جون كونتوستيفانوس وايطالي اسمه ثيوفيلاكس Theo-phylact ، الذي أطلق عليه رجاله لقب اكسوبييتوس (١٠) Ex ou-bitos ، ورأى الرجلان الفتاة وأعجبا بجمالها، وبما أنه لم يكن هناك مايعيقهما مطلقاً، قاما بدون انتظار بالصعود إلى ظهر الغليون للسفر بها، وحدث —على كل حال— أنهم وهم على نية الاقلاع والسفر، حلّ مرض شديد بالفتاة، وياتت في الحقيقة بوضع خطير جداً، ولذلك أخذوا يؤجلان سفرهما ومغادرتهما كل يوم إلى الغد، وأمضيا الأيام بدون عمل، ينتظران أن تتحسن حال الفتاة وتتحرق قليلاً من الوجع حتى يمكن توقع المغادرة، لكن لحكمة خفية كانت المعاناة تعاودها من جديد، وعندما اضطجعت كان جسدها يرتجف ويرتعد بشكل شديد، فقد استبدت الحمى بها، وتبع ذلك فقدانها وتلاشيها، فالبريق الذي علا طلعتها، والذي أشرق جمالاً، مالبت أن تغير إلى ظلام، وكان كل من يراها يبكي

حزناً على هذه النضارة التي ذوت في غير وقتها، وهكذا كانت الفتاة في حالة سيئة، وهي ماتزال مقيمة في بلدها وقبل أن تصعد ظهر السفينة وتبتعد ولو قليلاً عن طرابلس، حل بها فيضان مضاعف هناك، وهكذا بقيت السفينة مجدداً في طرابلس، وجاءها هناك المزيد من الأمراض، ولم تغادرها البتة، ونظراً لتكرار حدوث هذا الأمر، سبب ذلك قيام كونتوستيفانوس بتفحص القضية وإعادة النظر بها بدون توقف، وفي حزنه وأساه كان يستبدل الفكرة بواحدة أخرى بدون توقف، وأخيراً دخل إلى إحدى الكنائس هناك، واستخار هل من المفيد أن تخطب الفتاة إلى الامبراطور، وأجابه الهاتف المقدس بقوله: «العرس جاهز، لكن الذين تمت دعوتهم لا يستحقون الدخول» (١١)، وعندما سمع هذا، فهم المعنى، لأن أقاويل راجت هناك، وصلت مسامعها، أفادت أن الفتاة ولدت من زواج غير شرعي، وهو شيء يمكن أن يسبب العار بشكل خاص، لذلك تخلى عن المسألة وانطلق عائداً إلى بيزنطة (١٢).

وكان لأرناط أمير أنطاكية ابنتين كانتا آنذاك فائقتي الجمال، وفي سبيل رؤيتهما أرسل الامبراطور باسيل الذي كنيته كاماتيروس Kamateros والذي كان آنذاك قائداً للفريجيين [Akoulouthos]، وعندما وصل أنطاكية مسرعاً، وجدهما معاً جميلتين، غير أن ماري بدت له الأكثر جمالاً، وتبرهن أن استقصاء هذا الرسول كان صحيحاً، واعتاد البيزنطيون في أيامنا على القول، أنهم لم يعرفوا مثل هذا الجمال من قبل، لكن هذا حدث فيما بعد، وبما أن القرار أثر ماري، فقد علم الامبراطور بذلك، فبعث بأعضاء من الأرستقراطية إلى أنطاكية للقيام بخطبة الفتاة له، هم: ألكسيوس [كومينوس] ابن ابنة الامبراطور ألكسيوس الأول، وكان آنذاك هو الدوق العظيم، ونقفور برنيوس، وكان من أنسباء الامبراطور من خلال ابنة أخيه، وقد أصبح سيباتوس، وكان بينهم أيضاً أندرونيكوس كاماتيروس، الذي شغل آنذاك منصب إبارك (١٣).

Eparch ، وكان أيضا من أقرباء الامبراطور، وقد عدّ جديراً لأن يصبح سيباستوس، ولقد رأوها، وأعجبوا بها أيما اعجاب، وصعدوا ظهر غليون، واصطحبوها بكل حفاوة إلى بيزنطة.

وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر أبيلايوس Apellaios ، الذي يطلق عليه الذي يتكلمون باللاتينية اسم كانون الأول [١١٦١]، وبعدها نقلت بشكل رائع إلى كنيسة آيا صوفيا الواسعة الشهرة، تم عقد قرانها هناك، وكان مع لوقا الذي كان على رأس كنيسة القسطنطينية، صفرونيوس بطريرك الاسكندرية، وأثناسيوس بطريرك أنطاكية [ثيوبولس]، وقد وضع يديه عليهما، حسبما كانت العادة آنذاك بالنسبة للمسيحيين، وبعدها أعلنها الامبراطور أوغسطه عاد إلى القصر، واحتفل هناك في مقامه العالي بولائم رائعة، وأقام الموائد للشعب في جميع طرقات المدينة، ودعا في اليوم التالي البطارقة إلى مأثدتته، وبعدها رحب بكل واحد منهم بوساطة كميات هائلة من الذهب، ودعهم عائدين، وفي الحقيقة قام قبل صنعه أي شيء آخر بإهداء الكنيسة مائة وزنة من الذهب، وبعد وقت قصير متّع الشعب بسباق للخيل، ورغب في عدم إهمال أي شيء يجلب المسرة (١٤).

٥- وكان هذا ما حدث في بيزنطة، وحدث أنه بعدما توفي لازلو صاحب هنغاريا [١٤-كانون ثاني ١١٦٢]، أن أصبح أخوه متملكاً للسلطة باسم [اسطفان الرابع]، وقد بدا عبوساً وظالماً بشكل منقطع النظير بالنسبة للشخصيات الرئيسية، لذلك أبغضه الهنغار كثيراً وازدروه، وكانوا على وشك خلعه وانتزاع السلطة منه، واضطرب ستيفن أمام هذا الحال، فتوجه ثانية يستنجد بالامبراطور، وقام الامبراطور عندما حلّ الاعتدال الربيعي [ربيع ١١٦٢] بالمبادرة مسرعاً نحو فيلبه، وقد مكث هناك مع الجزء الأعظم من الجيش الروماني، وعهد بقيادة قطعة من الجيش إلى ابن أخيه ألكسيوس كونتوستيفانوس، وبعث بها إلى هنغاريا،

وحدث — على كل حال — في هذا الوقت أن اعتقد ستيفن أنه تصالح مع الهنغار وبالتالي ليس بحاجة لهذه القطعة، ولهذا السبب عاد الجيش الروماني إلى وطنه، لكن وقع في ذلك الحين أن ثار الهنغار ثانية ضد ستيفن، واهتموه بأشياء كثيرة، وأصروا على أن الدولة الهنغارية قد تدمرت تماماً في ظل حكمه، ولهذا حشد الامبراطور جيشاً من جديد، غير أن ستيفن الذي شعر بالمخاطر من البداية، جاء لاجئاً إلى إحدى المدن القريبة من الدانوب، والتي كانت خاضعة منذ وقت طويل مضى لحكم الامبراطور، وتابع هذا السير إلى سرديك، وهناك التقى الامبراطور، وقد تأثر الامبراطور كثيراً بما حدث، وعطف على الرجل لما نزل به، فأعطاه المال، وزوده بما يكفي من قوات، تولت اصطحابه عائداً إلى عرش آبائه، وقاد هذه القوات ألكسيوس كونتوستيفانوس، المتقدم الذكر، وسار الامبراطور خلفها، وعلى بعد قليل منها.

وعندما وصل نيسوس، ورد إلى ذهنه خطة وهو معسكر هناك، في أن يقوم خلال جوازه بحل المشاكل في الصرب، لأن ذلك المكان كان على الطريق إلى كل من هنغاريا والصرب، ولا بدّ للانسان من الدخول من احدهن إلى الأخرى من هناك، فقد كان ديسا، الذي كان وقتذاك يحكم الصرب كتقدمة له من الامبراطور، كان ما أن أصبح مسؤولاً عن البلاد قد نسي حتى الاتفاق، وادعى مجدداً الحق في ملكية منطقة دندرا، فقد ثار ضد السلطة الرومانية، وكتب إلى الألمان، عازماً على أن يقرن نفسه بعروس من هناك، وفعل كل شيء كان مضاداً لرغبات الرومان، ثم انه عندما استدعاه الامبراطور للالتحاق به في الحملة ضد الهنغار، ظهر نائياً، وعنيداً، معللاً ومدافعاً، بآمال عظيمة، وثابر على تقديم الوعود بالوصول في المستقبل، ولذلك عندما وصل الامبراطور إلى نيسوس، حيث هناك طريقان، يقود أحدهما إلى الصرب، والآخر إلى الدانوب وهنغاريا، أقام معسكره في وسط الطريق بينهما، ولدى شعور ديسا بالخطر الذي حام

فوقه، جمع ما حضر لديه من عساكر، ووصل إلى المعسكر الروماني، ولقد عامله الامبراطور بعطف، وأضفى عليه من التشريف كل ما هو لائق.

وعلى كل حال، مامن إثم أعظم عاراً من لسان غير ملجوم، لأنه ما ان تصور ديسا أنه مامن أذى نجم عن حماقته السالفة، حتى صعد غاياته وقرر الاقدام على إحداث ضرر إلى الرومان أعظم من ذي قبل، ومع هذا فقد أبقي المؤامرة سرية، وهكذا يغدو بالعادة افتراض الجودة في أعظم الناس إثماً، العمل المادي لكل جرائم عظيمة، لأنه جاء بعد وقت قصير رسل إلى الامبراطور من لدن أمة الهنغار، لكن بالصدفة حدث أن التقوا بديسا، وقد سئل كالعادة من قبلهم كيف سارت أموره، فأجابهم بدون تحفظ، بأن أموره سارت بشكل جيد، وهي تستحق تقديم الشكر له من قبل ملكهم الذي سماه بشكل مكشوف «المولى»، ولدى معرفة الامبراطور بذلك، استدعاه إلى المحاكمة بدون تردد، وعندما أدين، بما أن التهم ضده وازت المخففات وجهاً لوجه وأظهرت خيانة الرجل، قرر مانويل التحفظ عليه بأمان بدون إهانته، وقد أحاط خيمته بخندق، وأبقاه مطوقاً بشكل متواصل، وهكذا منه نال المكان اسمه وهو معسكر ديسا (لأن العوام هكذا أطلقوا بالدرجة هذه التسمية على الخندق) وأرسله بعد أمد قصير إلى بيزنطة، واحتفظ به أسيراً في القصر (١٥).

كان هذا ما حدث هناك، ورأى الامبراطور الذي كان يتباحث مع الرسل الذين وصلوا من عند الهنغار، أنهم لم يقدموا شيئاً أصيلاً، لذلك أمرهم بمغادرة المعسكر الروماني على الفور والعودة على الطريق الذي جاءوا عليه، وهكذا غادروا المكان، وعندما وصل الامبراطور إلى مدينة بلغراد، عسكر هناك، وهي مدينة — كما سلف القول — قد قام الجيش الروماني ببنائها، وذلك بعدما هدموا زيغمنون Zeugminon ، وقد شاركهم في عملهم ذلك عدد من الهنغار، وكانت في الحقيقة لعبة حظ،

تهزأ باستمرار، نحو الشؤون البشرية، ويمكن للمرء أن يضحك نحو الذين أزالوا الأبنية، وهم يرون المعمرين ثانية، وأعتقد أنه من هذه الأشياء بات استخدام كلمة حظ شائعاً جداً بين الناس، وعندما يكونوا غير قادرين على فهم الأسباب لأعمال التدبير، وعلى أساس ما بدا لهم صحيحاً، نراهم يعززون المصائب إلى الحظ، ولندع كل واحد يفكر ويتكلم حسبما يرضيه حول هذا، ولكن دعوا الرواية تنعطف نحو مسألتها المبكرة.

وعندما وصل الامبراطور إلى بلغراد، ولاحظ أنه من غير الممكن بالنسبة لستيفن [اسطفان الرابع] أن يحكم بلاد الهنغار (لأنهم كانوا قد سارعوا إلى تنصيب ستيفن ابن غيزا [اسطفان الثالث] ثانية) انصرف نحو شيء آخر، وكما تقدم الذكر، كان يرغب في أن يستحوذ على هنغاريا، التي قامت وسط الأمم الغربية، ولذلك عزم على أن يربط بالزواج بيلا الذي كان ابن غيزا تاليا لستيفن، بابنته ماريا، فأرسل إلى هنغاريا جورج الذي كان باليولوغوس Palaiologos من حيث المولد، والذي كان آنذاك يتولى إمرة الحرس الامبراطوري الأجنبي، وكان قد ارتقى إلى مرتبة سيباستوي Sebastoi ، وأمره أن يبحث في مسألة رباط الزواج، ثم أخذ هو نفسه الطريق مجدداً نحو بيزنطة، وبعدما ناقش الهنغار المسألة مع باليولوغوس، سلموه مسرعين بيلا، وبكل سرور عينوا له الأراضي التي كان والده قد خصصها حصّة له عندما كان على قيد الحياة، وحمله باليولوغوس معه، ومعه الاتفاقية المذكورة، وجاء إلى بيزنطة، ونظر الامبراطور بإيثار نحو القضايا المتعلقة برباط الزواج، وأعيدت تسمية الشاب، فبات اسمه ألكسيوس، وبات ينادى بلقب «دسبوتس Despotos» [أي سيد] (١٦).

٦- وهكذا توافق وصول بيلا إلى بيزنطة مع هذه البداية في الافتراض أن كل شيء كان يسير على ما يرام في الغرب، لذلك أولى الامبراطور بعد

اهتمامه إلى آسيا، وبعدما أثير بها حدث، تحول عنها بسبب الشؤون الغربية، والذي دعاه للتوجه إلى آسيا هو أن نور الدين، الذي كان حاكماً لكل من حلب ودمشق، وكلتاها من أهم مدن سورية، قد ابتسم له الحظ وكان لصالحه، فحكم عدداً كبيراً من المدن الأخرى التي شربت ماء نهر الفرات، كما واستولى على كثير من المناطق التي لا يستهان بها، ووقع في قبضته عدد عظيم من الأمراء هناك، وقد احتفظ ببعضهم أسرى، وكان بينهم جوسلين حاكم الرها (١٧)، وقتل آخرين في المعركة، ونذكر من هؤلاء: ريموند أوف بواتو، الذي قدمنا حوله مادة كافية في الروايات المتقدمة، وكان رجلاً يشبه الهرقلات الأسطوريين في القوة والقدرة، وكذلك بلدوين الذي كان وقتذاك حاكماً لمرعش، وتابع تقدمه، فاصطدم في القتال مع دوق كليكية، الذي كان اسمه قسطنطين، وكنيته، كالامانوس Kalamanos الأصغر (١٨)، وكان بهي الطلعة، وفِعْلاً في الشؤون الحربية، وكان في البداية قد هزم هزيمة ساحقة على يد الأصغر، ووقع في مصيبة لا يمكن النهوض منها، ثم حدث أن أسره، وأسر أرنات أمير أنطاكية، كما وكان بينهم أيضاً حاكم طرابلس الفينيقية، وكان قسطنطين عندما ربح منه المعركة، لم يكبح نفسه، بل اندفع بشكل أحمق، وانخرط بدون توفيق في أعمال المطاردة، فكان أن وقع بالأسر، وهكذا هوت مصالحي الرومان [آب ١١٦٤] (١٩)، وهزم نور الدين أيضاً طوروس في المعركة، وعلل نفسه بآمال الاستيلاء فوراً على أنطاكية، ولهذا كله كان الامبراطور في البداية قلقاً تجاه ماوقع، وعزم على الجواز إلى آسيا، واغتنام الفرصة، وعندما كان على نية الإسراع إلى هناك مع جميع قواته، حدث أن منعه مشاكل الغرب من جديد.

وبالنسبة للملك الجديد [اسطفان الثالث] قام مجدداً باغتصاب ميراث بيلا، ثم عمد إلى خرق المعاهدة علناً، يضاف إلى هذا أن ستيفن [اسطفان الرابع]، الذي سلف للهنغار أن طردوه من منصبه، استطاع أن

يتسلل عائداً إلى هنغاريا من خلال أنخيلوس Anchialos ، وعزم على استرداد السلطة [١١٦٣]، وتولى السعي لذلك بشكل سري، لكن باندفاع بدلاً من أخذ الحيلة، وربح في أثناء تجواله إلى جانبه بعض الهنغار، وعندما علم ستيفن [الثالث] بهذا اندفع نحوه ومعه جميع جيشه، ولهذا بعث الامبراطور إلى كليكية جيشاً كافياً للدفاع عنها، وقام بالزحف عائداً إلى الدانوب، وعبر السافا، ومركز قواته مقابل تيتليون Ti-telion [تيتل على التيسا Tisa] (٢٠)، عازماً على استرداد ميراث الأجداد إلى بيلا، ولينقذ ستيفن [الرابع] من المصاعب التي تواجهه، فقد كانت قواته تتبدد وتشتت، وكان بالحقيقة في وضع صعب، بسبب أن الهنغار كانوا في كل مناسبة ذاهبين للالتحاق بالملك [اسطفان الثالث]، وأرسل الامبراطور أندرونيكوس بن كونتوستيفانوس، الذي سيصبح بعد وقت قليل دوقاً أعظم، مع جيش، فتولى انقاذ ستيفن من وسط المصاعب.

وانطلق الامبراطور من تيتليون مع قواته كلها، وتابع زحفه إلى الأمام، أما بالنسبة لستيفن [الثالث] الذي اغتصب السلطة، فقد وجد نفسه غير قادر على التصادم مع الامبراطور بقوات متكافئة، ولهذا زحف أولاً مع القوات المحيطة به إلى مكان ما وقع في الجزء الأقصى من هنغاريا، ثم إنه بعدما قام بجمع قوات حليفة، بادر مسرعاً للتصدي للرومان، ووصل الامبراطور إلى مكان يدعى بيتريكون Petrikon [بيتروفاردين sovardin Petr]، وعسكر هناك، وهذا المكان هو الحد الأقصى للوصول إلى داخل هنغاريا، وبعدها وصل إلى هناك، كتب مايلي إلى ستيفن [الثالث]:

«لقد قدمنا يا بني للإثارة الحرب ضد الهنغار، بل لاستعادة أرض بيلا —أخوك— وهو ليس شيئاً انتزعناه بقوتنا، بل إنه مامنحتة أنت وأبوك من قبل، منذ زمن طويل، وكذلك لننقذ من المصاعب عمك ستيفن،

المرتبط برباط الزواج بجلالتنا، وإذا كان تبعاً لارادتك الحرة أصبح بيلاً صهرنا، وهو شيء كنتُ قد وافقت عليه من قبل، لماذا سارعت إلى التخلي عن صداقتنا، بعدم قيامك باعطائه أرضه؟ وإذا كنت تعارض الزواج وشيئاً آخر يبدو بالنسبة لك صحيحاً فيما يتعلق به، اعلم اننا سنمتنع عن الضغط عليك أكثر».

٧- كان هذا ماكتبه الامبراطور، أما الآخر، فكان — كما ذكرت — قد حشد قواتاً حليفة من الألمان والسيزيين من تاوروس [تاوروس سيز أوريوس]، وتعايش مع أمة التشيك منذ أن قدم إلى عنده حاكمها ومعه جميع جيشه، وهذا الحاكم هو الذي ذهب بالحملة مع كونراد ملك ألمانيا، عندما — كما حكيت من قبل — انطلق نحو آسيا، ولهذا السبب أصبح ملكاً تحت سلطانه.

ومع هذا فكلاهما قد غشا: الذي منح اللقب والذي قدم الشكر، لأن لقب امبراطورية كان قد اختفى من روما منذ زمن طويل مضى، ولأن منح السلطة قد انتقل — بعد أغسطس الذي يدعى أغستولوس، وذلك إشارة إلى سنه الصغير عندما وصل إلى السلطة — إلى أودوفاكار Odovakar ثم إلى ثيودورك حاكم القوط، وكانا معاً طاغيتين [أي مغتصبين]، ولأن ثيودورك دعا نفسه طوال حياته ملكاً وليس امبراطوراً، وذلك حسبما روى بروكوبيوس، وتعيش روما منذ أيام ثيودورك، لابل قبل ذلك بقليل، حتى الآن في حالة ثورة، مع أنها استردت مراراً من قبل بليزاريوس ونرسييس، قائدا الرومان في أيام جستنيان، ثم انها تحولت إلى مرتبة ليست أقل من العبودية تحت ظل الطغاة البرابرة، الذين حملوا ألقاب ملوك في مضاهاة لثيودورك الملك الأول والطاغية، وبما أنهم لم يدعوا المقام الأعلى، وهو مقام الامبراطورية، من أين يحق لهم الاقتراح بالنسبة لأنفسهم مناصب [الملكية] التي — كما سلف وقلت — صدرت عن الجلالة الامبراطورية بمثابة تمييز (٢١).

ولم يكن هذا وحده كافياً بالنسبة لهم، فاغتصبوا —مع أنه لا يليق بهم— أعلى منزلة للسلطة وأضيفوا على أنفسهم لقب الامبراطور، وتحتاج هذه الحماقة وفقدان العقل الشرح:

أسرعوا الآن بالاعلان أن الامبراطورية في بيزنطة تختلف عن تلك التي في روما، ولدى تفحصي لهذا، تسبب ذلك لي مراراً بالبكاء، فلقد بيع الحكم في روما، مثل قطعة من المتاع، إلى البرابرة، وفي الحقيقة إلى العبيد، ولهذا إنها لاتستحق أسقفاً، وأكثر من هذا إنها لاتستحق حاكماً، لأن الذي صعد إلى عظمة الامبراطور ركض على الأقدام بشكل غير لائق بنفسه مماشاة للأسقف الراكب، وكان مثل سائسه (٢٢)، غير أن الآخرين يدعونه امبراطور، مقدرين أنه كان مساوياً وبالدرجة نفسها مع البازيلوس [الامبراطور البيزنطي].

[وبالنسبة للبابا:] كيف لك ياسيدي النبيل، ومن أين وقع لك أن تعامل امبراطور الرومان مثل سائس؟ لكنك لاتعرف من أين، وأنتك أسأت إلى لقب أسقف، في حين زيف هو [الامبراطور الغربي] لقب امبراطور، لأنك إذا لم توافق على أن عرش الامبراطورية هو في بيزنطة، وهو عرش روما، من أين أصبحت مستحوذاً على مرتبة بابا؟

هناك قسطنطين واحد فقط، وهو المسيحي الأول بين الأباطرة، وله سائغ منحه هذا اللقب، كيف يمكنك أن ترحب بجزء منه بايثار، وأعني بذلك العرش البابوي، وغاية العظمة، لكن ترفض قبول بقية السيادة الامبراطورية، عليك إما أن ترضى بكلا الناحيتين أو ترفض النواحي الأخرى أيضاً.

غير أنه يقول:

أنا يمكنني أن أعين أباطرة، نعم، هذا فيما يتعلق بوضع الأيدي،

وكذلك فيما يتعلق بالتكريس، فهذه مسائل روحية، لكن لافيا يتعلق بمنح امبراطوريات واختراع مثل هذه الأشياء، ومادام بإمكانك تحويل الامبراطوريات، لماذا لا تقوم أنت نفسك بتحويل الامبراطورية القائمة في روما؟ لكن عندما يرسم واحد آخر شيئاً ما، على الذي وقتها يمتلك الكنيسة بينكم أن يعتاد رغم ارادته على احترام مراسيمه (٢٣)، لقد وقعت — على كل حال — في مصيبتك، وتفعل بشكل مُقنع أشياء متعارضة، هؤلاء الذين لم ترض قبول طلبهم واستقبالهم، منذ وقت قصير، عندما كنت تتصرف بشكل صحيح نحو الامبراطور، لأن ذلك لم يكن ممكناً، لكن أن تدرجهم الآن بين سواسك، لأعرف كيف ذلك، ولا كيف تتقبلهم بمثابة أباطرة، إنك تدرك أن الذي بوساطته ومن خلاله، ومنه ادعيت العرش البابوي، لا يمكن أن يُطابق مع البربري، والطاغية والعبد، إنه يقول: أنا أرغمت، إنني تحت الضغط، إن عذرك ليس مسوغاً، لقد تخلّيت من قبل، لكن ليس قبل وقت طويل مضى، عن هذه الأشياء إلى الامبراطور مانويل، وإذا ما رغبت بانكار ذلك، فإن الوثائق التي تلقت توقيعك في الأسفل تعلن ذلك، وفي الحقيقة إن القضية هي مزحة، وخدعة سخيفة ودنيئة، وحسب طريقة الذي يراهن على مضي الوقت، لقد لُزمت بخط تبديلات الحظ (٢٤)، ولقد تشعبنا مع هذه المسألة أكثر مما يتوافق مع الروايات التاريخية، لذلك لنُدع الحكاية تعود إلى مسألتها السالفة.

٨- بعدما قام ستيفن [الثالث] هكذا بالاستعداد، أسرع بالزحف ضد الرومان [١١٦٤]، وعندما كان الامبراطور في داخل الأراضي الهنغارية، جاء الناس الذين كانوا هناك على شكل حشود للترحيب به، وضموا كلاً من الذين كانوا مدرجين بين رجال الدين، الذين التفوا بأردية صوفية، وحملوا بأيديهم الكتابات المقدسة، والذين كانوا من العامة والناس العاديين، وقد غنوا بشكل جميل جداً، مزموراً نظمه ببراعة واحد

ممن كان بيننا، ونصه هو كما يلي: «أيها المولى، يامن ساعدت داوود المتواضع»، وهكذا، وبعدما مرّ الامبراطور بهذه المناطق، أسرع لعبور الدانوب، وذهب محاذياً لجزيرة كانت هناك (٢٥)، فقد عزم على الزحف نحو الداخل.

ثم إنه عندما كانت القوات الرومانية تعبر، حدث أن واحداً من القوارب، امتلاً حتى حوافه بالبضائع والسلاح وبأكبر عدد ممكن من الرجال، وعندما لم يكن بعيداً عن الشاطئ، جنح إلى أحد الأطراف، ولذلك تدفق الماء إلى داخله، أما بالنسبة لبقية الجيش الروماني من الذين صعدوا إلى السفن وكانوا محمولين على وجه النهر، والذين كانوا ما يزالون واقفين على اليابسة، فإن بعضهم قد استولى عليه الخوف من الخطر، وبعضهم الآخر كان مهملاً، ولذلك أهملوا القضية، ولم يبق سوى القليل أمام السفينة حتى تغرق وتذهب إلى القعر مع جميع رجالها، لولا أن الامبراطور قفز إلى الماء، وقصد على قدميه نحو السفينة، وذلك في وقت كان فيه التيار يدور بعنف عظيم، وشكل بعضاً من الطين هناك، كان من الصعب جداً تجاوزه، وقد وضع الامبراطور كتفيه تحت المركب، وأوقف بذلك لحظة الخطر، وأعطى بذلك الفرصة للآخرين للقدوم لمساعدته، فقد خجلوا من غيرته، فذهبوا إلى مساعدة الذين كانوا وسط المصاعب، وأنقذوهم من الخطر، ولذلك حصل الامبراطور على احترام عظيم لانسانيته.

ثم إنه بعدما عبر الامبراطور الدانوب من مكان أكثر ارتفاعاً، أسرع نحو مدينة اسمها باغاتزيون Pagatzion [باكسس أويج] — وهذه المدينة هي مطرانية شعب سيرميون Sirmion ، وهناك يسكن أسقف الشعب — وجاءت حشود من السكان خارجة من المدينة للخدمة بمثابة حرس هناك (٢٦)، وهكذا عسكر هناك، لكنه علم في اليوم التالي أن ستيفن [الثالث] كان يقترب آنذاك، فاستعد فوراً

للمعركة، واستدعى واحداً من الرومان، كان يعرف اللغة التشيكية، فطلب منه أن يخفي نفسه ويتسلل إلى معسكر العدو، وعندما يصبح على مرأى من ملك التشيك أن يخاطبه كما يلي: «إلى أين أنت مسافراً؟ أي حملة أنت قائم بها مع الجيش الذي تحت امرتك؟ أو أنك لا تعرف أنك تتجراً برفع يديك ضد الامبراطور العظيم؟ إنه مرعب بالنسبة لأي انسان أن يقف ضده في المعركة لأسباب كثيرة، دون أن نذكر أن مخاطرات المرء مزدرة من قبل هؤلاء الهنغار، الذين أعطوا بيلا ميراثه ثم أخذوه، لأنهم يعاملون أيماهم وكأنها مزاح، فلو أن الانسان يتعامل مع فرد خاص، وحدث مثل هذا، بخرق اتفاقته، هل يمكن أن يمر ذلك بدون عقاب بوساطة القانون، فهل ياترى يمكن للهنغار الذين عملوا ضد معاهداتهم مع مثل هذا الامبراطور، أن يبقوا بدون عقاب؟ لايمكن هذا، وعلى ذلك أوليست الحرب المثارة من قبل الامبراطور عادلة؟ إن نتيجة المعركة ستكون دوماً وفقاً للعدالة، وقدر هذا: إنك قدمت بمثابة عبد متشوق للقتال ضد سيد، وبمثابة عبد يحمل النير بدون إكراه، (وإذا لم يكن الأمر كذلك، سيكون من الطبيعي هناك سبب مثل الكراهية لسيد) وفي الحقيقة كتابع متطوع (ولاؤك [Lizion] يدل على هذا) (٢٧) إذا كان ماصنعتة في بيزنطة من قبل، عندما انطلقت إلى آسيا مع كونراد، إن لم يكن ذلك قد أفلت من ذاكرتك، وإذا كانت نتيجة الأمور متوقفة على قرارك، اختر ما سيكون مفيداً لك ولجميع التشيكيين، الأسف قادم، والمنافع بالعادة قليلة جداً لمن يمارسه».

هكذا تكلم، وأجابه فالديسلاف [الثاني] (كان هذا هو الاسم الذي أطلق عليه) (٢٨) حسبما يلي: «أيها السيد النبيل، نحن لم نأت إلى هنا لاثارة الحرب ضد امبراطور عظيم (ولا أن نكون بذلك متجاهلين لاتفاقاتنا نحوه) بل أتينا للدفاع عن ستيفن هذا الذي لحقه الضرر بشكل غير عادل من قبل عمه الشقيق، الذي كان قد طرده أولاً من

أرض آبائه ومن ميراثه، ثم إنه عندما استرد الحق إليه، هاجمه الآخر، وعزم على أن يستعيد بالقوة المنصب الذي كان قد فقدته لسوء حكمه، وهذه الأسباب جئت لأطلب من الامبراطور ولأرجوه في أن يقوم بحماية طفل يتيم، ولكن إذا كان تمّ صنيع شيء ما للاضرار بالامبراطورية من قبل ستيفن الأصغر (لأنني علمت أن مامن شيء من الأرض العائدة إلى بيلا نفسه قد استولى عليه) سنقوم بأنفسنا بعمل الوساطة وسوف يقوم بالتنازل عن الأرض على الفور، ويجهد بكل سبيل بالعمل للتكفير عن أخطائه»، لقد كان هذا ما قاله، ثم أعاد الرجل.

وعاد الرجل إلى المعسكر الروماني، وأوصل إلى الامبراطور الجواب، واستمع مانويل إلى هذه الكلمات ليس بدون سرور، ومع ذلك لم يكن قادراً على تصديقهم كلياً، وشعر بالقلق خشية أن يكون فالديسلاف لم يكن قد عبّر عن نواياه الحقيقية، بل يوجد خلفهم شيئاً من الخيانة، فقام بإرسال بعض أعوانه إليه، وأمر أن يتم تأكيد الاتفاقية بيمين، وقام الطرف الآخر بدون تردد بفعل ذلك على الفور، ولم يكتف بذلك، بل زاد التأكيد بآيما إضافية على ما كان قد تعهد به من قبل، كما تقدم وذكرنا.

وبعد قليل بعث ستيفن رسلاً إلى الامبراطور، أعاد بوساطتهم الأرض، وطلب من الامبراطور ألا يسمح لعمه ستيفن [الرابع] القيام بمهاجمة هنغاريا (١٢٩)، وقبل مانويل هذه الشروط، وبناءً عليه أنهى الحرب، وذلك بهدف الجواز إلى الأراضي الرومانية، ونصح ستيفن [الرابع] بمغادرة هنغاريا، لأنه علم من خلال التجربة بأن أبناء جلدته لا يرضون به، لكن بما أنه لم يكن قادراً على اقناع الرجل قال له: «إنني الآن مغادر، فبعدما استرددت أرض بيلا، لم يبق من سبب مسوغ للصراع، إلا سبب غير عادل، واعلم أنك ستعرض للخيانة على الفور لصالح أعدائك، وإذا ما كنت ترغب فإنني أبرهن لك وأريك الحقائق حتى أمام ناظريك، يوجد هنا ابن أخيك ستيفن، وهو مشابه لك تماماً بالمظهر، إلى حد أنه يصعب

على الذين ينظرون إليك عن بعد تمييز أحدكما عن الآخر، قم بعدما تلبسه سلاحك بأمره بأخذ جيشك، والزحف ضد الأعداء، وابق نفسك مختفياً في مكان ما هاهنا، وستعلم على الفور كيف سيعاملك الهنغار».

وهكذا دخل [ستيفن الرابع] إلى إحدى السفن، وأقلع دون أن يلاحظ إلى مكان ماعلى شواطئ الدانوب، بينما بادر ابن أخيه ستيفن والهنغار من حوله للاشتباك مع الملك ستيفن، ولكن حتى قبل أن يواجه الجيشان أحدهما الآخر، بادر الهنغار الذين كانوا مع ستيفن بإلقاء القبض عليه، وأسرعوا بتسليمه إلى الملك على أنه ستيفن الأكبر، وانتهت خطيئة الهنغار عند تلك النقطة، لكن عندما علم الامبراطور بهذا، أرسل ينصح ستيفن [الرابع] قائلاً: «يكفي أيها الرجل، وكما أنه من الخطر أن تنسحب بدون حاجة، كذلك من الحماقة أن تكون جسوراً بدون حاجة، تبصر أنك في مرتين كنت قادراً على أن تعلم كم من الشرور جاءت من كل مناسبة، ولا تحاول مرة ثالثة، أيها السيد النبيل، لا يمكن بسرعة اصلاح الأمور وترميمها حسبما ترغب». لقد كان هذا ما قاله الامبراطور لكن الآخر أجابه: «بدلاً عن ذلك، يشعر الهنغار الآن بالخجل، لانغماسهم بالخيانة»، وهكذا تبدلت الروح التي استولت عليها الشهوة مرة، وأوقفت كل نقاش في اتجاهها.

وبعدما رفض قبول [المساعدة] لهذه الأسباب، ترك الامبراطور هناك نقفور كالوفيس Chaloupes مع جيش لمصاحبة ستيفن، وليتولى معالجة كل ما يمكن أن يحدث، وعاد هو نفسه إلى الأراضي الرومانية، وبعد مضي مدة وجيزة [١١٦٤] علم الملك الهنغاري أن ستيفن ما يزال في هنغاريا، فقام بجمع المزيد من القوات، وبادر مسرعاً لتقدير مصير كل شيء بوساطة القتال، وحدث في الوقت نفسه أن عدداً كبيراً ممن كانوا مع ستيفن [الرابع] تخلوا عنه والتحقوا بالملك، وهكذا تركوه مجرداً من كل جانب، وعندما علم كالوفيس بهذا، عرض عليه خطة قضت أن

يقوم بمغادرة هنغاريا وأن يأتي إلى سيرميون، وبما أن تلك المنطقة كانت واقعة تحت سيطرة الامبراطور، فسيكون ممكناً له — كما قال — أن يقوم بما يريد دونما عاقبة، ولكن بما أن الرجل رفض بثبات، فقد خطط كالوفيس ونفذ الخطوة التالية: لقد تظاهر أن رسالة وصلت إليه من الامبراطور، فزحف نحو الدانوب من أجل مقابلة الذين حملوا الرسالة إليه، والذين كانوا لخوفهم من الهنغار مقيمين في مكان ما على محاذاة الدانوب، وعندما وصل إلى هناك، عبر ومضى إلى سيرميون، وبعد وقت قصير وصل ستيفن إليه ملتجئاً وذلك بعدما كاد أن يؤسر من قبل الأعداء، وعندما سمع الامبراطور بهذا أرسل جيشاً معتبراً إلى سيرميون، لكي يتولى — من جهة — حماية المنطقة (لأنه عامل الهنغار بشيء عظيم من الريبة، وكان يخشى أن يثوروا ثانية)، ومن جهة أخرى بحجة تأمين الأمن لأتباعه، ولبذل الجهد في سبيل سلامة ستيفن، وقاد هذه القوة ميخائيل الذي كنيته غابراس (٣٠) Gabras ، وبما أنه كان زوجاً لإحدى بنات أخيه فقد حمل لقب سيباستوس.

وحمل الامبراطور ذراع القديس بروكوبيوس، الذي كان قد أخذه من سيرميون، وأعادته إلى بقية الجسد في الكنيسة في نيسوس، وكانت هذه الذراع قد فصلت عن بقية الجسد منذ وقت طويل مضى للسبب التالي: كانت أمة الهنغار قد استولت مراراً على الأراضي الرومانية، وكان هؤلاء الهنغار قد استولوا على سيرميون قبل حكم ألكسيوس كومينوس بوقت قصير، وعندما استعبدوا كثيراً من مدن الدانوب، وصلوا إلى نيسوس، فوجدوا هناك جثة الشهيد المقدس، وقدروا — كما أعتقد — أنه كان عملاً غير انساني القيام بحمل الجسد كله، ولذلك اكتفوا بقطع الذراع ومن ثم غادروا، وعندما وصلوا إلى سيرميون، تركوا الذراع هناك في كنيسة الشهيد ديمتريوس، التي كان قد بناها الذي حكم في متقدم الأيام مقاطعة اليركيوم Illyricum ، وعندما اكتشف الامبراطور

الذراع هناك، حملها، وعاد بها — كما ذكرنا — مسرعاً ليضمها إلى بقية الجسد.

٩- كانت هذه الأشياء قد حدثت وأنجزت من قبل الامبراطور ضد الهنغار في ذلك العام، كما أنه أرسل ألكسيوس ابن الدمستق [أكسوكوس Axouchos] الذي كان — كما ذكرنا — قد تولى مراراً منصب البروتونوتاريوس Protonotarios ، أرسله إلى كليكية، مع حملة معتبرة، وعينه قائداً عاماً مسؤولاً عن الصراع هناك (٣١) [١١٦٥]، ذلك أن نور الدين أتابك حلب، كان قد ارتفع شأنه نتيجة الانتصارات المتقدمة، فبات يحدوه الأمل في أن يسيطر حالاً على أنطاكية، وكذلك كان طوروس المتسلط على الأرض هناك، قد استولى غدرًا على كثير من المدن الإيزورية مما كان خاضعاً للامبراطور، ذلك أنه كان معادياً لأندرونيكوس يوفوربينوس Euphorbenos ، ابن ع — الامبراطور، الذي كان آنذاك حاكماً لكليكية، فقد اتهمه طوروس بأشياء كثيرة، ولامه بشكل خاص لقتله [١١٦٢] أخيه ستيفن [سديفان].

لقد كان هذا ما حدث هناك.

وكانت قوة فردريك ملك ألمانيا تتقدم لحظة فلحظة وتتصلب كثيراً، لأنه تدبر أشياء كثيرة ومتنوعة في سبيل استقرار الدولة، ولا سيما في سبيل تأمين المال، وهو شيء لم يكن بالعادة من قبل، فقد استولى على ميلانو، وهي مدينة شهيرة [١١٦٢]، وهزم أمة الليغوريين أو اللومبارديين، ثم تابع المزيد من التقدم، فزحف إلى أقصى أجزاء الغرب، وهذا الذي كان من قبل غير قادر على الحاق الهزيمة أثناء القتال بالذين كانوا على مقربة منه، استطاع إثر ذلك الاستيلاء على المناطق البعيدة كثيراً، فأخضع روما نفسها في الحرب (٣٢)، ولهذا شعر الامبراطور مانويل نفسه بالقلق، وأخذ يبحث عن الوسيلة التي يوقف بها تقدمه، خشية أن يجعله نجاح غير

متوقع يقدم على الالتفات ضد الأراضي الرومانية، التي نظر إليها منذ زمن طويل مضى بأعين جشعة، ولهذا أرسل سراً بعض الأشخاص غير المعروفين إلى الأمم هناك، وإلى المقيمين داخل خليج إيونيان Ionian [البحر الأدرياتيكي]، وأمرهم بتذكيرهم بجشع فردريك الذي لا ينتهي، وليشيرهم لمقاومته، وبعث إلى شعب البندقية نقفور كالوفيس مع مال ليكسب مشاعر أولئك الناس نحوه، وليوجه الأمور هناك لصالح الرومان.

وكان فردريك بعدما أخضع روما قد أحدث تغييرات كثيرة، خاصة بازاحة الاسكندر [الثالث] عن عرشه، ذلك أنه كان الأسقف هناك، ووضع مكانه أوتافيانو (٣٣) Ottaviano وبذلك كان يمكنه — كما اعتقد — جعل نفسه مساوياً بالمرتبة امبراطور الرومان، لأنه مامن أحد — باستثناء امبراطور الرومان — مخول بتسمية أسقف لروما، وعندما أزيلت هذه العادة بسبب اهمال أباطرة بيزنطة، مامن واحد أقدم على إقامة أية أسقف في روما، بل كان ذلك يتم من خلال مجمع ديني خاص يضم حكومة الكنيسة وأعلى رجال الكهنوت رتبة [يعني الكرادلة] في روما، وكان فردريك، قد رنا بناظريه من قبل نحو منصب امبراطور، ولدى توليه تعيين الأسقف، بدا وكأنه يمتلك مسوغات هامة ومعطيات لنيل هذا المنصب، فلقد كسب إلى جانبه عدداً من الأساقفة، وظهر أنه مقبل على نيل ما أبدعه من خلال مجمع ديني، أما بالنسبة إلى الملوك الآخرين، فقد بدا هذا أمراً ليس مرضياً، لكن مامن واحد كان قادراً على مواجهة فردريك، الذي صعد إلى أعلى درجة من القوة، باستثناء أن الامبراطور كان قادراً على اعاقته بالمال وبطرق مبدعة أخرى لخدمة هذا الغرض، فقد أعاد تثبيت الاسكندر على عرشه، غير أن هذا حدث فيما بعد.

وعندما وصل كالوفيس إلى ايبيدامنوس Epidamnos ترك معظم المال الذي عهد به إليه هناك، ومضى إلى البندقية بوساطة سفينة، لاقت

ريحاً طيبة [حوالي ١١٦٦]، وعندما جاء ليتحدث إلى الدوج في تلك المنطقة [فيتالي ميشيلي الثاني] وإلى بقية الأعيان وسط ذلك الشعب، خاطبهم قائلاً:

«لا يفكرن أحد أيها السادة أنني قدمت إلى هاهنا من عند الامبراطور خوفاً، أو خشية أن المشاعر الطيبة لديكم نحو الامبراطورية الرومانية يمكن على الاطلاق أن تتخلى عنها نباهتكم، فأنتم لستم أدنياء بمثل هذه الدرجة، ولا غير جديرين بأصلكم، ولم يخطيء الامبراطور في رأيه فيكم، لكن بما أنه — باستثناء الخاضعين لسلطانه — مطمئن تجاه حسن نواياكم، قرر أن يمدّ عواطفه الملكية الأمينة نحوكم، وبما أنه من العار استغلال الرعايا المزدهرين، ورفض انقاذ الذين يعانون من المصاعب، ولأنكم مع آخرين ممن يشارك في المشاعر الطيبة للامبراطور قد تعرضتم للخطأ من قبل فردريك، الذي لشدة رغبته بالسلطة قد جهد أن يغير بدون توقف ما تقرر منذ زمن بعيد وصار عادة، ولهذا أرسلني إليكم، كما ترون، لأزودكم بكل شيء يمكن أن ترغبوا بالحصول عليه منه، فبمساعدة الامبراطور توليتم بأنفسكم الصراع ضد فردريك في ميلان، وأنتم تعلمون كيف انتصرتم عليه، ولهذا بات يحمل الحقد على الامبراطور، وثقة منه في نجاحه غير المتوقع يطلب شيئاً غير لائق، إنه يطلب أن يحمل لقب امبراطور الرومان، وهو لا يعلم أن نجاحات الحظ غير المتوقعة تتبدد بالعادة بسرعة وتختفي، لأنها لم تقم على قاعدة ثابتة، إن هذه هي الأسباب التي جئت من أجلها إليكم، ويتوجب عليكم مراعاة التنفيذ الفعلي لما وافقتم عليه مؤخراً عندما راسلتم البلاط الامبراطوري، فلقد قلت إن مدن الليغوريين [أي اللومبارديين] المجاورة ستساندنا إذا جاء أحد من بيزنطة ليشترك في المهمة معكم، وهذا — كما ترون — قد وقع». هكذا تكلم نقفور، ورحب البنادقة بكلماته، وتعهدوا بتنفيذ كل شيء، وفي الحقيقة انضمت كريمونا وبادوا وكثير من المدن

الشهيرة الأخرى في ليغوريا إلى الامبراطور، وكان هذا ما أنجزه الامبراطور في ايطاليا، لكن ليس بشكل مكشوف، فقد كان ما يزال يرغب في اخفاء كراهيته نحو فردريك.

١٠ - واستولى [اسطفان الثالث] ملك الهنغار مجدداً على سيرميون وانتزعها من الرومان وتمسك بها، وادعى ملكية زيغمينون نفسها [١١٦٥]، وعندما علم الامبراطور بهذا كتب له كما يلي:

«أيها السيد النبيل، انك لا تتصرف بشكل عادل، فقد استخففت بالأيمان التي سلف أن أقسمتها لجلالتنا فيما يتعلق بسيرميون وأماكن أخرى، وخرقتها، (ويحتاج البرهان على ما قمت به إلى كلام طويل) وما لم تقم بالانسحاب بسرعة مما ليس عائداً إليك، فإنك لن تحقق شيئاً كثيراً بالاستيلاء على سيرميون لأنك سوف تعاني من ذلك قريباً، وذلك عندما تحتاج القوات الرومانية بلادك كلها من جديد بقوة السلاح، فهل نسيت كم من آلاف المرات قد انتزعت هنغاريا من أبيك، عندما تخاصم منذ زمن بعيد مع الدولة الرومانية؟ الاعتذار عما اقترف هو سبيل خلاصك: فكر بهذا وإلا فإنك لن تستفيد حتى من اعتذاراتك المتقدمة، وسيف العدالة التي شحذ من قبل خلال عدد كبير من السنوات تحول بالحقيقة لأن يكون مظلماً، خلال عدد مساو من السنوات، لكنني أعتقد أنه لا يمكن للمرء أن يتجنب حده قبل الآخرين»، هكذا كانت كلمات الامبراطور وعباراته، لكن ستيفن أهمل هذه الكلمات، ورجع إلى الطريق نفسه، ولهذا استعد الامبراطور بكل وسيلة لقتاله، لابل حتى رغب في إعادة اعطاء العرش إلى عمه الشقيق ستيفن [الرابع]، وهذا أمر لم يفكر به من قبل.

ووصل بالحقيقة إلى دولة روسيا رجل اسمه مانويل، يعود بنسبه إلى الكومنيني [حوالي ١١٦٥] ليذكر حاكمها بالاتفاقية التي كان قد عقدها

من قبل مع الامبراطور وأكدها باليمين، بالاضافة إلى لومه لصدافته مع ياروسلاف Iaroslav [أوسموميس Osmomys] حاكم غاليشيا، لأن ياروسلاف خرق تعهداته نحو الرومان في عدد كبير من المسائل، ولاسيما في استقباله أندرونيكوس والاحتفاء به بشكل ينم عن الصداقة، وعن أندرونيكوس هذا سوف نتحدث ملياً، فقد جاء إليه ملتجئاً بعد فراره من السجن في القصر، حيث كان مسجوناً — كما أعتقد — لمدة تسع سنوات، وفيما يتعلق بالحقائق حول فرار أندرونيكوس، هذا ماسأحكيه الآن:

١١ - وكان في وقت متقدم مضى قد فرّ من السجن بطريقة رائعة، لكن القدر كما أعتقد كان مايزال يتطلب العقوبة لما كان قد اقترفه، ووضع دون جهد هذا البائس في أيدي مطارديه، فقد روي أنه عندما وصل إلى نهر سانغاريوس Sangarios [ساكاريا Sakarya] اضطر بسبب البرد الشديد إلى الدخول إلى كوخ حقير، لكن مالبث أن لوحظ من قبل الرجال هناك، لأنه كان بطبيعته دائم الحركة، وبدأ حاداً إلى حد ما ومخيفاً، وبسبب أن الحركة الداخلية ظهرت كما أعتقد، وباتت مسموعة في الخارج، قام الفلاحون بتطويقه، وعلى الرغم من انكاره وتأكيد أنه ليس أندرونيكوس، ربطوه وذهبوا إلى بيزنطة، وأخذوه معهم، ومرة ثانية تولت القيود والزنزانة حبسه.

ثم قام أخيراً بطبع المفاتيح على الشمع، وأرسلهم مع أحد المساجين إلى زوجته وابنه [١١٦٤]، وباستخدامهم لبعض المتآمرين الآخرين صنعوا المفاتيح من الحديد وأرسلوهم له، وبعدما استلمهم، وعند غروب الشمس، وهو وقت كان متفقاً عليه، وبعد أن انتظر غياب الحراس خرج، وكان هناك ساحة ماء لها سور، فهناك كان مسجوناً، وكان هناك بحكم أن المكان نادراً ماطرق، بعض الأعشاب التي نمت بكثافة وطول شديد، فركض هناك، وخبأ نفسه مثل الأرنب، بإلقاء نفسه في أصغر

بقعة ممكنة، وبما أن الوقت بات ليلاً، كان على حرسه الليلي المعتاد القيام بتطويق السجن، وقام الذي عهد إليه من قبل الامبراطور بالاشراف على ذلك بمركزة الحرس، وهزبيده القضبان، حسب عاداته اليومية قبيل ذهابه إلى الفراش، وكان هدفه تفقد الوضع ومعرفة فيما إذا كان أي تخريب قد وقع، وعندما لم يجد أي تخريب على الاطلاق، ترك المكان وذهب إلى النوم، وكان أندرونيكوس قد خشي أن يجد كلادون (كان هذا اسم الرجل) الباب مفتوحاً فيشرع على الفور بالبحث عنه، أغلق الباب وغادر بسرية وأمان.

وعندما حلّ منتصف الليل، ذهب إلى أقصى جزء من الساحة هناك، حيث نهاية السور المشرف عليها، ولم يكن السور مرتفعاً جداً هناك، بل ما يكفي فوق الماء هناك، وكان البحر عندما يرتفع بقوة الريح غالباً ما يضربه بمائه بعنف، وربط هناك حبلًا قصيراً وأمسك به وتدلى إلى الشاطئ، وهناك واجهه الحظ لوقت قصير بوجه عبوس، ثم ابتسم له وأطلقه وتعطف عليه، ذلك أنه كان خجولاً بعض الشيء، ويمزح كما هو واضح، فقد كان هناك واحداً من الحرس الذين اعتادوا على الإقامة في الأبراج، وكانوا يداومون الحراسة بالصراخ من أحدهم إلى الآخر بالتناوب مع التفوه بالكلمة المتفق عليها، فعندما رآه هذا الحارس اقترب منه وطلب منه أن يعلن عن هويته، فأجابه السجين بأنه كان واحداً من الذين يقفون في القصر عند الـ Papicas (٣٤)، لأسباب مالية، وقال له: «إذا تركتني أذهب، فهذا سيكون معروفاً وفضلاً منك نحوي»، وفيما هو يقول ذلك سحب التميمة من حول صدره وأراه إياها، وعندما رأى الآخر (الذي كان فلاحاً ويتصارع بشكل مستمر ضد حقائق الفقر) الذهب يلمع أمام عينيه، أخذ التميمة وترك أندرونيكوس يذهب، ووصل بالوقت نفسه إلى القارب الذي كان موضوعاً بالقرب من المكان، وكان معداً لنقله، وحملوه بالقارب، وأوصلوه إلى البيت، وهناك فكوا

القيود التي ربطت قدميه، ثم قام مجدداً بالصعود إلى ظهر سفينة، أفلعت به، وأبحرت إلى خارج الأسوار، وهناك وجد الخيول التي كانت معدة من أجله، فامتطى أحدها وغادر هارباً، وهكذا بعدما هرب أندرونيكوس من السجن، مضى إلى روسيا، والآن ينبغي أن تعود روايتنا إلى موضوعها المتقدم.

١٢- وللأسباب السالف ذكرها جاء مانويل إلى بلاط بريميسلاف، وطلب منه قوات حليفة للرومان، لأنه بعث إليه وإلى روستيسلاف الذي كان أيضاً حاكماً في روسيا للبحث في عقد تحالف (٣٥)، وفي الحقيقة نجح في غرضه، وكانا على درجة عالية من السرور لأن الامبراطور استخدم مثل هذا الرسول وبعثه إليهما، وقد وعدا بتلبية كل شيء يطلبه الامبراطور، ولم يغفل الامبراطور بهذه المناسبة ياروسلاف [صاحب غاليشيا] بل أشاره للحرب ضد ستيفن بعدة وسائل وسبل، فقد كتب إليه كما يلي: «إننا لن نقلد انعدام عواطفك نحونا، باهمالك الشروط والمعاهدات التي أقسمت عليها من قبل، بل سأضع أمام ناظريك حقائق أذاه بسبب أنك تخاطر في أن تغضب وتثار إلى أقصى الدرجات، قدر أنك مزوج ابنتك إلى ملك هنغاري ضعيف الأخلاق ومريضها، وفي الحقيقة غير ثابت في أغراضه: فهو لا يقدم أي احترام على الإطلاق للعدل والصدق، وأعتقد أن أي شيء يمكن بسهولة أن يصنع من قبل انسان مهمل بالطبيعة، ويعمل بشكل عام ضد القوانين، وبناءً عليه لن يتزوج ستيفن من ابنتك، ولن يفعل أي شيء قانوني نحوها، لابل حتى إذا تزوجها فإنه سيعاملها مثل إحدى الماشيات في الطريق، لأنه على هذه الصورة سبب المضار لجلالتنا، وبلا حياء لم يرع أياً من الأيمان التي أقسمها منذ زمن وجيز، بحجة المزاح، قدر مايمكن أن يفعله لك من أعمال غير انسانية»، وأصغى بريميسلاف (٣٦) إلى هذه الكلمات بنوع من السذاجة البربرية، وكان على الفور عظيم الغضب، وقد عدّ صهره عدواً،

ووافق على مساعدة الرومان الذين كانوا يقاتلونه بأي طريقة ممكنة.

ويوجد في روسيا مدينة اسمها كييف، كانت متفوقة على كل مدينة موجودة هناك، وقد عدّت بمثابة عاصمة لاهوتية لتلك الدولة، وجاء إليها أسقف من بيزنطة، وكانت تدعي السلطة على البقية، لأنهم ألصقوا بها شرفاً خاصاً ومنزلة عالية، ووافق حاكم هذه المنطقة على مباشرة الحرب ضد ستيفن، وأكد معاهدته بالأيمان (٣٧).

وفي الوقت الذي حدث هذا فيه، علم فردريك ملك الألمان، أن الامبراطور يعارض بشدة أعماله في الغرب، لذلك قرر إزالة خلافتهما، وأقام سلاماً مع الرومان، واتفق هو شخصياً مع الامبراطور على ائثار الحرب ضد ستيفن، ولم يشأ هنري، الذي غالباً ما قلنا [كذا] أنه تزوج من ثيودورا ابنة أخي الامبراطور، أن يكون غائباً عن هذا الصراع (٣٨)، وكان هناك أيضاً جيشاً كبيراً من الكومان والصرب الذين كانوا من رعايا الرومان، وقام السلطان، طبقاً لموافقته بارسال قواته الحليفة، وهكذا تجمعت قوة جبارة من كل جانب.

وجاء في الوقت نفسه فالديسلاف — وكان من الشخصيات الرئيسية في روسيا — ملتجئاً إلى الرومان ومعه أولاده وزوجته وقواته كلها، وقد تمّ منحه ممتلكات على طول الدانوب، وهي الممتلكات التي سلف للامبراطور أن أعطاها إلى اللاجئ فاسيليكا بن جورج، الذي كان يتمتع بمكانة رئيسية بين الزعماء في روسيا (٣٩).

ووافق البنادقة أيضاً آنذاك على مساعدة الرومان باسطول فيه مائة سفينة حربية للصراع بالبحر، وبذلك جددوا معاهداتهم السالفة مرة ثانية، وبالإضافة إلى هذا قدموا تعهدات بالمحافظة على معاداة فردريك ملك الألمان وببقية المناطق الغربية طوال حياته إذا ما أثار الحرب ضد الرومان.

١٣- هكذا سارت الأمور فيما يتعلق بالغرب، وكان بلدوين [الثالث] ملك فلسطين الذي تزوج ابنة أخي الامبراطور (٤٠)، قد هلك وزال من بين البشر [١١٦٣]، ولأن حياته انتهت دون أن ينجب ولداً، انتقلت الملكية إلى أخيه [عموري الأول]، وفور اعتلائه العرش بعث إلى الامبراطور يسأل الحصول على عروس من بين الرومان، واستهدف بالوقت نفسه معرفة موقفه فيما يتعلق بالوضع في أنطاكية، وبحكم أن الانطاكيين كانوا بطبيعتهم خرقه للأيمان، قد عادوا إلى بلدوين في فلسطين، وتمكنوا بذلك وبتدبير أمورهم بأنفسهم وفق ارادتهم، تمكنوا من تأمين حكومة مدينتهم (٤١)، وكان عموري يعرف أن المدينة كانت خاضعة إلى الامبراطور، لذلك ارتأى أن يتعرف إلى الأمور منه أولاً، وقد أجابه مانويل كما يلي: «بالنسبة للطلب المتعلق باقامة وشائج القرى بالزواج، وبما أنك ترغب بالحصول على عطفنا، إن مطلبك سيلبي قريباً، لكن فيما يتعلق بمدينة أنطاكية، فقد كانت قديماً تابعة ضرائبياً إلى الرومان، وهي الآن خاضعة لجلالتنا، وسيكون من غير الممكن مادامنا أحياء بالنسبة لك أو لأي انسان آخر أن يمارس أية سلطة عليها، وعندما سيتلقى شعب أنطاكية العقوبة من جلالتنا بسبب كفرهم تجاه الرومان، سيعرفون وقتها مع من تجرأوا على الاختصام»، لقد حوت رسالته هذه المواصفات، وحيث أن عموري قد خاب أمله بالنسبة لأنطاكية، زاد بذلك من ضغطه في سؤال الامبراطور حول رباط زواج، وقام بعدما تزوج إحدى بنات [جون كومينوس] البروتوسيباتوس، بدوره أيضاً بالتعهد بالقسم إلى الامبراطور، مثلما فعل أخوه بلدوين من قبل.

وبما أن الامبراطور لم يكن قد أكمل بعد استعداداته للصراع الذي أمامه، خشي كثيراً على مدينة زيغمي Zeugme ، التي كانت محاصرة من قبل ستيفن [الثالث]، وأرسل قبل أن تنشب الحرب الشاملة في جميع المناطق، جيشاً متميزاً لمساعدتها، وكان تحت قيادة الأميرين

ميخائيل غابراس وجوزيف بريننيوس، وكان تحت قيادتهما آخرين من أكثر المتميزين بين الرومان، منهم جون الذي كنيته أنجيلوس، وكان رجلاً صاحب خبرة عسكرية، وجون ايسس [عيسى] (٤٢)، وهو تركي من حيث المولد، شارك الرومان في النشأة وطرائق الحياة، ورغبة من الامبراطور في ضمان المدينة أكثر، ملأ عدداً كبيراً من السفن بالجنود والمؤن، وأمرهم بالابحار عبر طريق الدانوب، بغية تزويد الشعب في داخل المدينة بالضروريات، وذلك حتى يتمكن هو نفسه من الوصول إلى هنغاريا مع الجيش كله.

وأضاع الهنغار كثيراً من الوقت حول أسوار [زيغمينون]، وبعدما حاولوها مراراً أدركوا أنهم كانوا يحاولون شيئاً مستحيلاً (لأن السفن الرومانية التي كانت راسية على مقربة من شاطئ نهر الدانوب، قدمت الكثير من المساعدات إلى الرومان في الداخل، يضاف إلى هذا أنها نقلت الرجال الذين عانوا من الجراح أثناء القتال، وعوضتهم برجال أصحاب الأجساد)، أما الهنغار أنفسهم فقد جمعوا عدداً من المراكب، وذلك قبل وصول قوة غابراس وبريننيوس إلى هنغاريا، وبادروا مسرعين مندفعين ضد السفن الرومانية بهدف اغراقها، وبالتالي الانتصار في المعركة بسهولة، ومع ذلك فقد تبرهن أنهم أقل شأناً بوساطة هذه المحاولة، وكانت سفنهم أقل سرعة من السفن الرومانية، لأنها لم تكن ببراعة، ولأنها تتسع بشكل غير اعتيادي في الوسط، وعندما انطلقت عبر النهر، قام الرومان الذين شكلوا نمطاً من صفوف الاقتتال، باعتراضها وسط المجرى، ورموها مراراً بالنار بوساطة النشاب، وقد أعاقها هذا، فبعض السفن دخلته المياه، وانسحب البقية إلى مقربة من شاطئ النهر وبذلك تجنب الخطر، لكن إحدى السفن، وكانت مليئة بالرجال الذين شغلوا مناصب قيادية بينهم، أصبحت فريسة للرومان عندما أصابوها بالنار الاصطناعية.

وبما أن الهنغار كانوا غير موفقين في هذه المحاولة، فقد تحولوا إلى شيء آخر، فقد أفسدوا بوساطة المال بعض الهنغار الذين خدموا ستيفن [الرابع]، وأقنعوهم بتقديم شيء مميت للرجل، ولذلك جرى الاستيلاء على المدينة، وغدت سيرميون مجدداً خاضعة للهنغار [نيسان ١١٦٥]، ولم يتعرض الرومان والهنغار الذين كانوا في الداخل، والذين وقفوا إلى جانب ستيفن [الرابع] للأذى، لأنهم تخلوا عن المدينة بشروط على هذا الأساس، وبعدما انتصر الهنغار على جثة ستيفن، لم يقدموا للميت الطقوس المقدسة، ولم يروا أنه يستحق تقديم أي شيء قانوني آخر، وكل ما فعلوه أنهم رموا الجثة أمام أبواب المدينة، وجرموها بابقائها غير مدفونة، ثم تحركوا فيما بعد بدافع طبيعي، فنقلوها إلى كنيسة الشهيد ستيفن، ووضعوها في قبر (٤٣).

١٤ - عندما سمعت الامبراطورة بهذا، أصيبت بمرض خطير، أما هو نفسه فقد تجاوز ذلك كالعادة بحماس شديد، وانطلق نحو الحرب، ولدى وصوله إلى سرديكا، عاصمة الإليريين، جمع جيشاً هناك، وانطلق مع آخر أيام حزيران [١١٦٥] وذهب إلى الدانوب، وفيما هو ذاهب للجواز عمل كما يلي: مركز الجزء الأفضل تسليحاً من جيشه والذي كان مستعداً للقتال أمام كرامون (٤٤) Chramon وهي مدينة هنغارية، معطياً بذلك توقعات بأنه سيقوم بالعبور من هناك، وبناءً عليه عندما لاحظ أن القوات الهنغارية تركزت في الجانب الأقصى المقابل، انطلق إلى بلغراد، وقام عند الفجر بالابحار عابراً من هناك (٤٥)، وبذلك قسم العدو إلى عدة أقسام، ذلك العدو الذي خطط لمواجهة موحداً.

واستبد بالرومان حالة من الرعب الشديد، وهم يقومون بالعبور، ولدى ملاحظة الامبراطور نفسه ذلك، قام كما تجرأ غالباً من قبل، بدخول عبارة قبل الجميع وأسرع نحو الشاطئ الآخر، وبناءً عليه نجح الجيش الروماني لدى رؤيته اندفاع الامبراطور، فتابع السير نحو المراكب، وعندما

رأى الهنغار أن الامبراطور قد عبر، تخلوا عن تشكيلاتهم، وانسحبوا، ثم انه لدى رسو الامبراطور على الأرض العدو قفز أكثر مما ينبغي (لأن عدم عمق الماء، لم يسمح للسفينة بالرسو على أرض جافة)، وتجاوز حده، فلوى إحدى رجله بشدة، ولم يرغب في التخفيف من حماسه، بل سارع إلى إحدى فجوات النهر، حيث أمضى النهار متألماً، وازداد القسم المجروح من الرجل انتفاخاً وتورماً (٤٦).

وركض عدد كبير من البرابرة الذين كانوا متمركزين في زيغمي Zeugme وغادروا الأسوار، واتخذوا موقفاً أمام [الرومان]، لكن ما ان رأوا الامبراطور، حتى أسرع كل واحد منهم سابقاً الآخر بالفرار، وبشكل فوضوي وبصخب شديد اندفعوا مسرعين للدخول عائدين إلى المدينة، ولم يتجروا على الخروج منها، ثم استعد الرومان للحصار، وأنشبوا في اليوم الثالث القتال، وملاً البرابرة الذين دافعوا من فوق الأسوار الهواء بصراخهم، وبأصوات غير مميزة، واستمروا بالرمي وتلقي الرمايات، واستهلك هذه النشاطات ذلك اليوم واليوم الذي تلاه، ولم يربح خلال ذلك لا الرومان ولا الهنغار، ولقد تملكنتي الدهشة تجاه أشياء كثيرة صنعت أثناء هذا الحصار، وكان من الصعب عليّ تصديق التقارير التي تحدثت عن اقدام الامبراطور، لولا انني كنت حاضراً وشاهداً لما حدث، لأنه عندما بنى الرومان برجاً خشبياً، وعزموا على نقله نحو المدينة ليقاتلوا البرابرة المتمركزين فوق الأسوار يداً بيد، طلب أن يصعد البرج قبل بقية الرومان قائلاً: «أيها الرومان إنكم تستحقون شكري أكثر من أي انسان آخر، إذا لم تعيقوا صعودي»، ومع هذا لم تتحقق رغبته، فقد منعه القادة الرئيسيون الذين صحبوه بالقوة.

وقام بالدوران حول الأسوار، بحثاً عن مكان يكون مناسباً للهجوم، ونظراً لانعدام الحجارة أمر بطم الخندق الذي طوق المدينة، وكان عميقاً وعريضاً بالفضلات وأخشاب الحرق، وذلك بهدف تمكن الآلات الحربية

من العبور، لكن مامن شيء كان قد أنجز نحو السيطرة على المدينة، ذلك أن الهنغار، مع أنهم تعرضوا لضغط حاد من قبل العساكر الرومان، كانوا يصرخون أكثر من ذي قبل، وكانت لديهم آمال بأن الجيش الهنغاري الآخر كان على وشك الوصول إليهم.

١٥- وفي الوقت الذي كانت فيه الأمور معلقة على هذا الشكل، عاد الكشاف الرومان وجلبوا أخباراً تحدثت عن قرب وصول جيش كبير، وقد شوهد الغبار يتصاعد في معظم أجزاء الهواء، وأكد واحد من كبار شخصيات الهنغار، ممن التحق بالرومان واسمه فاساس (٤٧) Vasas، أن الملك الهنغاري لم يكن بعيداً، وهو يقود جيشاً يفوق الحصر، لاسيما بعدما التحق به الكومان وجيش روسي، بالاضافة — كما قال — إلى أن أمير التشيك قد عاد معه بكامل قواه، وعندما سمع الامبراطور بهذا، دعا إلى اجتماع ضم كبار الشخصيات، بهدف النظر في كيفية معالجة الوضع الحاضر، وقد خاطب المجتمعين قائلاً: «أيها السادة الرومان، إن النظام الطبيعي للأمور لا يكفي بشيء واحد فقط، أي لا يكفي أن يكون الانسان شجاعاً، بل ينبغي ألا يقاتل باندفاع أزمت لا يمكن تجاوزها، وأعتقد بشكل خاص، أنه عظيم الأهمية بالنسبة للمرء أن يتعلم قليلاً قليلاً السيطرة على الذات، ثم، بما أن تلك الدولة كانت ناجحة لبعض الوقت فيما مضى، بدوران غير متوقع للحظ، بشكل بات الأمر فيه صعباً بالنسبة للدولة الرومانية لمواجهة، علينا لهذا ألا نفكر أنه يكفي بالنسبة لنا اذا ما قمنا بالقتال فوق ترابها، بل علينا أن نستخدم ما هو موائم لكل مناسبة، وأن نقوم بالعمل الضروري والمفيد بالنسبة للحالة الحاضرة، ولاتفيد السياسات المعتادة ولا تناسب — كما أعتقد — للنجاح ولعدم النجاح، أما ما يتعلق بالملكة الرومانية — مع أنها لم تعد تتمتع بسعدها القديم الجيد — لكن (أقول بعون الرب) سوف تتمتع بحظ أعظم بفضل جهودنا كأبطال لها، وسيسيء إلى أمجادها اساءة تامة لدى تجنب

ملك الهنغار، الذي قيل إنه يقترب مع جيش محلي كبير، ومعه أكثر من ذلك قوات من المرتزقة جمعها بالمال، وعلى هذا إنه في سبيل الاحتفاظ بكل من الشهرة التي تحولت نحو الأحسن، والقوة التي ينبغي أن تنجو سالمة، علينا التشاور حول الجيد والممكن». لقد تكلم الامبراطور على هذه الصورة.

وارتأى بعض الرومان الذين كانوا بالاجتماع أن المناسب هو المغادرة والعسكرة عند سافا، حيث من هناك يمكن مواجهة الأعداء بدون خسائر، وكان آخرون غير مسرورين بذلك، وارتأوا أنه أفضل لهم ترك الحصار، والتوجه لمقاومة الأعداء الوشيكي الوصول، بكل قواهم، ولم يوافق الامبراطور على أي من الرأيين، ولذلك وصم أحدهما بالجبن، والآخر بالحماسة فقال: «من الممكن اننا عندما نترك الحصار أن تشكل قوة أكبر من الحالية، مع مايكفي من المؤن، يمكن نقلها إلى الهنغار الذين يشكلون قوة الحامية في المدينة»، وبدا الأفضل له أن يترك الجزء الأدنى نشاطاً من الجيش مع قوات الحشم بعد تسليحها هناك قرب المدينة، تحت قيادة بعض الضباط غير المهمين، في حين تذهب بقية القوات معه نفسه لقتال الهنغار الآخرين، وبما أن هذا الرأي هو الذي أخذ به، استعدوا للانطلاق في اليوم التالي.

لكن عندما لم تصلهم أية تقارير محددة، تسلحوا عند الفجر، وقادوا ثالث محاولة ضد المدينة، ومن جديد نشب القتال، ودافع الهنغار من فوق الأسوار عن أنفسهم ضد جيش الرومان بالحجارة والنشاب وأي شيء توفر لهم، وتمكن الرومان أكثر من قبل من لغم أساسات الأسوار، ودمروها ورموها بالحجارة من المنجنوقات، وكثيراً ما سمعت أصوات التشجيع والتحريض من على الجانبين، وكان هناك صراخ، وأصوات مرتفعة جداً، ثم سمع صوت هائل متميز، عندما لاحظ الهنغار أن بعض الرومان كان يستخدم عتلات عند الأساسات، فتصرفوا كما يلي:

كانت هناك حجرة كبيرة مرمية داخل الأسوار، فوضعوها فوق عوارض كبيرة من الخشب وربطوا حبالهم بالخشب، وسحبوها نحو برج خشبي صغير كانوا قد شيدوه فوق الأسوار، واستهدفوا من وراء ذلك رمي الحجرة على الرومان الذين كانوا هناك، وعندما وصلت الحجرة البرج لم يستطع تحمل وزنها (لأنها كانت كبيرة جداً)، وفجأة تحطم البرج الخشبي، وسقط نحو الأرض مع عدد كبير من الهنغار، الذين لم ينبج واحد منهم من الخطر، ومرة ثانية ارتفع الصوت الهادي، وحمي وطيس القتال أكثر، ثم لاحظ الامبراطور أن واحداً من الرومان كان يرمي بشكل دقيق جداً، فركض نحوه، ورفع ترسه أمامه بهدف إبقاء الرجل وحمايته من النشاب.

١٦ - وعندما لاحظ الهنغار أن أمورهم كانت بالفعل في وضع صعب، أرسلوا الامبراطور وترجوه أن يقبل تنازلهم عن المدينة له شريطة مغادرتهم دون أن يلحقهم أذى، وقال بالبداية بالرفض حتى يقوم غريغوري وبقية التروبان لديهم بربط حبال حول رقابهم وأن يقدموا إليه عراة الأقدام والرأس، وأعاد الرسل حاملين هذه الشروط، وزاد الروم من ضغطهم ياتلوا بحدة أكبر حتى استولوا على المدينة، وبعدما باتت مُستولى عليها بالكامل، وصل غريغوري مع بقية قادة الهنغار إلى الامبراطور بحالة سيرية، تتوافق مع الشكل المطلوب، لابل جاءوه على شكل متسولين، رأتاموا مناحة، ورفض مانويل لبعض الوقت النظر إليهم، وعلى كل حال، تدخل بينا فيما بعد، وبناءً على طلبه منع اعدامهم، غير أنه أرسلهم إلى السجن.

واندفع الرومان بغضب شديد إلى داخل المدينة، وذبحوا الناس هناك مثل الأغنام، مما جعلني أبكي تعاطفاً مع الحياة الانسانية، فكم من الشرور المؤسفة ربط هذا العرق نفسه بها عن طواعية، وحملت الأشياء الثينة والثياب والمصنوعات الفضية، ونهبت بضائعهم، وقام حتى

المقاتلون العراة وغير المسلحين بحزم كل واحد منهم نفسه بسلاح العدو، ثم وجدت امرأة عجوز تعيسة، كانت مصابة بسهم خرق قاعدتها، فلما إذا حدث هذا، هذا ماسأحكيه على الفور: عندما كانت المدينة غير مستولى عليها بعد، وقفت على أعلى الأسوار، ورمت بالقاذورات نحو الأسفل، وصدف انها سحبت ثيابها، ودارت حول نفسها، عارضة مؤخرتها على الجيش الروماني، وهي تغني ببعض التفاهات بلا نهاية، وفكرت في أن تلقي سحراً تربطهم به، غير أن واحداً من العساكر أطلق سهماً نحوها أصاب مؤخرتها ونفذ إلى المكان الموجودة فيه القناة التي تحمل البراز.

وشبيه بهذا، وجد واحد من الرومان كان يعاني من السجن، ذلك أنه مسجوناً في زنزانة سيئة وبلا ضوء للسبب التالي: عندما أخذه الهنغار أسيراً، ولأنه كان معروفاً ببراعته بالرماية، أرغموه على الرمي على الرومان من خلف السور، وكان هذا العمل مضاداً لرغبته، ومع ذلك سمح بذلك عن ذكاء، وعمل على ألا يصيب أحداً، وعندما لاحظ الهنغار هذا، ضربوا الرجل مراراً على ظهره، ووضعوه في سجن محكم الاغلاق.

وهكذا أخذت زيغمي ثانية، ووقتها عمل بعضهم أغمالاً شجاعة بارزة، غير أن أندرونيكوس لم يكن أقلهم (٤٨)، لأنه عندما رأى الرومان يتسلقون الأسوار بوساطة سلم، ذهب إلى أندرونيكوس ابن عم الامبراطور، وكان موضوعاً تحت قيادته، وذلك بعدما عاد هذا الأخير من روسيا واستقبل بكرم من قبل الامبراطور، وطلب أندرونيكوس من قائده أندرونيكوس أن يسمح له بمحاولة التسلق، وعندما سمح الأخير له، ذهب إلى هناك مسرعاً، وعندما حاول اللاتين الذين كانوا قادمين من الخلف جاهدين الذهاب متجاوزين له، اعترضهم بثبات، ولم يرغب أن يفقد فخاره، وبينما كان هذا يحصل، انكسر السلم بشكل مفاجئ، ووقع أرضاً، غير أن أندرونيكوس [دوكاس] تمسك بشجاعته المعهودة، ولدى

رؤيته بعض الرجال يعتلون سلماً آخر جلبوه، ركض وصعد عليه. وهكذا مضت الأمور هناك.

وكان الملك ستيفن [الثالث] قد وثق بأمن المدينة، (لأنه بالاضافة إلى أشياء أخرى كانت هناك قناة مغطاة تزودها بالماء من الدانوب، وكانت من قبل مكشوفة للهواء حتى وصولها إلى المدينة، ثم جعلت تحت الأرض من قبل الامبراطور، عندما كان متحالفاً مع ستيفن [الرابع] الأخير) ولم يصدق الملك خبر سقوط المدينة ولم يكن قادراً على تصور سقوطها بمثل هذه السهولة والاستيلاء عليها من قبل الرومان، وانتقل الامبراطور من هناك بسرعة، واسترد السيطرة على حصن آخر، أسكنه بسرعة كثيراً من الهنغار من سيرميون، ممن يعرف عادة باسم كاليسيو Chalisioi ، (وهم كما قيل هراطقة يجارون في عقيدتهم الأتراك ويوافقونهم) (٤٩١)، وما ان علم [ستيفن] بالأمر الذي حلّ تماماً بمدينة زيغمي، حتى بعث رسلاً إلى الامبراطور، وكانوا رجالاً من الارستقراطية، ومعهم واحد ممن شغل منصب أسقف، ووافق على إعادة تسليم سيرميون إلى الرومان، وذلك بالاضافة إلى دماشيا كلها.

وعندما رأوا الامبراطور، تلفظوا بما أمروا بالتلفظ به، وتعطفوا الامبراطور ورجوه الاقلاع عن غضبه، ورفض بالبداية قائلاً: «أيها الرسل، إنه بالحقيقة لأمر جدير بالتقدير، لو ظنّ حقاً أن هناك إعادة لهذه الأشياء التي سلبت من قبل، إننا الآن نمتلك سيرميون، وأعدنا الاستيلاء على زيغمي، كما اننا الآن سادة دماشيا، نحن سادة هذه الأماكن كلها معاً، فالذي تريدون اعطائه قد حرمت منه، وبناءً عليه هل هناك سيرميون أخرى؟ أو هل هناك زيغمي أو دماشيا أخرى، جئتم لاعطائنا؟!، إذا كان موجوداً، أرونا إياهما حتى نقوم بتسليمهما على الفور بأيدينا الفارغة، عارفين اننا لن نستطيع أخذهما وضمانهما بالنسبة لقوتكم (لأنكم لا تهتمون مطلقاً حول خرق القانون)، إننا —بفضل من الرب—

محتفظين بهما بوساطة قوتنا، مثل هؤلاء، وإذا كانت هذه الأشياء موجودة تحت سيطرتنا، فما من شيء قد بقي لتحدثوا عن اعطائه، فحول أي شروط ستكون الاتفاقية؟، أو ما الذي سيكون هناك لتبادلونهم معنا؟»، هكذا أجابهم في البداية، ثم غير عقله وقال: «لكن عليكم بعد هذا أن تعلموا أننا نرغب في أن نقيم سلاماً معكم بمثابة هدية منا إليكم، لأنكم مسيحيين، اقدموا، وأقسموا»، وكان هذا ما قاله الامبراطور، وبعدما أقسموا حول كل شيء، غادروا، ثم عاد الامبراطور إلى بيزنطة (١٥٠).

١٧- وسلم جون دوقاس، الذي أخضع دلماشيا، هذه البلاد إلى نقفور كالوفيس، وكان ذلك بناءً على توجيه من الامبراطور، وقد تقدم لمانويل ارسال [دوقاس] إلى هناك مع عساكر للاستيلاء عليها إما بالقوة أو بالاتفاق، وذلك بسبب أن الهنغار كانوا قد عينوا هذه البلاد بواسطة المعاهدة وجعلوها ميراثاً لبيلا، ولدى مروره ببلاد الصرب خرقها، وفي مدة وجيزة تحولت سلطات البلاد كلها إلى أيدي الامبراطور، ومدّت فوقها بالكامل، ثم أصبحت تروغير Trogir وسيبنيك Sibenik تحت السيطرة الرومانية، وذلك بالاضافة إلى سبلت Split ودولة كاتزيكوي Katzikoi وديوكليا Dioklieia، وهي مدينة مشهورة سلف أن بنيت من قبل الامبراطور الروماني ديوكليشيان Diocletian، وكذلك سكرادين Skradin وأوستروفريكا Ostrovica وسولين So-lin، والمدن الأخرى كلها القائمة في دلماشيا، وكان عددها كلها سبع وخمسين مدينة. على هذه الشاكلة سارت الأمور في دلماشيا.

وعاد الامبراطور — كما قلنا — إلى بيزنطة، فقاد موكب نصر من القلعة حتى كنيسة آيا صوفيا الكبيرة، واحتفل هناك بالصلوات والشكر، وأتحف رجال الكهنوت بشيء من الذهب وصل من الجزية التي أرسلت إلى الرومان من سيرميون، وإثر هذا استراح بالقصر، وكاد يفوتني أن أذكر، أن

عربة موكب ذلك النصر كانت قد صنعت من الذهب الخالص، وكان من المفترض أن يركب بها الامبراطور، لكنه لم يركب، جزئياً بسبب عدم رغبته بالتباهي ولتواضعه، ومن جانب آخر بسبب انه عندما جلبت الخيول التي كانت ستجر العربة، وربطت بالمقاود كانت جموحة جداً، وخشي من خطر انقلاب العربة.

ولم يمض وقت طويل حتى علم [مانويل] أن كل من الصرب ودولة الهنغار كانا ثانية يجهدان [في سبيل الثورة]، لذلك بادر مسرعاً إلى هناك لاستباق القتال، لكن ما إن سمعوا بقدوم [مانويل] حتى أقلعوا عن أعمال العدوان، وحافظوا على المعاهدات بشكل تام.

الكتاب السادس

وشرف الامبراطور أندرونيكوس —الذي عاد كما ذكرنا من روسيا— وأولاه كل أنواع العطف وقدم إليه كميات من الذهب، وبعث به إلى كليكية ليعالج الأمور هناك ويحقق الاستقرار [١١٦٦]، ومن أجل أن يتمكن من الانفاق والبدخ، منحه ضرائب قبرص، ومكث في المكان المعين له قليلاً من الوقت، ثم قام بجعل فيليبيا [الأنطاكية] خطيبة له وزوجة، وهذا شيء لايسمح به قانوننا لأنها كانت أخت الامبراطورة، ثم تركها بدون أي سبب، وتحول إلى فلسطين [أوائل ١١٦٧] آخذاً معه كثيراً من أموال الامبراطور التي فرضها كضرائب وجباها من أراضي كليكية وقبرص.

والتقى هناك بشيودورا ابنة السيباتوكراتور اسحق، التي —كما ذكرنا— تزوجت من الملك بلدوين [الثالث]، والتي بعدما توفي وألت السلطة إلى أخيه، عاشت كأرملة في عكا، ولأنها كانت قريبتها، غالباً مازارها، وعقد محادثات خاصة مع المرأة، ومع الاستمرار بذلك أصبح مرتبطاً بها بشكل غير اعتيادي، بحب غير قانوني وغير مقدس، وبعدها جامعها وعاشرها حملها معه وذهب معها إلى أراضي المسلمين، وحملت منه وأعطته طفلاً فيما بعد، ثم إنه بعدما مرّ بعدد كبير من البلدان الأجنبية، دخل إلى الأراضي الشرقية للإيبيريين [الكرج=الجورجيين]، وذهب ثانية بعد وقت قصير إلى الأتراك وبصحبه المرأة، وقام هذا الرجل التعيس من هناك بغارات كثيرة ضد الأراضي الرومانية، وأخذ عدداً كبيراً من الرجال الأسرى، وحول أسلاب الحرب إلى الأتراك، ولهذا حكم عليه بالحرمان من قبل الكنيسة (١).

٢- وحدث في حوالي هذا الوقت [١١٦٠-١١٦٦] بحث بين البيزنطيين حول عقيدة المسيح، للأسباب التالية: كان هناك شخص اسمه ديمتريوس، وهو روماني المنحدر، جاء من لامب Lampe، وهي قرية آسيوية [قرب أتراميشن Atramyttion (٢)، وقد درس — كما أعتقد — قليلاً من الثقافة العامة مع شيء من التعليم العلماني، ولكنه أمضى بالعادة وقته حول العقائد المقدسة، وتحدث بشكل مستمر بحماقات لانهاية لها، وبما أنه أرسل مراراً رسولاً إلى الغرب وإلى الشعوب الإيطالية، عاد من هناك بكثير من الحماقات، وتورط في أشياء غريبة، ولم يستطع بشكل خاص الاقلاع عن العبث والانشغال فيما يتعلق بطبيعة الرب، وهو موضوع غير مسموح بالخوض به إلا للمختصين ورجال الدين الرئيسيين وبالدرجة نفسها للأباطرة بحكم منزلتهم ومكانتهم.

وإثر عودته في تلك الآونة من الأراضي الألمانية، أكد أن الشعب هناك قد اتخذ بشكل واضح موقفاً خاطئاً، وكان في إحدى المرات يتحدث مع الامبراطور، فأثار مثل هذه المسائل، وعندما سأل الامبراطور عما يعنيه هذا، قدم لدى اجابته عرضاً كاملاً لعقيدته، وجاء كلامه كما يلي: «هم يتجرأون على القول إن الشخص نفسه [المسيح] أدنى من الرب، ومساوياً للرب الذي أوجده»، وعندما قال الامبراطور: «لكن لماذا؟ أولسنا ندعوه رباً وانساناً؟»، فقال: «نعم»، فقال الامبراطور: «إذن نحن نوافق على أنه أدنى بالنسبة لئاسوته، ولكنه مساوي بالنسبة للاهوته، ونسمع أن المخلص يقول هذا الشيء نفسه، حيث قال في أحد الأماكن «أبي أعظم مني أنا» (٣)، وإذا لم يتوجب تطبيق هذا على الطبيعة [اللاهوتية] (لأن ذلك لن يكون موافقاً بالبتة) عندما من الضروري توجب تطبيق هذه المقولة على [انسان] آخر، وقد قيل إن كل منهما لا يمكن التفكير به، ولذلك إن عقيدة النوع البشري سليمة، وذلك حسبما عرف جلالتنا منذ وقت طويل»، وقال الآخر — على كل — ثانية: «ومع

ذلك إنهم يتكلمون بشكل مكشوف بدون تقوى»، وعلى هذا الشكل أنها المناقشة، لكن بعد وقت قصير وضع ديمتريوس أفكاره في كتاب قدمه إلى الامبراطور، وقال له مانويل: «إذا كان من الممكن دفن هذه الأشياء تحت الأرض، ادفنها على الفور، خشية أن تكون بها سبب تدمير كثير من الناس، لأنه بالنسبة للرأي القائم الآن، أنا متمسك به بشدة، ولا أعتقد أنه سيكون بإمكان أي كان أن يزعجني عنه بسهولة».

وعلى كل حال أصبح الآخر أكثر جرأة، ونقل أفكاره وأوصلها إلى الناس: إلى الأفراد، وإلى الجماعات، ثم أوصلها إلى عدد كبير من الأساقفة، وإلى الذين يشكلون طبقة اللاويين الذين ندعوهم شماسة، وعندما وجد كثيرين يوافقونه، تنفس الصعداء، وتكلم بشكل مكشوف ضد الذين كانوا بشكل ما أقل اهتماماً به، وقام بتطوير وتوسيع مناقشاته إلى حجم كبير، ولم يكن هناك أي واحد لم يتكلم آنئذ عنها وقام بالبحث والاستقصاء حول أي عمل حدث أن قام به، وعندما علم الامبراطور بهذا تردد، ثم اتجه نحو عرض المسألة أمام مجمع ديني للنظر فيها، وعامل القضية بشيء من الحذر، فلدى ملاحظته أن الغالبية كانوا تقريباً يميلون نحو موقف ديمتريوس، استقبلهم واحداً واحداً، ثم اثنين اثنين، ثم على شكل جماعة كبرى، ولقد تفحص الذين قالوا، وبذلك استطاع أن يحول كثيراً منهم إلى العقيدة الأخرى الصحيحة، وذلك لأنهم كانوا غير قادرين على المناقشة ضده.

ومع أنه لم يكن لديه خبرة في تداريب المنطق، استطاع بذكائه وبسعة ثقافته أن يتفوق على كل واحد عاش في أيامنا، ولم يكن هناك انسان ينكر هذا، ليس فقط بين الذين تعايشوا مع الامبراطور عن قرب (مما يدفع المرء إلى التشكيك بأنهم يبالغون) لكن حتى من قبل الذين كانوا معروفين من قبله، وكان إذا ما رغب في شرح شيء ما، كان يقدم عرضه بحكمة غير اعتيادية، مع وضوح وبساطة بالعرض، ولم يكن هاماً بالنسبة

له نوع الفلسفة التي اعتمد البحث في المسألة عليها، سواء أكانت طبيعية أو لاهوتية، أو من أي نوع آخر، ذلك أنه شغل نفسه كثيراً بالثقافة اللاهوتية وغير الدينية، مع أنه بالكاد كان بإمكانه توفير الوقت لانشغاله المستمر بالأعمال العسكرية، وهكذا نجح بذكائه وبقدرته الطبيعية — كما قلنا — فربح إلى جانب موقفه عدداً كبيراً ممن قابلوه.

في البداية لم يكن هناك من أحد ليس مشاركاً في الموقف ضده باستثناء لوقا، الذي كان آنذاك مسؤولاً عن المسائل اللاهوتية، غير أنه لم يتجراً على الكلام بحرية، ومعه ليس أكثر من ستة من الشمامسة، ولدى ملاحظة البقية أن كثيراً منهم تخلوا عن مواقفهم اللاهوتية إثر المناقشات الفردية مع الامبراطور، ولتوقعهم أنه بعقله الرائع ولسانه البارع سيتمكن من جذب عدد كبير منهم إلى نفسه من خلال المقابلات الفردية، لذلك اتخذوا قراراً بعدم الالتقاء بالامبراطور فردياً أو بشكل خاص: «ومن يفعل ذلك سيكون الآن، وكذلك بعد موته خاضعاً للحرمان الكامل»، فهذا ما قالوه لدى عقدتهم اجتماعات في بيوت بعضهم، لاسيما في بيوت الشخصيات البارزة بينهم.

ولم يكن الامبراطور عارفاً بهذه الأمور، إلى أن دعا يوثيموس إلى زيارته زيارة خاصة، وكان آنذاك أسقفاً [مطراناً] لني باتريا Neai Patrai [هيياني قرب لاميا] (٤٦)، فسأله عما قيل، ورغب أن يدرس العقيدة معه، غير أنه أغلق شفثيه ولزم الصمت، وعندما سأله الامبراطور عن سبب صمته، أجابه في أن وضع أمامه الحكاية كلها، فغضب وأقدم على تهديده [مع أنه اعتاد في جميع الظروف أن يحافظ على هدوئه وألا ينفعل]، لقد هددته في رمية من فوق شاهق، إذا كانوا يعملون على تغيير العقيدة الصحيحة المتعلقة بالرب، واتهمه بذلك، لكنه مالبث أن غير عقله قائلاً: «بناءً عليه إنك ستقوم أولاً بفهم من أنت وكيف تفكر حول الرب، أنت الذي رميت بالشكوك حولي، (لكن مع أنني أهنت، إنني

أكبح نفسي، خشية مني أن أقوم بعمل ما بالوقوف ضد الأرثوذكسية، ذلك أن هناك عدداً كبيراً من الكتب الجيدة مقابل السيئة لنقل مترادفات الأمور المؤكدة التي ينطلق منها كلا الفريقين)، سلح نفسك حتى تكون قادراً على مبارزتي، فأنا دون الآخرين، سوف أتصدى لك، ليس بقوة السلاح، بل بفعالية الكلمة، لأنه بغض بالنسبة لي أن أقهر من هو أدنى مني، وهذا العمل هو شاهد، وكما ترى، إنني مع أنه من الواضح قد تعرضت للاهانة، إنني موقف انتقامي، ومع هذا ينبغي ألا تستخف بهذه المسائل وتزيحها جانباً، لأنه من الذي يحجر عليك؟ من الذي أزال حريتك بالكلام؟ متى طردت من قبلي وأنت تتكلم أمام المنبر؟ ما الذي سأربحه إذا ما قمت بالدفاع عن عقيدة فاسدة؟ ثم إنه خشية مني أن أسىء إلى عقيدتي بكلمات، وهو شيء حدث لكثيرين بينكم، (في الحقيقة انني لم أعتقد قط بمثل هذه الأشياء) يبقى تماماً إنه ينبغي عليّ ألا أخون عقيدتي المتعلقة بالرب، ومع هذا إذا ما تحدث انسان ماتبعاً للكتابات المقدسة، وكان قادراً على أن يغير رأبي، لن يكون مخجلاً بالنسبة لي قط تغيير آرائي، وأبق هذا الشيء محتاطاً بشأنه: أن لا يكون الرب موضع سؤال، ولهذه الغاية تحملت أنا نفسي، مراراً كثيرة الاهانات.

هكذا مضت الأمور هناك، وبعد مضي عدة أيام، قدم عدداً كبيراً من الكتب تحدثت بوضوح حول هذا الشأن، ووضع القضية أمام مجمع ديني للبحث فيها [١١٦٦]، وأخذت أعداد كبيرة من الفئات المتصارعة تتملص من لحظة إلى أخرى، حتى بات الجميع مع الرأي نفسه مع البطارقة الآخرين، ووافقوا على أن الامبراطور قد جمع أهداف الكتابات المقدسة، ومع هذا كانوا غاضبين جداً على لوقا، واستخفوا به وأهانوه، ونادوا بخلع هذا الانسان وطرده من عرشه، لعلمهم أنه عالج المسائل بشكل لا معرفي تماماً، واعترفوا أنهم هزموا بوساطة موقف لوقا، لأن هذا الموقف عرض قبل موقف الامبراطور، ولأنهم هزموا من قبلها [البطريك

والامبراطور]، أرادوا توجيه التهمة حول أمور أخرى، وهنا لاحظ الامبراطور — كما أعتقد — أنهم يقاتلون لوقا بأسباب موبوءة، فقال: «دعوا هذا يبقى سرياً لبعض الوقت، فعندما تظهر محصلات القضية الحالية، سنقوم بتفحص هذا الأمر، وسوف نطبق عليه ما يستحقه من جزاء».

وهكذا هزمهم على أساس هذه القواعد، وتمّ الاعلان عن استمرار العقيدة وصحتها، وأمر الامبراطور بكتابتها، ثم أمر بعد ذلك بنقش النص على حجر، وضعوه بكل سرعة في آيا صوفيا على يسار الداخل، وهكذا تحقق لهذا البحث نهايته (٥).

ولقد فكرت دوماً حول هذه الأشياء، فوجدت أنه لا يمكن لانسان حي أن ينجو من اللوم عندما يعث في طبيعة الرب، ومع هذا إنني مصاب بالدهشة بشأن ما روي لي فيما يتعلق بهذا الامبراطور، فقد حدث مرة، عندما كان يبحث بهذه المسألة (لأن القضية ظلت تناقش بين أخذ ورد لمدة ست سنوات) جاء إليه واحد من المتعلقين بالبيت الامبراطوري، وروى إليه بكل هدوء أن الامبراطورة عانت من اجهاض، وأن ما أسقطته كان ذكراً، وهنا لم يظهر عليه أي أدنى تأثر بما روي له، ولم تبد آلامه على مظهره، بل ظلّ مصغياً متنبهاً لما كان يقال، لكن عندما انتهى البحث حول المسألة المطروحة، انتصب قائماً، ثم ألقى بنفسه على أقدام الكهنة، وقال: «أيها الآباء المقدسين، وصلني للتو خبر من جناح النساء يقول: إن طفلاً ذكراً — وهو أعظم آمالي — قد ولد في غير وقته، إنني أطلب من قداستكم، الدعاء إلى الرب، افعلوا ذلك، أرجوكم، وإذا كنت قد تبنيت في هذا الصراع المقدس الجانب الخاطيء، ليجعل الرب ذريتي تلد مجدداً في غير أوانها، مهما كان نوع المولود، ولأحرم من التمتع بنيل آمالي، لكن إذا كان موقفي يرضي الرب، ليمنحني هذا الأمل بعد وقت قصير»، وما ان أكمل حديثه، حتى نهض من على الأرض، غير أن

كل واحد من الآخرين ركع ودعا إلى الرب ورجاه والدموع تنهمر من عينيه، وعلى هذه الصورة غادروا، هذا ولم يمض وقت طويل حتى رزق الامبراطور ولداً ذكراً، وكان قطعة من النعمة، ووردة من الطبيعة، هذا وإنه في اللحظة المناسبة سيكون ممكناً لروايتي أن تصف أي نوع من الأشخاص كان (٦).

وهكذا وعلى هذه الشاكلة انتهت هذه الخلافات، وبما أن لوقا لم يقدم ضده أي اتهام جدير بالملاحظة، فقد بقي على عرشه، لكن جون الذي شغل المنصب الديني الرئيسي في كيركيرا Kerkyra ، وواحد من الرهبان، الذي كانوا يلقبونه بـ «إيرينيكوس Eirenikos» اللذان ظلا متمسكين بعقيدتهما القديمة، قد تعرضا للحرمان، وطردا واحداً تلو الآخر من التنظيمات الكهنوتية (٧).

٣- ثم تحركت الأمور من جديد، تلك الأمور التي عرفت الاستقرار، فقد أرسل ملك الهنغار دايونيسيوس (٨) Dionysius ، وكان واحداً من الارستقراطيين في بلاطه، وصاحب خبرة حربية نالها من خلال عدد من الحروب، أرسله للاستيلاء على سيرميون بوساطة جيش كبير [١١٦٦]، وعندما علم القادة الرومان بذلك، وضعوا خططهم حول المسألة، غير أن الخطط التي تشاوروا حولها لم تنجح، لأن المتشاورين لم ينظروا إلى ما كان مفيداً للرومان، بل نظروا إلى كيف يمكن لأحدهم أن يخدع الآخر، خاصة كل من الميخائيلين: الذي كنيته غبراس، ورتبته دوق تلك المنطقة، وبراناس الذي تولى منفصلاً قيادة الجند، فكلاهما كانا مقاتلين، لكن براناس كان بالحري هو الأقوى، وعندما بدا للمشتاورين أن الأفضل مهاجمة دايونيسيوس ليلاً، انطلقوا وزحفوا بكامل القوات، وعندما وصلوا إلى معسكر دايونيسيوس، وجدوه فارغاً تماماً من الرجال، لذلك بدأوا يشعرون بالخوف، لأنه في أراضي العدو، إذا كان المكان مهجوراً، وخدماته المعتادة مفقودة، ذلك كان كافياً للتأثير على الروح

المعنوية للجند.

وفي محاولة منهم لتتبع آثارهم، تقدموا نحو الأمام، وقد تهيأ لهم انجاز شيء بسرعة، لو أنهم هاجموا الهنغار على الفور، وبما أن ضوء النهار بات واضحاً، فقد رآهم الهنغار، وبدأ فرسانهم بإنشأ القتال ضد المعسكر الروماني (لأنهم كانوا منطلقين من أجل الرعي)، ولذلك شكلوا صفوفهم، وهاجموا الذين اعتادوا على الوقوف أمام الخيم، ولدى ملاحظة الهنغار أن الرومان كانوا يركضون بلا نظام وفي فوضى عظيمة (لتعرضهم لهجوم الهنغار الذين كانوا خيالة، فإن الجزء الأكبر منهم قد تفرق) حملوا [الهنغار] عليهم وبعدها أرغموهم على إدارة ظهورهم، كانوا قادرين على مطاردتهم وسوقهم أمامهم حتى أدخلوهم في وسط قطعة رومانية كانت قادمة من المؤخرة، واضطرب أمر هؤلاء، وانعطفوا بغية الانسحاب، ثم انهم هربوا بسرعة كبيرة، معتقدين أنهم هوجموا من قبل قوة أكبر بكثير من الجيش الذي رأوه معهم، وبدأ لهم، لأنه في مثل هذه الظروف يستطيع فقط قلة من الناس فهم واستيعاب الحقيقة.

وبما أنهم كانوا هاربين بكل سرعة فقد أصابهم الإعياء، ولذلك توقف القائدان لبعض الوقت ومعهما الرايات وقليلاً من أتباعهما، طائنين أن الرومان سيتجمعون ثانية، لكن بما أنه لم يلتحق بهما أحد من أي اتجاه، أدارا أيضاً ظهوريهما، وحدث آنذاك أن استدار براناس وطعن واحداً من الأعداء برمح، في حين تابع القائد الآخر فراره، وهنا ظهرت بوضوح قضية خلافهما المتقدم في الاجتماع، لأنه عندما عاد براناس والتحق بغابراس الفار، سخر منه وقال مستخفاً به: «ثم انك توافق معي أيها السيباستوز كما تعلم أنني قاومت الأعداء، وقاتلتهم بالرمح»، وعندما وافق الآخر، تابع يقول:

«لكن بحق رأس الامبراطور، إنني لم أرك إلا أثناء التراجع»، وهكذا

كان ذلك اليوم فريداً بالنسبة للرومان دون أن يحقق لهم مرباح عامة، لكن بذلك يمكن للمرء أن يرى باعجاب، أنه تولى القيام بكل مهمة.

ولم يقتل المطاردون الهنغار عدداً كبيراً من الرومان، ولم يأخذوا كثيراً من الأسرى، لأن رعباً عظيماً استولى على الرومان، ويمكن استخلاص ذلك ومعرفته مما يلي:

قام فرد من وحدات المشاة بالفرار طوال الطريق حتى التجأ إلى زيغمي، ولم يوقفه طوال الطريق أحد من الرومان، وهكذا رحلوا ببطء، ثم عزم دايونيسيوس على اعلاء أهمية ماقام به، فجمع أجساد عدد من الذين قتلوا، وأقام نصباً كبيراً فوقهم، مقدراً أن حجم المذبحة يمكن تعويضه بحجم الصرح (٩) المقام.

لقد سارت الأمور هنا هكذا، غير أن الامبراطور أثاره التهديد، ورغب في حرب الهنغار بنفسه، ورغب أولاً في عرض قدرات الرومان أمامهم، فخطط في سبيل ذلك كما يلي:

أرسل إلى الدانوب ألكسيوس [أي بيلا أخو ستيفن ملك هنغاريا] الذي كان قد زوجه من ابنته، ومعه قوات كثيرة، كان ألكسيوس البروتوستراتور يقودها واستهدف من ذلك اعطاء الهنغار توقعاً أنه سوف يهاجمهم مرة ثانية عبر المناطق المعتادة، وأمر بالوقت نفسه ليو الذي كنيته باتاتزس Batatzes ، الذي كان يقود قوات من الخارج ضمت أنواعاً كثيرة كان من بينها الـ «الفلاش Vlach» الذين كانوا — كما قيل — مستعمرين من شعب ايطاليا، أمره بالانقضاض عن طريق المناطق القريبة مما يعرف بيوكسين Euxine البحر [الأسود] حيث لم يتقدم لأحد من قبل أن يهاجمهم، وهكذا وصل ألكسيوس [بيلا] والجيش الروماني الآخر إلى الدانوب، فأدخلوا بذلك الرعب إلى قلوب الهنغار، خشية أن يقوموا بالجواز من هناك، وفي ذلك الوقت كان باتاتزس، يوجه

ضرباتهِ من ذلك المكان حيث تولى نهب كل شيء بدون رحمة، واجتاح كل شيء واجهه، ثم تولى قتل عدد كبير جداً من الناس، ولم يكن الذين أخذهم أسرى أقل عدداً، يضاف إلى هذا أنه عندما عاد إلى الامبراطور، ساق أمامه قطعاناً من الماشية والخيول مع كل نوع من أنواع الحيوانات الأخرى.

ورغبة من مانويل في انزال ضربة ثانية بهم، أرسل ثانية جيشاً ضدهم، وأمره أن يقاتل من أماكن أكثر علواً الهنغار الذين عاشوا على مقربة من روسيا، وقاد هذه القوات أندرونيكوس لامبارداس ونقفور بتراليفاس مع عدد كاف من الآخرين، ومع هذا جعل جون دوكاس السالف الذكر مراراً مسؤولاً عن الجميع، وبعدما مروا خلال بعض المناطق المتعبة والوعرة، مضوا من خلال مناطق كانت خالية تماماً من الناس، ثم انقضوا على هنغاريا، ولقد استولوا على كثير من القرى المكتظة بالسكان، وجمعوا كميات عظيمة من الغنائم وقتلوا كثيراً من الناس، لكن الذي أخذه من الأسرى كان أكثر، وعندما باتوا على نية العودة من هناك أقاموا صليباً من النحاس كتبوا عليه العبارات التالية:

هنا قامت العصبة الأرسية Ares والايطالية

بذبح عدد لا يحصى من قبائل العرق البانوني Pannonian

عندما كان مانويل النبيل يحكم روما الشهيرة

فخر الملوك الحكماء من الكومنينيين (١٠)

٤- وبينما كان هذا يحدث، جاء هنري دوق النمسا ومعه زوجته ثيودورا ابنة أخي الامبراطور، إلى سارديكا، وذلك من أجل مصالحة فردريك، ملك ألمانيا مع الامبراطور، ولطلب إقامة هدنة في الحرب مع الهنغار [١١٦٦]، لأنه — حسبما تقدم ورويت — كاد فردريك أن يقترب

من فقدان حكم روما، وذلك منذ أن بدأ الامبراطور نشاطاته ضده، لاسيما عندما وافق أسقف روما على العودة إلى الاستخدامات القديمة (١١)، وقد وعد فردريك بأشياء كثيرة ضد ارادته، لأن الناس هبوا هناك لحمل السلاح والقتال ضده، نتيجة للضغوط الصادرة عن الامبراطور، ولذلك حدث قبل وقت قصير، أنه رغب في كسب ود الامبراطور، ذلك أنه كان في ضيق شديد، ولذلك كتب له وتناقش معه، بطريقة ودودة، وأعلن — كما ذكرنا — عن موافقته على التعاون معه ضد الهنغار.

وعندما — على كل حال — تحولت اتفاقية مانويل مع البابا بشأن الحكم في روما إلى الافلاس، بسبب أن الامبراطور أصرّ على بقاء عرش روما في بيزنطة، رفض البابا قبول هذا، وطلب بحكم روما لنفسه، هنا استرد فردريك مكره وخداعه، وأظهر من جديد دهاءه، وبالنظر لعزمه على غزو الأراضي الرومانية، بدأ بحماقة بربرية، بتوزيعها بين أتباعه، ولأنه لم ينجح من قبل في خطته الأخرى، بسبب معارضة الامبراطور له، فقد لجأ إلى استخدام سفارة هنري وأوتو صاحب وتلسباك Wit-telsbach، وخطط بالتظاهر بال صداقة أن يقنع الامبراطور بالتخلي عما كان يقوم به ضده، فبذلك يمكنه أن يستعد بسهولة للحرب ضد الرومان، وقدر الامبراطور جهود هنري وعاملة بشكل لطيف، ووافق على طلبه من أجل هدنة في الحرب ضد الهنغار، لكنه لم يتوصل إلى نتيجة نهائية فيما يتعلق بفردريك، وعندما كان هنري في طريق عودته إلى بلاده، أقنع ستيفن — الذي رفض الزواج من فتاة روسية — أن يتزوج من ابنته، ولقد حدث هذا بالفعل.

ولم يمض وقت طويل حتى خطط الهنغار إلى سلبنا دماشيا من جديد، فأرسلوا قوى مختلفة إلى هناك، كما وبعثوا الذي يحمل رتبة بان Ban (١٢)، بينهم (ويعني هذا الذي سيمتلك السلطة بعد الملك في

الدولة)، وبعدهما أخفقوا بالتغلب على الرجال الذين كانوا هناك قتالاً، انسحبوا، لكن بعدما حملوا قسراً معهم كالوفيس [الدوق] وجعلوه تحت سلطانهم، أما كيف حدث هذا لنقفور [كالوفيس] فسأحكيه فيما يلي:

فهو عندما علم أن القوات الهنغارية كانت تحارب تلك المنطقة، جمع قليلاً من جيشه، وخرج من مدينة سبلت، غير أنه ما ان زحف قليلاً، حتى تخلى عنه أتباعه قليلاً قليلاً، وسببوا بذلك وقوع الرجل أسيراً بكل سهولة في أيدي الأعداء، فقد طوقوه بعدما قام بأعمال فيها بطولة وشجاعة، وأخذوه أسيراً.

٥- عندما سمع الامبراطور بهذا، عاد إلى بيزنطة، عازماً على أن يغزوهم في الربيع بحملة أكبر، وفي الحقيقة هو لم يكن قادراً على الذهاب إلى هناك في موسم الحملات التالي، فقد أعاقه قطعة من سوء الحظ، ما الذي كانت هذه؟ الرواية التالية سوف توضح ذلك:

مضى شتاء [١١٦٦-١١٦٧]، وعندما زال الطل أوقف نفسه على بعض التمارين المفيدة، وهي تمارين اعتاد الأباطرة وأبناء الأباطرة على ممارستها منذ وقت طويل مضى، وكان عدد من الشباب يقومون بتقسيم أنفسهم بالتساوي، ثم يرمون بكرة من الجلد تقارب بالحجم تفاحة، وكانوا يلقيونها على بقعة مستوية، تبدو لهم مناسبة عندما يتولون قياسها، وحيث أن الكرة كانت تمكث ملقاة على الأرض في الوسط وكأنها جائزة، كانوا يطلقون خيولهم نحوها بسرعة كاملة، ويتوجه كل واحد ضد الآخر، ويمسك كل واحد منهم بعضاً ذات طول مناسب تنتهي على شكل شعب فارغ، مقسم في الوسط بوساطة أوتار لحمية، جفت مع الأيام، وتداخلت فيما بين بعضها بعضاً لتشكل ما يشبه الشبكة، وكان كل جانب يسعى بسرعة عالية جداً لجرف الكرة ولنقلها أولاً إلى الطرف الآخر، الذي يكون قد عين لهم منذ البداية، وكلما جرفت الكرة بوساطة

العصا، ووصلت إلى إحدى النهايتين، فقد عدّ ذلك انتصاراً للطرف الذي أوصلها، وكانت هذه الرياضة خطيرة جداً ومرعبة، فقد كان من الضروري لكل مشارك بها أن يتحرك على ظهر مطيته إلى الأمام وإلى الخلف، وكذلك أطرافه يمنة ويسرة، وأن يقود فرسه ويجعله يدور حول نفسه، وأن يساهم في كل نوع من السباق، مما احتاج إلى عدد كبير من أنواع الحركات وذلك مساهمة لحركات الكرة.

وكان الامبراطور مغرمًا بهذا النوع من الرياضة، لكن حدث أن كبا حصانه ووقع فوقه على الأرض بكل ثقله، وتحمل ثقل الحصان فوقه وجهد كثيراً للقيام من سقطته، غير أنه لم يكن قادراً على أن يبعد الحصان عنه، بعد أن بات تحتَه، فقد قبع فوقه — كما ذكرنا — بكامل وزنه، ولذلك جرح جرحاً بليغاً في طرفه، وكذلك بذراعه الذي التوى بشكل سيء بسبب من ردائه، ولقد تحمل ذلك كله بشجاعة، مع أنه تألم من ذلك ألماً شديداً جداً، وعندما تجمع حوله عدد كبير من الناس، نهض مسرعاً، وقفز على ظهر حصانه ثانية، وقام ببعض الدورات بشكل بطيء بما فيه الكفاية، وذلك حتى شعر بالآلام مبرحة فمضى إلى الفراش، وإثر ذلك قهره الوجع وغاب عن وعيه، ولم يعد يتذكر الغد، ثم ما قيل وما فعل.

هكذا كانت الأوضاع، لكن بعد مضي يومين تحسن، فذهب إلى أباميا (١٣)، ثم انه بسبب الرحلة — كما يبدو — ومتاعبها، عاد التورم ثانية، ورجعت إليه نوبات الآلام، وقد أمضى عيد الفصح [٩ نيسان ١١٦٧] في سيليمبريا [سيليفري]، وعندما شعر بالتحسن ذهب إلى فيلبه، وتباحث هناك مع رسل جاءوا من عند الهنغار، وعندما رأى أنهم لا يمتلكون شيئاً مفيداً لتقديمه، سوى أنهم كانوا يجهدون بكل وسيلة للحصول على هدنة ولتعليق الحرب، قام بصرفهم وإعادتهم خائبين، غير أنه بعث معهم واحداً من الرومان، ليتقصى حول كالوفيس،

وليهدد [اسطفان الثالث] انه إذا لم يحترم الاتفاقية ويحافظ باستقامة عليها، سيكون من الممكن رؤية الامبراطور والجيش الروماني ثانية، ووصل إلى سارديكا، وقام هناك بتجميع قواته.

٦- وعندما كان مقيماً هناك وقعت واقعة كانت كما يلي:

كان ألكسيوس الذي شغل منصب بروتوستراتور—كما أشير إلى ذلك مراراً من قبل—يعمل في سبيل ثورة، فأدين بعدما كشف أمره، وحلق شعر رأسه، وبعدهما جرى وضعه بين الرهبان، اقتيد بعيداً إلى واحد من الأديرة الجبلية، التي انتشرت بأعداد كبيرة في جبل بايكيون Papikion على نهر ستريمون Strymon [ستروما]، وقد أقام هناك بعض الوقت ثم توفي.

لكن لماذا، ولأي سبب وصل هذا الانسان إلى هذا النصيب، دعونا نوضح ذلك الآن: عندما كان قد سافر فيما مضى إلى كليكية، وذلك إثر تعيينه قائداً عاماً للحرب هناك من قبل الامبراطور، قصد السلطان في قونية، وكسب بشكل سري صداقته، وتباحث معه حول أشياء كثيرة في اتجاه القيام باغتصاب العرش، وقد تسلم منه رسائل، وبعث إليه بأجوبة كتبت حول اتفاقيتهما، وبعد هذا توجه إلى كليكية، ثم عاد لبعض الوقت فيما بعد إلى بيزنطة، وهنا عندما عزم على تزيين مسكن له في الريف بمواد تجميلية لجدرانه، لم يصور على هذه الجدران المفاخر الاغريقية القديمة، كما انه لم يصور أفعال الامبراطور، والأشياء التي حققها في الحروب أو في صيد الحيوانات، كما جرت العادة بالغالب للذين شغلوا مناصب حكومية عالية.

فلقد نازل [مانويل] وقاتل بشكل طبيعي وحوشاً كثيرة، بشكل لم نسمع له بنظيرين بني البشر، وخشية مني أن أبتعد عن أحكام المؤرخين، دعوني أذكر فقط بعض انجازات مانويل وبراعاته، ففي وقت

كان في حوالي الانقلاب الشتوي، حيث تراكمت كميات من الثلوج على الأرض، إلى حد لم تكن فيه الوديان والشعاب الجبلية مغطاة فقط، بل الأجساد كانت أقرب إلى التجمد بسبب شدة البرد، وحدث في الحقيقة أن جميع الحيوانات التي لم يتوفر لها مكان تختبئ به، أن خرجت من الأماكن الكثيفة، واندفعت فوق الثلج على شكل جماعات، ولقد كانت قطعان من الطيور غير قادرة على استخدام أجنحتها (لأن الجليد ربط فيما بينها وأمسك بها مثل القيود، مثلما كان من الممكن رؤية ذلك في حالات صيد الطيور) وكذلك سارت على أقدامها بدلاً من أجنحتها، وباتت عرضة للصيد من قبل الوحوش والانسان وذهب الامبراطور للصيد في إحدى المناطق الشرقية، التي اسمها داماتريس (١٤) Damatrys وبينما كان مشغولاً بنشاطاته، واجهه وحش جبلي كبير، ولم يكن هذا الوحش أسداً، ولم يكن فهداً، ذلك أن حجم الأسد وشكله يمنع هذا التشبيه، لقد كانت له طبيعة مضاعفة، فلقد تجمع فيه كل من الفهد والأسد، وهكذا كان أسداً وفهداً معاً، كان وحشاً مخيفاً فيه صفات مزيجية، لقد كان مربعاً في شجاعته، مقداماً في ارعابه، وكل السمات التي تعود إلى كل من الأسد والفهد فيه اجتمعت، لقد كان هذا الوحش على هذه الشاكلة، وهربت غالبية الذين كانوا حول الامبراطور عندما رأوه، لأن منظره كان غير محتمل بالنسبة لكثير من الناس، وعندما بات قريباً، لم يكن هناك من أحد للتصدي له، لكن أثناء فرارهم، سحب الامبراطور سيفه الذي كان مسلحاً به، واندفع نحو الأمام ليضرب الوحش، وأصابته ضربته مقدمة رأس الوحش وظلت ماضية حتى وصلت إلى الصدر، فهكذا كان الامبراطور في الصيد.

وفي عودة إلى الموضوع الذي استطردت منه، أهمل نقفور، هذه الموضوعات، وبدلاً عن ذلك أثبت شواهد تخلد أعمال السلطان العسكرية، ويجنون صوراً بشكل علني في مسكنه، ماتوجب عليه أن

ينخفيه في الظلام، وعلم الامبراطور بهذا، ومع ذلك غالباً ما استقبله في مباحثات خاصة، وسمع منه نصائحه، وكان راغباً في أن يبعده عما كان يسعى إليه، لكن هذا الرجل تمسك بشدة بخطته، وغالباً ما كان يدعو إلى الاجتماع به رجلاً، من أصل لاتيني، غير أنه كان ساحراً ومتفوقاً في أعمال الخداع، وكان يتحدث معه بشكل مكشوف، ويخططان لمؤامرات مرعبة، وتمركزت المؤامرات حول كيفية ابقاء الامبراطور بدون وريث، وقد اعتاد على أن يتسلم كثيراً من العقاقير من هذا الساحر لتستخدم لهذه الغايات، ولم يتوقف هذا التعيس عن ممارسة هذه الأشياء، ولذلك لأمه الامبراطور من جديد، وبين جنونه، وتظاهر بالأسف، غير أنه ظل هو نفسه، لأنه بعد مضي بعض الوقت، عاد من جديد إلى ذلك الساحر، وأخذ يبحث معه المسألة نفسها.

ثم انه التقى بقسطنطين دوكاس، الذي كان نفسه متزوجاً من ابنة أخي الامبراطور (١٥١)، فقال:

«سيدي النبيل، إذا كان يوافقك أن نتشارك بهدف واحد، اعلم أنه مامن أحد سيكون قادراً على قهرنا»، وطبعاً هو لم يقل هذا بشكل واضح تماماً، إنما بشكل يمكن فيه تمييز هذا واستخلاصه منه، والتقى كاسيونوس مرة بالكسيوس، بعدما لاحظ أنه أخفق بدون قصد وانكفاً عندما كان في حملته في هنغاريا مع بيللا، وشرع في اثارته فيما يتعلق بهذا الموضوع، وبعد ذلك استقبل الكسيوس الرجل على انفراد فقال:

«هل تعلم لماذا أبعدت نفسي كثيراً عن الحروب؟ لأنني أمتلك شفقة كبيرة على بني البشر»، وعندما انتقده الأخير على هذا القول، قال بدون وجل من أي شيء يمكن أن يحدث: «إن الامبراطور يرغب في تدمير القوات الرومانية، فقد أمرني أن أندفع وأتقدم بقوة في المعركة، لكن إذا أبقيت ماسمعتة مني سراً، ستكون صديقاً لنا»، هكذا قال وأكثر، لكن

كاسيونوس أخبر الامبراطور بذلك.

لقد كان هذا ما حدث من قبل، لكن ما أوصل الأمور إلى الانشغال الكامل كان شيئاً هو كما يلي:

كانت هناك قوة من الكومان اكرتيت للعمل مرتزقة في خدمة الرومان، وقد سببت هذه الفرقة في البداية بعض المشاكل التي تعلقت بالدفع إليها، ثم تمّ ارضائها، لكن البروتوستراتور التقى بالكومان سراً، وأقنعهم بالمال بالتظاهر بالعودة إلى أرض آبائهم وانهم عند منتصف الليل، يقومون بمهاجمة خيمة الامبراطور بحشدهم، وينشبون القتال، وكان هذا في الحقيقة ما تقرر وخطط له، غير أن صبياً صغيراً من الذين كانوا يخدمون في خيمته، ذهب بعدما عرف بالمؤامرة مسرعاً إلى الخصي توماس، الذي كان يحظى آنذاك برعاية الامبراطور العالمة، وحذره من الخطة، وحمل الخصي الحكاية كلها إلى الامبراطور، ثم قدم إليه الطفل، وكان الامبراطور حتى الساعة رافضاً أن يصدق ما قيل له، حتى جاء الفجر، وبدأ الكومان بالانسحاب بدون سبب، واستطاع الامبراطور اقناعهم ببعض الوعود، وعندما نجح في ابقائهم، أرسل بعضاً منهم لاعتقال ألكسيوس بالحال، وبسرعة قصوى بات الشقي سجيناً، ثم أمر الامبراطور بعد ذلك بعض الأعيان بالقدوم إليه، واستدعى جون دوكاس، وميخائيل الذي كان المتحدث باسم [الهيئة؟]، وذلك بالاضافة إلى الخصي توماس، وكذلك نقفور الذي كنيته كاسباكس Kaspax وهو الذي كان قاضي الأحوال السرية، وقد وجهوا إلى ألكسيوس ثلاث تهمة، وأمروه بالرد على أية واحدة منها هو قادر أن يدافع فيها عن نفسه، لكنه عندما سمع التهمة، أقرّ بجرمه في الجميع، ورجاهم أن ينزلوا به العقوبة الصحيحة التي يستحقها، لكن بعد حلق شعره، وحضوره القداس، أشفق الامبراطور عليه، واكتفى بحلق شعره وجعله راهباً (١٦).

٧- بالنسبة لألكسيوس انتهى مصيره وقدره هنا. وبما أن القوات الهنغارية كانت تعبر باتجاه سيرميون، قام الامبراطور بارسال قوات إلى هناك، كانت تحت امرة عدد من القادة الرومان، وخاصة أندرونيكوس ابن أخي الامبراطور، الذي كان يكنى بـ «كونتوستيفانوس»، وقد سماه الامبراطور قائداً عاماً للأعمال الحربية، وقد تم توجيهه كيف يقوم بصف الرجال، وأين ستكون المعركة، كما لو أن الأمر رسم على صورة، وهكذا قام أندرونيكوس بعدما جاز السافا، وبات قريباً من معسكر الهنغار بالتصرف كما يلي: لقد أدرك أن ارسال جواسيس وكشافة — كما جرت العادة — إلى جيش العدو، لن يكون مجدياً، غير أنه أمر بعض الرومان الذين تقدموا أمام الجيش الروماني أن يحاولوا وهم عائدون جلب عدد من أفراد العدو معهم، وتنفيذاً لأوامره، عادوا ومعهم واحد من الأعداء، وسأله كونتوستيفانوس عن وضع الامدادات لدى الهنغار الذين قدموا إلى سيرميون، وعن خططهم، وأجابه هذا الرجل بصدق وأوضح له كل شيء حيث قال:

«بيننا سبعة وثلاثين قائداً يتولون قيادة هذه القوة، لكن دايونيسيوس له السلطة عليهم جميعاً، وعدد الجيش كله خمسة عشر ألف رجل فيهم فرسان مسلحون، ورماة، وفرسان خفاف، وهم شجعان جداً، يعتقدون أن الرومان لن يستطيعوا الصمود أمام أول حملة لهم.

وعندما سمع أندرونيكوس هذا، ترك الرجل يعود ليروي لدايونيسيوس، أن الامبراطور الذي لم يستطع تحمل الأذى الذي ألحقه بالرومان، قد تعهد بانزال العقوبة المناسبة بالهنغار بيده، وقاد الجيش الروماني، وهو شاكي السلاح، إلى خارج المعسكر، وجرى صفه كما يلي: أمر الكومان مع معظم القوات التركية وقليل من الفرسان الذين قاتلوا بالرمح، أن يشقوا الطريق، ثم تقوم كل الوحدات الرومانية بالهجوم من على الجناحين، وهي القوات التي كان يقودها كوغ فاسيل وفيلوكالس،

وذلك بالاضافة إلى الـ «تاتيكوس Tatikios» الذين يلقبون بـ «أسبيتس Aspietes»، وزحف من خلفهم الرجالة وقد اختلط بهم النبالة ووحدة مسلحة من الأتراك، وتقدم خلف هؤلاء، وزحف من على الجناحين جوزف براينيوس وجورج براناس مع أخيه ديمتريوس، وقسطنطين أسبيتس السيباستوز، ثم تلا هؤلاء أندرونيكوس الذي كنيته لامبارداس Lampardas الذي كان كاتب الامبراطور، و... (١٧)، مع نخبة من القادة الرومان والألمان والأتراك، وزحف وراء هؤلاء القائد أندرونيكوس [كونتوستيفانوس]، ومعه عدد كبير من الرجال الجديرين بالتقدير، الرجال الذين اعتادوا على الانضواء تحت قيادة الامبراطور عندما كان يذهب إلى الحرب.

وايطالين من قوات المرتزقة، وكذلك صربيين، ساروا خلفه، حاملين الرماح وترسة عريضة، وهكذا شرعت صفوف الرومان تأخذ طريقها نحو المعركة، وعندما وصلوا إلى المكان الذي أقام فيه دايونيسيوس النصب التذكاري، ترجلوا من على ظهور خيولهم، وانتحبوا بحرقة، وعاهد أحدهم الآخر، أن كل واحد منهم سوف يموت في سبيل ابن بلده وقرابته.

وعندما علم دايونيسيوس أن الرومان كانوا يقتربون، امتلأ شجاعة، وأمر الهنغار بكل قحة بأن يرفعوا كؤوسهم ويشربوها بصحة الرومان، فرفعوها، وشربوها مسرعين، ثم توجهوا نحو أسلحتهم، وأخذوا صفوفهم حسبما هو معتاد، فقد كان من عادتهم دوماً أن يملأ الرجال النخبة بينهم الصفوف المتقدمة، وكان الامبراطور المدرك لهذا الأمر والعارف له منذ زمن طويل، قد وجه أندرونيكوس أن تكون صفوفه في الاحتياط، وهكذا عندما باتوا على مقربة من بعضهم بعضاً، أمر أندرونيكوس الوحدات الأمامية أن تطلق نشابها نحو الهنغار، وعندما رآهم الهنغار حملوا عليهم، فقاموا بالفرار، لكن ليس نحو الخلف، إلى الجيش الروماني، بل بالحري

نحو الجناحين، وهكذا انقسموا على كلا الطرفين، وبذلك ترك الهنغار في مكان فارغ في الوسط بين الصفوف المقاتلة، لكن لدى حملتهم على بقية ساقة الرومان جعلتهم يديرون ظهورهم ويهزؤون بأقصى سرعة حتى وصلوا السافا، وصمد أخيراً اثنتان من الوحدات الرومانية التي كانت على اليسار، وكانت تحت قيادة كوغ فاسيل وتاتيكيوس، غير أن البقية جرفت جانباً، وقام ديمتريوس براناس، الذي ترك مع ثمانين من أتباعه الذين تفرقوا، بالالتحام مع العدو، وقد سقط هناك بعدما ناضل بشجاعة، ونال ضربة قاتلة على وجهه، وحدث أنه بعدما سقط أن أخذ أسيراً، وحمل إلى المعسكر الهنغاري، أما أخوه جورج، الذي أربعه تفوقهم العددي، فقد افتقر إلى الشجاعة من أجل الصراع.

وهكذا تحول الجناح الأيسر للجيش الروماني إلى الفرار، لكن الجناح الأيمن قاتل ميسرة الهنغار، وصدّ العدو بشكل واضح نحو الورا، وعندما لاحظ دايونيسيوس هذا، فكر في مهاجمة الذين كانوا حول القائد أندرونيكوس، وبدأ الخوف على كل حال يستولي على كثير من أتباعه، وهم يقودون خيولهم، ولاحظ دايونيسيوس ذلك. فلامهم لجبنهم، وفي الوقت نفسه، رجاهم بالبقاء هناك، وذلك خشية منه أن يجعلوا خوفهم ظاهراً للرومان، وتفهم أندرونيكوس لامبارداس الذي كان يحدث، وخشية منه أن تقوم الحشود التي مع دايونيسيوس، إذا ما تحولت إلى جهة أخرى، أن تقوم بالانقضااض على القائد أندرونيكوس، لذلك قرر أن عليه الالتحام بدايونيسيوس أولاً، ولدى اصطدامهم ببعضهم بعضاً، ارتفع الضجيج، وسمعت الأصوات في كل مكان بسبب تحطم الرماح على الترس، وسقوطها على الأرض، ومع أن الصفوف التي كانت تحت إمرة براناس الآخر وجورج جاءت لمساعدة الرومان، فإن هؤلاء الرومان تولاهم الانهالك.

وعندما لاحظ القائد أندرونيكوس هذا، وخشية منه أنه إذا ما انهزم

الذين كانوا مع لامبارداس بشكل حاد، فإن الصراع كله سينصب عليه، لهذا اندفع نحو العدو بشدة، وقام بحملة هائلة، ونتيجة لذلك سقط للوهلة الأولى ثمانون من الرومان، لكن أكثر منهم كان الذين سقطوا من البرابرة، وتمكن الرومان، بفضل شجاعتهم، وثباتهم أثناء القتال، وقدراتهم الخارقة، تمكنوا أخيراً من صدّ العدو، وارغامه على الفرار، ووقعت مذبحة بين صفوف الأعداء، بلغت حدّاً مخيفاً، لدرجة أن السهول هناك غطيت بجثث القتلى، لأنه عندما انقصفت رماحهم، وتكسرت سيوفهم، حطم الرومان رؤوس هؤلاء الأشقياء بحراهم، ثم تمّ الاستيلاء على رايتهم، وكانت كبيرة جداً، حملها هؤلاء البرابرة على عربة، كما واستولي على حصان دايونيسيوس مع كامل سلاحه، ونجا هو نفسه من المخاطر بصعوبة، أنا غير قادر على وصفها، أما بالنسبة للبرابرة الذين فروا ووصلوا إلى النهر، فقد تولى أسرهم الاسطول الروماني، وجرى أسر خمسة من كبار قادتهم الذين يدعون «زوبان»، وأخذوا وهم أحياء، ومعهم حوالي ثمانمائة من العساكر، وكان بينهم أعداد كبيرة من النبلاء والرجال الأعيان، وسقط في هذا الصراع عدة آلاف، ولم يكن بين الرومان من لم يكن بطلاً، قام بأعمال مجيدة، لكن تميز بينهم بشكل خاص جون كونتوستيفانوس، وأندرونيكوس لامبارداس.

وعندما اكتمل نجاح الرومان هكذا، وكان الوقت يقارب منتصف الليل، عاد جند الجيش الروماني إلى المعسكر، يقودون معهم الأسرى الهنغار، وجلبوا حوالي الألفين من الدروع، ولم يكن من الممكن احصاء الخوذ والترسة والسيوف التي غنموها، وعسكروا على هذه الصورة تلك الليلة، ثم حملوا أسلحتهم عند اشراق الشمس، وتوجهوا نحو المعسكر الهنغاري، فوجدوه فارغاً من الرجال، لذلك نهبه وعادوا، وعرفت الحرب ضد الهنغار نهايتها هناك (١٨).

٨- وصرف الامبراطور عنايته إلى أسوار القسطنطينية، التي تدمرت

بفعل الزمن في كثير من الأجزاء، وعندما عانت العاصمة من قلة المياه، قام بتنظيف الأبنية بكل عناية، ولدى ملاحظته أن الأقواس القديمة التي حملت الأبنية الناقلة للمياه إلى بيزنطة، قد سقطت منذ زمن طويل، وأنه سيكون من الصعب جداً إعادة بنائها، وأن ذلك يحتاج إلى وقت طويل، قام بعدما تفحص المكان الذي لم يكن على مسافة كبيرة من بيزنطة، وكان اسمه بيترا (١٩) Petra ، ببناء خزانات تحت الأرض، وقد أقيمت في منخفض وسط التلال على كلا الجانبين، ولهذا كانت ذات سعة كبيرة، ولوجود مآخذ كثيرة لها، وفجوات فقد تلقت المياه التي نزلت إليها من خلال منحدرات وفتحات، وكأنها آلاف الأبنية، ونقلت هذه المياه إلى المدينة، بوساطة الطرق العادية التي كانت قائمة تحت الأرض.

واجتث الامبراطور من عادات الاتحاد الروماني، واحدة كانت من أكثرها ارباباً، وهي عادة تفتقر ولو إلى القليل من الشرعية، فما الذي كانه هذه العادة؟ هذا ماسوف أرويه الآن:

سببت حاجة الانسان للبقاء حياً ابداع أشياء كثيرة في طرق حياته، ولاسيما ارغام الكثيرين على التخلي عن حرياتهم وتأجيرها، حتى بعض الذين ولدوا من أسر كريمة — فكيف بك بالناس العاديين — خدموا أجراء لدى الذين كانت أوضاعهم أعلى، ومراتبهم أرفع، فكم هي كثيرة الشرور التي سببها الجشع الانساني؟ وكان الذين يتسلمون هؤلاء التعساء بعد شرائهم لخدماتهم يعاملونهم معاملة أشخاص شروهم بالفضة، وكان ايجار اليوم المدفوع مقابل الاكتراء، يعادل شراء انسان حر، وبذلك كان علامة على سوء الحظ، وود الذين تحملوا متاعب هذه العبودية لو يستطيعون رفضها، وعاملهم الذين اكثروهم وكأنهم عبيد آبقين، وفرضوا عليهم العقوبات لجرائتهم، ثم كان الحال مثل حكاية ايسوب Aesop، التي قعد فيها الأسد مريضاً في عرينه، ومضت الحيوانات إليه: وهكذا

مضى في إثر الرجال الأحرار أعداد كبيرة، لكن الذين خرجوا عبر الطريق نفسه لم يكونوا أبداً، وعلى هذه الصورة المربعة كانت هذه العادة، ورغب الامبراطور في اجتثاثها من وسط الدولة، لذلك أصدر كتاباً حرر فيه الذين كانوا بشكل طبيعي أحراراً، لأنه رغب في أن يحكم روماناً أحراراً، وليس روماناً أسرى.

ورسم الامبراطور في السنة الخامسة عشرة لحكمه بألا يعتدي انسان على الديرة في بيزنطة، وذلك بالنسبة لممتلكاتها التي بحوزتها في أي مكان [آذار ١١٥٨]، وأكد هذه التقدمة بوثيقة، دعيت بشكل عام لأنها ممهورة بختم ذهبي بـ "Chrysbull" [الوثيقة الممهورة بالذهب]، ولهذا السبب مامن واحد من الرهبان يمكن أن يرى قابلاً أمام باب المحكمة، لأنه لم يعد هناك من سبب يدعو أحداً من رجال الحكومة للمثول أمام القانون معهم، هكذا باتت الأمور (٢١).

بما أن القانون عزل عدداً كبيراً من المجموع العام للأيام، مثل: الأيام التي يحتفل بها بذكرى تضحيات الرب وذلك من قبل المسيحيين، وكذلك الأيام التي تخلد الرجال العظام [أي القديسين]، فقد نتج عن ذلك أن القضايا القانونية داخل الدولة بقيت معلقة بدون نهاية، ولذلك رأيت رجالاً أصبحوا شيوخاً دون أن يبت بقضاياهم، لابل مات بعضهم والقضايا معلقة، غير أن القانون الجديد [آذار ١١٦٦] ألغى هذه الفوضى ونفاها من داخل الدولة الرومانية، لأن المرسوم الامبراطوري قضى ألا يشغل الاحتفال بأي عيد كل النهار، وقضى أيضاً بعدم السماح للقضايا بجرها من يوم ليوم وتأخيرها، وجرى تحديد الأيام التي يتوقف النظر فيها بالقضايا القانونية، بالأيام التي جلب فيها الرب شيئاً نافعا لبني البشر، وتركت بقية الأيام كاملة للنظر في الأعمال القانونية، ففي الأعياد تم منع النظر بالقضايا صباحاً، لكن توجب أن تفتح المحاكم أبوابها طوال مابعد الظهر، مع السماح بالدخول إلى كل من أراد (٢٢).

ونقل الامبراطور إلى بيزنطة أيضاً الحجر المقدس، الذي كان منذ وقت طويل مضى في أفسوس [عرب سوس]، ووضعها هناك مع بقية الآثار المقدسة [١١٦٩]، فما هو هذا الحجر، وكيف وصل إلى بلاد أفسوس ومن أين؟ إن هذا مأسوف أحكيه الآن:

لقد كان بالنهاية تضحية المنقذ على الصليب، وعندما تسلمته أمه، مددته منكباً على وجهه، حسبما كانت العادة، وكان ذلك على هذا الحجر، وانكبت فوقه، وندبته بعمق، وهذا كان أمراً معقولاً، ووصلت الدموع التي انحدرت من مآقيها بسبب بكائها، إلى الحجر، وبقيت هناك دون أن تجف، وكان شيئاً اعجازياً، ثم كان — كما قيل — أن أخذت مريم المجدلية الحجر، وأبحرت تريد روما، حتى تلتقي بالقيصر تايبيروس، من أجل أن تتقدم بشكوى ضد بلياط واليهود لأن يسوع قد قتل ظلماً، وعندما توقفت لسبب ما في أفسوس، تركت الحجر هناك، ثم غادرت وذهب إلى روما، ومنذ ذلك الحين إلى الآن والحجر موجود في أفسوس، وعندما حمل من هناك، ووصل إلى منطقة داماليس Damalis للعبور به من هناك إلى القسطنطينية، خرجت مسيرة رائعة من بيزنطة استقبلته، وضممت المسيرة أعضاء مجلس الشيوخ الروماني وجميع رجال الدين والرهبان، وتقدم قبل ذلك لوقا، الذي أدار الكنيسة، وكذلك الامبراطور، كل على انفراد، دون بقية الرسميين، وقام الامبراطور بالحقيقة برفع الحجر، ووضعته على كتفه، فهو قد اعتاد على التواضع أكثر من اللازم في مثل هذه الحالات وعبر عن تواضع عظيم وتعبد كبير (٢٣).

٩- نجت مصر في تلك الأيام من مخاطر الاحتلال من الرومان، وبرهنت على قدرتها على الاستمرار والبقاء حية، بطريقة أنا مقبل على شرحها: كانت فيما مضى تشكل جزءاً من المملكة الرومانية، وقد زودت هذه المملكة سنوياً بمبالغ ضخمة جداً، وعندما تعرضت آسيا بشكل حاد للغزو، وسيطر عليها العرب آنذاك، تم الاستيلاء على مصر، ووقعت

تحت حكم المشاركة، وتطلع الامبراطور بشكل كبير لاعادة السيطرة على مصر، لاسيما بعدما نجح في استرداد كثير من المناطق في الشرق لصالح الرومان، ولهذا الغرض بعث إلى مصر رسلاً، أمرهم أن يذكروا تلك البلاد بعادتها القديمة بدفع الجزية، التي تزن كثيراً، والتي جرت العادة بوصولها إلينا، وإذا مارفضت مصر، فإنه يعدها بأنه قبل مضي وقت طويل ستعرض للحرب، فلقد كان هذا ماحمله الرسل، ولأن المصريين رفضوا هذا بفعالية، بنى الامبراطور أسطولاً من المراكب، وناقلات الخيول، مع عدد كبير جداً من السفن الحربية، وحمل جيشاً على هذا الأسطول، وأرسل به إلى مصر [١١٦٩]، وتولى قيادة هذه الحملة أندرونيكوس كونتوستيفانوس السالف الذكر، والذي كان قد أصبح منذ زمن الدوق الأعظم [الأميرال العظيم]، وأبحر الأسطول مسرعاً إلى مصر ووصل إلى هناك في أقرب وقت، وبعث إلى فلسطين، فاستدعى الملك الذي كان هناك [عموري الأول] لالتحاق بالرومان والمشاركة في هذا الصراع، حسبما قضت المعاهدة.

وبالنظر لتأخر الملك، وخشية من أندرونيكوس، أن يبدد الوقت هناك بلافائدة، قرر انزال الجيش إلى اليابسة، وقد استطاع بلا جهد الاستيلاء على مدينة تنيس (٢٤) Tenesion ، وقام بغارات نحو الأمام، فاستولى على المنطقة، وعندما وصلت الأخبار باقتراب وصول الملك، نقل ساحة الحرب إلى دمياط، وهي مدينة مليئة بالسكان وغنية جداً، وخاض الرومان هناك معارك مخيفة، لكن بدون نجاح، لسبب أنا مقبل على ذكره:

لقد تمّ الاتفاق بين الامبراطور والفلسطينيين الذين شاركوا في الحملة على مصر، أن يتسلم الرومان نصف حصّة من البلاد المستولى عليها، وللفلسطينيين البقية، ولهذا بما أن الرومان وصلوا أولاً إلى مصر، قام الملك بقرّر خيانة التأخر عن الحرب، ففي هذا الحال في الوقت الذي يتحمل فيه الرومان جميع المخاطر، يأتي هو بالنهاية، ويصير ممكناً له الاستيلاء

على البلاد بدون جهد، ولأنه وصل متأخراً، أُجِّل القتال بشكل مستمر، ونصح الرومان بفعل ذلك، وفيما كان الرومان لايهتمون إلا قليلاً بكلماته، خاضوا يومياً صراعات بطولية، ولستُ على دراية فيما إذا كان الفلسطينيون — كما قلت — قد رغبوا في أن يتحمل الرومان مسؤولية المخاطرة، حتى يمكنهم التمتع بدون جهد بالنصر، أو أنهم كانوا يخشون من استيلاء الامبراطور بشكل كامل على مصر ولا يريدون ذلك، إن هذا مالاستطيع قوله، ويقال إن الذين كانوا في داخل دمياط قد أفسدوا الملك بالمال، وأقنعوه بفعل ذلك.

ولدى ملاحظة الرومان أنهم غير قادرين لوحدهم على متابعة الحرب، انسحبوا وعادوا إلى بيزنطة، وفي الطريق فاجأتهم عاصفة، ففقدوا عدداً كبيراً من السفن، وهكذا حظيت الحملة الرومانية على مصر بهذه الخاتمة، وخشية من أهل مصر، أن تأتي حملة رومانية ثانية ضدهم، أرسلوا رسلاً إلى الامبراطور، وأعلنوا عن موافقتهم على ارسال مبلغ محدد من الذهب سنوياً إلى الرومان، ورفض الامبراطور السفارة، وأعاد الرسل بدون نجاح، ذلك أنه كان عازماً على الاستيلاء على البلاد بأكملها من جديد (٢٥).

١٠ - وقدم في الوقت نفسه ملك فلسطين إلى بيزنطة ليتقدم بمطالبه إلى الامبراطور [١١٧١] وحصل على ماطلبه، ووافق على عدد من الأشياء الكثيرة، بما في ذلك خضوعه للامبراطور حسب شروطه (٢٦).

وأمر في ذلك الوقت الامبراطور مانويل بايداع البنادقة الذين عاشوا في بيزنطة وبقية الأراضي الرومانية، في السجن العام، وأمر بمصادرة ممتلكاتهم لصالح خزينة الدولة، وذلك لسبب أنا مقبل على حكايته:

قامت أراضي البنادقة على الجزء الأقصى من خليج يونيان [البحر الأدرياتيكى]، وتمتد بعيداً عن الساحل، على شكل حزام بحري، مثل شاطئ رملي، وغالباً مايتقدم البحر خلال النهار، مما يجعل الملاحة ممكنة

خلال ذلك الوقت، ثم يتراجع ثانية، جاعلاً الأرخييل لا يمكن عبوره
لبالسفن ولا من قبل الناس، وهذه الدولة فاسدة الأخلاق، لاتعرف
الخجل ووقحة أكثر من سواها، لأنها مليئة بالبحارة الرعاع (٢٧)، وبما
أنها قدمت فيما مضى قوة حليفة إلى الامبراطور ألكسيوس الأول، عندما
قام روبرت كويسكارد الواسع الشهرة بالعبور من ايطاليا إلى دورازو
[دورس الحالية]، وحاصر ذلك المكان [١٠٨١]، وقد تلقوا مقابل ذلك
تعويضات، ولاسيما بمنحهم مساحة محددة في بيزنطة، وهي باتت تعرف
بشكل عام باسم الامبولون Embolon [الحي] (٢٨)، وكانوا هم
دون سواهم من بين الايطاليين الآخرين والتجار البيزنطيين، لا يدفعون في
حيهم أيّاً من العشور عن تجارتهم للرومان، وجعلتهم ثرواتهم الهائلة التي
حصلوها من ذلك المصدر بسرعة متعجرفين، فقد اعتادوا على معاملة
الناس مثل العبيد، ولم يقتصر تصرفهم هذا على العامة، بل تجاوزوا بذلك
نحو الذين حازوا على مجد مرتبة سيباستوس، والذين تقدموا نحو أعلى
المناصب الرفيعة بين الرومان، فلهؤلاء وجهوا الاهانات.

وغضب الامبراطور جون من هذا السلوك فطردهم من الدولة الرومانية
[١١٢٢]، ولذلك رغبوا وتشوقوا للانتقام من الرومان، وبعدما قاموا
بإعداد أسطول من سفنهم، أغاروا على الأراضي الرومانية واستولوا على
كيوس، ونهبوا جزيرة رودس الشهيرة وكذلك لسبوس Lesbos، وتوقفوا
عند الأراضي الفلسطينية، فحاصروا صور واستولوا عليها، وأقنعوا
سواهم بالتعاون معهم، ومارسوا حملة من القرصنة في البحر لم تعرف
الرحمة على الجنس البشري [١١٢٢-١١٢٥]، ولهذا تقبلهم الامبراطور
على أساس الشروط المتقدمة، ثم رقاهم إلى مزيد من المجد والفخر
[١١٢٦] (٢٩).

إن الرغبة الصادقة التي بدت أنها ناجحة، أمكن للحماقة ازالتها
ومحقها، ولهذا وجهوا ضربات قاسية لعدد كبير من أبناء الأسر الذين كان

بعضهم أقرباء الامبراطور عن طريق الدم، وقاموا بشكل عام باهانتهم بشكل وحشي، حتى في أيام الامبراطور مانويل تابعوا ذلك ولم يكونوا أقل في ممارسة الأعمال نفسها، واتخذوا لأنفسهم زوجات رومانيات وسكنوا مثل الرومان الآخرين في بيوتهم خارج منطقة السكنى الممنوحة إليهم من قبل الامبراطور، ولم يستطع الامبراطور تحمل هذه الأشياء، لذلك شرع بايقاع العقوبات بهم بسبب أعمالهم السيئة، ولقد عُرف البنادقة القدماء باسم «البرجوازية» وذلك نقلاً عن اللغة اللاتينية، ذلك أنهم تعهدوا بالحفاظ على طاعة الرومان، ماداموا يعيشون بينهم لأن اسم [برجوازية أو مواطنين] يفسر هكذا، وقد ميز الامبراطور بين هؤلاء وبين البنادقة الذين جاءوا إلى بيزنطة للعمل بالتجارة.

وقبل مضي وقت طويل، ثار البنادقة ضد اللومبارد [أي الجنويين]، ذلك أنهم كانوا غاضبين منهم، ولذلك دمروا بيوتهم إلى الأساسات، وألحقوا بهم أذى كبيراً [١١٧٠]، واستدعاهم الامبراطور إلى مجلس القضاء، وقضى عليهم بإعادة بناء بيوت اللومبارديين، وأن يعيدوا إليهم على الفور ما أخذوه منهم، غير أن البنادقة لم يرغبوا في فعل أي من هذه الأشياء، وهددوا بالحقاق الضرر بالرومان، وذكروه بالذي فعلوه عندما كان الامبراطور جون مايزال حياً، وعندما فهم الامبراطور هذا، قرر ألا يتأخر بالعمل، ولأنه عزم على أخذهم في اليوم نفسه ووضعهم داخل الشبكة، بعث برسائل إلى جميع الأراضي الرومانية، حيث حدد للذين تولوا الحكم في تلك المقاطعات الساعة التي توجب عليهم فيها إلقاء القبض على البنادقة، وهكذا حدث في وقت واحد أن ألقى القبض على البنادقة الذين كانوا في بيزنطة، وكذلك على الذين انتشروا في أقصى زوايا الأراضي الرومانية، وقد تلتقتهم السجون ومعها الديرة [١٢ آذار ١١٧١].

وبعد مضي بعض الوقت، وبما أن السجون اكتظت بمثل هذه الحشود، تجرأ البنادقة (لأنه يبدو أنه مامن شيء أصعب من هزيمة

الناس اليائسين) تجرأوا على عمل مايلي:

بعدما قدم كل واحد نفسه بمثابة ضمانة للامبراطور من أجل الآخر، كانوا قادرين على الخروج من السجون، وكان بينهم رجلاً كان متميزاً من حيث الأسرة ومن حيث الثروة، فابتاع نفسه من الخزينة مقابل مبلغ كبير مع سفينة ذات حجم كبير، لم ينزل مثلها قط في ميناء بيزنطة، ولهذا عهد إليه الامبراطور بالعناية بها، فتآمر مع البنادقة أنهم عندما يصعدون إلى ظهرها، سوف يبحرون بها ليلاً نحو بلادهم، فتوافقوا على هذا الاقتراح، وعندما هبت ريح مناسبة، قفزوا إلى ظهرها، وغادروا هاربين، وما ان علم الرومان بهذا حتى طاردوهم، وباتوا على مقربة منهم في مكان قرب مضيق أبيدوس [الدردنيل]، وهنا عزموا على احراقهم بالنار الاغريقية، لكن بما أن البنادقة كانوا على دراية بطرائق الرومان، فقد قاموا باجراءات جريئة، وذلك بأن نقعوا بغض الأقمشة بالخل، ولفوا بها جميع السفينة، وبما أن الرومان كانوا غير قادرين على النجاح (لأن النار التي قذفت باتجاه المراكب، إما وقعت أبعد مما هو ضروري، أو انها لم تصل إليها، لابل حتى وإن وصلت صدمت بوساطة الأقمشة وانطفأت في الماء عندما سقطت) عادوا مخفقين.

وبعدما مضى وقت ليس بطويل على وصول البنادقة إلى بلادهم، بنوا أسطولاً، وقاموا بمقاتلة الرومان [١١٧١-١١٧٢]، وهاجموا أولاً يوريبوس Euripos [أي يوبيا]. لكن عندما صدوا سارعوا إلى جزيرة كيوس، وسبب صدهم أن الامبراطور مركز حاميات من الجند كافية في تلك المدن، ولدى وصولهم إلى كيوس سحبوا سفنهم وربطوها هناك، ثم تقدموا لنهب الموقع، وعلى كل حال لقد واجهوا هناك قوة كانت قد عبرت إلى الجزيرة، لأن الامبراطور كان متوقعاً ماحدث، وعندما وقعت الاشتباكات، فقدوا عدداً كبيراً من رجالهم، وأداروا ظهورهم وتراجعوا نحو سفنهم، وفكر الامبراطور بقهرهم بالقوة، ولذلك خطط لارسال قوة

عسكرية، وبحرية ضدهم، لكن كان هناك واحداً، اسمه هرون، شغل منصب أكولاوثوس Akolouthos [قائد حرس البنادقة]، وكان والحق يقال شخصاً مقامراً ومغامراً، غير أنه كان دوماً معادياً لشؤون الامبراطور، وقد اعتقل مراراً بسبب سوء أفعاله، وأدين لتكريس نفسه لأعمال شيطانية، لكن هذا حدث فيما بعد، عندما تناولت العدالة المجرمين، أما الآن، فإنه بسبب اقدامه على افشاء الخطة إلى دولة البنادقة، جلب الاخفاق لمشروع الامبراطور.

وأبحر الأسطول الروماني ليصل إلى ماليا Malea (وهذا رأس [اللبلونيز] يفصله عن جزيرة كيوس رحلة عدة أيام) ليكن هناك منتظراً البنادقة، وكان البنادقة يتوقعون أن يتم صدهم ثم طردهم بوساطة الرجال الرومان الذين — كما قلنا — كمنوا لهم فوق الجزيرة، واشتبكوا معهم من مواقع متفوقة، ثم إنهم بسبب تغلب الرومان عليهم في القتال على الجزيرة، وبذلك عانوا من خسائر عظيمة نزلت بجيشهم، وبسبب أنهم علموا أن الأسطول الروماني كان على الطريق نحوهم، قاموا في آخر النهار بمغادرة الجزيرة، ووصل الأسطول الروماني عند الفجر إلى ليسبوس Lesbos، وعندما سمعوا أخبار ما حدث قاموا بمطاردتهم، غير أن [الأسطول البيزنطي] لم يكن قادراً على تقرير الأمور في معركة تصادمية، لأن العدو تابع فراره ولم يتوقف، وتمكنوا من قهر الكثير من سفنهم الحربية واغراقها مع جميع ملاحيها، لكن البقية وصلت هاربة إلى بلادها وبالنظر لنقص الرجال لديهم، فروا مرعوبين، حيث انه عندما حدث واصطدموا مع جماعة من أهل إبيدامنوس Epidamnos [دورازو] لم يستطيعوا أسر واحد منهم بالقوة (٣٠).

وحصد البنادقة نتيجة تبجحهم ورعونتهم، وأراد الامبراطور أن يسخر من تفريطهم فكتب إليهم كما يلي:

«أظهرت دولتكم منذ زمن بعيد جهالة عظيمة فيما يتعلق بما ينبغي صنعه، لأنكم عندما تقاطرتم من قبل على الأراضي الرومانية بمثابة آفاقين كنتم وقتها، والحق يقال، قد استولى عليكم الفقر، ومع هذا أظهرتم استخفافاً عظيماً نحو [الرومان]، وكانت لديكم مطامح كبيرة لخياتهم لصالح أعدائهم، ومن فضول القول أن نعدد ونذكر ماهية أوضاعكم الحالية، وتذكروا أنكم قد طردتم بحق وعدل من أراضيهم، وعبثاً فعلتم حين قررتم أن الصراع معهم سيكون على مستوى واحد، فأنتم دولة لا تستحقون من حيث القدم هذا الاسم، ولقد بتم الآن تتمتعون أخيراً ببعض الشهرة، لكن ذلك على حساب الرومان، مع أنكم لا تماثلونهم في القوة، لتأمل هذا، لقد بتم مضحكة من كل جانب، فكيف حدث هذا؟ إنه لا يمكن حتى بالنسبة للنخبة بين الدول، في أي مكان، على الإطلاق، إثارة حرب ضد الرومان دونما عقوبة»، هكذا كتب إليهم الامبراطور، وبهذه الشدة، وبما أنهم كانوا غير قادرين بعد على القتال مع الرومان بوساطة أسطول كبير، قاموا منذ ذلك الحين بالتربص والانتظار، ونشطوا كقراصنة حتى عانوا من ضربة ثانية (٣١).

وهكذا سارت هذه الأمور، وبدأت الأحوال في كليكية تصبح في أوضاع سيئة، لأنه بعدما قضى طوروس أجله [١١٦٨]، استولى أخوه مليح على المنطقة، وبدأ يتصرف بشكل لم يكن أقل سوءاً من أخيه، نحو الرومان، وجرى اختيار ميخائيل براناس أولاً حاكماً للكليكيين [حوالي ١١٦٠-١١٦١]، ثم جاء بعده أندرونيكوس الذي لقبه يوفوربينوس، وقد ذكرنا من قبل أن كان ابن عم للامبراطور [١١٦٢]، ولكن بما أنه لم يحقق شيئاً يستحق الذكر هناك، فقد باتت أحوال الايزوريين منهارة، ولذلك تتابع الحكام بكثرة، وخلف أحدهم الآخر بالحكم، وكان بينهم قسطنطين، الذي كنيته كالامانوس، متميزاً، ومع ذلك لم يحقق شيئاً [١١٦٣-١١٦٤] وثانية حوالي [١١٧٣]، وكان

كالامانوس بالحقيقة هو الذي أزعج الأرمن في كثير من الطرق، وقد أصيب بجرح كبير في إحدى المصادمات (٣٢).

وجاء في هذه الآونة [هنري الأسد] دوق السكسون، وهم شعب كبير العدد ومزدهر، إلى بيزنطة، ومعه حاشية عظيمة، وذلك من أجل مصلحة ملك ألمانيا [مع مانويل] (لأن كل واحد منهما حمل شكوكاً عظيمة تجاه الآخر)، وبعدما أنجز ما جاء من أجله، غادر عائداً [١١٧٢] (٣٣).

وفي هذه الآونة، تطلع الصربون نحو الثورة (٣٤)، وذلك بعدما ضغط عليهم البنادقة كثيراً في هذا الاتجاه، وبما أن ستيفن [اسطفان الثالث] الذي حكم هنغاريا، قد غادر هذه الحياة [١١٧٢]، فقد أصبحت الأمور هناك مليئة بالغليان، وتنبه الامبراطور للمخاطر، فذهب إلى سارديكا، وعندما كان مقيماً هناك، راسله الهنغار، وسأله ارسال بيلا، ليكون ملكاً عليهم، لأنه بعدما مات ستيفن، تطلع معيار العدالة نحوه، وكان بيلا قد أفرد من قبل ليكون صهراً للامبراطور — كما ذكرنا في الروايات المتقدمة — ولكن بما أن قانون القرابة كان يمنع ذلك، فقد تزوج أخت الامبراطورة، وبناءً عليه، تمتع، بعدما تم إعلانه قيصرًا، بأعلى رتبة عرفتها بيزنطة آنذاك، ثم كان بعدما سمى مانويل ملكاً، أن أرسله إلى هنغاريا مع زوجته، إنما بعدما تعهد بالأيمان أن يرعى مادام حياً ويحافظ على كل ما فيه فائدة للامبراطور وللرومان، ورافقه إلى هناك ممثلاً للامبراطور، ومساعداً له في عمله: جون [كومنينوس] البروتوسيياتوس، مع آخرين من الأرستقراطية (٣٥).

وبعدما ثبت الامبراطور أركان بيلا بالسلطة، انصرف نحو دولة الصرب، وكان متشوقاً للانتقام منهم بسبب تسرعهم وحقاقتهم، وحدث أمر، أنا نفسي تملكني الدهشة نحوه، هو أن الجيش لم يكن قد اكتمل اجتماعه، ومع هذا قام الامبراطور بغزو تلك البلاد ومعه آلاف قليلة من

الجنود، على الرغم من كون البلاد بلاد منحدرات وشعاب، وقد زحف الامبراطور نحو الأمام ليقا تل الزوبان العظيم، ومع أن هذا جمع حول نفسه حشوداً هائلة من القوات الحليفة من كل جانب، فقد هرب على الفور، لأن الرعب استولى على روحه، وأرسل رسله إلى الامبراطور، وسأل أن يحظى بعفو الامبراطور عن أعماله الشريرة، وعندما أخفق في اقناع الامبراطور بهذا، سأل عما إذا كان ممكناً له أن ينال اجتماعاً بالامبراطور، دون أن يلحقه أذى أو ضرر شخصي.

وبناءً عليه، عندما وافق الامبراطور، جاء واقترب من فسطاط الامبراطور وهو مكشوف الرأس والذراعين حتي المرفقين، وكان حافي القدمين، وقد ربط حبلًا حول رقبته وحمل سيفاً بيده، وقدم نفسه إلى الامبراطور ليفعل به ما يشاء وليعامله حسبما يرغب، وعطف عليه مانويل، وألغى التهم المثارة ضده، وبعدما نجح الامبراطور على هذه الصورة، غادر بلاد الصرب، وكان برفقته الزوبان العظيم (٣٦)، وحدث في هذه الأثناء أن ألقى القبض على هرون، الذي ذكرته من قبل، وسملت عيناه للأسباب التي تقدم ذكرها.

١٢- هكذا مضت الأمور في الغرب، لكن آسيا عانت من المصاعب ثانية، لأن نور الدين أتابك حلب، والسلطان الذي حكم ليكانيا [أي قلع أرسلان الثاني صاحب قونية] ومليح مقدم الأرمن، وحاكم أنقرة وبقية غالشيا وافقوا على شيء واحد، وهو القيام بحملة ضد الرومان [١١٧٣] (٣٧)، ولهذا زحف الامبراطور مسرعاً من الغرب وعسكر في أحد الأماكن حول فيلادلفيا.

وفيما هو مشغول بهذا، جاء الألمان والبنادقة وحاصروا أنكونا، بعضهم بالبحر، والبقية بوساطة جيش بري [١١٧٣]، وكان واحداً من الرجال بينهم [كرستيان أوف مينز] الذي حمل رتبة أسقف، هو الذي تولى قيادة

الألمان، وبعد مضي بعض الوقت على الحصار، نقصت الحاجيات في أنكونا، وبات من المتوقع سقوط المدينة خلال وقت قصير، وعلى كل حال، كان هناك امرأة، ذات أصل ايطالي [ألدرودا فرانجيبيين Al-druda Frangipane كونتية بيرتينورو Bertinoro]، وكانت أكرم من أي واحد آخر، ولاسيما الرجال، ونظراً لأنها كانت محرومة من زوجها، فقد حافظت على حياة نقية منذ ذلك الحين فصاعداً، وعندما علمت بحقائق الأمور المتعلقة بأنكونا، وأنها باتت على شفير الهاوية، امتلأت غيرة (لأنها حافظت على صداقتها مع الرومان)، وبادرت مسرعة لمساعدة المدينة من منفذ من داخل ممتلكاتها، وبحكم أنه لم يتوفر لديها ما يكفي من ضروريات الحرب، أوقفت أولادها [أي ممتلكاتهم] وبذلك قدمت كميات كبيرة من الذهب، وكتبت إلى أهل المدينة، وقالت إنه ينبغي عليهم أن يحافظوا على شجاعتهم عالية، وألا يتخلوا عن أنفسهم إلى العدو، وعندما علم شعب أنكونا بهذا، ازدادت شجاعتهم وخططوا لمهاجمة الأعداء، وما ان لاحظ الأعداء ذلك حتى بادروا إلى تقليص انتشارهم، وفي الوقت نفسه، قامت بعدما عينت قائدة للمدينة، بتوحيد رجال أنكونا مع جيشها، وعندما تم الهجوم، لم يستطع الألمان الصمود أمام المهاجمين، فهربوا أمام حشود امرأة وفقدوا العديد من رجالهم، وكاد قائدهم الأسقف أن يقع بالأسر، لولا أنه نال السلامة بالفرار، وما كان منها إثر هذا إلا أن تحولت ضد البنادقة، الذين حاصروا المدينة — كما ذكرنا — وهاجموها من جهة البحر، وبعدها تغلبت عليهم بالقتال، عادت إلى المدينة، وهي تهلل باسم الامبراطور العظيم، مع هتافات مديح له (٣٨).

وخطط الامبراطور الذي كان معسكراً — كما ذكرنا — في فيلادلفيا، لايجاد طريقة يتمكن فيها بسهولة من ابعاد البرابرة المذكورين عن بعضهم بعضاً، وفي الحقيقة كتب إلى سلطان قونية، ووبخه لقلّة وفائه،

وسأل عن السبب الذي أدى به إلى اعلان الحرب بشكل مفاجيء ضد الرومان، ولقد تعلل بعدد كبير ومتنوع من المعاذير وقال إن خليفتهم (٣٩)، وهو أعلى رجال الدين بينهم، كان غاضباً منه، لأنه وافق على هذا الحد من الصداقة مع الرومان، ولقد كان هذا ما قاله، وقد أعاد الرسول فارغ اليدين، وعندما سمع الامبراطور بهذا، رد على ذلك بارسال سفارة ثانية، وكتب إليه هكذا:

«إذا كان قد بدا لك منذ بعض الوقت الذي مضى أن تتحد مع الآخرين من أتباعك، في سبيل مهاجمة الرومان، تخل عن حماقتك وتسرعك، وأقم حرساً على بلادك، لأن الجيش الروماني سوف يصل إليها خلال خمسة عشر يوماً»، وعندما تسلم السلطان هذه الرسالة، ارتجف قلبه رعباً، وتخلّى عن خططه، وبحث في شروط للسلام من أجل المستقبل، وبالنسبة للفتات التركية التي لم يتأكد لديها أمر المؤامرة، انفصلت، لأن شطراً كبيراً منها تخلّى عن السلطان والتحق بالامبراطور (٤٠)، ولقد ازداد الامبراطور فخاراً بهذا النصر الذي ناله دون بذل للدماء، وقام إثر ذلك بأخذ طريق العودة إلى القسطنطينية.

وعلم بهذا ملك فلسطين مع أمير أنطاكية، فامتلاً لذلك بالشجاعة، وتحركا ضد برابرة حلب، وألحقا بهم أضراراً بالغة (٤١).

١٣ - وقام الامبراطور في هذه الآونة، فصنف بنفسه الخطاب الذي سيلقيه في المجلس، ولم يصنفه بالتعاون مع العاملين (٤٢)، الذين اعتادوا على املائه وكأنه من عند الامبراطور، وكانت مقاصده عميقة التفكير، انطلقت من روح على درجة عالية من النبل، وقد زود الخطاب بما فيه الكفاية من الأفكار، وجّهز بعدد كبير من الحجج المنطقية، وكانت صياغته نقية، وأسلوبه بسيط، وباختصار لم يكن مزوقاً، بل كان طبيعياً، يعبر بوضوح عن كاتبه، فلقد كان الامبراطور، كما قلت مراراً، شخصاً

لا يمكن مقارنته بأحد في القدرات الطبيعية، فلقد لاحظت أنا شخصياً، عندما ناقشت معه مراراً كتابات أرسطو، أنه تمكن بشكل طبيعي من حل الكثير من المسائل العميقة المختلف حولها، وهذا أمر أعتقد أنه لم يتهياً مطلقاً، وكان ممكناً لأي واحد آخر، ولقد تمكن ببساطة رائعة من توضيح عدد كبير من النقاط في الكتابات المقدسة، التي بقيت حتى الآن بدون حل، أو أنها لم تفسر تفسيراً صحيحاً، وفي الحقيقة يبدو لي أن كتابة هذه الأشياء هنا، معارض لأحكام التاريخ.

الكتاب السابع

١- لقد كان هذا ما أنجزه الامبراطور مانويل حتى الآن في القارتين، وسأقدم فيما يلي تسجيلاً لما حلّ به، عندما كان في حملة في آسيا، ذلك أن قلعج أرسلان، الذي ورد ذكره كثيراً فيما مضى من روايات، والذي زوده الامبراطور بكميات كبيرة من المال، حسبما قلت [كذا]، قد ارتقى إلى درجة عالية جداً من القوة، وكان قادراً على حرمان عدد كبير من الحكام من إماراتهم، لاسيما أنه حصر على شاهنشاه، الذي كان أخوه، وصدرًا عن الأصل نفسه، وكان يحكم غانغرا وأنقره، وهما من مدن غاليشيا، فقد وضعهما تحت سلطته، وبما أنه لم يكن قادراً على قتله، اضطره للتجول بين جميع الدول وبني البشر بمشابة غريب وأجنبي، كما أنه لم يُعد إلى الامبراطور أياً من المدن التي كان قد استولى عليها، كما أنه لم يرغب بتنفيذ أي من بقية الأشياء، التي كان وافق عليها فيما مضى، ولقد عامل جميع الناس بتكبر ورعونة، ولم يكن منضبط الرغبات، ولدى تفحص الامبراطور لهذا وتقديره له غضب غضباً شديداً، وكان مزعوجاً تجاه القضية، لكن بما أنه شغل عن هذه الأشياء بمشاكل الغرب، لم يرغب في إثارة الذين كانوا في آسيا، وعندما لم تبق هناك أية حروب في الغرب، ولم يظهر بالأفق القريب أي شيء من هذا القبيل، لأنه كان ناجحاً هناك في كل شيء، قام بحشد قوة كافية، وقرر الجواز إلى هناك (١) [آسيا].

وما أن سمع قلعج أرسلان بهذا حتى بعث برسله إلى الامبراطور، معلناً موافقته على القيام بتنفيذ مختلف القضايا تبعاً لأرادته، وطلب أن تقوم القوات الرومانية المنوي إرسالها إلى آسيا، بالعسكرة بالمدن التي يختارها الامبراطور، وهو سيقوم شخصياً بالالتحاق بالقوات الرومانية في الصراع

من أجل هذا المقصد، وبعدما تسلم الامبراطور هذه [الرسالة] بعث ألكسيوس بتراليقاس ومعه جيش وصل تعداده إلى ستة آلاف، وعهد إليه بمبلغ من المال، اعتقد أنه يكفي للانفاق على الحرب، وعلى هذا الأساس انطلق ألكسيوس نحو آسيا، وعندما سمع قلعج أرسلان أن الجيش الروماني بات قريباً، أنذر المدن التي مازالت لم تقهر من قبله، وعرض عليها الاستسلام قبل وصول جيش الامبراطور، وإدراكاً من هذه المدن أنها لن تستطيع مقاومة كل من الجيشين الروماني والتركي، تخلت بدون رغبة له، وما ان كسب السلطة على هذه المدن، حتى رفض التخلي عن أي منها وتسليمها إلى الرومان.

وكان الامبراطور لهذا السبب مزعوجاً، وعزم على الانطلاق نحو الحرب فوراً، لكن بما أن شؤونه لم تسمح له (لأن ربيع [١١٧٥])، كان قد مرّ، وهو الموسم الموائم بشكل خاص للأعمال العسكرية، وكان قد خطط ليقوم بأشياء متنوعة مفيدة للرومان، وعلى الخصوص بناء مدن حيثما رغب، إضافة إلى المصيصة، وهي مدينة شرقية، كانت تسعى آنذاك للالتحاق به، وكان لهذا سيكون سهلاً للرومان الاستيلاء عليها) لذلك عمل حسبما يلي:

أرسل إلى بافلاغونيا ميخائيل الذي كانت كنيته غابراس، وهو رجل — كما قلت مراراً — قد ارتقى إلى مرتبة سياستوي، وكان خبيراً ممتازاً بالأعمال العسكرية، وأخذ معه شطراً من جيش، وكانت البقية سيتم حشدتها من قرى قامت هناك حول طرابزون وأوينانيون Oinaion، ومدن بنطش، وبعدما قام بجمعها، أمره [مانويل] بالسير إلى المصيصة.

وحدث في الوقت نفسه حادث كان كما يلي: كان لجون كانتاكوزينوس — الذي تحدثنا عنه مراراً في الروايات المتقدمة — ولد اسمه مانويل، بهي الطلعة وسيماً، وكان متفوقاً بالقوة على جميع قرنائيه وأتباعه (٢)، وقد

تورط في أعمال ممنوعة [أي خيانية]، ولهذا وجه إليه الامبراطور في البداية النصيحة، محاولاً منعه من التورط بمثل هذه الأشياء، ولكن عندما تمسك بتهوره، دون أن يكبح نفسه، أمر به الامبراطور إلى السجن، وقد حدث [أمر ما] هو طبيعي بالنسبة لبعض الذين في وظائف عليا، (عندما يحاولون في كثير من الحالات جذب انتباه الامبراطور لهم ونيل عطفه)، فعندما وصل إلى السجن حرّموا الفتى من عينيه، وذلك خلافاً لارادة الامبراطور، وعندما سمع الامبراطور بهذا، غضب كثيراً، وأقسم أن هذا اقترف بحق الفتى دون معرفته، ومع هذا فقد تحمل الآلام، لأنه لم يعرف كيف يمكنه تسويغ معاقبة الذين فعلوا ذلك.

٢- وكنا قد ذكرنا أنه قد بعث ميخائيل [غابراس] إلى المصيصة، وقام هو نفسه بجواز مضيق داماليس [البوسفور]، وتوجه مباشرة إلى ميلانغيا Melangeia [١١٧٥]، وبعدما قام بحشد قوة كافية من بيثينا والرينداكوس Rhyndakos ، توجه إلى سهول دوريليون Dor-ylaion ، بهدف شحن الحصون الرومانية هناك بالمؤن، مادام السلام مازال قائماً، وأيضاً بهدف تشجيع الذين كانوا معادين للسلطان، وكان هذا هاماً بالنسبة له، وذلك بالإضافة إلى إعادة بناء دوريليون.

وكانت دوريليون فيما مضى مدينة عظيمة مثل أي مدينة في آسيا، وتستحق اهتماماً كبيراً، فقد كانت تهب عليها نسائم لطيفة، وامتدت السهول حولها، وكانت ناعمة جداً، وتقدم منظراً على درجة عالية من الجمال، وكانت هذه السهول خصبة جداً تنتج كثيراً من الأعشاب وتعطي قمحاً رائعاً، وكان هناك نهر، جميلاً أن تراه، حلواً أن تتذوق مياهه، يجري في وسطها، وفيه كميات هائلة من الأسماك التي تسبح فيه هناك، ويصطاد السكان الكثير الكثير ولا يعانون من النقص، وكان في هذه المدينة أبنية جميلة بُنيت في أيام القياصرة المتقدمين من الميليسينوي Melissenoi ، كما وكان هناك قرى مكتظة بالسكان وينابيع دافئة،

وحمامات ذوات أعمدة وقناطر، مما يحقق البهجة ويجلبها للناس، وكان بالعادة أن يعطي المكان وفرة من المنتوجات، لكن عندما وصل هجوم الأتراك على الأراضي الرومانية ذروته، هدموا المدينة ودمروا حتى الأساسات، وجعلوها خالية من السكان، وباد هناك كل شيء، ولم يبق هناك أدنى أثر من عظمتها الماضية، هكذا كانت هذه المدينة (٣).

وكان في تلك الآونة حوالي الألفين من الأتراك المتجولين، معسكرين حسب عوائدهم حولها، وبعدما قام الامبراطور بطردهم من هناك، وضع حاجزاً أحاط بالمكان ليس بعيداً عن المدينة، وأعدّ العدة لبناء أسوار هناك، وهكذا بُنيت المدينة بسرعة، ممثلة في داخلها خطة المدينة القديمة، مع سور يحيط بها، وله أبعاد متساوية من كل جانب، ولم تكن بعيدة عن رابية اصطناعية شيدت فيما مضى لبناء قلعة عليها، واعتاد الامبراطور أن يخرج يومياً من هناك مع عدد قليل من الرجال، ويكمن، ويفاجئ الأتراك وجهاً لوجه وبذلك قتل عدداً كبيراً منهم، لابل حتى إنه قتل بعض الشخصيات البارزة بينهم، لأن كثيراً من الأتراك لم يتوقفوا عن القدوم من المناطق الداخلية، والتهور بالغارة بقصد اعاقا أعمال البناء، ثم قام الامبراطور أيضاً بارسال شاهنشاه، الذي سلف لي ذكره، والذي جاء فيما مضى بمثابة لاجئ إلى الامبراطور، لقد بعث به إلى ماوراء أراضي قونية، وذلك بعدما زوده بالمال، ورافقه أيضاً جيش عندما ركب الطريق إلى بافلاغونيا، ولكنه لم يذهب بعيداً، لأنه اصطدم بقوة تركية كانت تنتظره، قتلت كثيراً من الرومان الذين كانوا معه وحصلت على غنائم كافية، ونجا شاهنشاه بكل صعوبة، وعاد إلى الامبراطور مرعوباً، وهكذا انتهت أعمال هذا الرجل دوماً بنهاية سيئة، فهذا ما كان قد صنع في دوريليون.

ووصل ميخائيل غابراس مع جيشه إلى المصيصة، ووجهت إليه الدعوة من قبل الذين كانت المدينة في أيديهم للدخول إليها مباشرة (٤)،

ونظراً لوجود قوة أخرى بعث بها قلعج أرسلان للغرض نفسه كانت معسكرة هناك ليس بعيداً عن المدينة، أعوزته الشجاعة للدخول، ذلك أنه حمل في نفسه ريبة عظيمة نحو الذين كانوا بالداخل، وكان يخشى أنهم يخططون لمؤامرة ضده، ولهذا الأسباب أرسلوا رهائن إليه، وقدموا عن طواعية القلعة إلى الرومان، لكن بعض الخوف استولى على الرجل فجأة، مما دفعه إلى الانسحاب لعذر أو آخر، حتى ان الذين كانوا في المدينة باتوا يخشون أنه عندما سيتولى قلعج أرسلان على المدينة، بسبب تأخر الرومان وتقاعسهم الطويل، سيصبحون في وضع يكرهون فيه بشكل دائم سيدهم المستقبلي، وقاموا، بدون معرفة من حاكمهم، بالتخلي عن المدينة إلى الأتراك، وانطلق ميخائيل من هناك وعاد إلى الأراضي الرومانية، دون أن يتذكر الرومان، الذين — كما قلنا — كانوا في القلعة، أو يتذكر سواهم من الآخرين.

وانتهت على هذه الصورة الأعمال في المصيصة، وعندما علم الامبراطور — الذي كان مايزال مقيماً حول دوريليون — بما حدث، بعث بالخصي توماس إلى قلعج أرسلان، وقد ضغط عليه بطلبه إعادة المصيصة، واتهمه بإهمال أيمانه، وهدده أنه إذا لم يتوقف عن إلحاق الأذى بهذه الطريقة بالرومان، لسوف يعاني بعد وقت ليس بالطويل من انتقام عادل، لكن من كان توماس هذا، إن هذا ما سأوضحه فيما يلي:

لقد ولد في جزيرة ليسبوس Lesbos ، وجاء من أسرة مغمورة، وبالنظر إلى أن لديه صنعة جديدة بالتقدير، فقد ذهب إلى بيزنطة، وأخذ يمارس صنعة قطع عروق الناس [حجام]، وبذلك كسب نفقات معيشتة، ولكن يبدو أن مامن شيء على الإطلاق لن يكون مفيداً عندما يكون الحظ موافقاً، فصحيح أن توماس مارس أدنى الحرف مكانة، لكن ببراعته أصبح عظيماً مثل أي رجل آخر في البلاط الامبراطوري، وبعدما حصل على مبلغ كبير من المال في وقت قصير، غادر بعد مضي

عدة سنوات هارباً إلى فلسطين مع أمواله، لكن بما أن الأمور لم تمض هناك بما يتوافق مع رغباته، عاد ثانية إلى الامبراطور. إنها بعدما لاقى العطف منه والرعاية، برهن فيما بعد أنه غير مُرضٍ، ولهذا أُلقي بالسجن في القصر، وهو السجن الذي يعرف باسم الفيلي [أي العاجي]، وهناك أمضى بقية حياته، لكن هذا حدث له فيما بعد، المهم أنه ذهب آنذاك إلى السلطان — كما قلنا —، وبما أنه لم يمتلك الرغبة في تنفيذ أي من هذه الأشياء التي جاء من أجلها، فقد عاد فارغ اليدين إلى الامبراطور، وكاد في ذلك الوقت أن يتمكن الأتراك الذين تربصوا له على الطريق أن يقتلوه (١٥).

٣- وتمكن الامبراطور في مدة أربعين يوماً من تشييد المدينة، وبعدها أحاطها بخندق أسكن فيها كثيراً من الرومان، وترك حامية كافية لحمايتها، غادرها وعسكر في منطقة حول رينداكوس، وبعد توقف قصير هناك، قاد جيشه وتقدم نحو الأمام، وعندما لاحظ أن عدداً قليلاً بقي برفقته (لأن الجزء الأعظم من الوحدات العسكرية قد ذهب إلى بلاده، دون أن يعلم بذلك، مع أنه كان من قبل قد أعطى أوامر مؤكدة بعدم مغادرة أي واحد من ذلك الجيش) أرسل رجلاً اسمه ميخائيل، وكان من أصل بربري (في الحقيقة كان اسمه السالف اسحق) (٦) من الذين خدموا في حواشي بيته، أرسله لإنزال عقوبات جسدية ببعض الفارين من الجند، وقام الامبراطور شخصياً بالمرور خلال السهول التي تقود إلى لامب Lampe [في فريجييا] (٧)، وأعاد بناء إحدى القلاع (وكان اسمها سوبلايون Soublaion) (٨)، وقد أقيمت في مكان حول ينابيع مياندر، وكانت قد سقطت بفعل الأيام، ومن هناك شرع الامبراطور بالاشتباك مع الأعداء، لكن ليس بالطريقة التي اعتادها، بل ثار واندفع بشكل لا يقاوم مثل النار أو الماء.

وبينما الامبراطور مشغول بهذه الأعمال، كان ميخائيل المذكور أعلاه،

يحمل حقداً دفيناً ضد الرومان منذ زمن طويل مضى، لذلك اتخذ غضب الامبراطور عذراً له، فكان يمدّ على الأرض كل من التقاه، ويجعله ينكب على وجهه، ثم يقوم بدون استجواب بغرس الحديد في عينيه، ويتركه هناك تعيساً، لا يفقه حتى لماذا أنزل به البلاء، وكان بعض الذين ابتلوا في بعض الأحيان ليسوا حتى أعضاء في الجيش، بل فلاحين، أو عاملين بالتجارة أو أنواع أخرى من الناس، وقد انتقل إلى أماكن أخرى، وشوه أجساد أعداد كبيرة من الرجال، واستمر هذا حتى علم الامبراطور بالذي كان يحدث (لأنه كان قد أكمل بنجاح الأعمال بالحصن، وعاد إلى بيزنطة) فأوقفه وأوقف أعمال انتقامه، لابل أكثر من ذلك كاد أن يتعرض إلى نوع الجزاء نفسه، لكن الامبراطور قدّر أنه لن يتجرأ ثانية على إنزال مثل هذه الأشياء ثانية بالرومان، لذلك عفا عنه، وحرره من التهم الموجهة إليه، وعلى كل حال لم يمض وقت طويل على هذا، حتى تناولته العدالة، وأزالته من بين الجنس البشري، وأنزلت بأولاده سوء المصير.

ثم استدعى الامبراطور ميخائيل غابراس للمحاكمة، وعندما أدانه (لأنه رسم أنه من الممكن انزال عقوبات به وفقاً لارادته) وضع الأغلال في قدميه مع الحديد، وألقاه لبعض الوقت في واحد من سجون القصر، لكنه استدعاه بعد ذلك وأعاد إليه اعتباره ثانية مع رتبته السالفة.

وعندما علم قلعج أرسلان بهجوم الامبراطور (لأن ماحدث حول دوريليون أثر بشكل حاد على معنوياته) أرسل إلى بيزنطة واحداً من ذوي النفوذ العظيم في بلاطه وكان اسمه غفراس (٩)، ليتقدم بالرجاء إلى الامبراطور علّه يرضى بأخذ أي من القلاع تبدو مرضية له، ومن ثم يقلع عن غضبه عليه [السلطان]، ومهما يكن من أمر، رفض الامبراطور هذه الرسالة، وأعاد غفراس، وحشد عساكر كثيرة جداً من الصرب والهنغار، واستعد بكل عناية للحرب، وخشية منه أن يحتاج الجند والخيول إلى ضروريات الحياة، جرى سوق عدد من الثيران من القرى في تراقية، وكان

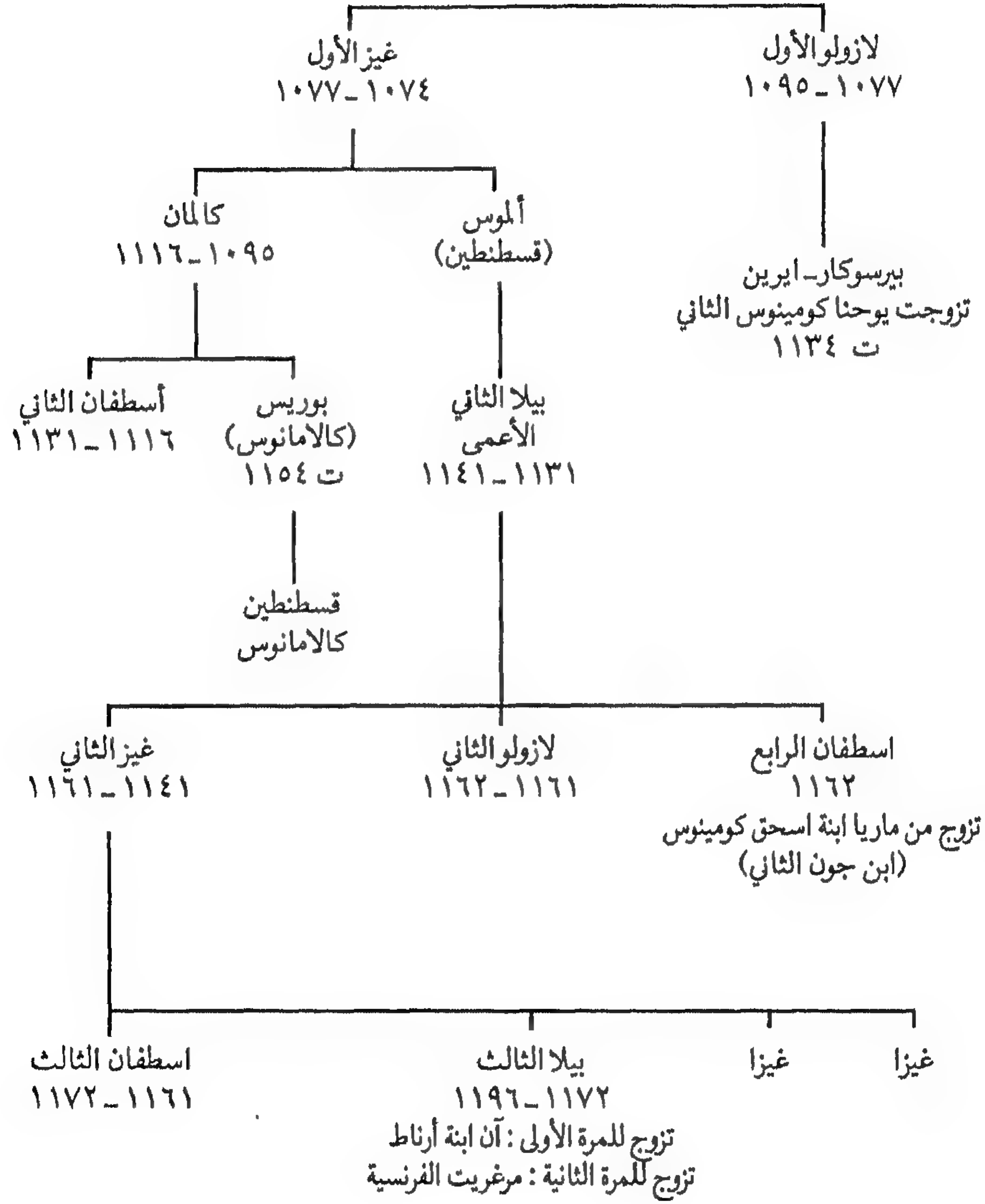
هناك ما يزيد على ثلاثة آلاف عربة.

وعندما ظهر ربيع [١١٧٦] جاز إلى آسيا، وحسبها جرت العادة حشد عساكره عند رينداكوس Rhyndakos لم يصل الحلفاء من الهنغار والصرب —الذين كانوا رعايا للرومان— في اللحظة المناسبة، مما سبب قيامه بالحملة في موسم الصيف، ولذلك السبب بالذات واجهت أموره الدمار: ففي الأمور العسكرية والنشاطات الحربية، التوقيت هو الأكثر أهمية من أي شيء آخر، وهكذا سار الامبراطور خلال لوديكييا والمناطق المجاورة لمياندر، واضعاً بذهنه العسكرة والاستقرار مع القوات جميعها من أجل حصار قونية، وبما أن نو—قيسارية كانت تسعى للانضمام إليه، فقد بعث بابن أخته أندرونيكوس باتاتزس Batatzes إليها مع جيش، على أن يرتحل من خلال مناطق بافلاغونيا، وكان مانويل قد قام قبل مغادرته بيزنطة بارسال أسطول قوامه مائة وخمسين سفينة إلى مصر، وذلك بالوقت الذي كان ذاهباً به مع القوات جميعها للحرب ضد قلع أرسلان (١٠)، ولهذا السبب افتقر إلى مايكفي من قوات [للحملة] ضد مصر...

[انقطع النص هنا، فخلال زحفه نحو قونية، انهزم مانويل في ١٧-أيلول ١١٧٦ هزيمة ساحقة، وسحق جيشه إلى أبعد الحدود في معركة ميريوكيفالون Myriocephalon . ثم كان أن توفي عام ١١٨٠].

الملحق الأول

شجرة نسب ملوك هنغاريا



NOTES TO BOOK VII

8. Ibid., 221–27 (esp. 224): Soublaion allegedly derives from ancient Siblianoi, and is also called by the Byzantines Choma (Nicetas, *Hist.*, 231), hence is equivalent to modern Homa, northwest of Dinar.

9. Bryer, "Gabrades," 180 (No. 9).

10. Chalandon, II, 504–07, 550. No Byzantine attack was made on Egypt at this time; the attack on Nea Kaisarcia by Andronicus Batatzes and the Dānīshmendid Dhū-n-Nūn failed, because of disagreement of the two commanders, and Batatzes was slain. On the route Manuel followed in 1176, and the location of Myriokephalon, see W. M. Ramsay, "Preliminary Report to the Wilson Trustees on Exploration in Phrygia and Lycaonia," *Studies in the History and Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire*, ed. W. M. Ramsay (Aberdeen, 1906), 235–38.

NOTES TO BOOK VII

36. Jireček, *Serben*, I, 261–62.
37. The ruler of Ankyra and Galatia at this time was probably Shāhan-Shāh, restored by pressure of Nūr-ad-Dīn on Kilidj Arslan. The latter was compelled to yield to Nūr-ad-Dīn in 1173, and restore the Dānishmendid heir to Sebastia/Sivas. The alliance was destroyed by the deaths of Nūr-ad-Dīn and Mleh in 1174, which left Kilidj Arslan free to expand his realm at the expense of lesser princes: Chalandon, II, 494–98, 501; Gibb, "Nūr-ad-Dīn," 527; Cahen, "Turks in Iran and Anatolia," 678–79.
38. Chalandon, II, 597; Lamma, *Comneni e Staufer*, II, 244–53; Paolo Lamma, *Oriente e occidente nell' alto medioevo*, Medioevo e umanesimo, 5 (Padua, 1968), 383–94; Peter Schreiner, "Der Dux von Dalmatien und die Belagerung Anconas im Jahre 1173. Zur Italien- und Balkanpolitik Manuels I.," *Byzantion*, 41 (1971), 285–311 (includes German translations of this passage and of Nicetas' account of the siege).
39. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 339.
40. At the death of Nūr-ad-Dīn, 1174, Shāhan-Shāh and the Dānishmendid heir, Dhū-n-Nūn, fled to Manuel; Chalandon, II, 498.
41. Baldwin, "Latin States," 561.
42. The *a secretis* were notaries; the *protoascretis*, probably referred to here, was director of the imperial chancery: Bréhier, *Monde byzantin*, II, 167.

BOOK VII

1. Late 1174 or early 1175: Chalandon, II, 502.
2. Nicol, *Kantakouzenos*, 4–5 (Nos. 2 and 3).
3. Ramsay, *Historical Geography*, 212–213 (he considers the fish inedible); Vryonis, *Asia Minor*, 123, 153 (with a translation of this passage). The caesar in question must have been Nicephorus Melissenos, who received his title at the outset of Alexius I's reign. P. Wirth, "Kaiser Manuel I. Komnenos und die Ostgrenze. Rückeroberung und Wiederaufbau der Festung Dorylaion," *Byzantinische Zeitschrift*, 55 (1962), 21–29, compares the accounts of Kinnamos, Nicetas, Eustathius (in an unpublished oration), and Euthymius Malakes on this event.
4. Chalandon, II, 502–03, suggests that partisans of Shāhan-Shāh held the town, and that the latter had been sent from Dorylaion to join the Byzantine expedition.
5. *Ibid.*, 502–04.
6. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 140.
7. Ramsay, *Cities and Bishoprics*, I, Pt. 1, 227–28: the plains are between the upper Büyükmenderes and the Acigöl; the modern place-name Lappa, mentioned by Ramsay, is no longer found on maps.

NOTES TO BOOK VI

24. Perhaps Tinnis, a mistake for Pelusium (modern al-Faramā'), captured at this time.
25. While this account makes numerous factual errors and distortions, it vividly reflects the hostility which sprang up between the Palestinian and Byzantine commanders during this expedition: Chalandon, II, 536–45; Baldwin, "Latin States," 556–58.
26. Chalandon, II, 546–50; Baldwin, "Latin States," 558–60.
27. Libanius, *Or.* XI, 38 (ed. R. Foerster, I, 449). Except in the northern Adriatic, tides are unknown in the Mediterranean and, evidently, were unfamiliar to Kinnamos.
28. Horatio F. Brown, "The Venetians and the Venetian Quarter in Constantinople to the Close of the Twelfth Century," *Journal of Hellenic Studies*, 40 (1920), 75, says, "An *Embolum*, it seems, was a place where merchants stored and sold their goods and generally transacted business. . . . It was a building with an open loggia running round it and was of the nature of an Exchange-house rather than of a bazaar. But the word *Embolum* soon acquired a secondary and wider meaning and came to be applied to the whole quarter; 'in *Embolo Peramantis*' means in the quarter and district of the Ferry. We find the word *Embolani* signifying the Pisans dwelling in the Pisan Quarter."
29. Chalandon, II, 156–58.
30. The text of this sentence is corrupt; the translation is based on the suggestions in the editor's notes.
31. Chalandon, II, 582, 584–91; H. Kretschmayr, *Geschichte von Venedig*, Allgemeine Staatengeschichte, Abt. I, No. 35, Vol. I (Gotha, 1905; repr. Aalen, 1964), 254–62. The "second blow" was perhaps the Venetians' defeat at Ancona (Kinnamos, 289).
32. In 1173, Mleh seized Tarsus, Adana, and Mopsuestia from the Byzantines, and captured Constantine Kalamanos, then in his second term as governor: Chalandon, II, 526, n. 2, 531–33; Der Nersessian, "Cilician Armenia," 642–43. Mleh was murdered by his soldiers in 1174.
33. Chalandon, II, 596.
34. Stephen Nemanja had been grand župan since 1168, and eagerly attacked Byzantine Dalmatia: Jireček, *Serben*, I, 258–61.
35. The real reason for the termination of Béla's engagement to Maria Porphyrogenita was the birth of Manuel's son, who was proclaimed co-emperor in 1172. Béla's bride was Anne, daughter of Reginald of Châtillon, and thus half-sister to the empress. A Byzantine army assisted Béla III to obtain his throne: Chalandon, II, 491–92.

NOTES TO BOOK VI

12. Moravcsik, "Συμβολαί," 295.
13. Janin, *Constantinople byzantine*, 443: Aphameia or Apameia, a village with an imperial villa, northwest of Hebdomon and north of San Stefano/Yesilkoi, perhaps modern Bosnaviran.
14. Ibid., 496: Samandira and adjacent Alemdaği, ca. 16 miles east of Üsküdar.
15. Polemis, *Doukai*, 192–93 (No. 226): Constantine Doukas or Makrodoukas, who later figured prominently in the reign of Andronicus I.
16. Chalandon, II, 219–20; Nicetas, *Hist.*, 187–88, maintains that the accusation against the protostrator was false, the work of hostile courtiers. He names Isaac Aaron as his chief opponent.
17. According to Babos, *Adalékok*, 13, MS *Var. gr.* 163 leaves a short gap here; the editor, Meineke, suggests that the name of John Kontostephanos (see below) has dropped out of the text.
18. This battle occurred on 8 July 1167: Chalandon, II, 488–90; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 85–89.
19. Janin, *Constantinople byzantine*, 215, 465, is unable to offer an exact identification, but suggests the vicinity of Eyüp. Eustathius of Thessalonica addressed an oration to Manuel on the water shortage in Constantinople, ed. W. Regel, *Fontes* (see Introduction, n. 43, above), I, 126–31; the editor (xvi–xvii) dates the shortage to the winter of 1168 and Manuel's construction to 1169, but on what grounds are unclear. The oration was definitely prior to 1174, when Eustathius was appointed to the see of Myra.
20. Chalandon, II, 611–12; Franz Dölger, *Regesten der Kaiserurkunden des oströmischen Reiches von 565–1453*, Corpus der griechischen Urkunden des Mittelalters und der neueren Zeit, Reihe A, Abt. I, Teil 2 (Munich, 1925), No. 1476 (dated shortly after 8 July 1167, solely on the basis of its position in the text of Kinnamos; Kinnamos, however, is here giving a non-chronological review of some important civil acts of the emperor); A. P. Kazhdan, "Odin netochno istolkovannyĭ passazh v 'Istorii' Ioanna Kinnama," *Revue des Etudes Sud-Est Européennes*, 7 (1969), 469–73.
21. J. and P. Zepos, ed., *Jus graecoromanum*, I (Athens, 1931), 381–85; Dölger, *Regesten*, No. 1419; N. Svoronos, "Les Privilèges de l'Eglise à l'époque des Comnènes: Un Rescrit inédit de Manuel I^{er} Comnène," *Centre de recherche d'histoire et civilisation byzantines, Travaux et mémoires*, I (1965), 330–33 (No. 4 of his series), 375–76.
22. Zepos, *Jus*, I, 397–402; Dölger, *Regesten*, No. 1466.
23. Chalandon, II, 204 and n. 2; Beck, *Kirche und theologische Literatur*, 662; Janin, *Les Eglises et les monastères*, 530.

NOTES TO BOOK VI

the walls of Zeugminon/Zemun. On the other hand, the discontinuity may be the result of the author's haste, evident in this rather disordered section of his history.

47. Moravcsik, "Συμβολαί," 295.

48. Polemis, *Doukai*, 190 (No. 220), as a "Doukas of unknown family background." He suggests he may be Andronicus Doukas Angelus, father of Isaac II and Alexius III (p. 86, his No. 39), but this person would in 1165 have been rather elderly to be behaving in so impetuous a fashion.

49. See Kinnamos, 107.

50. Chalandon, II, 484-85.

BOOK VI

1. Chalandon, II, 221, 526, n. 2, 529-30.

2. Ramsay, *Cities and Bishoprics*, I, Pt. I, 228 and n. 4.

3. John 14:28.

4. Euthymius Malakes, metropolitan of Neai Patrai, was a prominent theologian and author of the second half of the century; see his writings, *Τὰ σωζόμενα*, ed. Konstantinos G. Mpones [Bonis], 2 vols. (Athens, 1937-49).

5. The synodal decision came in 1166: Jean Gouillard, ed. and trans., "Le Synodikon de l'Orthodoxie," Centre de recherche d'histoire et civilisation byzantines, *Travaux et mémoires*, 2 (1967), 75-77; Chalandon, II, 564, 644-51; Beck, *Kirche und theologische Literatur*, 58, 622-23; the inscribed stones from Hagia Sophia have been recovered: C. Mango, "The Conciliar Edict of 1166," *Dumbarton Oaks Papers*, 17 (1963), 315-30.

6. Alexius II (emperor, 1180-83) was born 14 September 1169: Peter Wirth, "Wann wurde Kaiser Alexios II. Komnenos geboren?" *Byzantinische Zeitschrift*, 49 (1956), 65-67.

7. This revival of the debate, and the condemnation of John (Constantine) of Kerkyra and Eirenikos, occurred in 1169-71, under Patriarch Michael of Anchialos (1169-77): Gouillard, "Synodikon," 77-81; Chalandon, II, 651-52; Beck, *Kirche und theologische Literatur*, 623, 627.

8. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 118.

9. Chalandon, II, 486-87.

10. Ibid., 487; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 83-85. These campaigns are analyzed in Năsturel, "Valaques" (see above, Book III, n. 8), 177-86.

11. I.e., accept Manuel as emperor. The year 1166 marked the peak of Manuel's negotiations for the western throne (see Kinnamos, 218-20); one of the causes of their collapse was, as Kinnamos notes below, Manuel's refusal to reside in Rome.

NOTES TO BOOK V

32. Probably a reference to Alexander III's flight from Rome to France, 1162; even in 1167, Frederick was able to occupy only the Leonine section of the city.
33. Ottaviano, anti-pope as Victor IV, 1159–64; Alexander III was pope from 1159 to 1181. On this conflict and on Manuel's role in the subvention of the Lombard League, see Chalandon, II, 572; Balzani, "Barbarossa and the Lombard League," 430–47.
34. Guardian and doorkeeper of the palace: Bréhier, *Monde byzantin*, II, 355.
35. Rostislav I Mstislavič, grand prince of Kiev, 1158–67; Primislav or Perovslav is unidentified, but perhaps was prince of Volynia: Chalandon, II, 482; Vernadsky, *Kievan Russia* (see above, Book III, n. 27), 219–20.
36. This would seem to be a scribal error for Iaroslav.
37. This appears to be an accidental repetition of the previous reference to Rostislav; Kinnamos is not very well-informed on Russian affairs. The MS gives "Kiama" as the name of the city, but this is considered to be an error by Kinnamos or the scribe for "Kioba," i.e., Kiev.
38. Henry Jasomirgott, who was from 1156 duke of Austria; he had married Manuel's niece Theodora (daughter of Manuel's brother Andronicus) in 1148, at the time of Conrad III's residence in Constantinople during the Second Crusade.
39. Vladislav is unidentified; George might be George (or Iuri) Dolgoruky, prince of Suzdal and grand prince of Kiev, 1155–57: Chalandon, II, 482, n. 4.
40. Theodora, daughter of Manuel's brother Isaac.
41. After the capture of Reginald of Châtillon (1160), the people of Antioch had turned to Baldwin III, who assumed guardianship of the principality. In 1163, after Baldwin's death, the populace, with aid from Tōros of Armenia, drove out Constance and established her son (by Raymond of Poitiers), Bohemond III, as prince. Amalric I's embassy to Manuel is thought to have occurred soon after his accession, but only in 1167 did Maria, daughter of John Comnenus the proto-sebastos, wed him: Baldwin, "Latin States," 546–47, 554.
42. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 141.
43. Chalandon, II, 483.
44. Probably Kama, east of Branitshevo.
45. Probably across the Sava; note that Manuel proceeds to attack Zeugminon/Zemun, on the south bank of the Danube. Since "all Sirmion" (i.e., the territory between the Sava and the Danube) was in Hungarian hands, this would equally be a crossing into hostile country, yet the enemy forces would be effectively divided by the Danube: Chalandon, II, 484.
46. Tentatively, I would here suggest a lacuna of a sentence or two in the text; Manuel is seen in one sentence with an injured leg, then, in the next, attacking

NOTES TO BOOK V

Bohemond. Toros of Armenia was also a member of the defeated coalition: Der Nersessian, "Cilician Armenia," 641.

20. On the locality, and the geographic difficulties posed by Kinnamos' reference to a crossing of the Sava (rather than of the Danube), see Chalandon, II, 477 and n. 2. The text, however, says that Manuel sat down opposite Titel; this could have meant on the south bank of the Danube, opposite the mouth of the Tisa (or Tisza); Titel is only a few miles upstream. The emperor's next stopping place, Petrikion, may be Petrovaradin, on the south bank of the Danube opposite Novi Sad; thereafter, he reached Bač, north of the river; the three sites show a generally northwestward line of march. This agrees with Kinnamos, 221, who puts the crossing of the Danube in the subsequent part of the campaign.

21. Kinnamos, 68–69.

22. Frederick Barbarossa himself had balked at the requirement of serving as squire to the pope, but had had to yield to precedents: Ugo Balzani, "Frederick Barbarossa and the Lombard League," *The Cambridge Medieval History*, v (Cambridge, Eng., 1929), 419–20.

23. The allusion is somewhat mysterious, perhaps a reference to previous papal obedience to decrees of the Byzantine emperor ("someone else").

24. This tirade was inspired by Pope Alexander III's prolonged dispute with Frederick Barbarossa, during the course of which the pope at least discussed (in 1166) accepting Manuel as the single emperor of a united Roman Empire: Chalandon, II, 558–67. Eventually, after his defeat by the Lombard League, Frederick was reconciled with Alexander. On the political philosophy expressed in this passage, see Chalandon, II, 556–57.

25. Perhaps at Novi Sad.

26. On this Orthodox population, mentioned here and on Kinnamos, 221, see N. Oikonomides, "A propos des relations ecclésiastiques entre Byzance et la Hongrie au XI^e siècle: Le Métropolitain de Turquie," *Revue des Etudes Sud-Est Européennes*, n.s., 9 (1971), 530.

27. See above, Book II, n. 9.

28. See above, Book II, n. 65.

29. On this campaign and negotiations, see Chalandon, II, 476–80, who gives some credit to Kinnamos' story of Manuel's relations with Vladislav II.

30. Bryer, "Gabrades" (cited above, Book II, n. 37), 180 (No. 7). He was married to Eudokia, daughter of Manuel's brother Andronicus: Chalandon, II, 480–81.

31. Chalandon, II, 526, n. 2 (for the chronology), 528–29; Der Nersessian, "Cilician Armenia," 640–41.

NOTES TO BOOK V

6. Kilidj Arslan II, 1155–92. On this visit, see Chalandon, II, 462–66; Vryonis, *Asia Minor*, 122; Cahen, "Turks in Iran and Anatolia," 678.

7. Patriarch Loukas Chrysoberges, 1157–70.

8. The reference is to the Byzantine disaster in 1176, at Myriokephalon. The earthquake mentioned in this section is not included in the lists by Grumel, *Chronologie*, 480, or Glanville Downy, "Earthquakes at Constantinople and Vicinity, A.D. 342–1454," *Speculum*, 30 (1955), 600.

9. Again, the reference is to Blachernai Palace: see Book II, n. 61.

10. Chalandon, II, 517, renders this as Excubitor, chief of the interpreters.

11. Matth. 22:8.

12. The girl in question was Melisend, sister of Raymond III, count of Tripoli. The tale told by Kinnamos is a fiction: neither miraculous diseases nor (groundless) allegations of illegitimacy prevented the marriage. Rather, negotiations were prolonged for a year (1160–61) by Manuel, then broken off by him, because a more favorable match seemed possible in Antioch; Chalandon, II, 517–21; Baldwin, "Latin States," 546.

13. Chief official of the city of Constantinople: Bréhier, *Monde byzantin*, II, 186–92.

14. Chalandon, II, 520–24; Baldwin, "Latin States," 546–47.

15. Chalandon, II, 392–93 (who, however, errs in identifying Desa with Stephen Nemanja, and also in dating the event 1163: see 475, where Manuel's campaign is dated 1162); Jireček, *Serben*, 252; Grumel, *Chronologie*, 390; Radojčić, "Vazalnikh," 347–54.

16. Chalandon, II, 474–76; the territory ceded as Béla's inheritance was "Sirmion" (i.e., the region between the Sava and the Danube) and Dalmatia: 475 and n. 3. On the title of Despot, see Ostrogorsky, "Urum-Despotes," 448–60.

17. Joscelin II of Edessa was captive 1150–59, and died in captivity: Baldwin, "Latin States," 533; Robert Lawrence Nicholson, *Joscelyn III and the Fall of the Crusader States* (Leiden, 1973), 21.

18. Chalandon, II, 525, n. 2, says he was called this because his father had also been titled Kalamanos.

19. Hamilton A. R. Gibb, "The Career of Nūr-ad-Dīn," *The First Hundred Years* (see above, Book I, n. 19), 524; Baldwin, "Latin States," 551; Chalandon, II, 524–25; Nicholson, *Joscelyn III*, 33. Reginald of Châtillon, regent of Antioch, had been captured by Nūr-ad-Dīn in 1160 (Gibb, "Nūr-ad-Dīn," 523; Baldwin, "Latin States," 546); the captives in 1164 included Bohemond III, prince of Antioch; Raymond III, count of Tripoli; Joscelin III, titular count of Edessa; and Hugh of Lusignan, as well as Kalamanos. Kinnamos has confused Reginald and

NOTES TO BOOK V

and 300. On these attacks, see Chalandon, II, 460–61; Vryonis, *Asia Minor*, 122, 189.

55. Evidently descendants or followers of Kogh Vasil, an Armenian who ruled Kesoun/Keysun (east of Marash/Maraş) at the time of the First Crusade. Kesoun formed part of the County of Edessa; in 1150, after the loss of its capital, the remnants of that county were ceded to Manuel Comnenus (Baldwin, "Latin States," 533–34). Possibly some of the Armenian inhabitants, using their former leader's name, remained in Byzantine service.

56. Chalandon, II, 459–60.

57. Kallipolis or Gallipoli, modern Gelibolu.

BOOK V

1. Kinnamos has here erred in his chronology: she died in early 1160, perhaps while Manuel was staying at Rhitzion (Kinnamos, 194); Chalandon, II, 211–12, 459. Part of John Kontostephanos' mission to Palestine, 1160–61, was to seek a bride for Manuel: Kinnamos, 199; Chalandon, II, 459, 517–19.

2. 31 May 1161. On this stage in Manuel's lengthy intervention in Hungarian affairs, see Chalandon, II, 469–73. For the genealogy and dates of the various rulers who follow, see Appendix 1. The dating of these events is disputed; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 82–83 and appended genealogy, gives the reign of Géza II as 1141–62, László II as 1162–63, István IV as 1163, and István III as 1162–72. Chalandon gives the dates a year earlier, basing his data largely on western chroniclers.

3. According to Chalandon, II, 469–73, László II ruled 1161–62. On "Urum," "My Lord," see Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 238; G. Ostrogorsky, "Urum-Despotes: Die Anfänge der Despoteswürde in Byzanz," *Byzantinische Zeitschrift*, 44 (1951), 448–60; repr. in his *Zur byzantinischen Geschichte*, 153–65.

4. Grumel, *Chronologie*, 390, believes Primislav (or Prvoslav) is another name for Uroš II; see Kinnamos, 113, on his earlier restoration by Manuel's decision.

5. Borislav Radojčić, "La Région de la Dendra de la Serbie au XII^e siècle," *Balkan Studies*, 11 (1970), 249–60, is able to show that Dendra was Serbian territory, granted to Desa in 1155 by Manuel's judgment regarding the županate of Serbia, between Uroš II and Desa; he is, however, unable to give any more exact identification of the region than Kinnamos' expression here. Desa ruled ca. 1161–65. See Chalandon, II, 391–92 (but the identity of Desa and Stephen Nemanja, there asserted, is not generally accepted); Jireček, *Serben*, I, 250–52; Borislav Radojčić, "Prilog proučavanju vazalnih odnosa Srbije prema Vizantiji pedesetih i šezdecetih godina XII veka," *Zbornik radova Vizantološkog instituta*, 8, Pt. 2 (1964), 347–54.

NOTES TO BOOK IV

42. Bertram of Toulouse, grandson of Raymond of Saint-Gilles, had been captured in 1149; Baldwin, "Latin States," 532, 545.
43. Bertrand of Blancfort, master of the Templars, had been captured in 1157; Baldwin, 539, 545.
44. Ramsay, *Historical Geography*, 382n. In 1158 Manuel had followed the coast from Attaleia/Antalya in Pamphylia; in 1159, he chose to return from Cilicia through the center of the plateau, by way of Laranda/Karaman and Konia/Kütahya, a route which could have taken him near Ikonion.
45. On this campaign of 1158–59, see Chalandon, II, 435–56; Baldwin, "Latin States," 543–45; Der Nersessian, "Cilician Armenia," 640–41.
46. Chalandon, II, 457–59.
47. See Kinnamos, 63.
48. Augouste was perhaps an imperial estate on the Astakenos Gulf; Rhitzion was probably near Chalcedon; Ramsay, *Historical Geography*, 185–86. Possibly Manuel stayed near Constantinople, but did not enter it. He then turned south to Philadelphia/Alaşehir.
49. Dubious word.
50. Alternate translation, equally possible: "Reaching a certain village, Sarapata, called by the natives Mylonos. . . ." In the opinion of Ramsay, *Cities and Bishoprics*, I, Pt. 1, pp. 19, n. 1, and 341; Pt. 2, pp. 598, n. 4, 679, and 696, the name is Turkish-Greek, Mylonos or Mylon perhaps the original Greek name, Sarapata representing "Hissar-Abad," "Place-of-the-Castle." He suggests modern Sandikli (on the Glaukos/Kufi River, a northern tributary of the Maeander). The area was clearly in Turkish hands; Vryonis, *Asia Minor*, 122, 190.
51. Moravesik, *Byzantinoturcica*, II, 285.
52. Abu-Bakr; *ibid.*, 256–57; see Kinnamos, 48, 50.
53. At first glance, the "oft-mentioned John" would seem to be John Comnenus the protosebastos, but he was a nephew of the emperor, not a relative-in-law (*gambros*): see L. Stiernon, "Notes de titulature et de prosopographie byzantines: Sébaste et gambros," *Revue des Etudes Byzantines*, 23 (1965), 222–43, esp. 223. Probably this is John Doukas, former Byzantine commander in Italy and future great heteriarch; he is identified in very similar language by Kinnamos, 260, line 24. This possible date in his career is not mentioned by Karlin-Hayter, "99. Jean Doukas." John Doukas is not elsewhere called a *gambros* of the emperor, and some other individual might be meant.
54. For Phileta as a late-Byzantine name of Phaselis (near modern Tekirova), on the Lycian coast southwest of Attaleia/Antalya, see Ramsay, *Historical Geography*, table facing p. 424; Ramsay, *Cities and Bishoprics*, I, Pt. 1, pp. 19, n. 2,

NOTES TO BOOK IV

26. Chalandon, II, 232–33; on Kinnamos' misconception of the location of Blachernai, see above, Book II, n. 61.
27. Perhaps Simon, illegitimate son of Roger II: Chalandon, *Domination nor-monde*, II, 307.
28. Kilidj Arslan II, 1155–92.
29. Unknown locations, apparently in Cilicia, south of Laranda/Karaman: Ramsay, *Historical Geography*, 369, 450.
30. Chalandon, II, 434–35. Oinaion/Ünye is on the Black Sea coast; Pauraë/Ba-fra is on the lower Halys/Kizil.
31. According to Chalandon, II, 640–41, the text is from the liturgy of Saints Basil and John Chrysostom: "You are He Who offers and Who is offered and Who receives."
32. Chalandon, II, 640–43; Beck, *Kirche und theologische Literatur*, 623–24.
33. Chalandon, II, 437–39; Baldwin, "Latin States," 539–41, 559–60.
34. Apparently the region of Laodikeia/Denizli: Ramsay, *Historical Geography*, 150–53, 382.
35. Kistramos and Longinias are unknown (Ramsay, *Historical Geography*, 348, 380, 382), but Anazarbos is 'Ain Zarbâ or Andvorza, an abandoned fortress sixteen miles south of Sis/Kozan. Tili or Til is modern Toprakkale, Arabic Tall-Hamdûn, on the Adana-Alexandretta railway line, just west of the pass between Cilicia and the plain of Alexandretta: J. Gottwald, "Die Burg Til im südöstlichen Kilikien," *Byzantinische Zeitschrift*, 40 (1940), 89–104 (esp. 96–97). Kinnamos seems to have disordered events slightly: the capture of Anazarbos and Tili probably followed that of Tarsus. On this campaign, see Chalandon, II, 441–45; Der Nersessian, "Cilician Armenia," 640–41; Baldwin, "Latin States," 543.
36. Probably John Comnenus and other captives taken in Cyprus and the Cilician wars.
37. On Reginald and Aimery of Limoges (Latin patriarch of Antioch, ca. 1139–96), see Cahen, *Syrie du nord*, 505–06; Baldwin, "Latin States," 540; Chalandon, II, 443.
38. Presumably Muḥammad (II), the Great Selchûkid sultan of Persia, 1153–59: C. E. Bosworth, "The Political and Dynastic History of the Iranian World (A.D. 1000–1217)," *The Cambridge History of Iran*, v (Cambridge, Eng., 1968), 175–76.
39. The text here is corrupt; I have read *παρά* for *περί*.
40. Bréhier, *Monde byzantin*, II, 148.
41. By an error of the editor the number "21" has been repeated for chapters commencing on pp. 186 and 188.

NOTES TO BOOK IV

12. On this relief force, see Chalandon, II, 363; Chalandon, *Domination normande*, II, 215–16, but by a slip he makes the Germanoi of the text into Germans instead of French. This John Angelus is probably John Doukas Angelus, son of Constantine Angelus and Manuel's aunt Theodora, but this expedition is not cited in the note on him by Polemis, *Doukai*, 87–88 (No. 40). This appearance of John, with the name Angelus, repeated in Kinnamos, 162 and 238, is omitted in his survey of references to John by Lucien Stiernon, "Les Origines du Despotat d'Épire: A propos d'un livre récent," *Revue des Études Byzantines*, 17 (1959), 102–17, who is thus able to write: "Nulle part JEAN, fils de Constantin Ange . . . ne porte le patronyme d'Ange ou de Comnène, mais celui de DOUKAS . . ." (p. 114). While the references by Kinnamos do not specify his relationship to the emperor, I know of no other John Angelus in this period, and Manuel's proclivity for using his relatives as army commanders is well known. Kinnamos doubtless calls him "Angelus" to distinguish him from the John Doukas who was commanding land forces in Italy.
13. Tonsured as a monk, the normal preparation for death.
14. The name given in the text is Polymilion; Chalandon, *Domination normande*, II, 217, identifies this as Polignano (on the east coast between Bari and Monopoli). But the village of Palagiano is close to Massafra and Mottola, the scene of Byzantine operations. Also, the fact that the Norman garrison of "Polymilion" fled to Taranto (not Monopoli or Brindisi, both still in Norman hands) suggests Palagiano, scarcely ten miles from Taranto.
15. This is a paraphrase of Procopius, *De bello gothico*, IV, 1, 11 (ed. Haury, II, 489), as Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 96, pointed out.
16. Probably a Latin from the principality of Antioch, a mercenary in Byzantine service.
17. Archilochus, Frag. 55 (Diehl).
18. Probably Alezio, between Otranto and Gallipoli.
19. Keltoi in the text: see Kinnamos, 67 and 167. The bulk of the Byzantine army consisted of Norman rebels and mercenaries, not troops sent from the empire.
20. He had done a like feat at Marathon: Herodotus, VI, 114.
21. Alexius Comnenus [Bryennios], son of Anna Comnena.
22. Moravesik, *Byzantinoturcica*, II, 243.
23. Chalandon, *Domination normande*, II, 229.
24. Chalandon, *Domination normande*, II, 248–54; Chalandon, II, 377–81.
25. Chalandon, *Domination normande*, II, 250, thinks this an accurate account of events in Rome in the summer of 1157.

NOTES TO BOOK IV

49. On Basil Tzykandeles Goudelios, see Kinnamos, 56, 72, 77.
50. Probably Géza II's *brother* Stephen, later István (Stephen) IV: Chalandon, II, 413, n. 1.

BOOK IV

1. Frederick I Barbarossa, 1152–90.
2. On this sequence of embassies, and the offers made, see Chalandon, II, 343–50, esp. 344, n. 3, which examines the chronology in detail; Lamma, *Comneni e Staufer*, I, 137–47.
3. On Michael Palaiologos, see Kinnamos, 70, 82. John Doukas is possibly John Doukas [Kamateros]: Polemis, *Doukai*, 127–30 (No. 99), but Karlin-Hayter, "99. Jean Doukas," 262, considers this to be the future great heteriarch. On Alexander of Conversano, Count of Gravina, see Book II, n. 48, above. See Chalandon, II, 349.
4. Robert II of Bassonville, Count of Loritello, son of Roger II's sister: Chalandon, II, 352, n. 5; Chalandon, *Domination normande*, II, 182–83. Under William I, 1154–66, Robert led the barons' opposition to the low-born chief minister, Maio or Maione of Bari.
5. This word has been added to the text by the editor.
6. Chalandon, II, 358, and Chalandon, *Domination normande*, II, 191, 204–10, dates the events narrated here and following (Kinnamos, 137–46) to late August–September 1155. See Lamma, *Comneni e Staufer*, I, 149–231.
7. According to Chalandon, *Domination normande*, II, 205–06, possibly Fano, ancient Flavia Fanestris, north of Ancona. Doukas, however, was moving from Ancona to Apulia, and the now-ruined site of San Flaviano, adjacent to the present town of Giulianova, at the mouth of the Tordino River, between Ancona and Pescara, would better suit the text. According to [Murray's] *Handbook for Travellers in Southern Italy and Sicily*, 9th ed. (London, 1892), I, 234, San Flaviano owed its name to the body of a saint brought from Constantinople in the Middle Ages. Chalandon, II, 353, n. 4, was unable to locate this place in the directories available to him.
8. Chalandon, *Domination normande*, II, 206, believes the Byzantine force had now entered the Bassonville lands.
9. *Ibid.*, 209.
10. Hadrian IV, 1154–59. Chalandon, *Domination normande*, II, 210–14; Chalandon, II, 358–62.
11. In the text, Masagetoï; see Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 183, citing this passage.

NOTES TO BOOK III

39. Der Nersessian, "Cilician Armenia," 638–39; Chalandon, II, 426–28.

40. Chalandon, II, 408–09. Bitola in Yugoslavia is the modern center of the plain of Pelagonia. Chalandon II, 408–09, dates this incident to Manuel's 1153 stay at Pelagonia, but Kinnamos, a few lines further on, indicates that it was prior to Andronicus' first governorship in Cilicia (1152). Manuel was probably at Pelagonia in 1149 and 1150; Chalandon, II, 385, 387; see 408, n. 3, on the difficult chronology of this period.

41. Chalandon, II, 408–09; Babos, *Adalékok*, 9, gives an important correction to the text. Protosebastos was a rank in the court hierarchy (sebastokrators, proto-sebastoi, sebastoi, etc.), protovestiarios or chief chamberlain was an honorary position in the palace services. See Hohlweg, *Beiträge*, 34–40 (esp. 39–40).

42. Chalandon, II, 410; on the grand stratarches (an undefined, apparently honorary military title), see Hohlweg, *Beiträge*, 131.

43. This quarrel at Melangeia seemingly occurred during one of Manuel's early campaigns: he was at Melangeia in 1144 or 1145 (Kinnamos, 36), and passed close by (Pithekas) in 1146 (Kinnamos, 38). On the latter campaign, both his brother Isaac and his cousin Andronicus attended him (Kinnamos, 49, 61). Some names in the text have evidently suffered scribal corruption, and I have followed the emendations suggested by Chalandon, II, 215, n. 6. Polemis, *Doukai*, 113, n. 1, believes the John Doukas, cousin of the emperor, here mentioned, was John Doukas [Bryennios], son of Nicephorus Bryennios and Anna Comnena. But John Doukas [Kamateros] could equally well be meant, and John Doukas [Angelus] would also qualify. Karlin-Hayter, "99. Jean Doukas," 261, is unable to identify this person, but would reject John Doukas the future great heteriarch on grounds that he is not elsewhere called cousin of the emperor. John Doukas was presumably punished for raising his whip against a prince of the blood. Apparently out of pique, Isaac stole the seals. Andronicus was probably offended by the light penalty imposed on Isaac, and then infuriated by the favor showered on John Comnenus the protosebastos at Pelagonia. The incident is briefly discussed in Chalandon, II, 215.

44. This seems to have been Alexius Axouchos, son of the grand domestikos John Axouchos; see Kinnamos, 170, line 5, and Chalandon, II, 377–78.

45. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 140.

46. The dates can only be approximate, but Andronicus was in prison nine years and fled to Russia in autumn 1164; Chalandon, II, 220–21, 410–11, 482, 483, n. 2.

47. Perhaps Svilajnac on the Morava; Chalandon, II, 412. On this campaign, see Chalandon, II, 411–13; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 81–82.

48. Borić ruled from before 1154 to 1163.

NOTES TO BOOK III

seven individuals; she is not, however, ready to state which of Manuel's close relatives this particular individual was.

25. Donald M. Nicol, *The Byzantine Family of Kantakouzenos (Cantacuzenus) ca. 1100–1460: A Genealogical and Prosopographical Study*, *Dumbarton Oaks Studies*, xi (Washington, D.C., 1968), 4 (No. 2).

26. So Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 85. Bakchinos' identity is disputed: I was not the grand župan of Serbia proper (who was Pervoslav Uroš II), but probably was the leader of the Hungarian contingent: Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 85; Chalandon, II, 390, n. 2; Jireček, *Serben*, 248, n. 2.

27. Just as Géza II and the Serbs were allied, so the Byzantines were linked to Vladimirko, prince of Galicia (1130–52): George Vernadsky, *Kievan Russia*, *History of Russia*, II (New Haven, 1948), 217–18; Chalandon, II, 402–05; Cf. Vernadsky, "Relations byzantino-russes au XII^e siècle," *Byzantion*, 4 (1927/28) 273–76. Géza had just defeated and made peace with Vladimirko: Chalandon, I, 401–03.

28. Beloš or Bela was a son of Uroš I of Serbia (Rascia or Raška), and Géza II's maternal uncle: see above, n. 17, and Chalandon, II, 399, 405–07.

29. Chalandon, II, 406, suggests the mountains along the Timiș, now in western Romania.

30. He was a son of king Kálmán: see Appendix, and Chalandon, II, 62–63, 401–406–07. His son was Constantine Kalamanos, who played a prominent role in Manuel's later years.

31. Maria, often called "Porphyrogenita," "Born-in-the-Purple," was born in March 1152: Chalandon, II, 212. On this Hungarian campaign, see Chalandon, II, 403–07; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 81.

32. Chalandon, *Domination normande*, II, 188–89; Chalandon, II, 347–48.

33. On this campaign, see Chalandon, II, 407–08; and, on Kinnamos' chronological slips, 408, n. 3.

34. The Byzantine year ended August 31; these events then fell in the summer of 1154: Chalandon, II, 348.

35. Chalandon, II, 408–09.

36. Der Nersessian, "Cilician Armenia," 638–39: this was Tōros (or Thoros) II. Chalandon, II, 418–29.

37. Marshall W. Baldwin, "The Latin States under Baldwin III and Amalric I, 1143–1174," *The First Hundred Years* (see above, Book I, n. 19), 532–33.

38. Baldwin, "Latin States," 536; Chalandon, II, 426–27. To become a monk before dying was normal for a Byzantine.

NOTES TO BOOK III

13. Chalandon, II, 384–86, believes that on his return from Kerkyra (autumn 1149), Manuel marched from Valona/Avlona/Vlonë through Pelagonia to the Vardar and Morava valleys; Rhason/Ražanj is near the Morava, north of Niš. Constantin Jireček, *Geschichte der Serben*, Allgemeine Staatengeschichte, Abt. I, No. 38, Vol. I (Gotha, 1911), 246–47, has little to contribute on these campaigns.
14. Manuel's uncle by marriage, the progenitor of the Angeli dynasty.
15. Galitza was allegedly at the mouth of the Morava: K. v. Spruner, ed., *Spruner-Menke Hand-Atlas für die Geschichte des Mittelalters und der neueren Zeit*, 3rd ed., ed. Th. Menke (Gotha, 1880), Map No. 84; Jireček, *Serben*, 247, n. 3, however, suggests a location in south-central Yugoslavia, consistent with his identification of Rhason as Ras (modern Novi Pazar), and Chalandon, II, 385, n. 4, places Galitza on Mt. Golija, north of Novi Pazar. Nikava is unidentified; Chalandon, II, 385 and n. 4, thinks it the Nišava valley. That the entire campaign was in the Nišava and Morava valleys seems probable.
16. Identification uncertain; Chalandon, II, 388, n. 1, cites several possibilities. On this campaign, see Chalandon, II, 387–91. Moravcsik's opinion (*Byzantium and the Magyars*, 80) that Kinnamos participated in this campaign is scarcely acceptable; he could have been only six or seven years old at the time.
17. Géza II, 1141–62. Kinnamos is confused about the genealogy: Uroš I of Serbia's daughter Helen married Béla II the Blind of Hungary; her brother Beloš or Bela became very influential at the Hungarian court; Chalandon, II, 74–75, 384–85, 399.
18. See above, Book II, n. 33.
19. Evidently a scribal error for the Drymon/Drina; Chalandon, II, 389, n. 1.
20. An upper tributary of the Drina.
21. Perhaps Sjenica, on the Uvac River, west of Novi Pazar; Chalandon, II, 389.
22. The Chalisioi were probably refugee Jewish Khazars; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 338–39; D. M. Dunlop, "The Khazars," *The Dark Ages: Jews in Christian Europe 711–1096*, ed. Cecil Roth and I. H. Levine, The World History of the Jewish People, Ser. II, Vol. II (n.p. [New Brunswick, N.J.], 1966), 356.
23. Dj. Sp. Radojičić, "Kinamov Γουρδέσης," *Zbornik radova Vizantološkog instituta*, 8, Pt. I (1963), 255–59, provides documentary and inscriptional evidence for this person.
24. Allegedly John Doukas Kamateros; Demetrios I. Polemis, *The Doukai: A Contribution to Byzantine Prosopography*, University of London Historical Studies, xxii (London, 1968), 127–30 (No. 99). P. Karlin-Hayter, "99. Jean Doukas," *Byzantion*, 42 (1972), 259–65, suggests that Polemis has conflated six or

NOTES TO BOOK III

namos' allegation that Conrad pledged to return "Italy" (i.e., Apulia and Calabria), once conquered, to Manuel. Lamma, *Comneni e Staufer*, 1, 90-93, is dubious. It was at this time that Henry of Austria wedded the emperor's niece, Theodora; see Kinnamos, 236, 261. On this Theodora's identity, see my *Byzantium Confronts the West*, 34, n. 9 (p. 322-23).

69. Berry, "Second Crusade," 511; Chalandon, II, 330-32.

70. Frederick I Barbarossa, 1152-90.

71. Actually, sons of Henry V's sister Agnes, who married duke Frederick of Swabia.

72. Lothar II, 1125-37.

BOOK III

1. Roger II was count of Sicily from 1105.

2. Duke William of Apulia, 1111-27, was a grandson of Robert Guiscard. The story of a loan and mortgage on Apulia is a fiction; William died without an heir, and Roger II speedily moved to appropriate his domain: Chalandon, *Domination normande*, I, 321-26, 380-89.

3. Roger II was opposed by both Pope Honorius II, 1124-30, and Innocent II, 1130-43. Roger supported the anti-pope Anacletus II, 1130-38.

4. See Chalandon, *Domination normande*, II, 69-70.

5. Roger II had first been recognized as king by the anti-pope Anacletus II in 1130. On the capture of Pope Innocent II in 1139 and his subsequent acceptance of Roger as king, see Chalandon, *Domination normande*, II, 89-91.

6. On this exchange, see Chalandon, *Domination normande*, II, 129.

7. *Ibid.*, II, 135-37; Chalandon, II, 317-20.

8. Perhaps modern Zimnicea, Romania: Chalandon, II, 324, n. 2; on this campaign, see 323-25. In regard to this place, P. Ș. Năsturel, "Valaques, Coumans et Byzantines sous le règne de Manuel Comnène," *Byzantina*, I (1969), 169-75, suggests the late-medieval place-name Holevnic (modern Turnu-Măgurele).

9. So Moravesik, *Byzantinoturcica*, II, 305-06; for another interpretation, see Chalandon, II, 325, n. 1. Năsturel, "Valaques," 175, identifies the site as the hill of Măgura Aranului, near the Teleorman River.

10. The citadel at Kerkyra is a rocky peninsula. On the siege, see Chalandon, II, 325-33; Chalandon, *Domination normande*, II, 137-45.

11. Pervoslav Uroš II, ca. 1131-60 (briefly dispossessed ca. 1155).

12. Chalandon, II, 333-34.

NOTES TO BOOK II

54. See Kinnamos, 56, and n. 35 above.
55. Near modern Bahşıyış in Thrace, west of Istanbul; Constantin Jos. Jireček, *Die Heerstrasse von Belgrad nach Constantinopel und die Balkanpässe: Eine historische-geographische Studie* (Prague, 1877; repr. Amsterdam, 1967), 102.
56. On the park and palace of the Outer Philopation, see R. Janin, *Constantinople byzantine: Développement urbain et répertoire topographique*, 2nd ed., Archives de l'Orient chrétien, 4A (Paris, 1964), 143–45, 452–53. The statement by Kinnamos involves punning etymologies; 'philopatein' could mean 'enjoy frequenting;' 'phyllopathein,' 'walk on leaves.'
57. Janin, *Constantinople byzantine*, 465–66; this passage is further evidence for the existence of a bridge over the Golden Horn outside the city wall, just west of Blachernai, in the modern Eyüp district: see my *Byzantium Confronts the West*, 237–38 and nn.
58. A section of Üsküdar (Scutari): Janin, *Constantinople byzantine*, 495–96.
59. Commander of the Varangian Guard: Hohlweg, *Beiträge*, 49–50.
60. Identity uncertain: Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 181; Vryonis, *Asia Minor*, 121, 188.
61. Kinnamos always regards the Blachernai Palace (situated at the western extremity of Constantinople) as south of the city: Kinnamos, 171–72, 207. A number of famous relics were kept at Blachernai: Janin, *Eglises et monastères*, 169–79.
62. Franco-Byzantine relations were actually more strained than Kinnamos states; Berry, 'Second Crusade,' 489–92.
63. Patriarch Nicholas IV Mouzalon, Dec. 1147–Mar./Apr. 1151.
64. Theodotos II, elected between Mar./Apr. 1151 and Apr. 1152; died between Oct. 1153 and Oct. 1154, having held office two-and-a-half years.
65. Vladislav II of Bohemia, 1140–74 (but he was not crowned king until 1158), and Boleslav IV of Poland, 1146–73.
66. L. Oeconomus, 'Remarques sur trois passages de trois historiens grecs du Moyen Age,' *Byzantion*, 20 (1950), 180–82, and H. Grégoire's note on p. 183; I have adopted Grégoire's suggestion.
67. Actually, only to Ephesos at this time (Dec. 1147): Berry, 'Second Crusade,' 497–98. Conrad's actual reason for temporarily returning to Constantinople was illness.
68. On Conrad's meeting with Manuel near Thessalonica, and his subsequent second stay in Constantinople, see Chalandon, II, 326–28; Berry, 'Second Crusade,' 510–11. The purpose of the treaty alluded to by Kinnamos was a joint attack on Roger II of Sicily. Chalandon, II, 326–27 (esp. 327, n. 2) accepts Kin-

NOTES TO BOOK II

Cities and Bishoprics (see above, Book I, n. 3), I, Pt. 2, 454, and map facing p. 353.

43. Actually, both the name and the site were older: it is on the north coast of Bithynia, just outside the Astakenos Gulf: Ramsay, *Historical Geography*, 137; Calder and Bean, *Asia Minor*, reference square Dc.

44. Kosmas II Attikos was patriarch of Constantinople from April 1146 to 26 February 1147.

45. Nephon was thus propagating a Bogomil dualism, whereby the Divinity of the Old Testament was alleged to be the Evil Principle: Hans-Georg Beck, *Kirche und theologische Literatur im byzantinischen Reich*, Handbuch der Altertumswissenschaft, Abt. XII, Teil II, Band I (Munich, 1959), 661; D. Obolensky, *The Bogomils* (Oxford, 1948), 221–22.

46. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 285; on the fight at Kalograia, see Kinnamos, 40. On these negotiations, see Chalandon, II, 257–58.

47. On the Second Crusade and the Byzantine Empire, see Chalandon, II, 262–315; Virginia G. Berry, "The Second Crusade," *The First Hundred Years* (see above, Book I, n. 19), 463–503; on western plans to seize Constantinople, see Sibyll Kindlimann, *Die Eroberung von Konstantinopel als politische Forderung des Westens im Hochmittelalter: Studien zur Entwicklung der Idee eines lateinischen Kaiserreichs in Byzanz*, Geist und Werk der Zeiten, 20 (Zürich, 1969), esp. 149–68.

48. On Alexander of Conversano, Count of Gravina, who became a leading diplomat in John II's and Manuel's service, see Chalandon, II, 170, 226–27, 230, and index; Chalandon, *Domination normande*, II, 27–29, and index; Paolo Lamma, *Comneni e Staufer: Ricerche sui rapporti fra Bisanzio e l'occidente nel secolo XII*, Istituto storico italiano per il Medio Evo, Studi storici, 14/18 and 22/25, 2 vols. (Rome, 1955–57), indices of each vol., s.v. "Gravina."

49. An exaggeration: Berry ventures no estimate, but Steven Runciman, *A History of the Crusades*, II (Cambridge, Eng., 1952), 259, suggests "nearly twenty thousand" for the German force.

50. This is a literary usage, in no way reflecting official nomenclature.

51. The *chartoularios* was chief of the archive office in the treasury department Bréhier, *Monde byzantin*, II, 257. This individual would seem to have been the *chartoularios* Basil Tzintziloukes: Chalandon, II, 196, 273, n. 3. Michael Palaiologos was a cousin of Manuel, and later commanded a force in Italy: Chalandon, II, 218–19.

52. See above, Kinnamos, 33.

53. The future Frederick I Barbarossa; Kinnamos' estimate of him is based on his later prolonged opposition to Manuel and the Byzantine Empire.

NOTES TO BOOK II

30. Perhaps a brother of Constantine Angelus, husband of Manuel's aunt Theodora: G. Ostrogorsky, "Der Aufstieg des Geschlechts der Angeloi," *Zur byzantinische Geschichte: Ausgewählte kleine Schriften* (Darmstadt, 1973), 168–69.
31. Commander of the armies, second only to the emperor. John Axouchos was a former Turkish captive reared alongside John II, whose trusted minister he became. Axouchos was a leading supporter of Manuel in the difficult outset of his reign; he was chief of Manuel's advance representatives to the capital, and by his ability bloodlessly suppressed the conspiracies (real or potential) of Manuel's brother Isaac and of the caesar John Roger.
32. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 256–57.
33. John Comnenus was eldest son of Manuel's older brother Andronicus; he was a favorite of Manuel, and is often mentioned by Kinnamos. The title of proto-sebastos was one of the highest in the Comnenian scheme: Hohlweg, *Beiträge*, 36–38.
34. The text of the sentence is confused; I have followed the editor's suggestion.
35. Probably Basil Tzikandyles Goudelios: Chalandon, II, 648.
36. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 331, has no suggestion.
37. On the Gabras family, see Claude Cahen, "Une Famille byzantine au service des Seldjuqides d'Asie Mineure," *Polychronion: Festschrift Franz Dölger zum 75. Geburtstag*, ed. Peter Wirth (Heidelberg, 1966), 145–49; Anthony Bryer, "A Byzantine Family: The Gabrades, c. 979–c. 1653," *University of Birmingham Historical Journal*, 12 (1970), 164–87 (Bryer's No. 6, pp. 179–80); Vryonis, *Asia Minor*, 231–32.
38. Literally, "Rhomaïs," evidently a rhetorical variant of "R(h)omania," which by the 12th cent. was in official Byzantine use to designate the empire: Robert Lee Wolff, "Romania: The Latin Empire of Constantinople," *Speculum*, 23 (1948), 5–8.
39. This is the correct reading of the manuscript: Wirth, "Zur asiatischen Toponymie," 253. The ancient name was Lake Karalis, of which "Skleros" is thought to have been a medieval corruption; it is now Beyşehir Gölü: Ramsay, *Historical Geography*, 359, 389. Rather than return the way he had approached Ikonion, Manuel withdrew nearly due west, through the Ala Dağ, and made for the upper valley of the Maeander.
40. On this important evidence of Turkomen pressure westward, into the Maeander valley, see Vryonis, *Asia Minor*, 121, 147, 189; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 259, has no suggestion to identify Rama(n).
41. Son of John II's brother Isaac the sebastokrator: see above, n. 4.
42. This clearly refers to the region from Apameia/Dinar to Soublaion/Choma/Homa and further west: Ramsey, *Historical Geography*, 79, 434; Ramsay,

NOTES TO BOOK II

18. The Kaystros or Cayster valley (modern Küçükmenderes): Ramsay, *Historical Geography*, 130, and map facing p. 104.

19. The second son of Gümüşhtigin Ghāzi ibn Dānishmend, and emir of Sebasteia/Sivas, 1140/42–64: Cahen, "Turks in Iran and Anatolia," 677–78; Cahen, *Pre-Ottoman Turkey*, 96–97, 100–01.

20. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 337.

21. Neither Ramsay, *Historical Geography*, 359, nor Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 69, have any identification to suggest.

22. Adrianople or Hadrianopolis was on the route between Philomilion and Ikonion, south of modern Cıvıçugölü; Ramsay, *Historical Geography*, 140; Calder and Bean, *Asia Minor*, reference square Fe. Ramsay, *Historical Geography*, 359, identifies Gaita as Aghait, now Akait, southeast of Akşehir: this suggests that Kinnamos has confused the sequence of stopping places.

23. Ramsay, *Historical Geography*, 359; the location is apparently a pass through the Ala Dağ, west of Ikonion/Konya. Kaballa is possibly an abandoned fort atop Takali Dağ (also called Gevele Dağ) eight miles west-north-west of Konya; see notes to Calder and Bean, *Asia Minor*, reference square Gf. Medieval Ikonion was on an oval mound, perhaps a third of a mile long and seventy-five feet high, in an otherwise level plain.

24. An important domestic official; Bréhier, *Monde byzantin*, II, 148. Chouroup is not discussed by Moravcsik, but the name is possibly Turkish.

25. Not word of the Second Crusade, but news of the Turkish allies' gathering to the sultan's banner probably turned Manuel back: Chalandon, II, 254–55.

26. On the hypothetical family of rulers, see Franz Dölger, "Die 'Familie der Könige' im Mittelalter," *Byzanz und die europäische Staatenwelt* (Ettal, 1953), 34–69.

27. Evidently Muḥammad, 1134/35–1140/42. Since the eleventh century the Dānishmendid family of Cappadocia had been the chief Turkish rivals of the Seljuks established at Ikonion. After Muḥammad's death, however, the principality was divided between his son Dhū-n-Nūn at Kaisareia/Kayseri (1140/42–64), and Muḥammad's two brothers, Yaghi-Basan at Sebasteia/Sivas (1140/42–64) and 'Ain-ad-Daulah at Melitene/Malatya (1140/42–52). These princes and their sons became pawns in power struggles between the Seljuks of Ikonion, the Byzantines, and Nūr-ad-Dīn. See Cahen, *Pre-Ottoman Turkey*, 91–110.

28. Not precisely identified, but one of several passes west of Ikonion: Ramsay, *Historical Geography*, 359.

29. These might have included Manuel Anemas (married to Theodora), Stephen Kontostephanos (Anna), and Theodore Batatzes (Eudokia); probably John Roger was still in custody, although he was at some date restored to favor.

NOTES TO BOOK II

6. Chalandon, II, 239–41; Nicholson, "Latin States," 445–47.
7. Evidently a Turk in Byzantine service; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 257.
8. A classical byword for easy spoil: Liddell-Scott-Jones, s.v.
9. The Byzantine term is *λίγιος*, adapted from Old French *liege*; it is used by Anna Comnena and later authors to designate western Europeans who had become imperial vassals. See Jadran Ferluga, "La Ligesse dans l'Empire byzantin: Contribution à l'étude de la féodalité à Byzance," *Zbornik radova Vizantološkog Instituta*, 7 (1961), 97–123.
10. Kinnamos' chronology is here somewhat erroneous. The negotiations for Manuel's engagement were managed by John II between 1140 and 1142; seemingly it was in the latter year that Bertha of Sulzbach (renamed Irene, in accord with Byzantine custom) arrived in Constantinople. She was sister-in-law to the German emperor Conrad III; her birth evidently made her seem unsuitable to Manuel when he unexpectedly became emperor, and only pressure from Conrad and need for alliance with Germany brought about the marriage, in January 1146: Chalandon, II, 169–72, 209–12, 259–62.
11. That is, the death (1142) of co-emperor Alexius, which caused his wife to enter a convent.
12. The date of this expedition to re-fortify the Bithynian frontiers is vague, but prior to Manuel's attack on Ikonion in 1146: Chalandon, II, 247–48; Vryonis, *Asia Minor*, 120, 187–88. On Melangeia-Malagina, see Ramsay, *Historical Geography*, 202–09, and map facing p. 178.
13. John Roger was a Norman of unknown background and lineage, who married John II's eldest daughter, Maria. For his attempted coup in 1143 he recruited prince Robert of Capua, who was in Constantinople as an envoy of Conrad III: Chalandon, II, 11–12, 197–98; Chalandon, *Domination normande* (see above, Introduction, n. 36), II, 126–29 (I have adopted the textual correction suggested on p. 127, n. 4).
14. The fort of Lopadion, where the modern Orhaneli River leaves the Apolyont Gölü, figures repeatedly in 12th-cent. history: Ramsay, *Historical Geography*, 160 (Uluabat is the modern spelling of Ulubad).
15. Prakana, in Cilicia Tracheia, lay almost due west of Seleukeia/Silifke: Ramsay, *Historical Geography*, 364, and map facing p. 330, is to be corrected by W. M. Calder and George E. Bean, *A Classical Map of Asia Minor*, published by the British Institute of Archaeology at Ankara (London, 1958), reference square Hg.
16. Apparently located between Melangeia and Nikaia/Iznik: Ramsay, *Historical Geography*, 201–02; Vryonis, *Asia Minor*, 21, 31, and map facing p. 14.
17. Evidently the road to Kotiaion/Kütahya; the route led to Akroenos/Afyonkarahisar, Philomilion/Akşehir, and Ikonion/Konya: Ramsay, *Historical Geography*, 199. On this campaign against Ikonion (1146), see Chalandon, II, 248–57.

NOTES TO BOOK II

valric culture. The discovery of the true circumstances, from several contemporary rhetorical compositions, is the achievement of Robert Browning, "The Death of John II Comnenus," *Byzantion*, 31 (1961), 228-35.

Note that John II actually reigned 24 years, 7 months, 25 days (15 Aug. 1118-8 Apr. 1143): Kazhdan, "Eshche raz," 23.

BOOK II

1. Antioch had been regained by the Byzantines from the Arabs in 969; the Turks took it in 1085 from Philaretos, once a lieutenant of Romanus IV Diogenes; he had established himself as an independent ruler after Romanus' downfall. When the First Crusade seized it in 1098, Bohemond refused to acknowledge Byzantine overlordship. Alexius I had vainly struggled to achieve this; John II had in 1138 momentarily imposed himself, when Raymond did homage: Chalandon, II, 119-50, 183-90; Cahen, *Syrie du nord*, 357-68.

2. On the route (through Attaleia and Chonai/Honaz), see Chalandon, II, 198-99. On dromonds, triremes, and biremes, repeatedly mentioned by Kinnamos, see Hélène Ahrweiler, *Byzance et la Mer: La Marine de guerre, la politique et les institutions maritimes de Byzance aux VII^e-XV^e siècles*, Bibliothèque byzantine, Etudes, 5 (Paris, 1966), 410-18, esp. 418: "Le bateau à voiles est en effet l'une des unités principales des flottes impériales du XII^e siècle. Le tonnage des bâtiments byzantins s'est alors considérablement accru, les unités de guerre sont maintenant des bâtiments ronds et lourds, ils continuent cependant à être désignés comme *dromons* et surtout comme *chélandia*, terms indiquant à ce moment le navire de guerre en général sans aucune précision spécifique."

3. The senate was then an advisory body of officials.

4. This Isaac Comnenus the sebastokrator, after initially enjoying the trust and confidence of his brother John II, turned against him; from 1130 to 1138 he wandered the Near East, striving to create a league against John. His exile at Herakleia Pontika apparently dates from soon after his return and reconciliation with John. In 1140, during the siege of Nea Kaisareia, his son John went over to the Turks, turned Muslim, and married a daughter of the sultan of Ikonion. Isaac's other son, Andronicus, continued the family tradition of opposition to the ruling Comneni. He figures largely in the histories of Kinnamos and Nicetas Choniates; in 1182 he effectively deposed Manuel's son Alexius II and ruled as Andronicus I. From him descend the so-called Grand Comneni, emperors of Trebizond. Chalandon, II, 17-18, 83-85, 152-53, 179-80, 195, etc.

5. Patriarch Leo Styppes had died in Jan. 1143; Manuel's first patriarch, Michael II Kourkouas Oxites, held office from July 1143 to March 1146: V. Grumel, *La Chronologie*, *Traité d'études byzantines*, I (Paris, 1958), 436; Chalandon, II, 196, 199-200; Peter Wirth, "Leon Styppes oder Styppeiotēs?" *Byzantinische Forschungen*, 3 (1968 [publ. 1971]), 254-55.

NOTES TO BOOK I

by king Fulk of Jerusalem to marry Constance: Nicholson, "Latin States," 434, 436–38. Raymond of Poitou was prince of Antioch from 1136 to 1149.

21. This campaign and the siege of Shaizar in 1138 mark a high point of Byzantine intervention in the Crusading States; Kinnamos exaggerates the extent of John's success, especially in the siege: Chalandon, II, 130–46; Nicholson, "Latin States," 439–40; Cahen, *Syrie du nord*, 359–63; Wirth, "Zur asiatischen Toponymie," 252.

22. Chalandon, II, 175–79; Vryonis, *Asia Minor*, 119–20, considers this failure the beginning of the end for the Comnenian reconquest of Anatolia.

23. Ramsay, *Historical Geography*, 359, 389; I have corrected the MS reading "Pasgouse" on the basis of Wirth, "Zur asiatischen Toponymie," 253. On Sozopolis/Uluborlu, see Kinnamos, 6; on the campaign, see Chalandon, II, 180–83; Vryonis, *Asia Minor*, 120, 215.

24. An exaggeration; the distance is "over sixty miles" by road: Ramsay, *Historical Geography*, 389.

25. Alexius was born in 1106, crowned co-emperor in 1122 (after John's victory over the Petchenegs), and died in 1142; he married a Russian princess, and left a daughter: Chalandon, II, 12–13. Alexius' portrait, as co-emperor, survives in the south gallery of Hagia Sophia: Thomas Whittemore, *The Mosaics of Hagia Sophia at Istanbul: Third Preliminary Report, Work Done in 1935–1938: The Imperial Portraits of the South Gallery* (Boston, 1942), 7, 26–28, and plate facing p. 21.

26. Purple boots were in Byzantine usage the prerogative and special mark of the emperor; a sebastokrator (Manuel's rank) was entitled to blue boots: Louis Bréhier, *Le Monde byzantin, L'évolution de l'humanité*, XXXII^{bs} (Paris, 1949), II, 12.

27. The co-emperor Alexius died in 1142 at Attaleia; Andronicus the sebastokrator, the second son, died while taking his brother's body back to Constantinople by sea; he was accompanied on this mission by the third brother, Isaac the sebastokrator, who remained in the capital: Chalandon, II, 12–14, 182–83.

28. This word, evidently signifying "membrane" or something similar, is not found in the lexica of Du Cange, Liddell-Scott-Jones, Sophocles, or Demetrakos.

29. The ancient custom of reclining while dining continued among the Byzantines: Louis Bréhier, *Le Monde byzantin, L'évolution de l'humanité*, XXXII^{er} (Paris, 1950), III, 52.

30. The actual circumstances of John II's death were quite different: he was apparently murdered, possibly by the Latin mercenaries in the army, who disliked his aggressive policy toward Antioch and the other Crusading States. They favored Manuel, who was known to be partial to Westerners and to Western chi-

NOTES TO BOOK I

8. So Chalandon, II, 51, dates these engagements.
9. Kinnamos is confused about the genealogy of the Hungarian kings. See table in the Appendix, based on that in Gyula Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, trans. Mihály Szegedy-Maszák, Miklós Szenczi, and Zsigmond Ritoók (Amsterdam, 1970). Álmos and István II were uncle and nephew; neither descended from László I.
On the text of this passage, see Moravcsik, "Συμβολαί," 295.
10. R. Janin, *Les Églises et les monastères*, La Géographie ecclésiastique de l'Empire byzantin, Part I, Tome III (Paris, 1953), 529–38 (modern Zeyrek Kilise Cami).
11. Located on the Danube, three miles northwest of Belgrade; modern Yugoslav Zemun appears in Kinnamos as Zeugme or Zeugminon, in Nicetas, *Hist.*, 25, as Zeugminon, in Hungarian as Zimony, and in German as Semlin. See Jovanka Kalić, "Zemun u XII veku," *Zbornik radova Vizantološkog instituta*, 13 (1971), 27–56 (esp. 32–50).
12. Chalandon, II, 56–62; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 78–79.
13. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 59, 158.
14. On this campaign, see Chalandon, II, 81–87; Claude Cahen, "The Turks in Iran and Anatolia Before the Mongol Invasions," *The Later Crusades, 1189–1311*, ed. Robert Lee Wolff and Harry W. Hazard, A History of the Crusades, ed. Kenneth M. Setton, II, 2nd ed. (Madison, Wis., 1969), 677; Vryonis, *Asia Minor*, 119, 162.
15. Gümüshtigin Ghāzī (ca. 1105–34/35), leader of the Dānishmendid dynasty: Cahen, "Turks in Iran and Anatolia," 676; Cahen, *Pre-Ottoman Turkey*, 94–95; Chalandon, II, 87–89.
16. Mas'ūd, 1116–55, of the Seljuk (Selchük) dynasty, opponents of the Dānishmendids.
17. Apparently the valley of the Rhyndakos, the modern Orhaneli River.
18. Leon or Levon I, 1129–37: Chalandon, II, 107–12; Sirarpie Der Nersessian, "The Kingdom of Cilician Armenia," *The Later Crusades* (see above, n. 14), 636–37.
19. Bohemond II, 1126–30: Chalandon, II, 121–39; Robert L. Nicholson, "The Growth of the Latin States, 1118–1144," *The First Hundred Years*, ed. Marshall W. Baldwin, A History of the Crusades, ed. Kenneth M. Setton, I, 2nd ed. (Madison, Wis., 1969), 431–32, 436–39; Claude Cahen, *La Syrie du nord à l'époque des croisades et la Principauté franque d'Antioche*, Institut français de Damas, Bibliothèque orientale, I (Paris, 1940), 349–50, 357–61.
20. This is a fiction of Kinnamos; Raymond of Poitou was purposely summoned

NOTES TO BOOK I

BOOK I

1. Nicephorus Bryennios, Alexius I's son-in-law, commenced a biography of him; it was revised and completed by his wife, Anna Comnena.
2. Moravcsik, *Byzantinoturcica* (see above, Introduction, n. 4), II, 70–71. 'Ιωάννης should evidently be corrected to 'Ιωάννην.
3. Moravcsik, "Συμβολαί" (see above, Introduction, n. 52), 295. On this campaign, see Chalandon, II (see above, Introduction, n. 20), 46; Claude Cahen, *Pre-Ottoman Turkey: A General Survey of the Material and Spiritual Culture and History, c. 1071–1330*, trans. J. Jones-Williams (New York, 1968), 92–93; Speros Vryonis, Jr., *The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the Eleventh Through the Fifteenth Century*, Publications of the Center for Medieval and Renaissance Studies, U.C.L.A., No. 4 (Berkeley, Calif., 1971), 117–19. On Laodikeia, see W. M. Ramsay, *The Historical Geography of Asia Minor*, Royal Geographical Society, Supplementary Papers, IV (London, 1890), 134–35; W. M. Ramsay, *The Cities and Bishoprics of Phrygia: Being an Essay of the Local History of Phrygia from the Earliest Times to the Turkish Conquest* (Oxford, 1895–97), I, Pt. I, 32–71; on the Kapros River, 35; "the river of Serai-Keui," i.e., Sarayköy, but recent maps call it the Kadiköy Dere.
4. On Sozopolis, see Ramsay, *Historical Geography*, 400–01; Vryonis, *Asia Minor*, 154–68.
5. An unknown location near Attaleia/Antalya: Ramsay, *Historical Geography*, 381, 420; Peter Wirth, "Zur asiatischen Toponymie im Geschichtswerk des Johannes Kinnamos," *Byzantinische Forschungen*, 3 (1968 [publ. 1971]), 251–52.
6. A Turkic people who had occupied much of the Ukraine, Moldavia, and Wallachia since the 10th cent. In 1091 they had been severely defeated by Alexius I, acting in cooperation with the Cumans (Polovtzi), who subsequently occupied the same regions: Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 87–90; Constantine Porphyrogenetos, *De administrando imperio*, Vol. II, Commentary, ed. R. J. H. Jenkins (London, 1962), 12–14, 142–45. On this campaign, 1121–22, see Chalandon, II, 48–51.
7. On the Anglo-Saxons, who made up the chief part of the Varangian Guard from early in Alexius I's reign, see A. A. Vasiliev, "The Opening Stages of the Anglo-Saxon Immigration to Byzantium in the Eleventh Century," *Annales de l'Institut Kondakov (Seminarium Kondakovianum)*, 9 (1937), 39–70; Richard M. Dawkins, "The Later History of the Varangian Guard: Some Notes," *Journal of Roman Studies*, 37 (1947), 39–46 (see rev. by V. Laurent, *Revue des Etudes Byzantines*, 6 [1948], 114); Armin Hohlweg, *Beiträge zur Verwaltungsgeschichte des oströmischen Reiches unter den Komnenen*, diss. Munich, 1962, *Miscellanea byzantina monacensia*, I (Munich, 1965), 46–50.

NOTES TO INTRODUCTION

Du Cange's edition, Paris, 1670, in the Paris Corpus of Byzantine historians, was reprinted in Venice in 1729 in the Venice Corpus. Meineke's edition (see n. 1, above) was reprinted in J.-P. Migne, ed., *Patrologiae cursus completus. Series graeca*, Vol. 133 (Paris, 1864), col. 309–677. Fritz Hörmann, *Beiträge zur Syntax des Johannes Kinnamos*, diss. Munich, 1937 (Munich, 1938), discusses Kinnamos' grammar as a prelude to what proved an abortive new edition.

Even before Tollius' edition, the existence of Kinnamos' work was known; the title page of P. Poussines' edition of Anna Comnena reads in part as follows: *Annae Comnenae Porphyrogenitae Caesarissae Alexias . . . Notae mox opportunius edentur, una cum Sinnamo Continuatore Annae . . .* (Paris, 1651), and on folio T. ij^r appeared the statement, "Hanc Alexiadem continuauit Ioannes Sinnamus Regius Grammaticus; quae nunc lucem aspexit e Codice Vaticano 319. cum Versione & Notis P. Possini." The projected publication was evidently forestalled by the appearance of Tollius' text.

There is a general, rather uncritical study of Kinnamos as a historian by M. M. Freidenberg, "Trud Ioanna Kinnama kak istoricheskii istochnik," *Vizantiĭskii Vremennik*, 16 (1959), 29–51; the bulk of it (pp. 30–47) analyzes Kinnamos' account of Byzantine relations with the Slavic states, Hungary, and Western Europe (except for the Italian cities); pp. 47–50 relate to Kinnamos' interests in military affairs. Peter Wirth, "Zur Frage nach dem authentischen Titel von Johannes Kinnamos' Geschichtswerk," *Byzantion*, 41 (1971), 375–77, points out that, in addition to the lengthy title given at the beginning of the MS (Kinnamos, 3), there are the titles given to the only two books attested by the manuscript, "Histories" and "Roman History." The long title, he thinks, might go back only to a scribe or epitomator, but which of the two other names Kinnamos applied to his whole work remains unknown.

New editions of Kinnamos have repeatedly been projected, most recently by B. Schartau, in XIV^e Congrès international des études byzantines, Bucarest, 6–12 September 1971, *Résumés—Communications* (Bucharest, 1971), 196–98, and by P. Wirth. I have been privileged by some communications from Dr. Wirth.

Since these notes were composed, a French translation of Kinnamos has been published: Jean Kinnamos, *Chronique*, trans. J[acqueline] Rosenblum, Publications de la Faculté des lettres et des sciences humaines de Nice, 10 (n.p. [Paris], 1972). The translation is occasionally defective: e.g., in Book I, Ch. 1 (Kinnamos, 4–5), John Comnenus is made out to have rebelled against Nicephorus Botaneiates, and the last sentence in the chapter has been misunderstood (Rosenblum, p. 18). The annotation is incomplete and often inaccurate: Laodikeia on the Lykos, mentioned in Book I, Ch. 2, is identified as "Lattakieh" (Rosenblum, p. 199), a mistake for Syrian Laodikeia, now Latakia. Mlle Rosenblum's introduction takes a different view of Kinnamos' trustworthiness from the one expressed here (Rosenblum, pp. 7–9). See the review by D. Stiernon, *Revue des études byzantines*, 32 (1974), 407–09.

NOTES TO INTRODUCTION

48. For the view that the existing Kinnamos text is an abridgment, see Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 80–84, who originated the hypothesis; Krumbacher, *Geschichte der byzantinischen Literatur*, 279–80; Chalandon, II, xiv–xv. The opposite view was put forward (I think successfully) by V. Grecu, “Nicéas Choniates a-t-il connu l’Histoire de Jean Cinnamos?” *Revue des Etudes Byzantines*, 7 (1949), 202–03; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 325, states both views and leaves the question open. Epitomes exist for Anna Comnena’s *Alexiad* (see edition by Leib, I, clxxi–clxxv), and for Nicetas Choniates’ *History*: the B version partially published at the base of the text of the Bonn edition, and the simplified version by [Theodore Scutariotes,] in K. N. Sathas, *Μεσαιωνική Βιβλιοθήκη* (*Bibliotheca graeca medii aevi*), VII (Venice and Paris, 1894). Leib, I, clxxiv, notes that Anna Comnena’s epitomator made senseless excisions which destroy the meaning of the text; such is never the case in Kinnamos’ history.

49. Nicetas, *Hist.*, 7.

50. Grecu, “Nicéas Choniates,” 194–204; A. P. Kazhdan, “Eshche raz o Kinnamie i Nikite Khoniata,” *Byzantinoslavica*, 24 (1963), 4–31, which is a detailed comparison of the two authors’ treatment of the reign of John II (pp. 6–23), and a brief review of some aspects of Manuel’s reign (pp. 23–27).

51. Psellos, *Chronographie*, ed. Renauld, I (Paris, 1926), lxi–lxii; Anna Comnena, *Alexiad*, ed. Leib, I, clxiii–clxxi.

52. The 13th-cent. manuscript of Kinnamos is designated *Vaticanus graecus* 163 (fol. 221^r–268^v); for its being in Constantinople in 1453, see the marginal note published by Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 101–02. The best discussion of the history of the text, with a stemma of manuscripts and editions, is Gyula Moravcsik, “Συμβολαὶ εἰς τὴν χειρόγραφον παράδοσιν τῆς Ἐπιτομῆς Ἰωάννου τοῦ Κιννάμου,” in his *Studies Byzantina* (Amsterdam, 1967), 293–96. The variants from *Vat. gr.* 163 for the sections of Kinnamos touching on Hungarian affairs were published by Ferenc Babos, *Adalékok Kinnamos Szöveg-történetéhez: Symbolae ad historiam textus Cinnami*, Magyar-görök Tanulmányok: Οὐγγροελληνικαὶ μελέται, 26 (Budapest, 1944), 6–13, and have been utilized for the present translation. The first edition is: Ioannis Cinnami, *De Rebus Gestis Imperat. Constantinop. Ioannis & Manuells, Comnenorum Historiar. Libri IV*, Cornelius Tollius, Primus edidit, vertit, castigavit, Trajecti ad Rhenum [i.e., Utrecht], 1652; note that this edition was in four books (Books II, III, and IV begin where the present Books II, III, and IV do, so that the last book is extremely long). A Latin translation accompanied it, but a new one was made by Du Cange, and it is essentially his translation which is given in the Bonn edition; Du Cange divided the text into six books, the Bonn editor, into seven, but the divisions are not at the same points. The MS gives only two books, the modern Book I (John’s reign), and the modern Book II as the entire remainder (Manuel’s reign), but does have a paragraph mark or an ornamental stripe at the points where the Bonn editor’s other books commence (Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 82–84).

NOTES TO INTRODUCTION

38. Kinnamos, 30, 58–59, 67–68, 76–80, 172–75, and many other places. On the question of the genuineness of the documents quoted, see the discussion in n. 23 above.

39. Kinnamos, 46–58 (esp. 55–56), 143–45, 246.

40. See above, n. 17.

41. Kinnamos, 265–69; Nicetas, *Hist.*, 187–89. For examples of panegyric to Manuel, see Kinnamos, 42–43, 47, 56, 61, 99–100, etc. Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 99–101, offers a particularly good discussion.

42. Michael Psellos, *Chronographie, ou Histoire d'un siècle de Byzance* (976–1077), ed. and trans. Emile Renauld, Collection byzantine publiée sous le patronage de l'Association Guillaume Budé, II (Paris, 1928), 172–85; Michael Attaleiates, *Historia*, ed. Immanuel Bekker, *Corpus scriptorum historiae byzantinae* (Bonn, 1853), 3–6, 216–29; Nicephorus Bryennios, *Commentarii*, ed. Augustus Meineke, *Corpus scriptorum historiae byzantinae* (Bonn, 1836); for Anna Comnena, see n. 1, above.

43. A number of 12th-cent. court orations are to be found in W. Regel, ed., *Fontes rerum byzantinorum*, I, fasc. 1–2 (all pub.) (Petrograd, 1892–1917); see my own translation of an oration by Nicephorus Chrysoberges to Alexius IV, in "A Byzantine Plan for the Fourth Crusade," *Speculum*, 43 (1968), 462–75. For Nicetas' orations, see the new edition: Nicetas Choniates, *Orationes et epistolae*, ed. Ioannes Aloysius van Dieten, *Corpus fontium historiae byzantinae*, III (Berlin, 1972 [pub. 1973]).

44. See in particular Kinnamos, 192; Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 98–99, a particularly good discussion; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 326, places excessive trust in Kinnamos' claims of objectivity.

45. Kinnamos, 121–22. This confused chronology reappears at pp. 125–26, where again the necessity of explaining the fatal destiny of Andronicus leads the historian into rapid temporal and topical shifts. Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 85–88, discusses the composition.

46. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 325.

47. Kinnamos, 236, 261; other back-references without corresponding texts are to Manuel, oft-mentioned as John's youngest son (21), but really only once before; to Andronicus as having received an extended account already (61), while he has only been alluded to among the unnamed sons of Isaac (53–54); to Suleimān's having been in command at Kalograia (66); to a certain Sotas (95); and to subsidies paid by Manuel to Kilidj Arslan (291). This is the list furnished by Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 80, augmented by the case of Kilidj Arslan, which he had not noted. Neumann, 81, also mentions that Kinnamos fails to fulfill a promise (Kinnamos, 10) to record the rebuilding of Zeugminon, although he alludes to the event.

NOTES TO INTRODUCTION

spondence of Manuel and Conrad III, it bears no relationship to what Kinnamos alleges was written. Only Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 325–326, has supported the accuracy of Kinnamos' alleged documents as summations from a register. But his examples are nearly all manifest rhetorical creations by Kinnamos himself; only the papal documents (alluded to, not quoted, in Kinnamos, 220) can have any real validity.

24. Kinnamos, 5; see Nicetas, *Hist.*, 7.

25. Kinnamos, 20.

26. *Ibid.*, 127, 129–30; Chalandon, II, 410. John Comnenus and Andronicus were bitter enemies. Note that John Comnenus was killed in 1176 at Myriokephalon, so Kinnamos must have listened to his recollections before then.

27. Kinnamos, 109–13, 136–69 (see above, n. 9), 257–59.

28. Anna Comnena, *Alexiad.* XIV, vii, 7 (ed. Leib, III, 175–76).

29. Kinnamos, 38–63.

30. Kinnamos, 67–83, 84–87. If Kinnamos did *not* participate in the Italian expedition, and if John Doukas was *not* his informant, a written narrative by a participant should confidently be hypothesized.

31. Kinnamos, 3–4, 163. Among other possible Herodotean usages would be Kinnamos, 42, line 23 (Herodotus, VII, 18), and Kinnamos, 139, line 3, contains the same thought ("darken the air with arrows") as Herodotus, VII, 226, but not in the same words.

32. Kinnamos, 121. Kinnamos' style in general seems to imitate that of Thucydides.

33. *Ibid.*, 218; the reference is to Procopius, *De bello gothico*, I, 1; see Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 86.

34. Kinnamos, 52, 280. Kinnamos, 232, line 20, seems to reflect Hesychius, *Lexicon*, ed. Kurt Latte, II (Copenhagen, 1966), 112.

35. On this Byzantine practice, see Herbert Hunger, "Die byzantinische Literatur der Komnenenzeit: Versuch einer Neubewertung," *Anzeiger der Phil.-Hist. Klasse der Österreichischen Akademie der Wissenschaft*, 105 (1968), 61–62. For the sake of clarity, these names have ordinarily been translated into their medieval equivalents: see Preface. A similar classical echo is the consistent designation of Roger II as the "tyrant" of Sicily (Kinnamos, 118, and elsewhere), which merely signified that his title to rule had not been recognized by Constantinople.

36. Chalandon, II, xvi; the same author's *Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile* (Paris, 1907; repr., New York, 1960), II, 253 n. 4.

37. Kinnamos, 26–28; see below, Book I, n. 30.

16. Kinnamos, 119, 120–21.

17. Kinnamos, 123–25, 129–31, 232–34 (his escape from prison), 250–51. The orations of Michael Choniates, before and after 1185, show what could be said both in eulogy and excoriation of Andronicus I: Michael Choniates, *Τὰ σωζόμενα: Τὰ πλεῖστα ἐκδιδόμενα νῦν τὸ πρῶτον κατὰ τοὺς ἐν Φλωρεντίᾳ Ὁξωνίῳ, Παρισίοις καὶ Βιέννῃ κώδικας*, ed. Spyridon P. Lampros, 1 (Athens, 1879).

18. On the regency period, see my *Byzantium Confronts the West (1180–1204)* (Cambridge, Mass., 1968), 30–40. Several other details point to the regency period as the date of composition: Pope Alexander III (1159–81) is subjected to a violent invective (Kinnamos, 219–20), as if he were still alive, and the Kontostephanoi family, who were important supporters of the regency, receive consistently favorable treatment (96–98, and many other places). The date of composition of Kinnamos' history has aroused debate: Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 99–100, believed most of the work was compiled during Manuel's reign, only the introduction being later; this ignores Kinnamos' reference, p. 4, to his present special opportunity for writing history (see below). Karl Krumbacher, *Geschichte der byzantinischen Litteratur von Justinian bis zum Ende des oströmischen Reiches (527–1453)*, 2nd ed., Handbuch der klassischen Altertums-Wissenschaft, ix, Pt. 1 (Munich, 1897), 279, believed the work was published after 1185, as shown by the statement in Kinnamos, 53–54, but this does not seem a clear reference to Andronicus' usurpation, only to his repeated treacheries toward Manuel. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, 1, 325, dates the composition to 1180–83, the lifetime of Alexius II.

19. Kinnamos, 4.

20. Ferdinand Chalandon, *Jean II Comnène (1118–1143) et Manuel I Comnène (1143–1180)*, *Les Comnènes: Etudes sur l'Empire byzantin au XI^e et XII^e siècle*, II (Paris, 1912; repr., New York, ca. 1960) [hereafter cited as Chalandon, II], xvi–xviii; on Kinnamos' hostility to Latins, see xx–xxii.

21. Nicetas, *Hist.* (see n. 1, above), 430–31. The subject under debate was the Gospel expression, "My Father is greater than I." Since Euthymius had earlier supported the heterodox view on this point (Kinnamos, 254–55), he probably restated this position, while Kinnamos would have defended the conventional orthodoxy he expresses in his history (251–57, esp. 256).

22. E. Miller, *Catalogue des manuscrits grecs de la Bibliothèque de l'Escurial* (Paris, 1848), 218; Krumbacher, *Geschichte der byzantinischen Litteratur*, 279, 281.

23. Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 91–93, pointed out that there was no tradition of documentary accuracy in ancient history; Chalandon, II, xvi–xvii, joined in rejecting the texts of the documents allegedly quoted by Kinnamos, pointing out that where we have genuine surviving documents, as in the corre-

4. Györgi Bánhegyi, ed. and trans., *Kinnamos Ethopoliája: Cinnami Ethopoeia*, Magyar-görök Tanalmánok: Οὐγγροελληνικαὶ μελέται, 23 (Budapest, 1943), which has not been available to me. See brief accounts of its contents by F. D[ölger] in *Byzantinische Zeitschrift*, 43 (1950), 59, and Gyula Moravcsik, *Byzantinoturcica*, 2nd ed., Berliner byzantinische Arbeiten, 10-11 (Berlin, 1958), 1, 324.
5. Kinnamos, 3.
6. Kinnamos, 69, 146-147.
7. Kinnamos, 5; it was possible to be enrolled "since childhood" among the imperial secretaries (19).
8. This has been the conventional view: see Carl Neumann, *Griechische Geschichtschreiber und Geschichtsquellen im zwölften Jahrhundert: Studien zu Anna Comnena, Theod. Prodromus, Joh. Cinnamus* (Leipzig, 1888), 93-95, 98-99; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, 1, 324. One must, however, bear in mind that the ancient historians who formed his model concentrated on warfare, and his Byzantine predecessors (Attaleiates, Anna Comnena, and Bryennios, to name but a few) found only the emperor's person and especially his martial deeds worthy of attention. Convention thus dictated his concentration on military history.
9. Kinnamos, 134-69. The description of Möttöla, for instance, seems accurate: 152; his account of the siege of Bari, 139-40, seems to be that of a witness. If he was present, to whom was he attached? Possibly Michael Palaiologos, for whom he has outstanding praise, 70, 151. For John Doukas, the other leader of the expedition, he has very high regard and lavish praise (indeed, he claims to be able to state his thoughts, 158), but condemns his conduct after his capture by the Normans: 168-69, 172-73. He did not participate in every part of the campaign, since at one point he says that "allegedly" booty sold at specified prices (154). Nor does he seem to have shared the captivity of the leaders, so he may have returned to Constantinople at a late stage in the struggle. If he did not participate in this expedition, he had available an unusually complete and reliable source, whether a written memoir or living persons.
10. Kinnamos, 170-71, 290-91.
11. *Ibid.*, 241.
12. *Ibid.*, 192-93.
13. *Ibid.*, 207. These quotations were noticed by Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 93.
14. Kinnamos, 4, 257.
15. Kinnamos, 82-83; for the French version of these events, see Odo of Deuil, *Ex profectioe Ludovici VII in Orientem: The Journey of Louis VII to the East*, ed. and trans. Virginia G. Berry, Records of Civilization, Sources and Studies (New York, 1948).

Notes

INTRODUCTION

1. Anna Comnena, *Alexiade: Règne de l'empereur Alexis I Comnène (1081–1118)*, ed. and trans. Bernard Leib, Collection byzantine publiée sous le patronage de l'Association Guillaume Budé, 3 vols. (Paris, 1937–45). The English translations are: Elizabeth A. S. Dawes, trans., *The Alexiad of the Princess Anna Comnena* (London, 1928); E. R. A. Sewter, trans., *The Alexiad of Anna Comnena* (Harmondsworth and Baltimore, 1969). Ioannes Kinnamos, *Epitome rerum ab Ioanne et Alexio [sic] Comnenis gestarum*, ed. Augustus Meineke, *Corpus scriptorum historiae byzantinae* (Bonn, 1836; repr., Athens, n.d.); there is an unannotated Russian translation, *Kratkoe obozrenie tsarstvovaniia Ioanna i Manuila Komninov. (1118–1180). Trud Ioanna Kinnama*, trans. V. N. Karpov, *Vizantiiskie istoriki, perebedennye s grecheskago pri S. Peterburgshoi dukhovnoi akademii* (St. Petersburg, 1859), and a Serbian translation, thoroughly annotated, of the sections relevant to Serbia and Hungary in *Vizantiski izvori za istoriju naroda Jugoslavije*, IV, trans. J. Kalić and N. Radošević-Maksimović, *Vizantološki institut Srpske akademije nauka i umetnosti, Posebna izdanja, Knj. 12* (Belgrade, 1971), 1–105; Nicetas Choniates, *Historia*, ed. Immanuel Bekker, *Corpus scriptorum historiae byzantinae* (Bonn, 1835; repr., Athens, n.d.); the German translation is by Franz Grabler, in the series *Byzantinische Geschichtsschreiber*, VII–IX (Graz, Vienna, Cologne, 1958). There were other Byzantine historians in the 12th century, but they either wrote on short periods (Eustathius of Thessalonica, on the Norman capture of Thessalonica) or on world history (John Zonaras, Michael Glykas).

2. Kinnamos, 4–5; all citations to Kinnamos are to pages of the Bonn text (cited in n. 1 above), represented by numbers inserted between virgules in the translation which follows.

3. See the *Typikon* of St. Neophytos, in Ioannes P. Tsiknopoullos, ed., *Κυπριακὰ Τυπικά, Κέντρον ἐπιστημονικῶν ἐρευνῶν. Πηγαὶ καὶ μελέται τῆς κυπριακῆς ιστορίας*, No. II (Leukosia [i.e., Nikosia], 1969), 78. In 1195 a Manuel Kinnamos was one of the clerks of the Bureau of the Sea: F. Miklosich and J. Müller, *Acta et diplomata graeca Medii Aevi*, VI (Vienna, 1890), 129.

ماوردلدى
أوتو أسقف فريزنغ
عن الحروب الصليبية

المدينتان

الكتاب السابع

١- عندما توفي غريغوري —الحبر الأعظم، صاحب الذكرى المباركة— في سالرنوبات الكنيسة في وضع صعب، لأن غيوبرت، استولى بقوة الامبراطور على الكرسي الروماني وعلى المدينة، وقلعة هم الرومان الذين نهضوا ضده، وتم جلب الكادرينال ديسيدروس [فكتور الثالث: ١٠٨٦، توفي في ١٠٨٨] راعي ديرمونت كازينو (الذي دعي أيضاً باسم فكتور) لاستلام العرش البابوي، وبعدما رشا حراس مدينة ليونايين Leonine أدخل إلى كنيسة بطرس المقدس، ليرسم هناك ليلاً، وذلك خوفاً من الانشقاق، وأصيب هناك بأسهال شديد، ومالبت أن غادر المدينة ليفارق حياته بعد ذلك بوقت ليس بطويل، وقد ترك حكم الكنيسة إلى أوتو أسقف أوستيا، الذي عرف أيضاً باسم أوربان.

٢- في ذلك الوقت —بينما كان هنري الرابع مايزال يحكم في روما، وألكسيوس يحكم في القسطنطينية— قامت أمم (باسم كلمات الانجيل) ضد أمم في جميع العالم، وعانت الكنيسة الشرقية بشكل حاد من الاضطهاد على أيدي الكفرة، وارتعدت المدينة المقدسة تحت أقدام الكفار، وفقط القبر المقدس للرب احتفظ باحترام عظيم لديهم، مع أن ذلك —والحق يقال— كان في سبيل جني الأرباح وهكذا عانى عبدة المسيح هناك من التعاسة والشقاء، وكان مفروضاً عليهم دفع الجزية، ولذلك أرسل هؤلاء، عبر ألكسيوس امبراطور القسطنطينية، رسالة إلى

البابا أوربان، وسألوه مساعدتهم، وتحرك البابا لمواساة شعب الرب، فقام برحلة متعبة في بلاد غاليا ليعقد مجمعاً هناك [في كليرمون - ١٨-٢٨ ت ١٠٩٥-٢]، واستطاع بخطاب موعظته المقدسة أن يوحد حوالي مائة ألف رجل من مختلف الدول للحرب في سبيل المسيح، وعين قائداً عليهم غودفري دوق اللورين، وروبرت كونت فلاندرز، وريموند كونت صنجيل، وهيو أخي فيليب ملك فرنسا، وعدداً آخر من النبلاء، ورجال الحرب، وعهد بالاشراف على هؤلاء الرجال إلى المبجل [أدهم] أسقف بوي، وأثارت التقارير حول مافعله أوربان شعوباً معروفة قليلاً في أكويتين، ونورماندي، وانكلترا، وسكوتلاندا، وايرلاندا، وبريتاني، وغالشيا، وغاسكوني، وفرنسا، وفلاندرز، واللورين، وشعوباً أخرى، ليس من بين الذين يعيشون في القارة، بل من الذين يعيشون في جزائر البحر وأقصى المحيط، وكان بين هؤلاء الناس، شعوب تميزت تماماً بلغاتها وعاداتها ومواردها، حتى أن بعضها — كما قيل — عاش فقط على الخبز والماء، بينما استخدم آخرون الفضة فقط في أدواتهم، واتحد هؤلاء الناس الذين جاءوا من كثير من الأمم، واستخدموا لغات مختلفة، في جسم واحد، وقد ارتدوا الصليب فوق ثيابهم، ووعدوا أنهم سيكونون بالقول والفعل أتباع صليب المسيح، وانطلقوا وهم على ثقة بكفاية الصليب وقدراته، في رحلتهم إلى الشرق مع غودفري قائداً لهم، ليقاتلوا باسم الرب ضد أعداء الصليب، وكان لهذه الحملة تأثيراً أدنى على الفرنجة الشرقيين، والسكسون والثورنجنين، والبافارين، والألمان، وذلك بسبب الانشقاق الذي كان قائماً آنذاك بين الدولة والكنيسة، ومع هذا كان هنالك بعض الناس، الذين حملوا ذلك الشعار نفسه، بشكل زائف، مدعين أنهم يفعلون ذلك باسم الدين، وكان بين هؤلاء واحد اسمه إميكو Emicho، كونت منطقة الراين، وكان أرعناً في ذاته، وقد قاد ما يقارب الاثني عشر ألف رجل، وقد كرّس نفسه لتدمير اليهود أينما وجدهم، أو، إذا أمكن، جلبهم لالتحاق بالكنيسة والاتحاد بها، لكن بما

أن سكان بانونيا اعترضوا سبيلهم لدى مرورهم بالممرات الضيقة، كانوا مرغمين على العودة إلى أوطانهم، غير أن غودفري والقادة الآخرين، الذين ذكرتهم أعلاه، تمكنوا بفضل الرب من الجواز خلال بلغاريا، لكن بصعوبة، ووصلوا إلى القسطنطينية، وعانوا هناك كثيراً من خيانة الامبراطور ألكسيوس، ثم إنهم نجوا من خطر الموت، بثورة قاموا بها هناك، فقد اقتحموا جسر المدينة الملكية، ودمروا ضواحيها، ثم تابعوا زحفهم إلى نيقية، وكان عددهم ثلاثمائة ألف مقاتل، بدون تعداد النساء أو الأطفال، وكانت نيقية في يوم من الأيام حصناً للعقيدة الكاثوليكية، وبعدها هزموا [قلج أرسلان بن] سليمان قائد الكفار، استولوا عليها، وسلموها إلى الامبراطور، وتابعوا زحفهم نحو الأمام إلى أن وصلوا إلى مناطق سكيثيا البحرية، حيث وجدوا وفرة من المؤن، إلى حد أن الكبش بيع بديناري واحد، والبقرة باثني عشر ديناري، وذلك حسب مارواه الكونت روبرت، ثم إنهم تمكنوا بعون الرب من الانتصار على أمراء أو ملوك المسلمين الذين تصدوا لهم، وشجعتهم هذه النجاحات، فقاموا بحصار أنطاكية، التي كانت حاضرة سورية، غير أنهم بعدما أمضوا هناك تسعة أشهر، ضعفوا كثيراً بسبب تناقص جيشهم وانكماشه ونقص المؤن، ولهذا نظر الرب فرأى متاعب شعبه ومعاناته، فأعطاه المدينة، مع مؤن الأتراك، ووضع ذلك في أيديهم.

٣- وفي حوالي هذا الوقت نفسه، وفيما المسيحيون منشغلون بحصار أنطاكية، وشعوب المشرق كلها قد أصابها الرعب، وصل رسل من قبل ملك المصريين — وهو المعتقد أنه ملك بابلون — إلى الدوق غودفري، ووعده بشكل خياني بالعون ضد الأتراك، الذين كانوا آنذاك مستولين على القدس مع جميع فلسطين، وكانوا قد انتزعوها من العرب، لأنه تأكد لنا عن طريق رجال ثقة من بلادنا فيما وراء البحار، أن جزءاً من بابل القديمة يُدعى بغداد، وهو جزء ما يزال مسكوناً، وهو جزء كما تقرأ في

النبوءة «مهجور ولا يمكن الوصول إليه»، يمتد إلى نحو عشرة أميال، لابل حتى برج بابل، والقسم المسكون، والمدعو بغداد، واسع جداً، ومكتظ بالسكان، ومع أنها بشكل صحيح جزء من امبراطورية الفرس، منحها ملك الفرس إلى كاهنهم الأعلى، الذي يدعونه الخليفة، هناك بينات (كما تقدم القول مراراً) على وجود بعض التشابه بين بابل وروما، لأن ماهو ممنوح في جزئنا من العالم من قبل الامبراطور المسيحي، إلى الحبر الأعظم في مدينة روما، مثله قد جرى منحه من قبل الملوك الفرس الكفار —الذين كانت بابل وما برحت خاضعة منذ زمن طويل— إلى كاهنهم الأعظم، ومثلما اختار حكامنا مدينة ملكية اسمها آخن، كذلك جعل ملوك الفرس مقر مملكتهم ايكباتانا Ekbatana (التي نقرأ في سفر يهوديت أن أرفخشد قد أسسها) وهي مدينة تدعى بلسانهم «همدان»، وهم يمتلكون مائة ألف مقاتل أو أكثر، ولقد اتخذوا هذه المدينة مقرهم الملكي، ولم يحتفظوا لأنفسهم بشيء خارج بغداد فيما عدا اسم «امبراطور»، والمدنية التي قلت إنها تعرف الآن بشكل عام باسم بابلون ليست قائمة على الفرات (كما يفترض الناس) بل على النيل وتبعد مسافة حوالي ستة أيام من الاسكندرية، إنها بالحقيقة مدينة ممفيس، وكان قمبيز بن قورش قد سماها بابلون، وهناك فيها يسكن ملك المصريين وذلك بسبب حديقة البلسم، مع أن عاصمة مملكته هي الاسكندرية، ويمكن استنتاج من حقيقة أن المسيحيين يسكنون في المدينتين، ومع أنهم خاضعين للجزية، فإن أسقف ممفيس خاضع بموجب القانون اللاهوتي إلى بطريك الاسكندرية، ونحن نجد في الترتيبات الأساسية، وبموجب سلطات مجمع نيقية أن البطريك قد أقيم ليس على الآشوريين والبابليين بل على المصريين والأفارقة.

٤- عندما قدم رسل الملك المذكور آنفاً أنفسهم إلى الدوق غودفري، جرى ارسال بعض نبلاء الفرنجة —فهذا هو الاسم الذي اعتاد المشاركة

اطلاقه على الشعوب الغربية، كما أعتقد على أساس المجد القديم لذلك الشعب وبسبب شجاعته — الذين جرى اختياريهم بكل عناية، إلى بابلين، وأعلن البرابرة، الذين أعجبوا بقوة هؤلاء الرجال، وبينيتهم الجسدية، ولباسهم وتصرفاتهم، ونقاوتهم، أنهم آلهة وليسوا من بني البشر، وبعد اجتماع جرى عقده، قام ملك بابلين، فأخذ سفراء الفرنجة معه، وحاصر القدس، وعرض في منظر عام الأبطال المتقدم ذكرهم، وأعلن أنهم حلفاءه، وبهذه الطريقة تسلم طاعة المدينة [آب ١٠٩٨ م] — بسبب الرعب الذي بثوه فيهم، وليس لسبب خيف آخر — وطردهم الترك، وأسكن العرب هناك.

وفي الوقت نفسه كان المسيحيون (كما قلنا قد استولوا على أنطاكية) لكنهم لم يقدموا الشكر المستحق للرب، ولهذا جرى تطويقهم من قبل حشد هائل من المسلمين، ولذلك حل بين صفوفهم مجاعة — تلت وفرة عظيمة — لا يمكن تحملها، حتى أنهم تمنعوا بكل صعوبة عن أكل لحوم البشر، وعطف الرب الرحيم، على شعبه التائب المنيب ورحمه، ونظر إليه بعين النعمة، بوساطة رؤيا جاءت من عليين، فأظهرت للمؤمنين من أتباعه الحرب المقدسة (وكانت حتى هذا الحين غير معروفة) التي بها طعن — كما نقرأ — طرف ابنه المسيح، وهو على الصليب، ووثق المسيحيون بهذه الحرب واعتمدوا عليها، ومع أنهم كانوا ضعفاء بسبب المجاعة، خرجوا وتقدموا نحو الأمام، وهزموا المسلمين، ليس بوساطة أية قوة هي قوتهم بل بوساطة قوة المسيح، ثم زحفوا داخل سورية، فاستولوا على مدن كفر [طاب و] البارة ومعرة النعمان، وبينما كانوا مشغولين بمحاولاتهم هذه، تعرضوا للعناء ثانية، حيث روي أنهم عانوا من نقص شديد بالمؤن، إلى حد أنهم أكلوا لحوم بشر كانت آيلة للفساد، ثم إنهم وجهوا بعد هذا جيوشهم ضد المدينة المقدسة، التي كان يسكنها الآن العرب، وعندما وجدوا أنفسهم غير قادرين على الاستيلاء عليها بالقوة،

عقدوا مؤتمراً، وقرروا تقليد تواضع المعلم، فمشوا حول المدينة حفاة، وتبعاً لهذا، حدث في اليوم الثامن، ذلك اليوم الذي يوافق انتشار الرسل، والذي يحتفل به، أن تم الاستيلاء على المدينة [١٥ تموز ١٠٩٩]، وقتلوا الأعداء الذين وجدوهم فيها، وكانت مذبحة هائلة حتى أن دم المذبوحين وصلت إلى قوائم خيول مقاتلينا داخل بناء المعبد، ولاحظ أنه بعدما قام شعب الرب بالتواضع والتذلل شخصياً، والتقاطر للصلاة للرب، أصبحت المدينة المقدسة التي كانت تحت أقدام أبناء الشعوب، في اليوم الثامن مبهجة بشكل رائع لأنها استردت من قبل شعبنا، ومثلما تم الاستيلاء على أريحا في اليوم السابع، لدى مراعاة يوم السبت، كذلك حدث هنا أن مدينة القدس المحاصرة جرى اقتحامها من قبل الشعب المسيحي في اليوم الثامن (جاء يوم القيامة بعد يوم السبت)، وفي ذلك إشارة إلى أن الشريعة [اليهودية] ونظام الأيام السبعة قد طبق، وغدت القدس من ذلك اليوم مع ضريح الرب في حوزتنا.

٥- وقام ملك شعب ممفيس، أو الاسكندرية — الذي يدعوه الحجاج باسم أمير جيوش أهل بابلين — بالتوجه إلى عسقلان، مصطحباً رسل الفرنج معه، ثم وجه زحف قواته نحو أنطاكية، في سبيل الاستيلاء عليها بنوع من أنواع الخداع الذي كان قد سيطر بوساطته على المدينة المقدسة، غير أن المسيحيين تركوا أثقالهم ومرضاهم في المدينة، وقادوا قواتهم ضد المسلمين، وعندما أبصروا عن بعد حشود العدو التي لا تحصى عدداً، أقاموا الصلوات للرب، ثم انقضوا على الأعداء بكل جرأة مع أن قواتهم كانت صغيرة، ومن الغريب القول، إنه بنعمة من الرب، القادر على فعل كل شيء، تمكنوا وعددهم لم يتجاوز خمسة آلاف فارس وخمسة عشر ألف راجل من ارغام مائة ألف فارس وثلاثمائة ألف راجل على إدارة ظهورهم والفرار، ثم انهم حصلوا على غنائم هائلة، وهلك بحدّ السيف في هذه المعركة أكثر من مائة ألف من المسلمين، وقيل اختنق أيضاً

بالتدافع عند باب المدينة أكثر من ألفين، كما وروي أن أعداداً أخرى لا تحصى غرقت أو ماتت على الخازوق، وبعد نيل هذا النصر، عاد بعض القادة إلى أوطانهم، لكن غودفري بقي، ومارس بكل حماس حكمه كدوق على الذين مكثوا، وتدخل أيضاً وسيطاً بين الفرنجة الرومانسيين والألمان، الذين اعتادوا على الخصام دوماً، مستخدمين حركات تعبر عن المرارة والحقد، وتمكن غودفري من التوسط بينهم بحكم أنه نشأ على الحدود بين الشعبين، وكان عارفاً بلغة كل منهما، وعلمهم بطرائق مختلفة كيفية الصبر والتحمل.

٦- وتمكن أوربان بعد عودته مع مجمع كليرمونت—فيراند، بمساعدة الذين ألهمهم حماساً للقيام بحملة إلى القدس، من طرد غيوبرت من المدينة (لكن ليس من قلعة كرسنتوس) وحكم كرسيه المقدس، ثم سافر من خلال أبوليا وكالابريا إلى صقلية، التي كانت آنذاك مقطونة من قبل النورمانيين، وجمع من هناك مبلغاً كبيراً من المال، ثم عاد إلى المدينة، ورشاً بالأعطيات الذين تولوا حراسة قلعة كرسنتوس، وبهذه الوساطة تمكن من طرد غيوبرت من القلعة مثلما طرده من المدينة، وبذلك استحوذ على كامل المدينة [١٠-١١-١٢]، لكن بعد أسبوعين قصير فارق هذه الحياة، وترك كرسيه لباسكال.

٧- وفي السنة الألف ومائة بعد تجسيد الرب، عندما أخذ المؤمنون يحتشدون من جميع أجزاء العالم للذهاب إلى القدس الأرضية (نظيرة القدس السماوية) للصلاة، كثيرون ماتوا من المناخ الصعب، ونقل غودفري أيضاً الباكون عليه، بعدما بقي دوقاً لمدة سنة فقط، ودفن في كنيسة قرب الضريح المقدس، وحظي أخوه بلدوين بشرف اسم ملك، بوساطة سلطات الحبر الأعظم، وتعين مكان غودفري—وهذه اشارات تشير إلى التمييز بين المملكة وبين الحملة إلى القدس—ويكفي أن ذلك قد تم تدوينه من قبل الآخرين، ومات في تلك الآونة غيوبرت، وبذلك

جلب نهاية للانشقاق الرهيب الذي طوقنا مثل دخان مصر الكثيف، وتوفي في السنة التالية كونراد الابن المسيحي الأكيد للامبراطور هنري، الذي كان أبوه قد عهد إليه بإيطاليا، لقد حمله الموت المبكر في السنة التاسعة التي افترق فيها عن أبيه، وكانت وفاته ثم دفنه في فلورنسا التي هي مدينة في توسكانيا، وفي الوقت نفسه قام كل من وليم كونت بواتو ودوق أكوئين، وتيمو Tiamo ، رئيس أساقفة سالزبورغ، وولف دوق بافاريا (الذي تولى في حرب أثارها ضد الامبراطور هدم مدينتي فريزنغ وأوغسبيرغ)، والدوقة ايثا Itha التي كانت أم ليوبولد [الثالث] (الذي كان حاكم النمسا) ووليم [كونت نافارا] وستيفن [كونت بليوس] وهما بارونان ايطاليان [كذا] مع كثير من ايطاليا وأكوئين وألمانيا، قاموا بالانطلاق نحو القدس عبر طريق هنغاريا واليونان، وحشروهم الامبراطور ألكسيوس بشكل خياني في ممرات ضيقة، وقتل معظمهم بشكل وحشي، وأخذ الشخصيات الأكثر لمعانا بينهم أسرى، وأهداهم إلى ملك، أو أمير الجيوش في ممفيس، وقام واحد، ذكر أنه شارك بهذه الحملة، فكتب هذه الرواية، بشكل واضح ومؤكد، وفق طرائق التراجم، وقيل إن صاحب الغبطة الأسقف تيمو قد وقع بالأسر مع البقية، فأمر بأن يعبد الأصنام، وطلب منه فرصة للتفكير والراحة [وحصل على ذلك] فدخل إلى المعبد، وبما أنه امتلك القوة الفعالة للعقل والجسد، فقد حطم إلى قطع الأصنام التي كان متوجب عليه عبادتها، مرياً بذلك أنهم لم يكونوا أرباباً بل أعمال أيدي الناس، ولهذا السبب اقتيد، وبعدهما تعرض لتعذيب شديد مع جميع أنواع الارهاب، تتوج بالشهادة الرائعة، بيد أنه من الصعب تصديق قيامه بتدمير أصنام، لأنه معروف بشكل جيد ومتداول بين الناس أن المسلمين يعبدون إلهاً واحداً، وهم يقبلون بكتب الشريعة، وعادة الختان، ولا يرفضون المسيح والحواريين، والرسل، وقد نأوا عن الخلاص بشيء واحد فقط، هو حقيقة انكارهم أن المسيح هو الذي يجلب الخلاص إلى الجنس البشري، وانه رب، أو ابن الرب، ويجلّون

ويقدسون محمداً بحكم كونه نبياً عظيماً لله العظيم، وهو الشخص الذي تقدمت الإشارة إليه من قبل، وبدأت نبوته — كما يدعوها نفسه — وتبعاً لتقاليدهم، بدأ دعوته حسبما جاء في مطلع انجيل محمد قوله: «ابن الرب، بني الرب الأعلى، غسلك، وجعلك نظيفاً» [كذا]، ويقوم هذا الشعب المشار إليه بحماقته بعادة تمسكوا بها تبعاً لهذه الأوامر وذلك بغسل الأجزاء السرية من أجسادهم يومياً.

٨- في السنة الثالثة بعد المائة وألف من تجسيد الرب، احتفل الامبراطور هنري بميلاد الرب في مينز، وقام هناك بتعيين ابنه هنري ملكاً يكون خلفاً له، وأعلن أمام الناس أنه سيقوم بزيارة ضريح الرب، مما جعل الكثيرين من مختلف أجزاء مملكته يتخذون القرار نفسه، وبينما كان في السنة التالية يشاهد الاحتفال بميلاد الرب في ريغنزبيرغ Re-gensbourg ، حدث شجار، وقتل الكونت سيغهارد Sigehard من قبل كتلة النبلاء الذي عرفوا باسم «المنسترال Ministeriales»(*) لأنه تعدى على حقوقهم، وفي السنة التالية، بينما كان الامبراطور يحتفل أيضاً بميلاد الرب في مينز، قام ابنه هنري، بناء على نصيحة مارغريف ثيولد وكونت برنغر بالتآمر للثورة على أبيه في بافاريا، وقام بهذا تحت غطاء ديني في أن والده قد حرم من قبل الحبر الأعظم الروماني، وجمع حول نفسه بعض النبلاء من شرق فرانكونيا، وألمانيا وبافاريل، ثم دخل ساكسوني، وهي بلاد وشعب من السهل اثارته ضد المملكة، واستقبل هناك بكل التشریف، وبقي في كويدلنبرغ Quedlinburg للاحتفال بفصح الرب [٩ نيسان ١١٠٥]، وقد ربح إلى جانبه جميع الشخصيات القيادية لذلك الشعب، وجرى عقد مجمع

(*) - حاشية الامبراطور من غير الأحرار الذين جلبوا من أراضي العرش أو من ممتلكات

الامبراطور الشخصية الموروثة.

للأساقفة في المدينة الملكية نوردهوزن Nordhausen ، برئاسة روثارد Rothard رئيس أساقفة مينز (الذي كان قد عزل من منصبه منذ أمد طويل من قبل الامبراطور)، وأدان هنري في هذا المجمع السيمونية والممارسات الأخرى المخالفة لكنيسة روما، وحالما فرغ من الاحتفال بعيد الشعانين في ميرسبيرغ Merseburg قام بتنصيب هنري (الذي انتخب، لكن رُفض من قبل مؤيدي أبيه) بحكم كونه رئيساً لأساقفة مغدبيرغ Magdeburg ، ثم جمع هنري جيشاً، قاده باتجاه مينز بقصد إعادة تنصيب رئيس الأساقفة، ولكن بما أن والده كان مع كثير من أتباعه ينتظرون قدومه مع قوى مسلحة وراء الأسوار، لم يكن بإمكانه تنفيذ رغبته، ولذلك ذهب إلى وورزبيرغ وطرده إيرلنغ Erlung وأقام روبرت مسؤولاً عن تلك الكنيسة، وإثر قيامه بهذا سرّح السكسون، وتولى مع البافاريين حصار نورنبيرغ Nurnberg وتمكن خلال شهرين أو ثلاثة من الاستيلاء عليها، ثم توجه نحو ريغنزبيرغ Regensburg وكانت مقرّ مطرانية دوقية بافاريا، وكان والده يتتبع خطاه بكل شدة، فألحق الهزيمة بروبرت، واسترد إيرلنغ، ثم تابع تقدمه، واستطاع بمساعدة شعب ريغنزبيرغ أن يطرد ابنه من المدينة، وأقام هناك واحداً اسمه أولريك Ulric أسقفاً، وعاث فساداً في تخوم ثيبولد Theobald من خلال وكالة بوهيميا.

٩- وبعدها انقسمت المملكة هكذا بشكل مؤلم ضد بعضها، فقد حشدت جميع امكاناتها العسكرية مع بعضها، وتعرضت البلاد بشكل وحشي للتخريب بالنار والسيوف، وتمركز الفريقان المتصارعان: الأب والابن على طرفي نهر ريغنغ، وكان معسكرهما قد تميزا عن بعضهما، وبدأت معسكرات القتال لديهما بالتشكل، وكان الأب غاضباً كثيراً على ابنه بفعل تحريضه من قبل مؤيديه، وكذلك الابن في صراع عائلي ضد أبيه، وقد أعاق صراعهما القدر مجرى النهر، وكان بإمكانك أن ترى

استعدادات محزنة ومؤلمة، لقد كان من الممكن لك أن ترى العالم يعاني من الأعمال الخيانية بشكل أشد وضوحاً من شعاع الشمس، وكانت الأمور بلاريب مضادة لقانون الطبيعة، لأن ابناً قام بعصيان ضد والده، وبشكل ظالم كان الجندي يستعد للقتال ضد ملكه، والعبد ضد مولاه، كما ووقف الأخ ضد أخيه، والقريب ضد قريبه، وكان كل واحد من هؤلاء يخطط لسفك دم شريكه الخاص بالدم.....

وبناءً عليه، عندما غمر في هذه الأيام حب السلطة المملكة الرومانية وأدى بها إلى الحرب الأهلية، لابل حتى إلى قتل الابن لوالديه، قام بعض الناس، من أجل المسيح، بالتخلي عن مصالحهم، وعدّوا أنهم ليسوا للعبث كانوا يلبسون حزام الفروسية، ولذلك انطلقوا نحو القدس، وهناك أخذوا يعملون في مجال جديد من القتال، حين وجهوا أنفسهم ضد أعداء صليب المسيح، وعندما حملوا في باطنهم عقيدة الموت في سبيل الصليب، بدؤوا بطريقة حياتهم وحديثهم لاثبات جند بل بالأحرى رهباناً، زد على هذا، بدأت الحياة المستقيمة المتشددة مع السلوك تزداد بين الرهبان ورجال الدين، وذلك منذ تلك الآونة حتى اليوم الحالي، وهكذا بفضل من عظمة الرب وصحيح حكمه أخذ أتباعه يلتزمون أكثر فأكثر بفضل نعمته بتطبيق كامل والتزام كامل بأوامره ونواهيته مع أن سكان العالم يزدادون دنساً في سلوكهم الدنس.

١٠- في هذه الآونة نفسها ألقى الملك بلدوين الحصار على عسقلان وجعلها تدفع الجزية له، كما وخاض معركة مع المسلمين، ومع أنه امتلك قليلاً من الرجال فقط — أي أربعة آلاف فقط — فقد تمكن من إلحاق الهزيمة بخمسين ألفاً، وذلك بفضل القوة الربانية وليس بالقوة البشرية، وقد أسروا واحداً من قادتهم وقتل الباقين، لكن الامبراطور ألكسيوس، رأس الخونة، وقد غدا غير قادر على إخفاء خطته الشريرة التي أخفاها من قبل في قلبه، دخل الآن بكل وقاحة في حلف مع

الأتراك، الذين كانوا وقتذاك في وضع يائس تقريباً، وقام بكل قحة بالتخلي لهم عن نيقية، التي تمّ الحصول عليها مقابل سفك كثير من دماء شعبنا. لاحظ هذا الزمان الصعب الذي فيه امبراطورين — واحد في الشرق وآخر بالغرب — كلاهما عدو للرب..

٢٨- في سنة ألف وأربع وثلاثين لتجسيد الرب، قام الامبراطور جون كومينوس، امبراطور القسطنطينية (الذي عقد معاهدة صداقة مع الملك الروماني كونراد بوساطة زواج ابنه مانويل من أخت الملكة غيرترود) بالدخول إلى سورية على رأس جيش كبير، بسبب أن ريموند أمير أنطاكية قد أقسم على اعطائه تلك المقاطعة مع المدينة نفسها، وذلك مقابل مبلغ من المال، لكن لم يف بوعده، ذلك أن [هوغو HUGO] المحترم، أسقف جبلة، قاومه برجولة ووقف في وجهه، وحذره بكل شجاعة، باسم كل من أسقف روما والامبراطور، وطلب منه التوقف عن الهجوم على المدينة التي أتيت على ذكرها، لأنها كانت ضمن ممتلكات اللاتين، غير أن جون الذي خدع من قبل الأمير قام — على الرغم من عدم مهاجمة المدينة — بالعيث فساداً في جميع أرجاء المقاطعة بالنار والسيف، حتى أنه اقتلع النساك والرهبان، الذين هناك أعداد كبيرة منهم في تلك المنطقة، وساقهم أمامه بعدما أخرجهم من صوامعهم، وعاملهم بوحشية متناهية، ولم يقم جون هنا بدور المعطي — أي أن تقول الجيد — ولم يمض وقت طويل بعد هذا، أن تعرض، وهو يقوم بأعمال الصيد ويستخدم سهاماً مسمومة، إلى الاصابة بأحدها بشكل غير متوقع، وهكذا مات الملك الغني بشكل بائس جداً وسط جيشه، وترك العرش لابنه مانويل.

وفي الوقت نفسه مات فولك، ملك القدس، وسلم قيادة المملكة إلى ولده فولك [كذا: الذي خلفه هو بلدوين الثاني وكان في الثالثة عشرة من عمره] وكان وقتها مجرد صبي، وإثر اعتلاء مانويل للعرش، أرسل

رسلاً إلى الملك كونراد مع هدايا ثمينة (وذلك مثلما فعل أبوه من قبل) وجدّد المعاهدة، وغالباً ما جرى مراعاة هذه العادة بين الامبراطورين، وذلك لاعتبارات متنوعة، أعني بعدما انتقل اللقب الامبراطوري إلى الفرنجة، وفي هذه الآونة كان الاتفاق بين جون والد هذا الامبراطور وكونراد ضد روجر الذي تولى غزو كل من الامبراطوريتين...

٣٠- عند بداية العام ألف ومائة وخمسة وأربعين مضت على تجسيد الرب، وفي ذروة الاحتفال بعيد ميلاد المسيح، وقعت واقعة في الشرق، جاءت نتيجة لآثام الشعب المسيحي، وكانت واقعة محزنة ومريعة فيها سوء حظ عظيم، هي أن زنكي: أمير حلب، في سورية وأمير الجزيرة (باستثناء أنطاكية ودمشق)، والذي كان من أتباع ملك أو سلطان الفرس والميديين، قام بحصار إديسا مع حشد من المسلمين لا يعد ولا يحصى، وكانت هذه المدينة (التي تعرف الآن باسم الرها) على أساس حجمها وثروتها الملاذ الوحيد لكنيسة القدس، ففي يوم ميلاد الرب، كما قلت، اقتحم زنكي المدينة وقتل بحد السيف جميع المسيحيين مع أسقف المدينة، أو حولهم إلى مرتبة العبودية، ودنس بإثم كنائس المسيح، وبشكل خاص بازيليكاً مريم المقدسة (العذراء دوما) التي دفن فيها جسد الرسول توما، وجلب إلى داخلها أشياء غير لائقة، وذلك استهزاء بمخلصنا، وبعدها فرغ من إبادة شعبنا، وحولهم إلى دافعي الجزية، مركز المسلمين هناك لسكنى المدينة....

٣٢- ووصل في هذه الآونة وفد ديني مرسل من الأساقفة الأرمن ومطرانهم (الذي هم أنفسهم يسمونه الجاثليق، أي الأسقف الكوني، وذلك بسبب العدد الذي لا يحصى من الأساقفة الذين يتبعونه) وجاء هذا الوفد إلى الحبر الأعظم في فيتربو VITERBO ، قادماً من أقصى الشرق ومكملاً رحلة متعبة استغرقت سنة وستة أشهر، وبعدها بعثوا إليه بالتحية باسم تلك الكنيسة، وأكدوا له خضوعهم التام،

انطلقوا مسافرين إلى فيترالا(*) VETRALL ، التي كانت هدف قدومهم وغايته، وكنت أنا موجوداً أثناء تلك المقابلة مع عدد كبير آخر، وكانت الأسباب كما يلي:

إنهم يتفقون مع الاغريق في ممارسة جزء من طقوس القربان المقدس، ويخالفونهم في جوانب أخرى، فهم يأخذون الخبز المخمر مثلما يفعل الاغريق، لكنهم لايمزجون الماء مع النبيذ مثلما نفعل نحن ويفعل الاغريق، زيادة على هذا إنهم يجمعون معاً بين عيدي الميلاد والغطاس ويجعلون منهما عيداً واحداً، ونظراً لخلافاتهم حول هذه المسائل وقضايا أخرى، وقع اختيارهم على الكنيسة الرومانية لتكون حكماً، وجاءوا للتشاور معها، وسألوا التوجيه حول شكل الأضحية تبعاً للعادة الرومانية، واستقبلهم الأسقف الروماني بسرور، وسمح لهم بحضور القداس العظيم، ومشاهدة الطقوس السرية للتضحية، ووجههم لمتابعة كل ماجرى هناك بكل دقة، وفيما هم يفعلون ذلك، ويقفون بانتباه شديد، أمام المذبح المقدس، رأى أحدهم وكان يحمل رتبة أسقف — شيئاً حكاها فيما بعد— في اجتماع عام عقد في اليوم الثامن الذي تلا عيد مارتن المقدس، وذلك أثناء الاحتفال المعتاد بتكريس كنيسة بطرس المقدس [١٨ تشرين ثاني] والذي رآه —كما قال— هو مايلي:

بينما كان الخبر الأعظم يقوم بالقداس المقدس، أضاءت الشمس وانتشرت أشعتها فجأة حول رأسه بشكل كله بهاء، وأثناء ذلك كان هناك حمامتان تصعدان وتهبطان وسط نور الشمس، ولدى اطافته ناظره في هذا الاتجاه وذاك، ولعدم رؤيته وجود فتحة يمكن للضوء أن يتخذها

(*) - على بعد اثني عشر كم إلى الجنوب من فيترابو حيث كان البابا مقيماً في كانون أول:

١-١٦ عام ١١٤٥م، ويستخلص من هذا النص أنه كان موجوداً هناك منذ حوالى بداية تشرين الثاني.

طريقاً له، أدرك أن هذا كان من عمل الرب، وهنا ازداد يقيناً باطاعة الكنيسة الرومانية، وجعل معروفاً مارآه أيضاً إلى جميع الناس، غير أن الأب المبجل رفض أن يعزو هذا إلى فضائله الخاصة، وأعلن أنه بالحري بسبب إيمان هذا الأسقف أبيحت له هذه الرؤيا من السماء، ففي سبيل تيسير الاعتراف بالكنيسة التي تولت ارساله، تمّ غسل قدرة القداس في نور الحقيقة، ومن ثم بالمعرفة، وكذلك بالتبجيل وبالشكل المتوجب الاحتفاء به بهم.

وروى الأسقف المتقدم ذكره أنه يوجد على تخوم أرمينيا بعض الشعوب التي تحمل أطفالاً برائحة مخيفة، وأنهم يأخذونهم مباشرة ويجعلونهم يستحمون في مياه أرمينية ويطرد الأرمن عنهم برشهم بماء العماد تلك الرائحة النتنة، لكن ما يلبثون لدى عودتهم أن يتحولوا إلى طقوسهم الوثنية وإلى قذارتهم، وسألوا أيضاً رأي الكنيسة الرومانية هل ينبغي أن يصنع هذا.

٣٣- ورأيت في ذلك الزمان والمكان أيضاً أسقف جبلة في سورية المتقدم ذكره، —الذي بفضل جهوده بشكل خاص بدأت أنطاكية تصبح تابعة تماماً للكنيسة الرومانية— وقد جاء ليقدّم شكوى ضد كل من بطريكه في أنطاكية وأم(*) الأمير، ابنة بلدوين —الذي كان مرة ملك القدس— وطالب بحقوق قديمة، قياساً بما فعله إبراهيم، (ذلك أنه أعطى عشر الأسلاب إلى ملكيصادق، بحكم أنه عزا نصره إلى الرب) أن يُدفع له عُشر الأسلاب المأخوذة من المسلمين، وطالب أن يمنح التفويض من الكرسي الرسولي بشأن هذه المسألة، ولقد سمعته يقدم شكوى مريّة تتعلق بالمخاوف المحيطة بالكنيسة في بلاد ماوراء البحار

(*)- لم تكن الأم بل حماة الأمير ريموند الأول أمير أنطاكية، وكانت أرملة الأمير بوهيموند الثاني وأم كونستانتيا، زوجة ريموند.

منذ الاستيلاء على الرها، وقال إنه يفكر لهذه الغاية بعبور جبال الألب إلى ملك الرومان والفرنجة ليطلب العون.

وروى أيضاً أنه حدث قبل عدة سنوات مضت أن قام واحد اسمه بريسترجون(*)، وهو ملك وكاهن يسكن فيما وراء إيران وأرمينيا في أقصى الشرق، وجميع شعبه مسيحيون، لكن نساطرة، وحكى أنه شن الحرب على أخي ملوك الفرس والميديين الذي اسمه سانياردي (سنجر) وأنه اقتحم ايكباتنا EKABATANA (حاضرة ملكهم) والتي تقدم ذكرها من قبل، وعندما التقى به الملوك المتقدم ذكرهم ومعهم جيش تألف من الفرس والميديين والآشوريين، حدثت معركة استمرت ثلاثة أيام، لأن كل فريق كان يؤثر الموت على الفرار، وألحق بريسترجون —ذلك أنهم يدعونه هكذا حسبما اعتادوا— بالفرس الهزيمة بعد إصابات بالغة، وأخيراً ظهر منتصراً، وحكى أنه بعدما نال بريسترجون هذا النصر قاد جيشه لتقديم المساعدة للكنيسة المسيحية في القدس، لكن عندما وصل إلى نهر الدجلة ووجد نفسه غير قادر على نقل جيشه عبر ذلك النهر بأية وسيلة، انعطف متجهاً نحو الشمال، لأنه قيل له إن النهر متجمد هناك بفعل برد الشتاء، وبعدها انتظر هناك لمدة عدة سنوات، دون أن تتحقق رغباته القلبية (لأن المناخ اللطيف المستمر منعه)، ونظراً لفقدانه كثيراً من جنوده بسبب المناخ الذي لم يعتادوا عليه، أرغم على العودة إلى وطنه، ولقد قيل إنه يمت بنسبه إلى المجوس، وينحدر منهم، وهم الذين ورد ذكرهم في الانجيل [متى: ٢ / ١]، ولقد تولى حكم الشعوب نفسها التي حكموها، وتمتع بشهرة عظيمة وثروة هائلة ومع ذلك لم يستخدم عصا صولجان سوى واحدة من الزمرد، وكان عظيم

(*) - سآورد عنه المزيد من التفاصيل في أول المجلدات التي ستبحث في العلاقات الصليبية المغولية وذلك قبل الشروع بتقديم مصادر تاريخ المغول.

- ٣٤٣ -

الرغبة في أن يجذو حذو آبائهم الذين جاءوا لعبادة المسيح وهو في مزودته،
ولذلك خطط للذهاب إلى القدس، لكن السبب المذكور آنفاً منعه،
فهكذا يروي الناس....

أعمال فردريك بربروسا

الكتاب الأول

٣٤١٣٥) عندما كان يوجين (الثالث ١١٤٥-١١٥٣) بابا في روما، وكونراد [الثالث ١١٣٨-١١٥٢] يحكم هناك، ولويس [السابع ١١٣٧-١١٨٠] في فرنسا، ومانويل امبرطوراً في المدينة الملكية، وفولك [ت ١١٤٤] وخلفه ابنه بلدوين الثاني في القدس، أرغم لويس بوساطة رغبة داخلية على قرار الذهاب إلى القدس لأن أخاه فيليب كان قد ربط نفسه بالتعهد نفسه، لكنه منع بالموت، ولم يمتلك الرغبة في زيادة تأجيل هذا القرار، ولذلك استدعى بعضاً من أمرائه وأباح لهم ما كان يدور في خلده.

وكان في تلك الآونة في فرنسا راعياً لدير كليرفو اسمه برنارد، وكان محترماً في الحياة والأخلاق، عظيماً في طريقته الدينية، تمتع بالحكمة والمعرفة الأدبية، ومشهوراً في الشارات والكرامات العجيبة، وقرر الأمراء استدعائه بغية سؤاله — وكأنه يملك الإلهام الرباني — ما الذي ينبغي فعله بالنسبة لهذه المسألة، وتم استدعاء الراعي المتقدم الذكر، وطلب منه تقديم نصيحته بشأن رغبة الأمير التي ذكرتها، ورأى أنه لا يجوز إعطاء الجواب لمثل هذه المسألة الكبيرة والحكم عليها انطلاقاً من موقفه ورأيه لوحده، ولهذا أجاب أنه من الأفضل إحالة المسألة إلى مسامع وتقدير الحبر الروماني، وبناءً عليه جرى إرسال سفارة إلى يوجين، ووضعت القضية بأكملها أمامه، وفكر يوجين فيها ملياً، وانطلق من قاعدة سلفه — أي اعتمد على حقيقة ما قام به أوربان في مثل هذه المناسبة، وكيف

أنه ربح بإعادة الوحدة والسلام إلى كنيسة ماوراء البحار مع بطيركتين (أي أنطاكية والقدس) كانتا قد قطعتا نفسيهما عن طاعة الكنيسة الرومانية — فأعطى موافقته على رغبات الملك السالف الذكر، وذلك في سبيل مد انتشار الايمان المسيحي ومراعاته، ومنح الراعي الذي ذكرنا اسمه من قبل — والذي نظر من قبل شعوب فرنسا وألمانيا كنبي وحواري — صلاحيات وسلطة التبشير وتحريك قلوب الذين كانوا هناك، وهاكم نص الرسالة التي وجهها إلى الملك مع أمرائه فيما يلي:

٣٦ (٣٥) «الأسقف يوجين عبد عبيد الرب، إلى ابنه العزيز في المسيح، لويس الملك المجد واللامع للفرنجة وإلى أبنائه الأحباء الأمراء، وإلى جميع الشعب المؤمن بالرب، الذي يسكن في أرجاء فرنسا، تحيات وتبريكات رسولية.

كم كان عظيماً، ما بذله أسلافنا من البابوات الرومان، في سبيل تحرير الكنيسة الشرقية، فلقد عرفنا ذلك من روايات المسنين من الرجال، ووجدناه مدوناً في تواريخهم، ذلك أن سلفنا البابا أوربان صاحب الذكرى المباركة، أرسل النداء، وكأنه صوت من السماء، وتولى حشد أبناء الكنيسة الرومانية المقدسة من أقاصي الأرض للتداول حول هذا، واستجابة لندائه، قام الذين فيما وراء الجبال، وبشكل خاص أكثر المقاتلين شجاعة ونشاطاً لمملكة الفرنجة وكذلك المقاتلين من إيطاليا الذين التهبوا حماساً واندفاعاً، فتدفقوا جميعاً واجتمعوا، وعندما اجتمع حشد عظيم منهم قاموا بتحرير تلك المدينة من دنس الكفار، تلك المدينة التي عانى فيها مخلصنا عن طواعية من أجلنا، وتركها لنا لتكون ذكرى لمعاناته ولضريحه المجد، ولقد فعلوا ذلك بدون أن يسفكوا كثيراً من دمائهم، فقد رافقتهم العناية الربانية والمساعدة، وحرر هذا الحشد أعداد كبيرة من مدن أخرى، تجنباً للاطالة لن أقوم بذكرها، فقد ناضل هؤلاء بنعمة من الرب وبفضل حماس آبائك وغيرتهم فيما تقدم من

السنين ، ناضلوا بقوة لحمايتهم ولينشروا في الخارج اسم المسيح، وفي تلك الأجزاء التي مازالت بأيدي المسيحيين حتى أيامنا هذه، وكذلك مدناً أخرى من مدن الكفار التي استولوا عليها بشجاعة، لكن الآن، بسبب من ذنوبنا وذنوب هؤلاء الناس، جرى الاستيلاء على مدينة إديسا من قبل أعداء صليب الرب، وإديسا هي المدينة التي لانستطيع ذكرها دون عظيم أسى ونحيب، إنها المدينة التي ندعوها بلساننا الرها، التي قيل إنها الوحيدة التي خدمت الرب وبقيت تحت الحكم المسيحي وذلك في وقت كانت فيه جميع بلدان الشرق مملوكة من قبل الكفار، نعم لقد استولى عليها أعداء صليب المسيح وعلى عدد كبير من الحصون المسيحية التي كانوا قد انتزعوها منهم، وحدث إثر هذا أن جرى هناك قتل رئيس أساقفة تلك المدينة مع رجال دينه وعدد كبير آخر من المسيحيين، كما أعطيت آثار القديسين إلى الكفار للدوس عليها وبعثرتها.

وعلى هذا كم هي عظيمة المخاطر التي تهدد كنيسة الرب وجميع المسيحيين، فهذا مانلاحظه نحن أنفسنا، ونعتقد أنه ليس خافياً على حكمتكم، وسيكون جلياً وأعظم برهان على نبلكم وتماسككم إذا ماتم الدفاع عما امتلكه الآباء بقدرتهم، بوساطة قدراتكم أنتم أبناؤهم، لكن إذا ماكان الأمر غير ذلك —الذي يجرمه الرب— فإن شجاعة الآباء التي ظهرت سوف تتلاشى في أبنائهم.

وبناءً عليه نحن ننذركم، ونرجوكم، ونأمر كل واحد منكم، وقد قضينا بغفران ذنوبكم، وهذا الذي قضيناه هو قضاء الرب، وخصصنا بالغفران الذين هم أكثر قوة ونبلاً، الذين حملوا أسلحتهم بكل شجاعة، ويناضلون بشدة لمواجهة حشود الكنيسة الشرقية التي جرى —كما قلنا— تحريرها من طغيانهم بسفك كثير من دماء آبائكم وسيتولون انقاذ الآلاف المؤلفة من الأسرى، وتخليصهم من أيديهم، فهم اخواننا، حتى يزداد شرف اسم المسيحية عظمة وانتشاراً في أيامكم، ومن أجل أن تبقى

شجاعتكم التي عمّ الثناء عليها في جميع أرجاء الدنيا سليمة غير مخدوشة.

وليكن ميثائياس [المكابيون: ٢/١] مثلاً أعلى لكم، فهو لم يتردد أبداً في تعريض نفسه مع أولاده وأبويه للموت في سبيل الحفاظ على شريعة آبائه، كما لم يتردد مطلقاً في التخلي عن كل ما يملكه، وأخيراً وبمعمونة ربانية، وبعد جهد طويل، انتصر هو مع أبنائه برجولة على أعدائهم.

واعتماداً على صلاحياتنا الأبوية وعملنا من أجل سلام شعبكم، وإعادة بناء تلك الكنيسة، وبموجب السلطات المضافة علينا من الرب إننا نمنح ونؤكد منح الغفران من الذنوب الذي أعطاه سلفنا البابا أوربان إلى الذين قرروا بموجب غيرتهم الدينية وحماسهم القيام بالواجب المقدس جداً، وتنفيذ الأعمال الضرورية كثيراً، ونرسم أن أزواجهم وأولادهم وبضائعهم ومقتنياتهم سوف تبقى تحت حماية الكنيسة المقدسة، وتحت حمايتنا، وتحت حماية رؤساء الأساقفة، وحماية الأساقفة ورجال الدين الآخرين في كنيسة الرب، زيادة على هذا إننا نحرم بموجب سلطاتنا الرسولية القيام بأي إجراءات قانونية تتعلق بأي من ممتلكاتهم القائمة في الآونة التي قبلوا فيها حمل الصليب، حتى تتوفر معلومات أكيدة تتعلق بعودتهم أو وفاتهم.

زد على هذا، بما أن هؤلاء الذين هم جنود الرب، سوف لن يهتموا بأي شكل من الأشكال، أو يلتفتوا نحو الملابس الثمينة أو الزينة الشخصية، أو الكلاب أو النسور، أو الأشياء الأخرى، التي تعبّر عن حياة الرفاهية إننا نتمنى على حكمتكم باسم الرب، في أن لا يلتفت الذين وصلوا إلى قرار القيام بمثل هذا الواجب المقدس، نحو هذه الأشياء بل أن يكرسوا حماسهم وعنايتهم مع جميع طاقاتهم، على السلام والخيول والأشياء الأخرى التي يمكن بها محق الكفار.

زيادة على هذا، إن جميع المثقلين بالدين، ممن قرروا بقلبٍ نقي القيام بهذه الرحلة العظيمة القداسة، لا يحتاجون إلى دفع الفوائد المستحقة عليهم، وإذا ما كانوا هم أنفسهم قاموا، أو أحد سواهم لصالحهم بقسم أو تعهد من أجل هذه الفوائد، إننا نقوم بموجب سلطاتنا الرسولية بتحليلهم من هذه العهود والأيمان، كما ونسمح لهم في حال أن أقربائهم أو مواليتهم الاقطاعيين، كانوا بعدما سئلوا غير قادرين أو غير راغبين بتزويدهم بالمال، في أن يقوموا برهن أراضيتهم أو ممتلكاتهم لدى الكنائس أو لدى الشخصيات اللاهوتية أو لدى المؤمنين الآخرين، حسبما يرغبون ودون أن يعترضهم معترض.

ونحن نمنح الغفران من الذنوب والتحليل، وفقاً للسابقة التي أسسها سلفنا، وكذلك بموجب سلطات الرب القادر، وبطرس المقدس، رئيس الحواريين، وبموجب السلطات الممنوحة إلينا من قبل الرب، وبناءً عليه: كل من تولى عن طواعية وإيمان القيام بهذه الرحلة العالية القداسة، وأكملها أو توفي هناك، سيحصل على غفران تام لجميع ذنوبه التي تقدم له واعترف بها بقلبٍ ذليل، كما وسيحصل من بين جميع الجوائز، على ثمرة المثوبة السرمدية.

منح في فيتريلا Vetralla في شهر كانون الأول [١١٤٥].»

٣٧(٣٦) ولنعد بعد هذا إلى سياق الرواية:

لم يسمي الراعي برنارد المبجل استخدام السلطات التي أضفها عليه الكرسي الرسولي، فقد حزم نفسه وتمنطق بسيف كلمة الرب، وبعدما أيقظ قلوب العديدين من أجل القيام بالحملة إلى ما وراء البحار، قام أخيراً [١١٤٦] بعقد اجتماع عام في فيزلي، وهي بلدة فرنسية حفظت فيها عظام مريم المجدلية المباركة، وحضر الاجتماع عظماء وأعيان مقاطعات فرنسا، فقد تسلم هناك لويس ملك الفرنسيين، بنشاط عظيم

وروح عالية الصليب من الراعي الأنف الذكر، وتطوع للقيام بالعمل العسكري فيها وراء البحار، ومعه الكونتيتن: ثيري أوف فلاندرز، وهنري ابن ثيبود أوف بليوس، وبارونات آخرين ونبلاء من مملكته.

٣٨ (٣٧) وفي الوقت نفسه كان هناك الراهب رالف، وكان بالحقيقة رجلاً متمسكاً بالتقاليد الدينية، وأخذاً بذكاء بصرامة الدين، مع أنه كان متوسط الثقافة، وقد دخل هذا الراهب إلى المناطق الفرنسية المتاخمة للراين، وألهم إثارة عدة آلاف من سكان: كولون، ومينز، وورمز، وسبير، وستراسبورغ، ومدن مجاورة أخرى، وبلدات وقرى، وجعلهم يقبلون بحمل الصليب، لكنه قام أثناء تبشيره بالدعوة بكل صراحة بأنه من المتوجب ذبح اليهود الذين تبعثرت مساكنهم خلال المدن والبلدات لأنهم أعداء الديانة المسيحية، وترسخت جذور هذه الدعوة وانتشرت وتنامت في عدد كبير من مدن فرنسا وألمانيا وقادت إلى قتل أعداد كبيرة من اليهود أثناء هذه الزوبعة الهائجة، في حين التجأ الكثيرون واحتموا تحت حماية أمير الرومان، وهكذا حدث أن الكثيرين منهم هربوا من هذه الأعمال الوحشية بهدف انقاذ حياتهم، وحملوا أنفسهم إلى بلدة الأمير التي اسمها نوركيوم أو نورنبيرغ وإلى مدن أخرى تابعة له.

٣٩ (٣٨) وقام راعي كليرفو المتقدم الذكر بإعطاء تعليمات حظر بها هذه الدعوة، وبعث برسل ورسائل إلى شعبي فرنسا وألمانيا أوضح فيها بشكل جلي أنه بموجب سلطات الكتابات المقدسة ليس لليهود أن يقتلوا بسبب جرائمهم الدائمة، بل ينبغي بعثتهم، ولفت الانتباه بهذه المناسبة إلى ماكتبه صاحب المزامير الذي قال في المزمور السابع والخمسين:

«الرب يريني بأعدائي. لا تقتلهم» ويقول أيضاً: «تبيهم بقوتك» .

[المزامير: ٥٩ / ١٠-١١] .

١١٤٠ (٣٩) والآن بعدما استجابت حشود لا تحصى في غربي فرنسا للقيام بالحملة فيما وراء البحار، قرر برنارد الالتفات بنشاطاته نحو شرقي مملكة الفرنجة، ليحرك بقوة التبشير وليثير قلب أمير الرومان حتى يقبل بحمل الصليب، وكذلك ليقوم باسكات رالف، الذي يدفع الناس في المدن للثورة على أسيادهم وذلك أثناء تبشيره وحملته ضد اليهود، وإثر سماعه بهذا، قام الأمير بتوجيه الدعوة إلى اجتماع عام يعقد في مدينة سبير يوم ميلاد الرب [عيد ميلاد ١١٤٦]، وقدم الراعي المتقدم الذكر إلى هناك، فتمكن من اقناع الملك مع ابن أخيه فردريك، وأمراء آخرين وأعيان مشهورين بقبول حمل الصليب، كما أنه قام بعدد من الأعمال الاعجازية بشكل علني وبشكل خاص.

هذا وكان قد ذهب أيضاً إلى مينز [تشرين ثاني ١١٤٦ قبل عقد الاجتماع العام في سبير] حيث وجد رالف يعيش هناك وسط حظوة عظيمة من الناس، فاستدعاه إليه وحذره من توريط نفسه بموجب سلطات التبشير، وذلك بالتجوال في البلاد خارقاً بذلك أحكام الرهبنة، ثم ضغط عليه وشدد حتى أقنعه بالوعد بالطاعة والعودة إلى ديره، وكان الشعب غاضباً جداً لهذا، وأراد الشروع بالثورة، لكنه تمتنع وحبس نفسه بسبب قداسة برنارد.

٤١- في الوقت نفسه حمل الدوق فردريك العالي النبالة، في قلبه غضباً عظيماً ضد مولاه وأخيه الملك كونراد، لأنه سمح لابنه فردريك —الذي كان بكره والولد الوحيد الذي ولد له من زوجته النبيلة الأولى، وجعله الوريث لجميع البلاد وأوكل إليه المسؤولية عن زوجته الثانية وابنها الصغير— وذلك بغية قبوله بالصليب، وكان الدوق فردريك معوقاً في فرنسا بسبب مرض خطير ألمّ به، وقد جاء الراعي السالف الذكر لزيارته، وباركه وصلى من أجله، غير أن هذا الدوق لم يستطع تحمل آلام مرضه وأحزانه، فتوفي بعد أيام قليلة، ودفن في الدير الذي يحمل اسم

القديس وليبرغ، والقائم على حدود الألزاس، وقد خلفه ابنه فردر دوقيته.

٤٢ (٤٠) دخل بعد هذا الأمير إلى بافاريا، وعقد هناك اجتماعاً = شهر شباط [١١٤٧]، واصطحب معه بدلاً من راعي كليرفو آدم إبراخ Ebrach وكان رجلاً مؤمناً ومثقفاً، وقد أقام هناك قداساً حسبما جرت العادة، وبعدها استمطر الرحمات من الروح القدس المنبر، وإثراء قراءته لرسالتي الكرسي الرسولي وراعي كليرفو، اس بوساطة إثارة بسيطة أن يقنع الجميع تقريباً بمن كان للتعهد بالخدمة العسكرية، ذلك أنه لم تكن هناك من حاجة لاستخدام الحكمة الانسانية للاقناع أو للاستعانة بوسائل الاثارة الاصطناعية اعتماداً على أساليب البلاغة الخطابية، بسبب أن جميع الذين حاضرين قد أثثروا من قبل وجاءوا مسرعين عن طواعية واختيار أنفسهم لاستلام الصليب، وتقبل في تلك الساعة نفسها ثلاثاً الأساقفة الصليب وهم:

هنري أوف ريجنسيرغ، وأوتو أوف فريزنغ ورينبيرت أوف ب وكذلك دوق البافاريين، واسمه هنري، الذي هو أخو الملك، وجا بين سلك الكونتات والنبلاء والأعيان البارزين حشد لا يمكن عدّه، الغريب الحديث عن إلحاق حشد عظيم من قطاع الطرق واللص حيث قدموا مسرعين، إلى حد أن ما من انسان فيه عقل يخفق في أن هذا التحول المفاجيء وغير الاعتيادي قد جاء من أيدي الرب ا سمواً، وألا يأتي ادراكه من قلب أصيب بالدهشة، وتعهد ولف، الآخر لهنري، وهو الدوق المتقدم، والذي كان واحداً من أعلى المملكة مكانة، بالقيام بالمهمة العسكرية نفسها، وكان معه عدد آخر، وتمّ تعهدهم في مساء يوم ميلاد مولانا، وجرى ذلك في اقطاعي ستيريا Styria ولم يمض وقت طويل حتى أخذ الصليب أيّ

فلاديسلاف دوق البوهيميين (❖)، وأوتوكار أمير تخوم ستيريا، وكونت برنارد اللامع صاحب كارينثيا Carinthia ، وتبعهم أعداد كبيرة من أتباعهم وشعبهم، غير أن السكسون، رفضوا التوجه نحو الشرق، لمجاورتهم لبعض القبائل التي انصرفت عن قذارة الوثنية، ولذلك حين حمل السكسون الصليب مثل سواهم قصدوا حرب هذه الأجناس، ومن هذا الجانب اختلفت صلبانهم عن صلباننا، في أنها لم تكن مخاطة ببساطة إلى ثيابهم بل حملت عالية فوق عجلات.

٤٣ (٤١) - وفيما يلي نسخة الرسالة التي بعث بها راعي كليرفو إلى المناطق الشرقية من مملكة الفرنجة [١١٤٦]:

«إلى الأمراء الأعزاء جداً والآباء، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة وجميع رجال الدين والشعب في شرقي فرنسا وبافاريا. من برنارد راعي دير كليرفو، فيض من روح الشجاعة.

إنني متحدث إليكم عن أشياء تتعلق بالمسيح، خاصة حول الأمور التي يوجد فيها خلاصكم، وأقول مايمكن لسلطات الرب أن تسوغ عدم صلاح الشخص الذي يتحدث، كما تعطي الاعتبار للكلمات المتفوه بها، إنني في الحقيقة ضعيف، غير أنني لست ضعيفاً في رغباتي نحوكم في حب يسوع المسيح، وهذا هو السبب الدافع لي للكتابة إليكم، إنها مناسبة اقدمي على التشاور معكم جميعاً بالمراسلة، ولدي رغبة تفضل بحث هذا معكم بوساطة كلمات الفم، إذا ماتوفرت الارادة، وتأمنت المناسبة.

(❖) - فلاديسلاف الثاني، زوج غيرترود أخت أوتو، ونصف أخت كونراد الثالث، وقد أقيم دوقاً في بوهيميا سنة ١١٤٢ بمساندة من كونراد، وكثيراً مايتداخل اسمه مع اسم فلاديسلاف الثاني صاحب بولاندا، الذي تزوج من أنجس أخت أوتو.

انتبهوا أيها الأخوة إن الوقت الآن هو وقت الاجابة. انتبهوا إن اليوم الآن هو يوم الخلاص في جميع المعايير، لأن الأرض تحركت وجاشت، لأن رب السموات سيخسر أرضه، أرضه التي ظهر فيها، وعاش فيها لمدة تزيد على الثلاثين سنة بمثابة رجل بين الرجال، أرضه التي تمجدت بمعجزاته والتي كرسها بدمه الذاتي، والتي ظهرت فيها أول زهور القيامة، والآن حدث بسبب ذنوبنا أن رفع أعداء الصليب رؤوسهم الملعونة، وعاثوا فساداً بحدّ السيف في تلك الأرض المباركة التي هي أرض الميعاد، الوقت بات قريباً، لابل إنه لن يمضي كثيراً قبل أن يندفعوا إلى داخل مدينة الرب الحي، ليدمروا الأعمال التي صنعها مخلصنا، وليلوثوا الأماكن المقدسة ويلطخوها بالدم القرمزي لحمل بلا عيب ولا دنس، لقد أطبقوا — وأأسفي لذلك — بمقابض ملوثة على الحرم المقدس للديانة المسيحية، ويسعون إلى تدنيس، وإلى أن يضعوا تحت أقدامهم مكان الراحة الذي ترتاح فيه حياتنا بالموت، ماذا نحن أيها الرجال الشجعان؟ ماذا أنتم يا عبيد الصليب؟ هل ستعطون ما هو مقدس للكلاب ودرركم للخنازير؟ كم من مذنّب اعترف هناك بذنبه وهو يبكي ونال العفو، وذلك منذ أن أزيلت قذارة الكفار بسيوف آبائنا! لقد رأى الشرير هذا، فكان جسوراً فالتهم بأسنانه ذلك كله وذهب به، وقد أثار عبيد طغيانه حتى لا يبقى أدنى أثر أو إشارة من التقوى أبداً — لاسمح الرب — ولذلك قواهم حتى ينتصروا، وحقيقة إن هذا مصدر آلام لجميع الأجيال المقبلة لأن الخسارة لا يمكن تعويضها، لكن بالنسبة للجيل الشرير الحالي سيكون بشكل خاص مصدراً للعار وللانتقاد بلانهاية، ومع هذا ما الذي ترونه أيها الاخوان؟ هل بات ذراع الرب قصيراً أو ضعيفاً لا يستطيع الانقاذ، لأنه حشد هذا القليل فقط للدفاع عنه، ولاسترداد ميراثه؟ ألا يستطيع هو ارسال أكثر من اثنتي عشرة فرقة من الملائكة، أو حتى أن يتفوه بالكلمة فقط، ستكون البلاد حرة؟ لاشك أن قوته موجودة حيثما أراد ومتى شاء.

لكنني أقول لكم إن الرب مولاكم يقوم بامتحانكم، إنه يحدق ببني البشر ليرى بمجرد الصدفة واحداً يمكنه أن يفهم وأن يبحث، وهو آسف من أجله، لأن لدى الرب الرحمة لشعبه، ويزود الذين سقطوا نحو الأسفل بعلاج الخلاص، قدروا كم هي بديعة طرائقه للانقاذ ورائعة، تمنعوا أيها المذنبون كم هو عميق حبه، وآمنوا، هو لا يريد موتكم، بل يريدكم أن تتحولوا وأن تعيشوا، لأنه ينشد فرصة لا تكون ضدكم بل لصالحكم...».

بهذه الكلمات، وبالإشارة إلى الموضوع نفسه شغل راعي كليفو نفسه، وفق طرائق الخطباء وأساليبهم، وأكد أن اليهود ينبغي ألا يقتلوا وبرهن ذلك بالمنطق وباستخدام السلطة....

٤٤ (٤٢) وهكذا تحركت شعوب لا تحصى عدداً وأمم ليس فقط من داخل الامبراطورية الرومانية وإنما أيضاً من الممالك المجاورة، أي من فرنسا وانكلترا وبلانونيا، تحركت جميعها لحمل الصليب، وفجأة غدا الغرب كله تقريباً هادئاً ليس في عدم إنشابه الحروب بل في عدّه حمل السلاح بشكل علني خطأ.....

٤٦ (٤٤) وهكذا عندما انقشع برد الشتاء، وبدأت الورود والنباتات تخرج من بطن الأرض تحت زخات مطر الربيع المباركة، وابتسمت المروج الخضراء للعالم، جاعلة وجه الأرض مسروراً، وقتها قاد الملك كونراد قواته من نورمبرغ في تشكيل عسكري، وأخذ سفينة عند ريجينسبيرغ ليجر نزولاً في الدانوب، وفي يوم أحد الصعود أقام معسكره في الجهة الشرقية من بلدة اسمها أرداكير Ardacher وانتظر هناك لمدة يومين أو ثلاثة أيام رجاله الذين كانوا قادمين، وتابع من هناك تقريباً حتى حدود مملكته، وتوقف ليس بعيداً عن نهر فيسكا Fischa ، وبعد ما احتفل هناك بأحد العنصرة عبر الليثا Leitha مع جميع قواته تقريباً،

حيث أبحر بعضهم نزولاً في الدانوب بينما تابع آخرون السير براً، وقد أقام معسكره في بانونيا، غير أنه جرّ من ورائه حشداً كان عظيماً إلى حد بدت فيه الأنهار وكأنها غير كافية للملاحة فوقها أو أن امتدادات السهول لا تكفي للسير عليها، وسار لويس ملك الفرنسيين مع رجاله خلفه لكن ليس بعيداً عنه، وقد جلب معه من شعبنا أهالي اللورين الذين كان أمراؤهم أو قادتهم من الأساقفة: ستيفن أوف متز، وهنري أوف تول، ومن الكونتات: رينالد أوف موزون وهيو أوف فودمونت Vaudemont ومن ايطاليا أماديوس أوف تورين مع أخيه وليم مركيز مونترفرات، وأعمالهما وعدد كبير آخر.....

(٤٥) وبعد بانونيا جرى اجتياز بلغاريا لكن على حساب الكثير من المتاعب ومصاعب الطريق، وبعد عبور تراقيا العليا تمّ تسلق جبل هبروس، ثم كان أن سرنا لعدة أيام ونحن نشعر بكثير من السرور في قلوبنا في مناطق خصبة في تراقيا الدنيا، وذلك في طريقنا نحو المدينة الملكية [القسطنطينية]، وفي اليوم السابع قبل الثالث عشر من أيلول، أي في اليوم [٧-أيلول] الذي تقدم على الاحتفال بميلاد مريم المباركة وصلنا إلى أحد الوديان على مقربة من بلدة تدعى شيرفاخ Chere-vach [كاتالكا إلى الغرب من القسطنطينية]، وكان مكاناً جذاباً بسبب حقوله الخضراء ولتميزه بمجرى نهر صغير يمر في وسطه، ولقد استولى علينا سحر المكان فقررنا نصب خيمتنا هناك والاستراحة في ذلك المكان ذلك اليوم، بهدف الاحتفال بسرور كبير وفرح بيوم ميلاد أم الرب، العذراء دوما، وفقط نصب الدوق فردريك ومعه حاشيته وكذلك عمه ولف — لأن عساكر اللورين لم تكن قد التحقت بنا بعد — معسكراً على مقربة من طرف أحد الجبال المواجه لنا، وذلك ليس بعيداً عن البروبنطش الذي يدعى الآن باسم ذراع القديس جورج، فهناك على شاطئه بلدتان صغيرتان هما: سلمبريا وأثيرا، فمنهما كنا نتوقع الحصول

على فرص للتجارة.

وقد عرف هذا البحر مرة باسم الهلسبونت، من خلال القصة المعروفة كثيراً حول فريكسوس وهيللي(*)، أو باسم البروبنطش (أي مطلع بنطش) لأنه يندفع نحو الأمام من البنطش بقوة نهريْن عظيمين هما الدون والدانوب يتدفقان كما يقولون مثل سيل لطيف، ويصبان في البحر الأدرياتيكي أو البحر الطروادي قرب طروادة القديمة(**). وأعترف أننا لم نحصل خلال حملتنا على معسكر أجمل، ولم يكن معسكرنا قط مثل هذا (بحسب ما يمكن للمرء أن يحكم من طريقة التعبير) مغطى باطار أوسع.

لكن حدث عند الصباح أن ظهرت غيمة صغيرة أخذت تنزل مطراً لطيفاً، وفجأة تغيرت الأحوال وقامت زوبعة تلاها ريح شديد اقتلع الخيم ومزقها، ودفعها بعنف نحو الأرض، وقد بعثنا ذلك من فرشنا التي أويْنَا إليها متأخرين، وقامت زوبعة ملأت الجو من حولنا، لأن النهر الصغير ازداد حجمه كثيراً — لعل ذلك كان بسبب تدفق مياه البحر المجاورة، أو نتيجة للأمطار المتساقطة، أو أن تساقط الأمطار بهذه الغزارة كان انتقاماً من قبل الرب في علاه، فهذا كله غير مؤكد — ونتيجة لازدياد الماء فيه فقد طافت زيادة عن عادتها إلى حد أنها غطت جميع البقعة، ما الذي كان من الممكن لنا فعله؟ فقد عددنا هذا عقوبة ربانية، وليس كارثة طبيعية، ومع ذلك امتلأنا جزعاً، ومهما يكن الحال أسرعنا نحو خيولنا القوية، وحاول كل منا عبور النهر بأفضل طريقة ممكنة له، وكان بإمكانك أن تشهد بعضنا يسبح، وبعض تمسك بظهور الخيل، وربط بعضهم أنفسهم بلا حياء بحبال بغية النجاة من الخطر، واندفع

(*) — هرب فريكسوس وأخته هيللي عبر المضائق على ظهر كبش صوفه ذهبي، غير أن هيللي

وقعت وغرقت.

(**) — خطأ — يصبان في بحرايجه.

بعضهم بشكل فوضوي إلى داخل النهر وأخذوا يغطسون لأنهم بدون انتباه تمازجوا واختلطوا، وكان هناك أعداداً كبيرة اعتقدت أن بإمكانها السير والعبور فجرفها بعيداً اندفاع النهر، فأصيبت بجراح بسبب الصخور، وغرقت بقوة تيار الدوامات، ففقدت حياتها في النهر، وقام بعض الذين لا يعرفون السباحة بالامساك بهؤلاء الذين كانوا يسبحون، وكان هدفهم النجاة غير أنهم سببوا الانهاك لهم، ولذلك أعيقوا، حتى توقفت أذرعهم عن الحركة فاستلقوا على ظهورهم، وغطسوا جميعاً وغرقوا.

واستطاع بعضنا الآن أن يحملوا أنفسهم إلى خيام الدوق فردريك التي بقيت لوحدها دون أن تصاب بأذى من هذا الفيضان المدمر، واستمعنا هناك إلى قداس مهيب وغنينا «دعونا نبتهج» ولكن بدون بهجة أو سرور لشعورنا بكثير من المرارة في القلب، ولهذا سمعنا أنين وبكاء رجالنا، وتمكن أخيراً بعضهم من جواز هذا الرعب بوساطة الكثير من الجهد والخوف، وقام بعضهم الآخرون في حالة من اليأس فربطوا معاً عدة عربات مع تجهيزات أخرى مما أمكن تأمينه، ووضعوا هذه المواد لتشكيل حاجزاً ضد الماء المندفع منتظرين توقف الفيضان.

لكن كم كان عظيماً ما خسره جيشنا هناك في الرجال والبضائع والعتاد الضروري لمثل هذه الرحلة الطويلة، لأحتاج أن أذكره، ففي اليوم التالي عندما تناقصت المياه وظهر وجه الأرض، كنا جميعاً مبعثرين هنا وهناك، ويمكنك حين ترانا أن ترى صورة مخزنة لمعسكرنا على عكس الصورة المبهجة التي يمكنك رؤيتها في اليوم المتقدم، ولذلك ليس — كما يبدو — خطأ القول كم إن القوة الربانية أهم من النور، وكيف أن السعادة الانسانية غير مستقرة، وتزول بسرعة. لكن يكفي هذا.....

٦٢ (٥٨) وبينما كانت هذه المسائل وقضايا أخرى من هذا النوع

تحدث في فرنسا، غطى جيشنا وجه البحر، وتوزع مستخدماً مختلف الوسائل والجهود من الأبحار بالسفن أو طرائق أخرى في أماكن متعددة بغية الوصول إلى اليابسة في أسرع وقت ممكن، لأن لويس ملك الفرنجة رسا في حوالي منتصف أيام الصيام في مكان يدعى ميناء القديس سمعان (السويدية) على مقربة من أنطاكية، وهي البلاد التي كان أميرها عم زوجته(*)، ورست مجموعة أخرى من قواتنا في بطوليس التي تدعى أيضاً باسم عكا، ومجموعة في صور، وأخرى في الصرند فيما بين صيدا وصور، والصرند هي ساربتا Sarepta بلدة صيدونياس، ولم يأت رسوهم خلواً من الخوف من تحطم بعض السفن، وبالفعل عانى بعضهم من تحطم سفنهم فكان أن ابتلع اليم بعضهم ونجا بعضهم الآخر وهم نصف عراة.

ودخل الذين وصلوا إلى الشاطئ مبكرين إلى المدينة المقدسة في حوالي أحد سعف النخيل، واحتفلوا هناك بأسبوع آلام الرب والقيامة المقدسة، بكثير من مشاعر التقوى في القلب، وداروا حول مختلف هذه الأماكن التي وقعت فيها هذه الأحداث ولسوها ورأوها رأي العين كما يقول الناس.

ورسا كونراد أمير الرومان في عكا في أسبوع الفصح، وكان بصحبته الأمراء:

أورتليب Ortlieb أسقف بازل وأرنولد، مستشاره، وفردريك دوق سوابيا، وهنري دوق بافاريا، والدوق ولف مع عدد آخر من الكونتات والأعيان والنبلاء، وبعد مضي عدة أيام توجه إلى القدس وسط احتفال

(*) - كان ريموند أوف بواتيه صاحب أنطاكية، أصغر أولاد وليم التاسع دوق أكويتين، وكانت زوجة لويس هي إليانور ابنة وليم العاشر دوق أكويتين.

عظيم واحتراف به، قام به رجال الدين والشعب، حيث استقبل بتشريف كبير، وتوفي هناك في تلك الآونة فردريك [أوف بوغن] الذي كان من أتباع الملك، وكان محامياً شهيراً عن كنيسة ريجنسبيرغ، وحمل جثمانه إلى المدينة المقدسة، ودفن في مقبرة فرسان الداوية، ليس بعيداً عن معبد الرب القديم.

وبقي الملك هناك لبضعة أيام، حيث أقام في قصر الداوية، وهو المكان الذي كان فيما مضى البيت الملكي، الذي هو أيضاً هيكل سليمان، فهناك بني، وبعدما زار الأماكن المقدسة في كل مكان عاد إلى عكا من خلال السامرة وطبرية، وعندما وصل الفرسان أقنعهم جميعاً بالأعطيات المالية بالبقاء، ذلك أنه اتفق مع ملك تلك البلاد والبطريك وفرسان الداوية على أن يتولى قيادة جيش إلى سورية في آب المقبل للاستيلاء على دمشق، ولهذا شرع في حشد ماتمكن من القوات بوساطة انفاق المال بسخاء.

٦٣- وتبع الملك لويس الفرنسي المنحى نفسه أيضاً، وذلك بقدر ما أوتي من قوة، فبعد عودته من أنطاكية مكث في صور، وإثر هذا التقى الملكان في شهر حزيران، في حوالي موعد عيد ميلاد يوحنا المعمدان [٢٤ حزيران ١١٤٨] في مكان يدعى بالما (أخذاً اسمه من شجرة النخيل) فيما بين صور وعكا، لوضع الخطط فيما يتعلق بالوقت والمكان، والموعد الذي ينبغي فيه حشد الجيش، وعلى كل حال، ومهما يكن من أمر، لم يتم ابتلاع الإباء الملكي وايداعه جانباً دونها مشاق ومتاعب عظيمة، وبما أن مانتج وماحدث أثناء الحملة إلى دمشق قد تمت المعاناة منه لذلك ينبغي حكايته في مكان آخر، وربما من قبل آخرين.

١٥٩١٦٤ وبعد إكمال هذه الحملة، أخذ الأمراء يعدون خططهم للعودة إلى الوطن:

الملك الروماني من خلال بلاد الاغريق [بيزنطة]، لكن الآخر عبر طريق كالبريا وأبوليا، وبناءً عليه أقلع كونراد أمير الرومان من عكا، وبعدما عبر البحر إلتقى بأخيه وصديقه مانويل، أمير المدينة الملكية في منطقة أخيا أوئيسلي، وقد مضى لرؤيته وكان مرهقاً بسبب طول الرحلة، وضعيفاً نتيجة لمشاقها، كما وكان يعاني من إعياء عظيم، ولقد ارتاح لديه لبعض الوقت(*)، وأعدّ هناك العدة للعودة، وأرسل أمامه ابن أخيه فردريك ليبحث، أو بالحري ليتمن أوضاع الامبراطورية، وأخذ فردريك الطريق خلال بلغاريا وبانونيا، وقد وصل بلاده في شهر شباط، وباشر ممارسة أعماله بمثابة قاض جيد، فلصالح السلام قام بشنق واحد من وزرائه، وبناءً عليه قام عمه الملك بعد انقضاء عدد من الأيام استراح فيها في بلاد الاغريق بالوصول إلى داخل مملكته إلى يولا، وهي مدينة في استريا، [النمسا] وذلك بعد ابحاره عبر بحر ايليريا ودالماشيا، وقد جلب معه أسقف بازل المتقدم الذكر، والمستشار أرنولد مع أخيه هنري دوق البافاريين، لأن الدوق ولف عاد عبر طريق كالبريا وأبوليا، وفي أبوليا اتخذ كونراد لنفسه مطية امتطأها ورحل وهو على متنها خلال أكويليا Aquileia وقد احتفل بأحد العنصرة في يوفافيا التي تدعى الآن سالسبورغ، والمعروفة بأنها مقرّ مطرانية بافاريا، وكان قد مضى عامان على حضوره الاحتفال بهذا العيد نفسه في منطقة بانونيا، وأقام بعد هذا حفلة غداء في ريجنسبيرغ، حضره حشد كبير من الأمراء.

(*)- رافق كونراد مانويل فذهب إلى القسطنطينية حيث مكث حتى ربيع ١١٤٩، وخلال هذه المدة عقد الملكان تحالفاً ضد روجر صاحب صقلية.

المحتوى

الموضوع:	رقم الصفحة:
توطئة	٣
مدخل (دراسة ليوحنا كيناموس)	٩
الكتاب الأول من التواريخ	٢٥
وصول يوحنا كومينوس إلى الحكم وحروبه ضد الترك	٢٦
حرب يوحنا ضد البشناق	٢٩
حرب بين الهنغار والرومان	٣٠
حروب الامبراطور في آسيا الصغرى ضد الترك	٣٣
حروب الامبراطور ضد أرمن كليكية	٣٥
أخبار عن أنطاكية والقدس	٣٦
حصار الامبراطور جون لشيزر	٣٨
مشاكل الامبراطور جون مع أنطاكية وحكايات عن مانويل	٤١
وفاة الامبراطور جون	٤٢
الكتاب الثاني من تاريخ الرومان	٤٩
مشاكل مع أنطاكية	٤٩
مشاكل الوراثة بعد وفاة جون	٥٠
حملة ضد أنطاكية	٥٢
زواج الامبراطور مانويل	٥٤

وفاة أخت الامبراطور	٥٥
حملة ضد الترك	٥٦
مشاكل لاهوتية في الامبراطورية	٧٧
مشاكل مع الترك ثانية	٧٩
بداية تحرك غربي صليبي جديد (الحملة الثانية)	٨٠
مراسلات كونراد الثالث ومانويل	٨٧
مقاومة الحملة الثانية من قبل الترك	٩١
اجتماع مانويل بكونراد الثالث في طريق عودة الأخير	٩٦
وفاة كونراد الثالث ووصول فردريك بربروسا إلى العرش	٩٧
الكتاب الثالث	١٠١
مقدمات الحروب الصقلية	١٠١
حملات ضد الكومان والصرب والهنغار	١٠٤
الحروب الصقلية البيزنطية بعد روجر، والحملة البيزنطية الصليبية ضد مصر	١٢٥
مصالحة مع الهنغار ثم عصيانهم	١٢٦
حملة ضد أرمن كليكية	١٢٨
قتل ريموند أمير أنطاكية على أيدي الحلبيين	١٢٨
مؤامرات ضد الامبراطور مانويل	١٣١
الكتاب الرابع	١٤١

مفاوضات بين فردريك بربروسا وبيزنطة	١٤١
مقدمات الحروب الايطالية ثم وقائعها	١٤٢
مشاكل لاهوتية في بيزنطة	١٧٦
توجه الامبراطور مانويل نحو آسيا الصغرى	١٧٧
حملة أرناط ضد قبرص	١٧٨
حروب الامبراطور ضد الترك والأرمن	١٧٨
الكتاب الخامس	١٩٩
وفاة ايرين زوجة الامبراطور	١٩٩
عودة إلى مشاكل هنغاريا	١٩٩
زيارة قلج أرسلان الثاني إلى القسطنطينية	٢٠١
الزواج الثاني لمانويل	٢٠٣
عودة إلى مشاكل هنغاريا	٢٠٥
أسر نور الدين لعدد من قادة الفرنجة	٢٠٨
تفجر أوضاع هنغاريا مجدداً	٢٠٩
حملة كلامية ضد البابوية والامبراطورية الغربية	٢١٣
عودة إلى حرب الهنغار	٢١٤
حملة بيزنطية ضد نور الدين	٢٢٠
صراع ضد فردريك بربروسا	٢٢٠

محاولات للتحالف مع البندقية	٢٢١
فرار أندرونيكوس من السجن	٢٢٤
مشاكل مع روسيا وهنغاريا	٢٢٦
الكتاب السادس	٢٤١
تجدد المشاكل مع أندرونيكوس	٢٤١
بعض المشاكل اللاهوتية	٢٤٢
تحرك مشاكل الهنغار مجدداً	٢٤٧
إصابة مانويل بجراح	٢٥٢
مؤامرة ضد مانويل	٢٥٤
عودة إلى مشاكل الهنغار وحملة ضدهم	٢٥٨
إعادة ترميم أسوار القسطنطينية وأقنية المياه حولها	٢٦١
تنظيمات إدارية في بيزنطة	٢٦٣
نقل حجر مقدس من أفسوس إلى القسطنطينية	٢٦٤
حملة ضد مصر بالتعاون مع الفرنجة	٢٦٤
تدهور العلاقات مع البنادقة	٢٦٦
العلاقات مع أرمن كليكية	٢٧١
مشاكل الصرب والهنغار	٢٧٢
حصار الألمان والبنادقة لمدينة أنكونا	٢٧٣

٣٦٧	
٢٧٩	الكتاب السابع
٢٧٩	تفجر العلاقات مع قلع أرسلان
٢٨١	إعادة بناء مدينة دوريليون
٢٨٦	هزيمة مانويل وسحق جيشه
٢٨٧	الملحق الأول
٢٨٩	الحواشي والتعليقات
٣٢٥	ماورد لدى أوتو أسقف فريزنغ عن الحروب الصليبية
٣٢٧	المدينتان — الكتاب السابع
٣٢٧	الدعوة إلى الحروب الصليبية
٣٢٩	حصار نيقية
٣٢٩	حصار أنطاكية والاتصالات الفاطمية الفرنجية
٣٣٠	توجه وفد فرنجي إلى القاهرة ثم حضوره حملة انتزاع القدس من الأراقة
٣٣١	حصار الفرنجة القدس والاستيلاء عليها
٣٣٢	معركة عسقلان
٣٣٣	استيلاء أوربان الثاني على روما ثم سفره إلى صقلية
٣٣٣	وفاة غودفري
٣٣٤	تقاطر الأوربيون على القدس

صراعات على السلطة في ألمانيا	٣٣٥
حصار الملك بلدوين لعسقلان	٣٣٧
حملة الامبراطور جون ضد أنطاكية	٣٣٨
وفاة الامبراطور جون و وفاة فولك ملك القدس	٣٣٨
تحرير الرها من قبل زنكي	٣٣٩
وفد ديني أرمني في روما	٣٣٩
ظهور حكاية بريستر جون	٣٤٢
أعمال فردريك بربروسا — الكتاب الأول	٣٤٥
الدعوة إلى الحملة الصليبية الثانية	٣٤٥
رسالة البابا يوجين بالدعوة إلى الحملة الثانية	٣٤٦
تطوع أعيان ألمانيا للمشاركة بالحملة الثانية	٣٥٢
رسالة راعي دير كليرفو إلى المناطق الشرقية من مملكة الفرنجة	٣٥٣
تحرك القوات الألمانية بقيادة الملك كونراد ومن ورائه الملك الفرنسي	٣٥٦
غرق المعسكر الألماني قرب القسطنطينية	٣٥٧
وصول كونراد إلى عكا	٣٥٩
وصول الملك الفرنسي إلى صور	٣٦١
الحملة ضد دمشق واخفاقها	٣٦٠
عودة كونراد ولقائه بمانويل	٣٦١